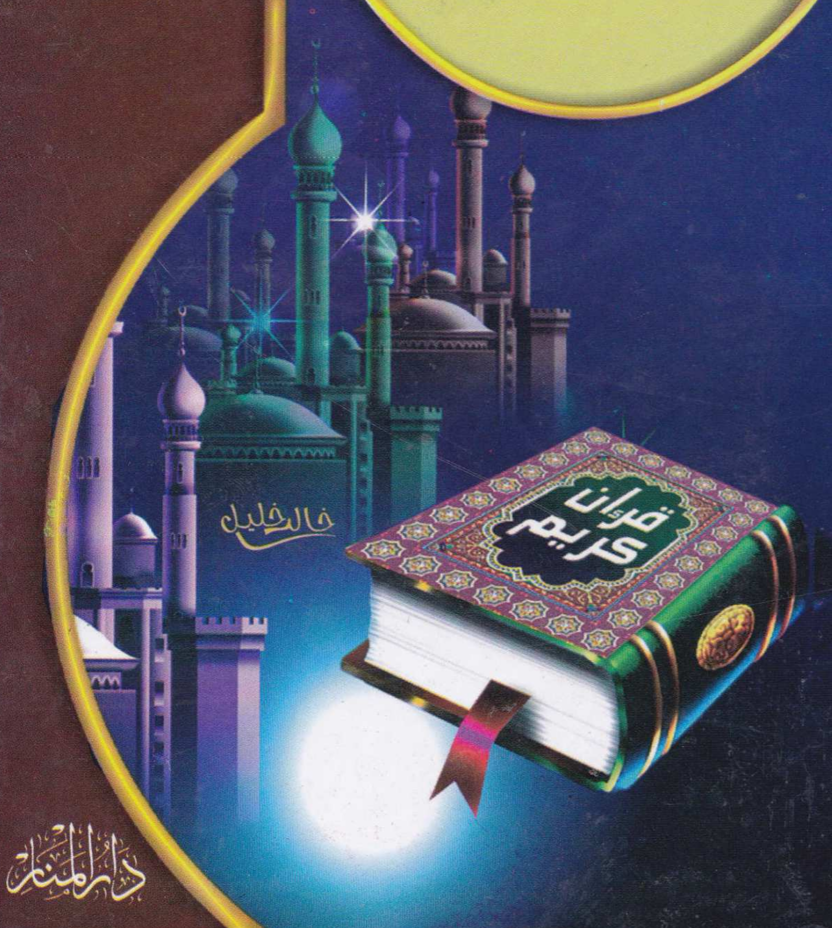


قصص القرآن

من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل

الدكتور/ محمد بكر إسماعيل

قصة آدم عليه السلام
قصة إدريس عليه السلام
قصة نوح عليه السلام
قصة هود عليه السلام
قصة صالح عليه السلام
قصة إبراهيم عليه السلام
قصة لوط عليه السلام
قصة إسحاق عليه السلام
قصة يعقوب عليه السلام
قصة يوسف عليه السلام
قصة شعيب عليه السلام
قصة موسى عليه السلام
قصة سليمان عليه السلام
قصة لقمان عليه السلام
قصة أيوب عليه السلام
قصة أصحاب الكهف



دار المنار

قَصَصُ القُرْآنْ

مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ إلى أصحَاب الفيل

أ. د / محمّد بَكْر إسْمَاعيل

أستاذ التفسير وعلوم القرآن - جامعة الأزهر

دار المنــار

للطبع والنشر والتوزيع

٩ شارع الباب الاخضر - ميدان الحسين

ص ب ٦١ هليوبلس ت : ٥٩١٥٠٨٥

الطبعة الثانية

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَــدِّمَة

كتبت فى الأمثال القرآنيـــة كتابًا بينت فيه مفهوم المثل فى القرآن الكريم وأقسامه ، وعناصره ، وخصائصه ، وأغراضه الخاصة والعامة ، وتتبعت فيه الأمثال مثلاً بعد مثل ، أجلى ما فيه من الحقائق العلمية والدقائق الكونية واللطائف البيانية ، وغير ذلك من المقاصد الشرعية ، ثم بدا لى أن أكتب كتابًا آخر فى قصص القرآن الكريم ؛ لأن القصة القرآنية والمثل القرآنى صنوان من حيث الكشف والبيان عن مجريات الأمور فى هذه الحياة وسيرها فى وجهات مختلفة ، وطرق متباينة ترد فى جملتها إلى مادتين هما الخير والشر .

فالمثل القرآنى - كما قلنا فى كتاب الأمثال - : أسلوب بيانى بليغ يعبر عن خلجات النفس ، وكوامن الحس ، ويبرز المعقول فى صورة محسة ، ويكشف عن الحقائق التى يدق فهمها ، ويعرض الغائب فى معرض الحاضر ، وهو على إيجازه يحمل من المعانى الرائعة ما لا تسعه المجلدات الضخام ، ويحمل فى طياته من المرامى والمقاصد ما يجعله دستورًا للحياة ، يحتكم الناس إليه ، ويحتجون به ، ويسيرون على نهجه وهداه .

والقصص القرآنى - أيضًا - أسلوب حكيم معجز يشبه الأمثال فيما ذكرناه . إلاَّ أن القصص مرآة تعكس لأهل كل عصر ما وقع فى العصور الخالية من صراع بين الخير والشر . فيرى فيها كل إنسان ذاته من خلال تلك الأنباء التى وردت فى هذا الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،ومن خلال هذه الرؤية يتمكن الإنسان من أن يحكم لنفسه أو على نفسه بأنه من أهل الخير أو من أهل الشر وفق المعايير التى يحملها القصص فى طياته ، وعلى ضوء القيم التى يدعو إليها بطريق مباشر تارة ، وبطريق غير مباشر تارة أخرى .

فالقصص القرآنى منهج تربوى يقوم على أسس عقدية وأخلاقية ، لا يختلف عليها أولوا الألباب وأهل النظر السليم فى ظواهر الأمور وبواطنها .

هذا المنهج مستمد من واقع الإنسانية فى كل زمان ومكان ، يلبى رغباتها على كثرتها وتشعبها ، ويبت فى جميع قضاياها العامة والخاصة ، ويستجيب لغرائزها الكامنة بالقدر الذى يشبعها ولا يوجعها ، وبالحد الذى يسمو بها ولا يحط من شأنها .

« ولكل قصة من قصص القرآن طابع يميزها ، ومحور تدور فى فلكه ، ومقاصد تتجه إلى إبرازها وتحقيقها وإن كان موضوعها واحداً فى الجملة وهو هداية الإنسان إلى ما فيه صلاح أمره فى الدنيا والأخرة » [1] .

(أ) فقصة آدم عليه السلام - مثلاً - ترينا بوضوح كيف كرم الله الإنسان على غيره من المخلوقات حتى الملائكة ، وزوده بالعقل والعلم ، وأمده بأسباب القوة المادية والمعنوية التى تعينه على تأدية وظيفته التى خلقه الله من أجلها وهى تتمثل فى أمرين :

أحدهما : الإخلاص فى توحيده وطاعته .

الثانى : تعمير الأرض وإصلاحها .

وأبرز - جل شأنه - فى هذه القصة طبيعة هذا الإنسان وكشف عن أغوار نفسه، وكوامن حسه ، ونوازع الخير والشر فيه ، وبين فيها ما يصلح أمره ويقوم معوجه . وذلك يتمثل فى مخالفة الشيطان واتخاذه عدواً له على مر الزمان ، وقهر النفس الأمارة بالسوء وكبح جماح الهوى ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة فى الآخرة .

(ب) وقصة ولدى آدم تعد تعبيراً صادقًا عن الوجهة التى يوليها كل من فسدت فطرته ، وضعفت إرادته ، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه فاستخف بكل القيم الدينية والمبادئ الخلقية ، وارتكب فى حق نفسه وحق البشرية أعظم جرم أنكرته الأديان السماوية ، والطباع السوية .

وهى تعبير صادق أيضًا عن كل وجهة يوليها من سلمت فطرته ، وقويت إرادته، وعلا بإنسانيته ، وسما بروحه عن تراب هذه الأرض وما اختلط به من ضباب ودخان ، حيث يرى وجه الحق سافراً مشرقًا ، فيأنس به ويحيا معه .

---

(١) انظر كتابى « من لطائف البيان فى سورة يوسف عليه السلام » .

(جـ) وقصة نوح عليه السلام تعبر عن واقع الإنسان المرّ حين يستعصى على النصح والإرشاد فلا يستجيب للذى خلقه فسواه ، ولا يوقر من دعاه إلى مولاه ، فقد لبث فيهم عمراً طويلاً قارب الألف عام ، فما آمن معه إلا قليل ، فدارت عليهم الدائرة فأغرقهم الله أجمعين وجعلهم سلفًا ومثلاً للآخرين .

وسوف نرى - من خلال هذا الكتاب - منهج القرآن الكريم فى سرد أحداث هذا القصص ، وتعليقه عليها بما يفصح عن مواطن العبرة والعظة فيها .

وقد حاولت جهدى أن يكون أسلوبى فى هذا الكتاب سهلاً جزلاً رائقًا ، مصيبًا وجه الحق من غير تكلف ولا تقعر، ولا اعتساف ولا إسفاف ، معتمدًا فيما أذكر على القرآن الكريم والسنة المطهرة فقط ، ضاربًا صفحًا عن الإسرائيليات وأقوال القصاصين التى ليس لها سند صحيح ، ملتزمًا فى العرض طريقة وسطًا بين الإيجاز والإطناب .

وقد عقدت العزم - أيضًا - على أن أكشف للقارئ الكريم عن مواطن العبرة والعظة فى القصص القرآنى كله - بقدر الطاقة - مع التنبيه على بعض اللطائف البيانية التى يكون لها وقع فى النفس وتأثير فى الوجدان .

وقد بدأت هذا الكتاب بعد التمهيد بقصة آدم عليه السلام ، وانتهيت بذكر قصة أصحاب الفيل .

أما ما ورد فى القرآن من الأخبار على شاكلة الأسلوب القصصى فى العصر النبوى فإنى سأفرد لها بعون الله كتابًا آخر بعنوان : « تأملات فى السيرة النبوية » .

وأما الأمور الغيبية التى أخبرنا القرآن أنها ستحدث تباعًا بعد عصر النبى ﷺ إلى يوم القيامة - فإنى سأفرد لها أيضًا كتابًا آخر إن شاء الله تعالى أسميه : « علامات الساعة على ضوء ما جاء فى الكتاب والسنة » .

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يجدر بنا قبل أن نخوض فى بحار القصص القرآنى - على هدى من الله ونور - أن نتكلم فى عجالة عن ثلاثة أمور :

الأمر الأول : مفهوم القصص القرآنى من منظور إسلامى خالص بقطع النظر عن مفهومه عند الأدباء والمؤرخين وغيرهم ، فهذا له موضع آخر ؛ لأن هذا الكتاب لم يكتب للمتخصصين فحسب ولكنه كتب للدارسين جميعًا على اختلاف درجاتهم فى الثقافة والفهم .

والأمر الثانى : خصائص القصص القرآنى وسماته البلاغية بوجه عام من غير خوض فى التفاصيل ، ليكون ما نذكره هنا بمنزلة القواعد الكلية التى يستعين بها الدارس فى فهم هذا الفن المعجز فى مبانيه ومعانيه ومراميه .

والأمر الثالث : مقاصد القصص القرآنى ، ومواطن العبرة فيه بإيجاز وجيز ، ليكون بمثابة فتح باب للتأمل والنظر فى أحسن القصص على أسس سليمة ومنهج قويم .

* *

١ - مفهوم القصص القرآنى :

(أ) من المعلوم فى كتب اللغة أن القصة مشتقة من القصِّ : وهو تتبع الأثر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فارتدَّا على آثارهما قَصَصًا ﴾ [(١)] ، ﴿ وقالت لأخته قُصِّيـه ﴾[(٢)] .

---

(١) سورة الكهف آية : ٦٤ . (٢) سورة القصص آية : ١١ .

فسمى الخبر المؤلف من حوادث مترابطة يتبع بعضها بعضًا قصة ؛ لأن القصاص يتتبع الأحداث فيسردها حدثًا بعد حدثٍ حتى يصل بالقصة إلى نهايتها ·

(ب) والقصة فى القرآن تتتبع أحداثًا ماضية وتعرض منها ما يفيد عرضه فى مجال الدعوة إلى التوحيد الخالص والخلق الفاضل ·

ومن هنا كانت تسمية الأخبار التى جاء بها القرآن قصصًا مما يدخل فى المعنى العام لكلمة خبر أو نبأ ، وقد استعمل القرآن الكريم الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضى ، وإن كان قد فرق بينهما فى المجال الذى استعملا فيه جريًا على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز ، فاستعمل النبأ والأنباء فى الإخبار عن الأحداث البعيدة زمانًا أو مكانًا ، على حين أنه استعمل الخبر والإخبار فى الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع ، أو التى لا تزال مشاهدها قائمة ماثلة للعيان ·

ففى النبأ والأنباء يقول الله تعالى فى أصحاب الكهف : ﴿ نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق ﴾ [1] · ويقول سبحانه فى شأن الأمم الماضية وما وقع فيها من مثلات : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصُّه عليك منها قائم وحصيد ﴾ (٢) ·

ويقول سبحانه فيما يقص على نبيه من قصص الأولين : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمُها أنت ولا قومُك من قبل هذا ﴾ [3] ·

وفى الخبر والأخبار يقول سبحانه مخاطبًا المؤمنين : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخبارَكم ﴾ [4] ، ويقول جل شأنه فيما يكون من أحداث يوم القيامة : ﴿ يومئذٍ تحدث أخبارَها بأن ربَّك أوحى لها · · · الآية ﴾ [5] ، والتحديث بالأخبار إنما يكون فى هذا الوقت الذى تقوم فيه الساعة ·

ففى مجال الأخبار الواقعة فى وقت نزوله والأخبار التى وقعت بعده يحدثنا عن الكثير منها ، فيكشف خباياها ويُبيِّن وجه الحق فيها ، كما نرى ذلك فى حديث الإفك ، وفى وقعة بدر وأحد وحنين، وفى بيعة الرضوان وصلح الحديبية ، وغير ذلك كثير مما جاء به القرآن فى أحوال وشئون ملابسة لنزوله ·

---

(١) سورة الكهف آية : ١٣ ·
(٢) سورة هود آية : ١٠٠ ·
(٣) سورة هود آية : ٤٩ ·
(٤) سورة محمد آية : ٣١ ·
(٥) سورة الزلزلة آية : ٤ - ٥ ·

كذلك أخبر سبحانه وتعالى عن الصراع الذى كان دائرًا بين الفرس والروم ، وأن معركة ستدور بعد بضع سنين سيكتب النصر فيها للروم على الفرس : ﴿ آلم غُلبت الرومُ فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سَيَغْلِبون فى بضعِ سنين ﴾ [1] . كما أخبر سبحانه عن فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجًا فى قوله : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتحُ ورأيتَ الناس يدخلونَ فى دين الله أفواجًا فسبحْ بحمد ربِّك واستغفرْه إنه كان توابًا ﴾ [2] ، وكما أخبر عن هزيمة المشركين يوم بدر بقوله سبحانه: ﴿ سيُهزمُ الجمعُ ويولُّونَ الدُّبر ﴾ [3] . وقد كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول : كنت أقرأ هذه الآية وأتساءل : أى جمع هذا الذى سيهزم ؟ حتى كان يوم بدر ورسول الله ﷺ يقرأ : ﴿ سيُهزمُ الجمعُ ويولُّونَ الدُّبرُ ﴾ ، فرأيت الجمع المهزوم .

ومن هذا يتبين لنا أن القرآن يستعمل النبأ فيما مضى ، والخبر فى الأحداث الحاضرة والمستقبلة - غالبًا .

والخلاصة : أن الاشتقاق اللغوى للقصة أو القصص - كما رأينا - هو كشف عن آثار ، وتنقيب عن أحداث نسيها الناس أو غفلوا عنها ، وغاية ما يراد بهذا الكشف هو إعادة عرضها من جديد لتذكير الناس بها ، وإلفاتهم إليها ليكون لهم منها عبرة وموعظة . هكذا كان القصص القرآنى ، ولهذا جاء .

* *

● **خصائصه وسماته :**

اعلم بادئ ذى بدء أنه لا مفاضلة ولا معادلة ولا موازنة بين قصص القرآن وغيره بأى حال وعلى أى اتجاه . فإذا قلنا - أو قال غيرنا - إن قصص القرآن يتميز عن قصص الناس بكذا وكذا فإنه من باب ذكر بعض وجوه الإعجاز للعظة والاعتبار بغض النظر عن المقارنة والمفاضلة والموازنة وما إلى ذلك ، فأين الثرى من الثريا !

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [4] .

وتتلخص خصائص القصص القرآنى وسماته البلاغية فيما يأتى :

---

(1) سورة الروم آية : ١ - ٤ .　　(2) سورة النور آية : ١ - ٣ .
(3) سورة القمر آية : ٤٥ .　　(4) سورة يوسف آية : ٤ .

(أ) قَصَص القرآن منتزع من الواقع المشاهد معبر عن أحداث وقعت بدقة فائقة وأمانة تامة ، ليس فيه شيء من الخيال بأى حال ، فقد بنيت القصة القرآنية بناءً محكمًا من لبنات الحقيقة المطلقة التى لا يطوف بحماها طائف من زيف أو تمويه ، أو خلط أو تشويه ، بخلاف القصص الذى يجرى على ألسنة الناس ، فإنه مشوب بذلك كله ، مع إفراط فى الخيال - غالبًا - ومبالغة فى أوصاف المشاهد وأقدار الأشخاص .

فليس قصص القرآن إذًا من قبيل الحكايات ؛ لأن الحكاية مأخوذة من المحاكاة، وهى المماثلة فى الأقوال والأفعال دون مجاوزة للتقليد والمحاكاة .

وليس قصص القرآن من قبيل الأساطير ، كلا ، فهو عنها بمعزل تام؛ لأن الأساطير من الأباطيل التى يحكيها المبطلون من نسج الخيال ليس فيها من الحق شيء يذكر ، وليس لها من باب الواقع مجال .

قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلمًا وزورًا . وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهى تُملى عليه بكرةً وأصيلاً . قل أنزله الذى يعلم السرَّ فى السموات والأرض إنه كان غفورًا رحيمًا ﴾[1] .

(ب) إن قصص القرآن الكريم قد جاء على وفق الحياة التى يحياها الناس ، ولم يخرج على مألوفها ، ولو جاء على غير هذا لما كان للناس التفات إليه ، ولا انتفاع به، فهو وإن يكن سماوىَّ المَطْلع فهو بشرىٌّ الصورة، إنسانى المنازع والعواطف، يتحدث عن الناس إلى الناس، ويأخذ من الحياة للحياة ، يقرأه الناس ويسمعونه، فكأنما يقرأون أطواء أنفسهم، ويسمعون همس ضمائرهم، ووسوسة خواطرهم ، ومن هنا فهم يعيشون فيه ، ويحيون معه ، وينتفعون به انتفاع الأرض ، يصوبها [2] الغيث فيقع منها مواقع مختلفة بين وديان وسهول ، وجبال وقيعان ، وأحراش وسهوب .

(جـ) ليس القصص القرآنى تأريخًا للبشرية على النمط الذى يسلكه علماء التاريخ والسير فى تتبع الأحداث وتسلسلها ، وتحليلها وتعليلها فى أزمانها وأماكنها المختلفة ، ولكنه قصص مختار مقتطع من التاريخ بالقدر الذى يخدم الدعوة إلى الله عز وجل ، ويفتح للناس أبوابًا واسعة للتأمل والنظر ، والعظة والاعتبار .

---

(١) سورة الفرقان آية : ٤ - ٦ .

(٢) يقال : صاب المطر الأرض : أمطرها وجادها . انظر المعجم الوسيط .

(د) والقدر الذى جاء به القرآن كافٍ فى توجيه النفوس إلى ما يصلح شأنها ويُقوِّم عوجها بأسلوب مقنع ومؤثر ، شأنه فى ذلك شأن القرآن كله ، فالنظم القرآنى معجز فى تعبيره ، دقيق فى تصويره رائع فى بيانه ، فكل حسن إلى حسنه باهت ، وكل جمال إلى جماله ماحل ، وكل جلال إلى جلاله ظل زائل .

﴿ قل لئن اجتمعت الانسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً ﴾ [1] .

(هـ) فى قصص القرآن توزيع عادل للمشاهد القصصية بين الحدث والشخصية بحسب متطلبات المقاصد السامية من عرض القصة فى موطنها المناسب لها بحيث تبدو الشخصية بارزة إذا كان فى بروزها عظة وعبرة ، وتتلاشى أمام الحدث عندما لا يكون للشخصية تأثير مباشر على السامع ، فالأشخاص فى القصص القرآنى لا يقصدون لذواتهم -- من حيث إنهم أشخاص تاريخيون يؤرخ لهم بإبراز معالمهم وتمجيد أعمالهم - ولكنهم يذكرون كنماذج بشرية فى مجال الحياة الخَيِّرة أو الشريرة ، فى صراعها مع الخير والشر ، وفى تجاوبها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار ، وكذلك الشأن فى الأحداث التى يعرضها القرآن فى قصصه إنها ليست إلا مَحاكَّ اختبار تظهر فيها معادن الرجال ، وتختبر بها مواطن القوة والضعف فيهم ، ومنازع الإحسان والسوء منهم .

بخلاف القصص البشرى فإنه تغلب عليه الصبغة التاريخية ، والاهتمام بإبراز معالم الشخصية على حساب الأحداث ، التى لو أبرزت بعناية واهتمام لكان للقصة طابع إنسانى تفيد منه البشرية فى معرفة كوامن الخير ونوازع الشر .

(و) عنصر الزمان وعنصر المكان لا يعد كل منهما من العناصر الأساسية فى القصة القرآنية ؛ لأن القصص القرآنى ليس من باب التاريخ - كما أشرنا - ولكنه عظات وعبر ونصح وتوجيه ، فلا يذكر فيه الزمان ولا المكان إلا إذا تعلق بذكرهما فائدة .

وذكر الأسماء فى القصص القرآنى أمر ثانوى أيضًا ، فكثير من الشخصيات التى تحدث القرآن عنها لم يذكر لنا أسماءهم كالخضر ومؤمن آل فرعون ، وفرعون موسى ، وعزيز مصر فى قصة يوسف ، والملك الذى أسلم ليوسف زمام الأمور فى مصر ، والذى حاج إبراهيم فى ربه ... الخ ؛ لأن ذكر هذه الأسماء ليس هو

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

المقصود بالذات ، ولكن المقصود هو ما وقع لهم أو ما جرى على أيديهم من الأحداث التى تخدم المقاصد والأهداف التى جاء القصص من أجلها ·

وقد ذكرت أسماء أصحاب الرسالات السماوية ؛ لأن الإيمان بهم واجب ، ولأن الرسول ﷺ قد أمر أن يقتدى بهم فى عباداتهم وعاداتهم ، وأن يسير على نهجهم فى الدعوة إلى الله عز وجل ·

(ز) ونرى أن القصة الواحدة تتكرر فى عدة مواضع بأساليب مختلفة لحكم بالغة وأهداف سامية توسع الباحثون فى دراستها ، وانتهوا - بقدر طاقتهم البشرية - إلى أن هذه الظاهرة لا تعد تكرارًا فى الحقيقة ولكـنها صور للمواقف والمشاهد المختلفة ، تختلف لتأتلف فتنتظم منها قصة بأكملها بعد أن وزعت جوانبها فى مواطن متعددة قد استدعتها لخدمة المقاصد العامة والخاصة التى سيأتى ذكرها ·

فما يبدو من أنه اختلاف بين المقولات فى الواقعة الواحدة أو الحدث الواحد ليس إلا تجميعًا لمتناثر الأقوال من هذه الواقعة ، أو ليس إلا التقاطًا لظاهر القول ، وما يكمن وراءه من خواطر وخلجات ، لا يستطيع أن يمسك بها إلا النظم القرآنى وحده على هذا الأسلوب من التكرار الذى جاء ·

فالتكرار الذى يحدث فى بعض مشاهد القصة القرآنية يؤدى وظيفة حيوية فى إبراز جوانب لا يمكن إبرازها على وجه واحد من وجوه النظم ، بل لابد أن تعاد العبارة مرة ومرة لكى تحمل فى كل مرة بعضًا من عناصر المشهد ، وإن كانت كل عبارة منها تعطى صورة مقاربة للمشهد كله ·

فالقرآن الكريم يعرض المشاهد بأبعادها وأعماقها ، وحركاتها وسكناتها ، ونطقها وصمتها ، ووسوسة خواطرها ، وهجسات نفوسها ، وخلجات قلوبها ، بحيث يستطيع القارئ أن يعايش القصة معايشة صادقة إن كان يحمل فى قلبه إيمانًا قويًا ، وعقلاً ذكيًا ، ونظرًا ثاقبًا ، حتى كأنه كان مع أشخاص هذه القصة يشاركهم آمالهم وآلامهم ، ويجاذبهم أقوالهم وأفعالهم ، ولو جمعت القصة كلها فى موطن واحد لفات الكثير والكثير من مواطن العبرة والعظة ، ولضاعت معالم الإعجاز البيانى ومناحيه المختلفة، ووجوهه التى لا تتألق إلا فى ظل هذا التكرار، ولأشبهت القصة القرآنية القصة التاريخية ، التى لا تعنى إلا بإبراز الشخصيات والحوادث من غير نظر

إلى الاتعاظ والاعتبار والتوجيه ، ولما وجدت الأحكام القرآنية والمناهج التربوية ما يبرزها فى صور تجسد المعانى وتحفر لها فى الأذهان مكانًا ·

وبالجملة : فإن تكرار الأحداث القصصية فى القصص القرآنى هو إعجاز من إعجاز القرآن الكريم ، تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها بحيث لا يرى لها وجه فى أية لغة وفى أية صورة من صور البيان يقارب هذا الوجه فى جلاله وروعته وسطوته[1] ·

(حـ) ويتميز قصص القرآن الكريم بتعبيره الفنى العجيب عن المواقف المختلفة بأساليب متنوعة ، تنسجم الانسجام كله مع تلك المواقف دون أن يؤثر ذلك على الإطار العام للقصة والنسق الفريد للنظم ، فأسلوب الرسل فى التخاطب ليس كأسلوب عامة الناس ، وأسلوب الملوك ليس كأسلوب السوقة ، وأسلوب الرجال ليس كأسلوب النساء ، وأسلوب المتكلم فى حالة الرضا ليس كأسلوبه فى حالة الغضب ·· إلى آخر ما هنالك من الأساليب القصصية التى تنتقل بك من مشهد إلى مشهد من غير أن تشعر بالنقلة أو تجد فجوة تقطع عليك حبال تفكيرك فيما سبق ذكره · فأنت ترى نفسك حين ينقلك أسلوب القصص القرآنى من مشهد إلى مشهد أو من حادثة إلى أخرى كأنك تتجول فى بستان واحد متشابك الأغصان متماسك الأفنان، كلما خطوت خطوة نظرت إلى ما يعجبك ويروقك فتقول فى نفسك : هذا المشهد أعجب من سابقه ثم تجد فى نهاية المطاف أن المشاهد كلها فى العجب سواء · ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ [2] ، ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيراً ﴾ [3] ، ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ [4] ·

ومهما استنبط الدارسون من آيات الجمال والجلال فى القصص القرآنى فلن ينتهوا إلا إلى القليل الذى لا يساوى قطرة فى بحر ·

---

(١) هناك قصص فى القرآن لم يتكرر كقصة يوسف عليه السلام ؛ لأنها قصة أُسرية تتحدث عن أسرة واحدة – كما ذكرت فى كتابى « من لطائف البيان فى سورة يوسف عليه السلام » ·

(٢) سورة هود آية : ٢ ·   (٣) سورة النساء آية : ٨٢ ·

(٤) سورة يوسف آية : ٤ ·

وسنرى فى خلال دراستنا لهذا القصص المبارك كثيراً من اللطائف البيانية ذات الأثر الفعال فى جمال التعبير ودقة التصوير وروعة البيان .

• مقاصده وتوجيهاته :

تحتل القصة مكانة رفيعة فى نفوس البشر على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم ، ولغاتهم وأعرافهم ، وذلك لما فيها من استهواء للنفوس ، ولما فى أسلوبها من مسايرة للفطرة يستوجب الولوع بها ، والحرص على تحصيلها ، والانتفاع بما فيها من مقاصد وتوجيهات وأمثال تبرز المعانى الدقيقة فى صور مُحسَّة منتزعة من الواقع أو من الخيال . فهى موجه قريب المنال سهل التأثير ، مع قوة فاعليته فى النفوس بما يحدثه من إثارة وتشويق .

ولا ينكر أحد أبدًا ما جاء به القصص القرآنى من توجيهات دينية لكل ما جاء به الإسلام من مبادئ وعقائد ، ولكل ما أنكره الإسلام من خلق وعادات وآراء زائفة وعقائد وعبادات باطلة ، نلمح هذا ونحسه أغراضًا وأهدافًا تأتى بين طيات هذا القصص وفى ثناياه .

ويجدر بنا أن نوجز هذه الأغراض السامية فى السطور التالية :

(أ) تثبيت العقائد الصحيحة ونفى الخرافات والأفكار القديمة ، إذ يبدو بكل وضوح فى القصص القرآنى أنه يتجه فى جملته إلى إرساء دعائم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وذلك بذكر أقوال المرسلين وأفعالهم ، وتصوير ما هم عليه من كمال فى الدين وسمو فى الخلق ونبل فى السلوك .

وهذا المقصد هو من أمهات المقاصد وأسماها يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٢) .

ولقد كان فى قصص القرآن دروس وعبر ، وآيات ونذر ، يهدى بها الله من

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٥ . (٢) سورة النحل آية : ٣ .

شاء من عباده ليقبلوا دعوة الله ، ويتحولوا عن الأوضاع الجاهلية فى ممارسة ما كان عليه الآباء من الشرك والوثنية وشئون الجاهلية ٠

والحق الذى لا مرية فيه أن دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانت واحدة فى مجموعها وفى أصلها وفى اتجاهها، يقرر ذلك قوله تعالى : ﴿ شَرَع لكم من الدين ما وصَّى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (١) ٠

(ب) وفى القصص القرآنى تثبيت لقلب النبى ﷺ ومواساة له وللمؤمنين معه ، وحث على مواصلة الدعوة إلى الله تعالى فى تؤدة وصبر وجلد ، ولذلك نرى القرآن الكريم يحض فى ثنايا القصص على التأسى بالأنبياء والمرسلين والاقتداء بهم فى سيرتهم مع أممهم حتى يتمكنوا من تبليغ الرسالة على أحسن الوجوه وأكملها ، قال تعالى : ﴿ وكلاًّ نقص عليك من أنباءِ الرسلِ ما نثبتُ به فؤادَك وجاءك فى هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين ﴾ (٢) ٠

وقال جل شأنه: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾(٣)

وقال جل وعلا : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرىً للعالمين ﴾ (٤) ٠

إلى غير ذلك من الآيات التى جاءت عقب قصص الأنبياء أو فى ثناياه ٠

وتجيء القصة القرآنية فتبرز قواعد التوحيد فى صور منتزعة من الواقع لا خيال فيها ولا تمويه ، فتمثل فى أذهان الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فيجدون فيها العبرة والعظة والسلوى ، فيزدادون تمسكًا بالعقيدة التى جاءت بها جميع الرسل وأجمعوا على اعتناقها ٠

(جـ) ولا يخفى ما فى القصص القرآنى من تأييد للنبى ﷺ فهو أُمِّىٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس إلى حَبرَ من أحبار اليهود ولا راهب من رهبان النصارى، ولا إلى معلم من هنا أو هناك ، ومع ذلك قد جاءهم بأنباء الرسل وأخبار الأمم الماضية بأسلوب مهذب مقنع فيه الصدق كله ، لا ينكر شيئًا منه ألا جاحد أو مكابر ٠

---

(١) سورة الشورى آية : ١٣ ٠ (٢) سورة هود آية : ١٢٠ ٠
(٣) سورة الأحقاف : ٣٥ ٠ (٤) سورة الأنعام آية : ٩٠ ٠

قال تعالى : ﴿ تلك من أنباءِ الغيب نُوحيها إليك ما كنتَ تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ [١] .

وقال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ [٢] .

وقال عز من قال : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمرَ وما كنت من الشاهدين ولكنَّا أنشأنا قرونًا فتطاول عليهم العُمُر . وما كنت ثاويًا فى أهل مدينَ تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين . وما كنتَ بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمةً من ربك لتُنْذر قومًا ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ [٣] .

(د) وفى قصص القرآن تقويم للأخلاق ، وتزكية للنفوس ، وتهذيب للطباع من خلال ما يبثه على مسامع الناس من المواعظ والعبر والمواقف الدالة بمضمونها على نوازع الخير والشر فى الإنسان ، والتنبيه على سبل اكتساب الخير وسبل السلامة من دوافع الشر .

فهو منهج تربوى حكيم ليس له نظير ؛ لأنه تعبير عن واقع الإنسانية كلها وتصوير صادق لغرائزها ومَلَكاتها ، ورغباتها ومقوماتها ، وأحوالها المختلفة ، وما يؤول إليه أمرها فى تقلباتها ، وقربها أو بعدها عن فطرتها .

وسنرى ذلك واضحًا جليًا فى كل قصة من قصصه .

فالقرآن كله كتاب هداية ومنهج حياة ، وفى قصصه عبرة لأولى الألباب وفيه بيان مشرق لكل ما يحتاج إليه الناس فى دنياهم ، وكشف عما يلقونه فى أخراهم بأسلوب يخلو من الغموض والالتباس ، قال تعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثًا يُفترى ولكن تصديقَ الذى بين يديه وتفصيلَ كل شىء وهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمِنون ﴾ [٤] .

(هـ) والخلاصة أن مقاصد القصص القرآنى وغاياته هى الدعوة إلى الحق ، والهداية إلى مواقع الخير ، وإقامة وجه الإنسانية على مسالك الحق والخير والميل بها عن مسارب الضلال والبوار ، فليس فى القصص القرآنى ما فى غيره من القصص

---

(١) سورة هود آية : ٤٩ . (٢) سورة يوسف آية : ١٠٢ .
(٣) سورة القصص آية : ٤٤ - ٤٦ . (٤) سورة يوسف آية : ١١١ .

من تلك المواقف والصور التى يزاد منها استثارة العواطف المريضة ، واسترضاء الميول المنحرفة فى الإنسان وتملقه بها ، واقتياده منها · وإنما القصص القرآنى حرب على هذه العواطف المريضة ، وتلك الميول المنحرفة ، يلقاها فى حزم وحسم ، وينزل أصحابها منازل البوار والهوان فى كل موقف يلقاها فيه ، ذلك لأنه كما وصفه الله سبحانه بقوله : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ [1] .

وما كان للحق أن يلبس الباطل أو يسلك مسالكه ·

* * *

(١) سورة آل عمران آية : ٦٢ ·

قصة آدم عليه السلام

كان الله ولا شيء معه فخلق الخلق وعرَّفهم بنفسه فعرفوه ، فلما عرفوه عبدوه وسبحوا بحمده ، وخضعوا لأمره ، طوعًا وكرهًا .

وكان فيمن خلق وبرأ آدم عليه السلام .

وقصة خلقه وما حدث منه ، وما حدث له ، وما أسند إليه ، وما أوتيه من عقل وعلم وفضل - قد جاء فى كتاب الله تعالى - مجملاً ومفصلاً - فى سورة البقرة وآل عمران ، والأعراف والحجر ، والإسراء والكهف ، وطه ،وص ،وغيرها .

وسنحاول أن نتحدث من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة عن قصته برمتها حسب طاقتنا وبقدر وسعنا والله المستعان .

• أطوار خلقه :

(أ) أخبرنا الله عز وجل فى كتابه العزيز أنه خلق آدم من تراب فقال جلّ وعلا فى سورة آل عمران :

﴿ إنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ من ترابٍ ثم قال له كُن فَيَكُون ﴾[1] .

أى إن شأن عيسى عليه السلام وصفته فى خلق الله إياه على غير مثال سبق كشأن آدم عليه السلام فى ذلك ، إلا أن آدم قد خلق من تراب ، أى من غير أم ولا أب ، فهو فى الإبداع أقوى وأعظم .

ثم كونه تكوينًا آخر ، ذكر أطواره جملة فى آيات أخر .

(ب) وأخبرنا - عز جاهه - أنه خلقه من طين فقال فى سورة السجدة :

﴿ الذى أحْسَنَ كُلَّ شىءٍ خَلَقَهُ وبدأَ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ ﴾ [2] .

وأخبرنا - سبحانه - فى سورة الحجر أنه قد خلقه من صلصال من حمأ مسنون، فقال :

﴿ ولقد خَلَقْنَا الإنسانَ من صَلْصَالٍ من حمإٍ مسنونٍ ﴾ [3] .

---

(١) سورة آل عمران آية : ٥٩ .　(٢) سورة السجدة آية : ٧ .

(٣) سورة الحجر آية : ٢٦ .

والصلصال : الطين اليابس ، والحمأ : الطين الأسود . والمسنون : هو المتغير بسبب التفاعل الكيميائى .

وقد شبه - سبحانه - صلصلة هذا الطين بصلصلة الفخار ، فقال : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ من صَلْصال كالفَخَّار ﴾ (١) .

وقد شبهت طينة آدم فى يبسها وصلصلتها بالفخار ؛« لأن الفخار - كما يقول الدكتور محمد وصفى - لا يصنع ولا يتكون إلا من طين غنى بالعناصر التى يتركب منها الإنسان ، وينشأ منها النبات » (٢) .

ومن هذه الآيات نعلم أن آدم عليه السلام قد مر فى خلقه بأطوار مختلفة ، كما تمر ذريته بأطوار مختلفة .

وعدد الأطوار التى مر بها آدم عليه السلام قبل نفخ الروح فيه خمسة على الجملة لا على التفصيل هى :

١ - طور التراب اليابس الذى لا حراك فيه ولا حياة .

٢ - طور الطين الذى لم تتفاعل عناصره بعد .

٣ - طور الطين المتماسك الذى أشار الله إليه فى قوله : ﴿ إنَّا خلقناهم من طينٍ لازبٍ ﴾ (٣) .

٤ - وما لبث هذا الطين - حتى اسود وتفاعلت عناصره - فكان حمأً مسنونًا .

٥ - طور الصلصال، فقد يبس هذا الطين - بعد أن تفاعلت عناصره - يبوسة تامة حتى صار له رنين كرنين الفخار .

وبين كل طور من هذه الأطوار أطوار لا يعلمها إلا الله .

ثم سواه الله ونفخ فيه من روحه ، أى من سره المكنون ، فصار إنسانًا سويًا مزودًا بالعقل والعلم ، وبكل المؤهلات التى تجعله قادرًا بإذنه - تعالى - على تأدية وظيفته، التى خلقه من أجلها .

وتسويته ونفخ الروح فيه طوران آخران فتكون أطوار خلقه سبعة .

وقصة خلق آدم هى قصة خلق البشرية كلها ؛ فهو مخلوق من طين ، وذريته

---

(١) سورة الرحمن آية : ١٤ .

(٢) انظر : كتاب « القرآن والطب » ص ٢٠ ، ٢١ . (٣) سورة الصافات آية : ١١ .

مخلوقون من طين أيضًا ، إذ إن النطفة التى خلقوا منها هى من الطين على الحقيقة ، فمن الطين كان النبات ، ومن النبات كان المنى ، ومن المنى كانت النطفة .

قال تعالى : ﴿ هو الذى خَلَقَكم من طينٍ ﴾ [1] .

أى ابتدأ خلقكم وخلق أبيكم من طين ، وقد عرف العلماء فى هذا العصر أن الطين يحمل عناصر كثيرة تبلغ فى جملتها ما يقرب من تسعين عنصراً ، يحمل النبات منها جملة ، فإذا أكله الإنسان تحولت بعض العناصر إلى منويات ، ومن هذه المنويات تتكون النطف ، فتكون هذه النطف حاملة لخلاصة صالحة من هذه العناصر ، يسميها الله عز وجل « سلالة » فى قوله جل شأنه : ﴿ ولقد خَلَقْنَا الإنسانَ من سُلالةٍ من طينٍ ﴾ [2] .

هذه السلالة هى عبارة عن تسعة عناصر رئيسية تتكون منها نحو ٩٢٪ من القشرة الأرضية وهى : الأوكسجين ، والسليكون ، والألمنيوم ، والحديد ، والجير ، والصوديوم ، والبوتاسيوم ، والمغنسيوم ، والهيدروجين [3] .

يقول الله عز وجل : ﴿ هل أتى على الإنسانِ حينٌ من الدَّهرِ لم يكن شيئًا مذكورًا ﴾ [4] .

والمعنى : قد أتى على آدم حين من الزمان لم يكن فيه شيئًا ذا بال ، فهل فى الآية بمعنى : قد ، عند كثير من المفسرين ، والأصح عندى أن الاستفهام على بابه وحقيقته ، وأنه يحمل سؤالاً موجها إلى الإنسان ليجيب عليه ، وليبحث عن حقيقته وكيف كان ؟ ثم كيف صار ؟ ثم إلى أين ينتهى به خط مسيرته ؟ .

فهذا السؤال من شأنه أن يستثير تفكير الإنسان وأن ينشط مداركه الخامدة ، وأن يفتح عينيه المغمضتين على هذا الوجود ، وعلى القدرة المسيرة له ، والقائمة على هذا النظام الممسك به .

ولو لبس الاستفهام صورة الخبر - كما يذهب إلى ذلك بعض المفسرين - لما كان له هذا الأثر فى تفكير الإنسان ، ولما أحدث فى نفسه تلك المشاعر التى يستثيرها هذا الاستفهام الطارق لها .

---

(١) سورة الأنعام آية : ٢ .   (٢) سورة المؤمنون آية : ١٢ .

(٣) انظر : « القرآن والطب » للدكتور محمد وصفى ص ١٨ .

(٤) سورة الإنسان آية : ١ .

والمراد بالإنسان فى الآية : آدم بالأصالة وذريته بالتبعية ·

وقد ذكر البقاعى فى كتابه « نظم الدرر » [1] تأويلاً أراه جديراً بالاعتبار ، حاصله وفحواه : هل مر على الإنسان - آدم وذريته - حين من الدهر طال أم قصر لم يكن فيه عند الله شيئًا يستحق الذكر ، كلا بل كان دائمًا موضع عنايته جل شأنه ، وما أغفله ، ولا غفل عنه ساعة من الزمان ، فكيف يعبد غيره وينسى نعمه ، ولا يقوم بواجب شكره ؟! ·

ولو أراد الإنسان أن يجيب على هذا السؤال العريض : كم مضى عليه من الزمن لم يكن فيه شيئًا مذكوراً ؟ لاقتضاه ذلك أن يرجع بعقله إلى الماضى البعيد قبل أن يكون آدم قد خرج من حيز العدم إلى حيز الوجود ، ليعرف - إن كان يستطيع أن يعرف - متى خلق ، وكم مضى قبل خلقه من الزمن ، وكيف خلق ، ومم خلق ، وفى أى كوكب خلق ، ولماذا خلق ؟ إلى غير ذلك مما يحتويه هذا السؤال الموجز البليغ المعجز ·

وفى هذه النظرة العميقة التى أثارها هذا السؤال يتسع مجال البحث ، وتتشعب مسالك الدرس ، حتى لتشمل علم الحياة ، وكيف بدأت جرثومة الحياة على هذه الأرض ، وكيف تطورت ، وكيف لبست صوراً وأشكالاً لا تنتهى عند حد ؟!!

إن ذلك يتطلب دراسة شاملة لأصل الحياة على هذه الأرض ، ثم لتاريخ الإنسان ، وخط مسيرته فى عالم الأحياء ، وهذا باب واسع من أبواب العلم والمعرفة ، لاتزال معارف الإنسانية كلها تقف على شاطئه ·

• خلافته وعلمه :

وقد أخبر الله ملائكته بخلق آدم قبل أن يخلقه بحين من الدهر لحكمة لا نعلمها على وجه اليقين ·

فقال جل شأنه : ﴿ وإذ قال ربُّك للملائكة إنِّى جاعلٌ فى الأرضِ خليفةً قالوا أتَجْعَلُ فيها من يُفسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ ونحن نُسَبِّحُ بحمدِك ونُقَدِّسُ لك قال إنى أعلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

والمتأمل فى هذه الآية يستطيع أن يتلمس طرفًا من الحكمة التى من أجلها قد عرض الله هذا الأمر على الملائكة قبل وقوعه ·

---

(١) حـ ٨ ص ٢٥٩ · ط دار الكتب العلمية · (٢) سورة البقرة آية : ٣٠ ·

ولعل الله عز وجل قد عرض هذا الأمر على الملائكة ليتهيأوا لاستقبال آدم عليه السلام ، وليعدوا أنفسهم لخدمته وخدمة ذريته على النحو الذى أراده الله لهم ، وليقوموا بتعظيمه عند تمام تسويته ونفخ الروح فيه ، كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿وإِذْ قالَ ربُّك للملائكة إنِّى خالقٌ بَشَرًا من صَلْصَالٍ من حمإٍ مسنونٍ . فإذا سَوَّيْتُهُ ونفختُ فيه من روحِى فقَعُوا له ساجِدِين ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ صريح فى أن هذا الكائن البشرى أرضى المولد والنشأة والموطن ، وأنه من طينة الأرض خلق ، وفى الأرض يتقلب ، وفى شئونها يتصرف .

والمراد بالخليفة: آدم وذريته ، يخلفون الله عز وجل فى تعمير الأرض وإصلاحها، وإبراز قدرة الخالق عز وجل فى الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل ، وكشف ما فى الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات ، والقيام بعبادته ، ولزوم طاعته فيما أمر به ونهى عنه .

وقد سمى الله آدم وذريته « خليفة » لأن بعضهم يخلف بعضًا على تعمير هذه الأرض وإصلاحها وإقامة حدود الله فيها ، وهو لفظ يطلق على المفرد والجمع .

وقد ورد مجموعًا فى مواضع من كتابه العزيز ، كقوله تعالى : ﴿ وهو الذى جَعَلكُم خلائفَ الأرضِ ﴾ (٢) . وكقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ ويكشِفُ السُّوءَ ويَجَعَلكُم خُلفاءَ الأرضِ ﴾ (٣) .

وقول الله تعالى للملائكة : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ يشعر بأن لهذا المخلوق شأنًا عظيمًا ، ودورًا كبيرًا فى هذا الكون الفسيح ، بل يشعر بأنه المخلوق الوحيد الذى خلق الله ما فى السماوات وما فى الأرض لأجله ، وأمده بالقوة التى تجعله قادرًا على تأدية وظيفته التى كلفه القيام بها ، فقد زوده بالعقل والعلم ، وجعل له إرادة واختيارًا ، وركب فيه من الغرائز ما يحمله على حفظ دينه ونفسه ونسله وعقله وعرضه وماله .

فهو مخلوق ضعيف أمام كثير من المخلوقات ، كما قال جل شأنه : ﴿ وخُلِقَ

(١) سرة الحجر آية : ٢٨ - ٢٩ . (٢) سورة الأنعام آية : ١٦٥ .
(٣) سورة النمل آية : ٦٢ .

الإنسانُ ضعيفًا ﴾ [1] ولكنه قوى بعقله وعلمه وإرادته وتحكمه بقدرة الله فى كثير من المخلوقات التى تفوقه فى قوة البنية وضخامة الجسم ·

فالتعبير بلفظ الخليفة إجمال لما فى قوله تعالى فى الآية التى قبلها : ﴿ هو الذى خَلَقَ لكم ما فى الأرضِ جميعًا ﴾ [2] ونحوها من الآيات التى فى معناها ،كقوله تعالى : ﴿ وسَخَّرَ لكم ما فى السَّمَاوَات وما فى الأرضِ جميعًا منه ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد كَرَّمْنَا بَنِى آدمَ وحَمَلْنَاهُم فى البَرِّ والبَحْرِ ورزَقْنَاهُم من الطيبات وفَضَّلْناهُم على كثيرٍ ممن خَلَقْنا تَفْضِيلاً ﴾ [4] .

ولعل الملائكة قد فطنوا من هذا اللفظ إلى أن هذا المخلوق سيكون عرضة بحكم هذه الوظيفة إلى امتحان عظيم ، يعرّض أكثرهم إلى الإفساد فى الأرض وسفك الدماء ·

ولعلهم أدركوا ذلك أيضًا من طبيعة تكوينه وعناصره التى ركّب منها ، فهو مخلوق من طين ، وهى مادة كدرة متفاعلة ، متغيرة ، لا تثبت على حال ·

ولعل الله أخبرهم بطبيعة هذا المخلوق وبما سيكون منه ، فطوى ذلك عنا ، ولم يذكره تصريحًا ولكنه ذكره تلويحًا ، وتلميحًا ، وذلك يفهم من قول الملائكة : ﴿ أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويَسفكُ الدماءَ ونحن نُسَبِّحُ بحمدِك ونُقدِّسُ لك ﴾ ·

وقد قالوا ذلك على سبيل التعجب والاستفسار لا على سبيل الجدل والاعتراض، إذ كيف يخلق الله من يعصيه ويعرض عن ذكره ، وهو فى غنى عنه ، وكيفَ يجمع بين الضدين فى ملكه،بين من يطيعه فى السماء ومن يعصيه فى الأرض·

ولكن قالوا ذلك قبل أن يكشف الله لهم عن ملكات هذا الإنسان الفذة ومداركه السامية ، وإلهاماته المشرقة ، وقدراته العجيبة على الإبداع والابتكار والاستنباط ·

لهذا وقفهم الله عند حدودهم وأزال تعجبهم بقوله : ﴿ إنى أعلمُ ما لا تَعلمُون﴾، أى دعوا الأمر لى كما هو شأنكم دائمًا ، فإنى أعلم منكم ما لا تعلمونه

---

(١) سورة النساء آية : ٢٨ · (٢) سورة البقرة آية : ٢٩ ·

(٣) سورة الجاثية : آية ١٣ · (٤) سورة الإسراء آية : ٧٠ ·

من أنفسكم ، وأعلم من آدم وذريته ما يكون منهم ، وما هو كائن ، فلا تسألوا عن شيء لا تدركون كنهه ، ولا تعرفون حكمته على وجهها إلا إذا أطلعتكم عليها ، وأودعت فيكم فهمها .

ثم بين لهم فيما بعد ما يتميز به آدم عليهم ، وما استحق به الخلافة فى الأرض دون غيره ، فقال جل شأنه : ﴿ وعَلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها ثم عَرَضَهُم على الملائكة فقالَ أنبِئُونى بأسماءِ هؤلاء إن كُنتُم صادقِينَ . قالوا سُبْحَانَك لا عِلمَ لنا إلا ما عَلَّمْتَنَا إنَّك أنتَ العليمُ الحكيمُ . قالَ يا آدمُ أنْبِئْهُم بأسمائهم فلمَّا أنبأَهُم بأسْمَائِهم قال ألم أقُلْ لكم إنِّى أعلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ والأرضِ وأعْلَمُ ما تُبْدُونَ وما كُنتُم تكتُمُونَ ﴾[1].

والأسماء التى علمها الله آدم عليه السلام هى جميع المسميات ، بمعنى أن الله مكَّنه من معرفة أسماء الملائكة ، وأسماء ذريته ، وأسماء كل شيء مما وقعت عليه عيناه من جبال وبحار ، وأنهار وعيون وآبار وغير ذلك ، بحيث ركّب فيه جهازًا خاصًا يترجم به كل ما يعرض عليه من الذوات والأجناس ، ويضع لها الاسم الذى وضعه الله لها ، وأعطاه إلهامًا خاصًا يعرف به حقائق الأشياء ومنافعها ، ليكون ذلك معجزة له تشهد بنبوته وخلافته .

والله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فلا يستبعد ذلك ولا يستغرب .

وقوله تعالى : ﴿ ثم عرضهم على الملائكة ﴾ أى عرض تلك المسميات بدليل قوله: ﴿ أنبئونى بأسماءِ هؤلاء ﴾ فكل اسم له مسمى، كما هو معلوم من كتب اللغة .

والعرض معناه : الإظهار والإبانة ، أى أظهر لهم هذه المسميات ، فقال : ﴿أنبئونى بأسماء هؤلاء ﴾ والأمر للتحدى والتعجيز ، وأكده بقوله : ﴿ إن كنتم صادقين﴾ مبالغة فى التحدى .

وهذا التحدى يوحى بفضل آدم عليهم وينبئ عن أحقيته بالخلافة ، وقد عبر بضمير جمع الذكور من العقلاء فى قوله : ﴿ ثم عرضهم ﴾ لأن فى جملة هذه المسميات أنواعًا من العقلاء كالملائكة والجن ، ومن الأساليب المعروفة عند العرب

---

(١) سورة البقرة آية : ٣١ - ٣٣ .

تغليب جانب التذكير على جانب التأنيث ، وتغليب من يعقل على ما لا يعقل ، وتغليب الكامل على الناقص ·

فما كان من الملائكة إلا أن أجابوا بما عبروا به عن عجزهم الكامل عن الإتيان بما طلب منهم : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ أى أنك أنت العليم بما كان وما يكون ، وما هو كائن ، والمحيط علمًا بعواقب الأمور صغيرها وكبيرها ، الحكيم فى خلقك وأمرك ، وفى تعليمك من تشاء ، ومنعك من تشاء ، لك الحكمة البالغة فى ذلك والعدل التام ·

وبعد أن بين القرآن أن الملائكة قد اعترفوا بالعجز عن معرفة ما سئلوا عنه وجه سبحانه الخطاب إلى آدم عليه السلام يأمره فيه بأن يخبر الملائكة بالأسماء التى سئلوا عنها ولم يكونوا على علم بها ، فقال تعالى :

﴿ قال يآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ ·

والنبأ فى اللغة هو الخبر العظيم الفائدة ، وإنباء آدم بالأسماء التى جهلتها الملائكة من الأخبار العظيمة التى عرف الملائكة بها منزلة آدم وشرفه واستحقاقه للخلافة عن جدارة وعن قدرة أودعها الله فيه ، وهو الذى له العلم التام بما غاب واستتر فى السماوات والأرض ، وبما استكن فى السرائر واستقر فى الضمائر كلها ·

وفى قوله : ﴿ ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض · · · الآية ﴾ استحضار وتأكيد لمعنى قوله : ﴿ إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ ، وإعادة له على وجه من التفصيل أفاد أن علمه يشمل ما يظهرونه بأقوالهم أو أفعالهم وما يضمرونه فى أنفسهم ·

وفيه أيضًا تعريض بهم ومعاتبة لهم على ترك الأولى ؛ حيث بادروا بالسؤال عن الحكمة ، وكان الأولى بهم أن يلزموا الأدب المناسب لمقام الألوهية ، فيتركوا السؤال عنها إلى أن يستبين لهم أمرها بوجه من وجوه العلم ·

• سجود الملائكة له :

وبعد أن ذكر الله تعالى بعض الكرامات التى خص بها آدم عليه السلام أتبع ذلك ببيان كرامة أخرى وهى أمره للملائكة بالسجود له ، فقال جل شأنه :

﴿ وإذْ قُلنا للملائكةِ اسجُدُوا لآدمَ فَسَجَدُوا إلا إبليسَ أبَى واستَكْبَرَ وكان من الكَافِرينَ ﴾ (١) .

السجود فى اللغة : التذلل والخضوع ، ويطلق أيضًا على الانحناء من أجل التحية والتكريم ، كما فى قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ ورَفَعَ أبويه على العرش وخَرُّوا له سُجَّدًا ﴾ (٢) .

ويطلق السجود فى الشرع على وضع الجبهة واليدين والركبتين والقدمين على الأرض ، وهذا لا يكون إلا لله تعالى .

والسجود الذى فعلته الملائكة هو الانحناء على هيئة مخصوصة على حسب خلقتهم ، وقد أمروا به تعظيمًا له وتحية .

وفى تعظيمه تشريف لذريته أيضًا ، وفيه تنبيه لأولى الألباب على وجوب شكرهم لله على هذه المنة .

• هل إبليس كان من الملائكة ؟

وقد اختلف العلماء فى نسبة إبليس إلى الملائكة - هل كان منهم ؟ أم كان معهم وليس منهم ؟ . الصحيح عندى أنه كان معهم صورة وليس منهم مادة ، ولا هو على شاكلتهم طبعًا ووضعًا ، بدليل أنه خرج عن إجماعهم ، فقد سجدوا كلهم أجمعون إلا هو ، أبى أن يسجد استكبارًا وعلوًا .

وقد أخبرنا الله أنه مخلوق من نار ، والملائكة مخلوقون من نور .

وأرى والله أعلم أنه أمر بالسجود وحده وليس مع الملائكة ، بدليل قوله تعالى: ﴿ قالَ ما مَنَعَكَ ألا تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ ﴾ (٣) ، وعلى هذا يكون الاستثناء فى

---

(١) سورة البقرة آية : ٣٤ .   (٢) سورة يوسف آية : ١٠٠ .

(٣) سورة الأعراف آية : ١٢ .

قوله تعالى : ﴿ إلا إبليس ﴾ منفصلاً بمعنى لكن ، أى : فسجدوا لكن إبليس لم يسجد .

وقد سمى إبليس بهذا الاسم لطرده من رحمة الله ، مأخوذ من الإبلاس، ومعناه اليأس والطرد والإبعاد .

• إسكان آدم وزوجه الجنة :

ولما أظهر الله للملائكة مواهب آدم عليه السلام ومؤهلاته التى استحق بها الخلافة فى الأرض ، وبين لهم فضله عليهم فى العلم والمعرفة ، وأمرهم بتحيته وتعظيمه ، فحيوه وعظموه - أمره أن يسكن الجنة ، هو وزوجه التى خلقها الله من ضلعه على ما قيل ، فسكنها إلى حين .

وفى ذلك يقول الله عز وجل :

﴿ وقلنا يا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجُك الجنَّة وكُلا منها رَغَدًا حيثُ شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ [1] ، ونحن لا ندرى هل أمر الله آدم بسكنى الجنة عقب سجود الملائكة له مباشرة ، أم كان بعد ذلك بزمن طويل ، ولا ندرى هل خلق الله حواء مع آدم أم خلقها بعده بسنين .

ومعرفة ذلك أو جهله لا يتعلق به فائدة ولا مضرة ، وقد طواه القرآن عنا ، فلا ينبغى أن نخوض فيه مع الخائضين .

وقوله تعالى : ﴿ اسكن ﴾ يشعر بأنه سيخرج منها يومًا ما ؛ لأن الذى يسكن فى مكان لابد أن يتحول عنه ، وهو فى الغالب لا يملكه ، فدخول آدم وحواء فى الجنة - كما يقول القرطبى فى تفسيره - كان دخول سكنى لا دخول إقامة .

وقد أباح الله لهما الأكل من ثمارها الطيبة أكلا هنيئًا مريئًا فقال جل شأنه: ﴿وكلا منها رَغَدًا حيث شئتما ﴾ .

والرغد : طيب العيش واتساعه . ولكنه جل شأنه نهاهما عن شجرة معينة ، وأخبرهما أنهما لو أكلا منها زال النعيم عنهما وفارقهما وفارقاه ، وبذلك يكونان قد

---

(١) سورة البقرة آية : ٣٥ .

ظلما أنفسهما ، فقال جل شأنه : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ أى لأنفسكما بالمعصية ·

وقد جاء النهى عن الأكل من الشجرة بأبلغ أسلوب، مبالغة فى التحذير، فقال : ﴿ ولا تقربا ﴾ أى ولا تدنوا من الشجرة ، فتسول لكما أنفسكما الأكل من ثمارها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وليس المراد الدنو منها كما هو ظاهره ، وإنما المراد الأكل ، مثل قوله جل شأنه : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ أى لا تأكلوه ظلمًا وعدوانًا ·

ولم يعين لنا ربنا عز شأنه فى كتابه العزيز نوع هذه الشجرة لأنه لا يتعلق بذكر نوعها فائدة ·

والقرآن الكريم يضرب صفحًا عن ذكر كل ما لا يتعلق بذكره فائدة ، فينبغى علينا ألا نتكلم فيه ، ولا نشغل أنفسنا بالبحث عنه ، بل إن فى البحث عنه افتياتًا على القرآن ، ودخولاً فيما لا يعنى ، وقد أحسن الإمام الطبرى حين قال :

« إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته من أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة ، ودون سائر أشجارها ، فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه ، فأكلا منها كما وصفهما الله جل ثناؤه ، ولا علم عندنا أى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا فى السنة الصحيحة ، فأنى يأتى بذلك من أتى ؟ » ·

• إخراجهما منها :

ثم أخبر الله عز وجل أن الشيطان أغرى آدم وزوجه بالأكل من الشجرة فقال : ﴿ فأزَلَّهُما الشَّيطانُ عنها فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ (1) ، أى : أذهبهما وأبعدهما عن الجنة بكذبه عليهما أنه لهما ناصح ، كما دل عليه قوله جل شأنه : ﴿ فَوَسْوَسَ لهما الشَّيطانُ ليبدىَ لهما ما وُرِىَ عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكُما ربُّكما عن هذه الشجرةِ إلا أن تكونا مَلَكَيْنِ أو تكونا من الخالدين · وقاسَمَهُما إنِّى لكما لَمِنَ الناصحين · فَدَلاَّهُما بِغُرُور ·· ﴾ (2) ، أى : أنزلهما بخداع منه ، وغفلة منهما ،

---

(1) سورة البقرة آية : ٣٦ · (2) سورة الأعراف آية : ٢٠ - ٢٢ ·

فقد أقسم لهما بالله تعالى أنه صادق فيما ادعاه ، فاعتقدا أنه لا يجرؤ أحد أن يحلف بالله كاذبًا فصدقاه ، وغفلا عن تحذير الله لهما الوارد فى قوله جل شأنه : ﴿ فقلنا يا آدمُ إن هذا عدوٌ لك ولزوجك فلا يُخرِجَنَّكُمَا من الجنَّةِ فتشقى ﴾ [1] ، وقد أقسم لهما إبليس مرارًا ، وبالغ فى ذلك ليحملهما على التصديق بأنه لهما ناصح أمين بدليل قوله تعالى : ﴿ وقاسمهما ﴾ لأن هذه الصيغة تدل على المشاركة والمبالغة والتكثير ، وقد أغراهما اللعين بأنهما لو أكلا من الشجرة فسوف يكونان كالملكين فى القوة وطول البقاء ، وعدم التأثر بفواعل الكون المؤلمة وغير ذلك من الخصائص التى تتميز الملائكة بها ، وسوف يكونان فى الجنة من الخالدين ، أو الذين لا يموتون البتة ، وهما أمران يطمع فيهما الإنسان بحكم ما ركب الله فيه من الغرائز ، وهى كثيرة ، منها غريزة حب التملك وغريزة حب البقاء ·

ومن تأمل فيما وعد الله به آدم من رغد العيش فى الجنة وحرية التنقل بين ربوعها وأشجارها وجد أن ما وعده الله به كان هو منتهى البغية فى الحياة الدنيا ، فقد قال الله له فى سورة البقرة : ﴿ وكلا منها رغدًا حيث شئتما ﴾ ، وقال له فى سورة طـــه : ﴿ إن لك ألا تَجُوعَ فيها ولا تَعرَى · وأنك لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَى ﴾ [2] ، فما كان أغناه أن يرضى بما قسم الله له به هو وزوجــه ولم يصغ لوسوسة إبليس اللعين ، وهو لم يعده بأكثر مما وعــده الله به ، فقد قال له كما حكى القرآن عنه : ﴿ هل أدُلُّكَ على شجرةِ الخُلدِ ومُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾ [3] ، ويعنى بالخلد طول البقاء ؛ لأن الخلود المطلق لله تعالى وحده ، ويعنى بالملك الذى لا يبلى النعيم الذى لا ينقطع مدة عمره الطويل ، ووعده أن يكون هو وزوجه كالملائكة فى قوتهم وعدم تأثرهم بالفواعل الكونية - كما قلنا- وعلق هذا الوعد على الأكل من الشجرة ، بينما علق الله وعده سبحانه على ترك الأكل من الشجرة ، فكان الخير كل الخير فى طاعة الله لا فى طاعة الشيطان ، فوعد الله حق لا يتخلف ، ووعد الشيطان خداع وغرور ·

أقول : ما كان أغناه لو ظل متيقظًا ثابتًا على عزمه ، وتمسكه بترك الأكل من الشجرة ، وعدم الإصغاء لوساوس الشيطان الرجيم ، لكنه قدر الله الذى لا راد له ولا معقب عليه ولا مهرب منه ، فقد أسكنه الجنة وهو يعلم أنه سيخرج منها بسبب الأكل من الشجرة ، ليعمر الأرض ويصلحها هو وذريته ، ويعبدوه فيها طوعًا وكرهًا ،

---

(١) سورة طه آية : ١١٧ ·

(٢) سورة طه آية : ١١٨ – ١١٩ · (٣) سورة طه آية : ١٢٠ ·

وقد جرت سنة الله تعالى أن يقرن الأسباب بمسبباتها ليعلم الإنسان أن كل شيء قد خلقه الله بقدر ، وأن كل شيء عنده بمقدار ، وأن لكل نتيجة مقدمات تعرف بها صحتها وسلامتها ، فيقول كل امرئ في نفسه : وقع كذا وكذا بسبب كذا وكذا ، ولو لم يكن كذا وكذا ما كان كذا وكذا ، وفي ذلك ما فيه من تدريب الذهن على التفكير السليم والتأمل الصادق ، والنظر الصائب الموصل إلى معرفة الخالق بأوصافه الكمالية من خلال ما عرضه علينا في كتابه العزيز من قضايا وأحكام وأخبار غيبية سابقة ولاحقة ، فالقرآن كون مسطور ينبئ عن الكون المستور ، لكن بالقدر الذي نحتاج إليه في شئون ديننا ودنيانا ، أما الأسرار التي لا حاجة لنا بها فقد طواها الله عنا فلا نكلف أنفسنا مؤنة البحث عنها .

ومن هذا يتبين لنا أن آدم عليه السلام قد عصى الله وغوى عن الطريق الذي رسمه الله له من غير قصد إلى المعصية والمخالفة بدليل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ فدلاهما بغرور﴾ ، وبدليل قوله تعالى : ﴿ ولقد عَهِدْنَا إلى آدمَ من قَبْلُ فَنَسِيَ ولم نَجِدْ له عَزْمًا ﴾ (١) ، أي : فنسي النهي عن الأكل من الشجرة ، ونسي تحذير الله له من الشيطان ، ولم يكن له عزم على المعصية ، فوقع فيها قضاءً وقدرًا ، فيكون بذلك عاصيًا بمخالفة لا يستحق عليها العقوبة ، لهذا تلقاه الله بالكلمات التي تاب بها عليه ، وهي التي ورد ذكرها في قوله تعالى : ﴿ قالا رَبَّنَا ظلمنا أنفسَنا وإن لم تغفرْ لنا وترحَمْنا لنكونَنَّ من الخاسرينَ ﴾ (٢) .

ولما أقبل آدم وزوجه على الشجرة فأكلا منها ، حل بهما من الكرب والألم والخجل ما حكاه الله عز وجل في سورة الأعراف وطه ، فقد أخذا يضعان على سوآتهما من أوراق الشجر ، ليستترا بها حياءً من الله وملائكته ، وفرارًا من رؤية كل منهما للآخر على هذه الهيئة المزرية وقد طارت الحُلل التي كانا يتحليان بها .

وقد عاقبهما ربهما بالهبوط إلى الأرض فهبطـــا إليها ولا ندري في أي مكان هبطا – في الهند أو في الصين – فإنه لم يكن لنواحي الأرض أسماء ، حين هبط آدم .

---

(١) سورة طه آية : ١١٥ .   (٢) سورة الأعراف آية : ٢٣ .

وزوجه إليها ، فلا ينبغى أن نسأل أين هبطا ولا كيف هبطا ولا نكلف أنفسنا تتبع أقوال أهل الكتاب فى ذلك ولا سرد أقوال القصاصين ، فإن ذلك لا يتعلق بمعرفته فائدة ·

هذا ولم يكن هبوط آدم من الجنة إلى الأرض عقوبة له ، ولكن كان ذلك من أجل أن يعمر الأرض ويمارس عمله فيها وفقما أمره الله عز وجل ، بعد أن قضى فى الجنة من الوقت ما شاء الله أن يقضيه ·

وكأن الله عز وجل قد أسكنه جنة ليستمتع فيها بعروسه جزءاً من الوقت ليقبل على عمله بعد ذلك فى الأرض بهمة ونشاط ، ولكى يعرف الفرق بين الراحة والنَصَب ، ولكى يأخذ درسًا يعرف به عداوة الشيطان له ولذريته فيحذروه ، فلا يتبعوا خطواته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ·

وقد أشار الله إلى ما فعله إبليس بأبينا آدم وأمنا حواء وحذرنا من أن يفتنا كما فتنهما ، فقال جل شأنه : ﴿ يا بنى آدمَ لا يفتننَّكم الشيطانُ كما أخرجَ أبَوَيْكُم من الجنةِ يَنْزِعُ عنهما لِبَاسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْءَاتِهِمَا ﴾ [1] .

انظر بعقلك وتأمل بثاقب فكرك فى قوله تعالى : ﴿ ينزعُ عنهما لباسَهما ﴾ وحاول أن تغمض عينيك وتتخيل هذا الموقف الذى رسمه الله فى هذه الآية، والصورة التى أراكها فى هذا التعبير الذى يوحى بأن ما فعله إبليس من تعرية أبينا آدم وأمنا حواء بسبب إغرائه لهما بالأكل من الشجرة من المخزيات التى تحملنا على عداوته ولعنه والحذر من وسوسته والاستعاذة بالله - سبحانه - إذا شعرنا بشىء من هواجسه عملاً بقوله تعالى : ﴿ وإمَّا يَنزَغَنَّكَ من الشيطانِ نزْغٌ فاستعذْ باللهِ إنَّه سميعٌ عليمٌ إن الذين اتَّقَوْا إذا مَسَّهُم طائفٌ من الشيطانِ تَذَكَّرُوا فإذا هم مُّبصِرُون ﴾ [2] .

* * *

---

(١) سورة الأعراف آية : ٢٧ · (٢) سورة الأعراف آية : ٢٠٠ - ٢٠١ ·

قصة ولدى آدم

ذكر الله جل شأنه قصة ولدَى آدم « قابيل » و « هابيل » فى سورة المائدة فى معرض الحديث عن مساوئ بنى إسرائيل ، فقد كانت الصورة التى رسمتها الآيات السابقة عن بنى إسرائيل صورة الإنسان الذى فسدت فطرته ، وضاعت معالم إنسانيته، فدفع بكلتا يديه الخير المسوق إليه ، ونفخ بفمه فى شعلة النور المنصوبة لهدايته ، مؤثرًا أن يظل هكذا فى الظلام والضلال ·

ولما كانت الإنسانية ليست كلها على هذه الصورة الكئيبة المعتمة كان من تمام العرض للإنسانية أن يعرض جانبها الطيب كما عرض جانبها الخبيث ·

فالصورة إذن بيان كاشف عن جوانب الخير والشر فى الإنسان ، وتعبير صادق عن الوجهة التى يولِّيها كل من فسدت فطرته ، وضعفت إرادته ، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فاستخف بكل القيم الدينية والمبادئ الخلقية ، وارتكب فى حق نفسه وحق البشرية أعظم جرم أنكرته الأديان السماوية ، والطباع السوية ·

وهى تعبير صادق أيضًا عن كل وجهة يوليها من سلمت فطرته ، وقويت إرادته، وعلا بإنسانيته ، وارتفع بوجوده عن تراب هذه الأرض ، وما اختلط به من ضباب ودخان ، حيث يرى وجه الحق سافرًا مشرقًا فيأنس به ويحيا معه ·

فقصة ولدى آدم كما سترى من خلال عرض القرآن لها عرض للإنسانية كلها من جانبيها : الطيب والخبيث ، وعلى وجهيها : المشرق والمظلم ، وفى مثليها : الملائكى والشيطانى ·

وهو عرض لا لبس فيه ولا غموض ، تتجسد فيه نفحات الحق ونزوات الباطل، وتتشمل فى تضاعيفه حقائق ودقائق لا غنى للبشرية عن معرفتها وفهمها واستيعابها ، واتخاذها مقاييس صدق لتمييز المفسد من المصلح ·

ففى كل كلمة من كلماتها تجد لطيفة بيانية ، أو قاعدة فقهية ، أو حقيقة علمية، أو ظاهرة اجتماعية ، أو سمة إنسانية ، وهذا هو شأن كلمات القرآن كلها ،

ولكن هذه القصة تتميز عن سائر القصص القرآنى بعرضها لأول جريمة وقعت فى الأرض بين أخوين كان الدافع على وقوعها الحسد الأشر ، والحقد الدفين ، فجاء فيها من القواعد والأحكام ما لم يأت فى غيرها من القصص القرآنى .

وآن لنا بعد هذه المقدمة أن نتلو الأيات التى قصت علينا هذا النبأ العظيم ، ونتدبرها بعقولنا وقلوبنا ، ونستلهم منها ما ينفعنا فى ديننا ودنيانا ، وبالله توفيقنا .

يقول الله تعالى : ﴿ واتلُ عليهم نبأَ ابنَىْ آدمَ بالحق إذ قَرَّبا قُربانًا فَتُقُبِّلَ من أحدِهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخرِ قالَ لأقتلَنَّك قال إنما يَتَقَبَّلُ اللهُ من المتقين . لئن بسطتَ إلىَّ يدَكَ لتقتلَنى ما أنا بباسطٍ يَدِىَ إليك لأقتُلَك إنى أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ . إنى أريدُ أن تَبُوءَ بإثمِى وإثمِك فتكونَ من أصحابِ النارِ وذلك جزاءُ الظالمينَ . فَطَوَّعَتْ له نفسهُ قتلَ أخيه فقتلَه فأصبحَ من الخاسرين . فبعثَ اللهُ غُرابًا يبحثُ فى الأرضِ ليُرِيَهُ كيفَ يُوارى سَوْءَةَ أخيه قالَ يا ويلتَى أعَجَزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغرابِ فأوارىَ سَوْءَةَ أخى فأصبحَ من النادمين ﴾ [1] .

زعم كثير من المفسرين أن ابنى آدم قابيل وهابيل قد أمرهما أبوهما أن يتزوج كل منهما توأم أخيه ، وألا يتزوج الأخت التى ولدت معه ، ويقولون : إن توأم قابيل كانت أجمل من توأم هابيل ، فأباها على أخيه ، وأصر على أن يمسكها لنفسه ، على حين أبى هابيل أن يعصى أمر أبيه الذى هو وحى سماوى ، ثم اتفقا على أن يحتكما إلى الله وذلك بأن يقدم كل منهما قربانًا إليه سبحانه ، فمن قبل الله قربانه كان على الآخر أن ينزل على مشيئته ، وقدم كل منهمـــا قربانه ، فتقبل الله من هابيل ، ولم يتقبل من قابيل ، ولكن قابيل لم يرض بحكم الله ، وأصر على موقفه العنادى من أخيه ومن أمر ربه ووصاة أبيه .

وأنَّه لكى يخلو لقابيل الطريق ، ويبلغ ما يريد ، هداه شيطان الهوى إلى أن يقتل أخاه ، وبذلك يقطع تلك اليد التى تنازعه المرأة التى يريدها ، ثم لا يكون بهذا قد خالف أمر ربه أو وصاة أبيه .. فهكذا خيل إليه أنه بهذا يضع حكم الله وشرعه

(١) سورة المائدة آية : ٢٧ - ٣١ .

أمام أمر واقع ، وهكذا المفتونون وأصحاب الأهواء يتأولون فى شرع الله ، فيبدلون ويغيرون حسب ما يمليه عليهم الهوى وتدعوهم إليه الشهوة .

هذا ما قاله كثير من المفسرين فى هذه القصة ، معتمدين فى أكثر ما قالوا على ما يُحدِّث به اليهودُ من أخبار الماضين .

ولم يرد فيه عن المعصوم ﷺ شىء يصح أن نحمل عليه هذا المفهوم فلا مناص من الرجوع إلى ما تضمنته هذه الآيات ، والاكتفاء به عما سواه من الأخبار التى شوهها أهل الكتاب ، وزيفوها وزادوا عليها ونقصوا منها ، واختلفوا فيها .

وخلاصة القول فى الخلاف بين الأخوين أنهما قربا قربانًا إلى الله عز وجل ليرى كل منهما مكانه من الله تعالى ، فقد أدعى قابيل - فيما يبدو - أنه إلى الله أقرب وأحب من أخيه هابيل ، وأنه خير منه حالاً ومآلاً ؛ فكثيرًا ما يدعى المفسدون أنهم أصلح الناس ، ويزعم الفجار أنهم من الأبرار ، ويزعم السفهاء أنهم من خيار العقلاء ، وأن الغنى والجاه والمنصب أمارة على حب الله لهم ، وأنهم سيكونون فى الآخرة على ما كانوا عليه فى الدنيا ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة منها :

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيلَ لهم لا تُفسِدُوا فى الأرضِ قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنَّهم هم المفسدونَ ولكن لا يشعرونَ . وإذا قيلَ لهم آمِنوا كما آمن الناسُ قالوا أنؤمنُ كما آمن السفهاءُ ألا إنَّهم هم السفهاءُ ولكن لا يعلمون ﴾ (١) .

وقوله تعالى حكاية عن صاحب الجنتين : ﴿ ودَخَلَ جَنَّتَه وهو ظالمٌ لنفسه قالَ ما أظنُّ أن تَبيدَ هذه أبدًا . وما أظنُ الساعةَ قائمةً ولئن رُّدِدتُّ إلى ربِّى لأجدَنَّ خيرًا منها مُنْقَلَبًا ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ولئن أذَقْنَاهُ رَحمةً منَّا من بعد ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ليقولَنَّ هذا لى وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ولئن رُّجِعْتُ إلى ربِّى إنَّ لى عنده لَلحُسْنَى ﴾ (٣) .

ولا يعنينا معرفة نوع القربان الذى قربه كل منهما ، ولا كيف تقبله الله من

---

(١) سورة البقرة الآيات : ١١ - ١٣ . (٢) سورة الكهف آية : ٣٥ - ٣٦ .
(٣) سورة فصلت آية : ٥٠ .

أحدهما ، ولا يعنينا متى ولا أين كان ذلك ؛ لخلو ذلك من العظة والعبرة ، وما طواه القرآن عنا ليس من الأدب أن نسأل عنه أو نبحث فيه .

ومن هنا نعلم أن ما قاله كثير من المفسرين نقلاً عن أهل الكتاب حصر لمضمون هذا الخبر القرآنى فى هذا المحتوى الضيق المحدود ، الأمر الذى يذهب بكثير من معطياته التى أرادها الله فى سياق هذه القصة .

والذى يعطى هذه القصة بعض مالها من امتداد ، وبعض ما فيها من حكمة هو أن يكون الأخوان إنسانين من الناس ، وأن أحدهما مؤمن بالله ، مستقيم على طاعة أوامره واجتناب نواهيه ، وأن الآخر لا يرعى لله حـــرمة ، ولا يحفظ له عهداً .

وهذا واقع لا تنكره الحياة ، ففى كل مجتمع أخيار وأشرار ، وفى الإخوة المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصى .

وما جرى بين ابنى آدم من هذا الصراع الدامى ما هو إلا شرارة من شرارات الحسد ، اندلعت فى صدر أحد الأخوين ، ثم لم تلبث أن شب ضرامها ، فكانت فتنة وكان دم ، وكانت خطيئة ، وكان هلاك .

وفى قوله تعالى : ﴿ قال لأقتلنك ﴾ دليل على شراسة هذا الأخ الآثم ، وفساد فطرته وطبعه ، وفيه ما يشعرنا بما يحمله الحسد لصاحبه من شر مستطير يقتل به نفسه قبل أن يقتل به غيره ، فهو آفة الآفات وملمة الملمات . به طرد إبليس من رحمة الله تعالى ، وبسببه ألقى يوسف فى الجب ، وبسببه كفر من كفر .

وقوله تعالى : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ دعوة من الأخ الصالح إلى أخيه بالهدى والتقوى ، فهو يخبره أن رضا الله تعالى مقرون بطاعته ، واتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، فلو كان تقيًّا مثله لقبل قربانه ، ولكن أخاه يتمادى فى غيه ويصرُّ على قتله ، بينما يستمر التقى فى دعوته إلى الهدى ، ويكشف له معالم الطريق إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويلقاه ملاطفًا موادعًا :

﴿ لئن بسطت إلى يدكَ لتقتلنى ما أنا بباسطٍ يدىَ إليك لأقتلك إنى أخافُ اللهَ رب العالمين ﴾ .

فهو ملازم للتقوى متمسك بها ، بعد أن عرف ثمرتها فى هذا المشهد الذى شهده بين يدى ربه ، إنه على خوف من ربه أن ينحرف عن طريق التقوى ، أما هذا الأخ الحسود فلم يزده اللين والنصح إلا عنادًا وجفاءً ، فاضطر هذا الأخ التقى النقى أن يقرعه بكلمات فيها زجر ووعيد له إن أقدم على تنفيذ تهديده وأصر على موقفه ، فقال كما حكى الله عنه : ﴿ إنى أريدُ أن تَبُوءَ بإثمى وإثمِك فتكونَ من أصحابِ النارِ وذلك جزاءُ الظالمين ﴾ .

فإن قلت : إن القتل إثم يقع على القاتل وحده ، فكيف يبوء القاتل هنا بإثمين: إثمه ، وإثم قاتله ، ولم يكن المقتول حريصًا على قتل صاحبه بدليل قوله تعالى : ﴿ ما أنا بباسطٍ يدىَ إليك لأقتلَك ﴾ ؟

قلت : إن الجواب على هذا السؤال أن يقال : إن المقتول لم يرد أن يحمّل القاتل مع إثمه إثم المقتول حقيقة ، لأن المقتول لم يرتكب إثمًا لعدم حرصه على قتل صاحبه ، ولكن أراد أنه لو قتله فسوف يكون عليه الإثم مضاعفًا إذ لو تصدى له وحرص على قتله لكان آثمًا ، فلما لم يكن حريصًا على قتله انتقل إثمه إليه ، إذ لو كان فى أخيه هذا بقية من خير ، ورأى من أخيه هذه الوداعة ، وهذا الصفح الجميل ما أقدم على قتله أبدًا .

وأحسن من هذا أن يقال : إن معنى قوله تعالى : ﴿ إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ﴾ أن ترجع بمثل إثمى لو بسطت يدى إليك ، وبإثمك ببسط يدك إلى ، وهو قريب من الأول .

وأحسن من هذا وذاك أن يقال : معنى بإثمى : إثم قتلى ، ومعنى بإثمك : إثمك الذى لأجله لم يتقبل قربانك .

وقوله تعالى : ﴿ فتكون من أصحاب النار ﴾ فيه بيان للمصير الذى ينتظر كل ظالم ، يحمل أوزاره يوم القيامة ، وفيه من التخويف والترهيب ما لا يخفى .

وفى قوله : ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ توكيد لمضمون ما قبلها .

ومما سبق يتبين أن هابيل كان مع تقواه وصلاحه داعيًا إلى الله تعالى على بصيرة

من ربه ، فقد سلك مع أخيه أسلوب الترغيب والترهيب ، وأظهر له من نفسه القوة على مواجهته بالحجة والبرهان ، لا بالسيف والسنان ، فقد ترقى فى صرفه عن عزمه من التبرؤ إليه من سبب حرمانه من قبول قربانه ببيان سبب التقبل عند الله تعالى وهو التقوى ، إلى تنزيه نفسه من جزائه على جنايته بمثلها ، إلى تذكيره بما يجب عليه من خوف الله تعالى رب العالمين الذى لا يرضيه ممن وهبهم العقل والاختيار إلا أن يتحروا إقامة سننه فى تربية العالم ، وإبلاغ كل حى يقبل الكمال إلى كماله ، إلى تذكيره بأن المعتدى يحمل إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه بعدل الله تعالى فى القصاص والجزاء ، إلى تذكيره بعذاب النار ، وكونها مثوى للظالمين الفجار ، فماذا كان من تأثير هذه المواعظ فى نفس ذلك الحاسد الظالم ، بين الله ذلك بقوله :

﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ أى سهلت له نفسه قتل أخيه ، ووسعت له الطريق إلى ذلك ، بعد أن نازعته فطرته زمنًا .

فالإنسان مفطور على الخير والحب والتعاون مع أبناء جنسه ، لكن المادة التى خلق منها - وهى الطين - تحمله دائمًا على الخروج عن هذه الفطرة ، وتدفعه إلى الشر ، فيظل فى صراع مع الفطرة والمادة حتى يستجيب لأحدهما .

قال صاحب تفسير المنار فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فطوعت له نفسه ﴾ : « إن هذه الكلمة تدل على تدريج وتكرار فى حمل الفطرة على طاعة الحسد الداعى إلى القتل ، كتذليل الفرس والبعير الصعب ، فهى تمثل - لمن يفهمها - ولد آدم الذى زين له حسده لأخيه قتله ، وهو بين إقدام وإحجام ، يفكر فى كل كلمة من كلمات أخيه الحكيمة فيجد فى كل منها صارفًا له عن الجريمة ، يدعم ويؤيد ما فى الفطرة من صوارف العقل والقرابة والهيبة ، فكرّ الحسد من نفسه الأمارة على كل صارف فى نفسه اللوامة ، فلا يزالان يتنازعان ويتجاذبان حتى يغلب الحسد كلاً منها ويجذبه إلى الطاعة ، فإطاعة صوارف الفطرة وصوارف الموعظة لداعى الحسد هو التطويع الذى عناه الله تعالى ، فلما تم كل ذلك قتله » . ا.هـ .

فأصبح خاسرًا دينه ودنياه ، ووقف أمام جثمان أخيه لا يعرف كيف يواريه ويستره عن عينيه ، وعن أعين الناس من حوله حتى لا تتمثل له جريمته ، فيزداد

تحسرًا وأسفًا على قتله ، أو حتى لا يؤخذ بجريرته ، ويعاقب على قتله بمقتضى شريعة أبيه آدم عليه السلام ، والله أعلم بما دار فى رأسه يومئذ ·

وقد أراد الله أن يعلمه كيف يوارى سوءة أخيه ، فبعث له غرابًا يريه ما ينبغى عليه فعله ·

قال تعالى : ﴿ فبعث الله غرابًا يبحث فى الأرض ليريَه كيف يوارى سوءةَ أخيه قال يا ويلتَى أعجزتُ أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءةَ أخى فأصبح من النادمين﴾ زعم بعض المفسرين أن الله تبارك وتعالى بعث بين يدى قابيل غرابين لا غرابًا واحدًا ، اعتمادًا على ما ذكره بعض علماء أهل الكتاب مع أن مسألة الغراب والدفن لا ذكر لها فى التوراة كما يقول صاحب المنار ، ولو كان الله عز وجل قد بعث غرابين كما قالوا لصرح بذلك ·

وقد زعموا أن الغرابين اقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فنزل به إلى الأرض وحفر له حفرة فدفنه فيها ، ولو وقع بين الغرابين صراع - كما زعموا - لكان فى ذلك عزاء لابن آدم القاتل ، إذ يرى فى هذا تبريرًا لفعلته ، وإجازة لجريمته ، فضلاً عن أن الغربان لا توارى موتاها أو قتلاها ·

ولكن ما مفهوم هذه الآية ؟ وما شأن الغراب هنا ؟ ولم هذا الندم الذى استشعره القاتل مما فعله الغراب ؟

أما مفهوم هذه الآية فإنها تشير إلى سذاجة الإنسان فى بادئ أمره إذ عجز القاتل عن مواراة سوءة أخيه، ولم يتوصل إلى الطريقة المثلى إلا حين رأى الغراب يبحث فى الأرض، فهو وإن كان عاقلاً لا يستطيع أن يفكر فى صنع شىء لم يسبق إليه إلا بهداية من خالقه عز شأنه ، فبعث الله هذا الغراب ليكون قدوة له فيتعلم منه كيف يوارى سوءة أخيه بطريقة لا تكلفه عناء يستحق الذكر ·

وأما الغراب فهو ملهم بأن يفعل بين يدى قابيل ما فعله ، وسبحان الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى · وقد تعلم الإنسان من الطير كثيرًا مما كان يجهله ، فما كان من أمر الغراب إلا أن ظل يحفر فى الأرض باحثًا عن شىء يطلبه، فنظر إليه القاتل بعد أن أعياه البحث عن الطريقة التى يوارى بها سوءة أخيه ، فقال متعجبًا ومتحسرًا ومعترفًا بجهله وضعفه وغروره بنفسه : ﴿ يا ويلتَى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارىَ سوءةَ أخى ﴾ ·

فقد تنبه هذا القاتل الأثيم إلى شناعة الإثم الذى ارتكبه ، وعلى أن هذا القتيل مظلوم ، حتى استدعى ظلمه الحيوان الأعجم ليكون إلى جانبه ، حين تخلى عنه أخوه ، وأبى عليه إلا أن يكون طعامًا للسباع والطير ، ليستشعر القاتل الندم ، ويقع ليقينه أنه قتل هذا القتيل عدوانًا وظلمًا ، ولــهذا وجد عاطفة الأخوة تستيقظ فى نفسه ، تلك العاطفة التى كانت قد أماتها الحسد ، وذهب بكل أثر لها ، وذلك ما يشير إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى على لسان هذا القاتل :

﴿ يا ويلتىَ أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارىَ سوءة أخى ﴾ .

« أخى » .. هكذا يقولها بملء فيه ، ومن قلب يفيض حسرة وندمًا ﴿ فأصبح من النادمين ﴾ أى أنه لم يكن يجد شيئًا من الندم قبل أن يرى ما فعل الغراب ، ثم أصبح بعد ذلك من النادمين ، إذ رأى نفسه أضأل من هذا الحيوان شأنًا ، وأعمى بصيرة وأضل سبيلاً .

وهكذا الإنسان إذا غلبه الهوى وركبه الضلال ، كان أحط مرتبة فى عالم الحيوان ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسنِ تقويم . ثم رَدَدْناه أسفلَ سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ (١) .

وفى هذا الموقف يطل علينا من بعيد هذا الشبح المخيف لابن آدم الذى قتل أخاه فاستولت عليه الوحشة القاتلة بعده ، وأصبح غريبًا فى هذا العالم ، لا يجد لحياته وجودًا على هذه الأرض ، حتى ليذهل عن كل شىء ، وتضيع من نفسه معالم المعرفة التى لا تتحرك ولا تعمل إلا فى مواجهة الإنسان للإنسان ، ولهذا كان الغراب أقدر على الحياة منه وأصلح للعمل فيها ، لأنه يعيش بين جنسه ، مع فطرته ، التى تستجيب لحياة الجماعة ، وتعمل معها .

ومن هذه القصة نعلم أن أبشع الجرائم وأشدها نكرًا يقع بسبب الحسد الجامح ، الذى يفتك بصاحبه ويسلبه رشده وعقله ، ويقطع أواصر المودة والأخوة بين الناس ، ويلقى بينهم العداوة والبغضاء ، حتى يهلك بعضهم بعضًا ، ويذيق بعضهم بأس بعض .

هذا ولما كان القتل عدوانًا بيِّنًا على الله - تعالى - الذى بيده وحده الموت

---

(١) سورة التين آية : ٤ - ٦ .

والحياة ، كانت غيرته جل شأنه على تلك الحرمة المقدسة موجبة للوعيد الذى لم يعرف له مثيل على الجرائم كلها لمن جبلوا عليها واستخفوا بها كبنى اسرائيل .

وقد سيقت القصة من أجل بيان حسدهم وأشرهم وإقدامهم على قتل أنبيائهم وصالحيهم .

قال جل شأنه فى التعقيب على هذه القصة : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيلَ أنه من قتل نفسًا بغير نفسٍ أو فسادٍ فى الأرض فكأنما قتل الناسَ جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعًا ﴾ .

أى بسبب حرمة الحياة الإنسانية وقداستها وكرامتها فرض الله على بنى إسرائيل هذا الفرض وأوجب عليهم هذا الحكم ، وهو أنه ﴿ من قتل نفسًا ﴾ عدوانًا وظلمًا - أى من غير قصاص فى قتل ، أو سعى بفساد فى الأرض - فكأنما قتل الناس جميعًا ، ﴿ ومن أحياها ﴾ أى أحيا نفسًا إنسانية بأن كف يده عن العدوان عليها ، أو دفع يدًا معتدية عليها ، فكأنه أحيا الناس جميعًا ، ذلك أن الإنسان يمثل الإنسانية كلها ، إذ كان خلقها جميعًا من نفس واحدة كما يقول الله تعالى :

﴿ يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم الذى خلقكم من نفسٍ واحدةٍ ﴾ [1] .

وفى هذا الحكم الذى أوجبه الله سبحانه وتعالى على بنى إسرائيل تغليظ لجريمة القتل ، وتشنيع عليها ، وتهويل لها ، ووضع القاتل أو من تحدثه نفسه بالقتل أمام تلك الجريمة المفزعة التى يرى فيها الإنسانية كلها وهى جثث هامدة ، وأشلاء ممزقة بين يديه ، حتى أهله وأقرب المقربين إليه من آباء وأبناء إنهم جميعًا من قتلاه .. بل إنه هو نفسه فيمن قتل بيده ؛ إذ كيف يحيا وحده فى هذا العالم الموحش ، وقد خلا من وجه الإنسان .

والمتأمل فى هذه القصة سيجد - كما قلنا فيما سبق - كثيرًا من اللطائف البيانية التى تعينه على استنباط الأحكام والحكم ، والعظات والعبر ، وتدفعه إلى المزيد من التأمل والنظر ، وتفتح له أبوابًا واسعة فى العلم والمعرفة .

* * *

(١) سورة النساء آية : ١ .

قصة إدريس عليه السلام

ذكر الله إدريس عليه السلام مع الأنبياء والمرسلين فى مواضع من كتابه العزيز عَدًّا ولم يذكر له قصة ، ولكن وصفه فى سورة مريم فقال : ﴿ واذكر فى الكتاب إدريسَ إنه كان صديقًا نبيًّا ﴾ (١) ،ووصفه مع جملة من الأنبياء المرسلين فى سورة الأنبياء فقال : ﴿وإسماعيل وإدريسَ وذا الكفلِ كلٌّ من الصابرين · وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ (٢) .

فهو كما وصفه الله صديقٌ نبىٌّ ،صابرٌ ،صالحٌ ،مرفوعٌ عند الله مكانًا عليًّا والصِّدِّيق : هو من بلغ الكمال فى الصدق أو قاربه · وكونه نبيًّا يجعله كاملاً فيه بلا شك ·

إن الصدق من موجبات النبوة ومن أوصافها التى لا تتخلف عنها ، فكل نبى لابد أن يكون متصفًا بالصدق والأمانة معصومًا من الكذب والخيانة ومن كل ذنب كبير وصغير قبل النبوة وبعدها على الأصح من أقوال العلماء ، وهو نبى مرسل لعَدِّه مع جملة المرسلين فى سورة مريم وسورة الأنبياء ·

ووصفه بالصبر يدل على أنه قد لقى من قومه عنتًا شديدًا وأذًى كثيرًا وابتلى بأنواع من البلاء ، فقابلها بالشكر والرضا ؛ لهذا وصفه الله بالصلاح وهو أعظم وصف يتمناه عباد الله المخلصين ·

وصلاح الأنبياء أكمل من صلاح الأولياء ، ولكنهم درجات كما قال تعالى : ﴿تلكَ الرسلُ فضَّلنا بعضَهم على بعضٍ منهم من كَلَّم الله ورفعَ بعضَهم درجاتٍ﴾(٣) .

وقد رفع الله إدريس مكانًا عليًا ، رفعة مكانة لا رفعة مكان ، فعظم من شأنه

---

(١) سورة مريم آية : ٥٦ · (٢) سورة الأنبياء آية : ٨٥ - ٨٦ ·

(٣) سورة البقرة آية : ٢٥٣ ·

وخلد ذكره فى العالمين ، ويظهر لى - والله أعلم - أنه لم يعمر طويلاً ، ولم تكن له شريعة ذات أحكام كثيرة ، ولم يكن فى قصته شىء من العبر يزيد على ما جاء فى قصص الأنبياء من بعده فطواها الله استغناءً عنها لذلك .

هذا .. وقد حاك بعض القصاص من أهل الكتاب وغيرهم ممن لا يقبل قولهم ولا يصح سندهم - فى شأنه - أساطير ، هى إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة ، ذكر بعضها ابن كثير فى البداية والنهاية وحكم عليها بالوضع والكذب .

ولكن من هو إدريس عليه السلام ؟

قال ابن كثير : هو إدريس بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن انوش بن شيث بن آدم أبى البشر عليه السلام .

واسمه فى الكتب السابقة « خنوخ » . وهو فى عمود نسب النبى محمد ﷺ على ما ذكر غير واحد من العلماء .

وهو أول من أعطى النبوة بعد شيث عليه السلام ، وشيث أعطى النبوة بعد أبيه آدم عليه السلام ، ولم يذكر شيث فى القرآن لأن نبوته كانت امتـــداداً لنبوة أبيه ، والله أعلم .

* * *

قصة نوح عليه السلام

بدأت البشرية طريقها فى الحياة مهتدية ، مؤمنة ، موحدة، تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، ثم انحرفت بعد ردح من الزمان عن هذا الصراط السوى المستقيم وخرجت عن الفطرة التى فطرها الله عليها ، وتفرقت بها السبل وتقطعت بها الأسباب ، واستحوذت على الناس الشياطين فأنستهم ذكر الله تعالى حتى عبدوا من دونه ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، ولا يغنى عنهم شيئًا ، فاقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن يرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين ليردوهم إلى فطرتهم التى فطرهم عليها ، ويأخذوا بأيديهم إلى سبيل النجاة من عذابه فى الدنيا والآخرة ·

وكان أول رسول أرسله الله إليهم بعد آدم عليه السلام هو نوح بن لامك عليه السلام ، وكان بينه وبين آدم عشرة قرون [١] كلهم على الإسلام كما جاء فى البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما ·

وقد قال الله عز وجل فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم فى صحيحه [٢] : « وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانًا » ·

وقد وردت أطراف قصة نوح عليه السلام فى سور كثيرة هى: الأعراف، ويونس ، وهود،والأنبياء ، والمؤمنون ،والشعراء ،والعنكبوت ،والصافات،والقمر ·

وأنزلت فى شأنه مع قومه سورة بتمامها ، وأشير إلى مضمون هذه القصة فى سور أخرى للعظة والعبرة ·

وهذه القصة البليغة فى أسلوبها ومعانيها ، ومقاصدها ومراميها ، تصف لنا بوضوح مشرق أول تجربة من تجارب الدعوة إلى الله فى الأرض ، وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية كلها ، وتطلعنا على أطول جولة من

---

(١) القرن: هو الجيل الذى تفنى فيه الأقران،أى الكبار فى السن ، المتماثلون فى المولد ·

(٢) كتاب الجنة حديث رقم (٢٨٦٥) ، ومعنى اجتالتهم الشياطين : استخفتهم وأزالتهم عما كانوا عليه من الإيمان والهدى ·

جولات الصراع بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والهدى والضلال ، وترسم لنا صورة من صور البشرية العنيدة الضالة ، الذاهبة وراء القيادات المضللة ، المستكبرة عن الحق ، المعرضة عن دلائل الهدى وموجبات الإيمان .

ثم هى فى الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى فى رعاية الله لهذا الكائن الإنسانى وعنايته به بإرسال رسله إليه تترا، رسولاً بعد رسول، ليردوه إلى سواء السبيل ، ويزيلوا ما يعترض طريقه إلى الإيمان بخالقه من عقبات وعراقيل .

ثم هى بعد هذا وذاك تعرض صورة من صور الجهد المضنى والعناء المرهق ، والصبر الجميل ، والحلم الرشيد ، والإصرار الكريم من جانب نوح عليه السلام لهداية قومه ، حرصًا عليهم ورحمة بهم .

● دعوته إلى التوحيد :

لبث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، لا يكل ولا يمل من دعوته لهم ليلاً ونهارًا ، وسرًا وجهارًا ، فما زادهم ذلك إلا فرارًا من الهدى ، وإعراضًا عن الحق ، فقد ظلوا يعبدون أصنامهم التى صنعوها بأيديهم ، واتخذوها آلهة يرجون منها الخير ، ويستدفعون بها الشر ، ويردون كل شىء فى الحياة إليها ، وسموها بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، وأوصى بعضهم بعضًا بالعكوف لها غير مبالين بما توعدهم به نبيهم عليه السلام ، وكفوا عن مجالسته والسماع لنصحه ، واتهموه بالضلال والكذب والجنون ، وكانوا إذا رأوه وضعوا أصابعهم فى آذانهم وغطوا وجوههم بثيابهم .

ولكن نوحًا عليه السلام كان يغشاهم فى مجالسهم ، ويسمعهم كلمة الحق رغم أنوفهم ، ويجادلهم فى شأن أصنامهم ، يريهم مدى ما هم فيه من ضلال وجهل وعمى ، فيقولون : يا نوح كيف نؤمن لك وقد اتبعك الأرذلون من الضعفاء والفقراء الذين لا رأى لهم ولا عقل ، وما أنت إلا بشر مثلنا وواحد منا ، تأكل مما نأكل منه، وتشرب مما نشرب ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، ولجوا فى الجدل وأمعنوا فى المراوغة ، وقالوا : ما نرى لك يا نوح ولصحبك علينا من فضل لا فى العقل ولا فى بعد النظر ، ولا فى رعاية المصالح ، ولا فى معرفة المعاد وخاتمة المطاف ، بل نظنكم كاذبين .

فأجابهم نوح عليه السلام فى أناة وحلم واستعطاف عن هذه الشبه وغيرها مما أوردوه عليه مدعمًا أقواله بالحجج المقنعة بأنه ليس من العجب أن يبعث الله إليهم رسولاً منهم فذلك خير لهم وآنس لنفوسهم ، وليس إيمان الفقراء والضعفاء به صارفًا لهم ، فقد كان الأولى بهم أن يكونوا إلى الإيمان أسرع منهم ، ما داموا يعتقدون أنهم أغزر عقلاً وأحسن رأيًا .

وقال لهم : يا قوم أرأيتم لو أننى كنت على بينة من ربى وحجة شاهدة بصدق دعواى ، وآتانى رحمة منه وفضلاً فعمى عليكم القصد واشتبه الأمر ، وحاولتم ستر الشمس بأكفكم ، أو طمس النجوم بأيديكم ، فهل أستطيع لكم إلزامًا أو أملك لحملكم على الإيمان سلطانًا ، وكيف أتخلى عمن آمن بى من الضعفاء والفقراء وأطردهم من مجلسى لكراهتكم إياهم واستخفافكم بهم ، وأنفتكم من مجالستهم ، وقد سوّى الله بينكم وبينهم ، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح، ومن ينصرنى من الله إن طردتهم عن مجلسى ، وأبعدتهم عن ساحتى من أجلكم .

ولما اشتد بينهم وبينه الجدل ، واتسعت هوة الخلاف ، سئموا منه وضاقت صدورهم به ، وقالوا آخر ما عندهم من مقال ليكف عن جدالهم ، ويتنحى تمامًا عن دعوتهم ، وييأس كل اليأس من استجابتهم له وإيمانهم به .

﴿ قالوا يا نُوحُ قد جادلْتنا فأكثرتَ جـــدَالَنَا فأتِنا بما تَعِدُنَا إنْ كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [(١)] .

فرفق بهم نوح وقال : إنكم تسرفون فى الجهل ، وتمعنون فى الحمق ، ومن أنا حتى آتيكم بالعذاب أو أصده عنكم ، وهل أنا إلا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فأبلغكم ما أمرت به وأبشركم بالثواب مرة ، وأنذركم بالعذاب أخرى !! ألا إن مرد كل شىء إلى الله إن شاء هداكم ، وإن شاء استعجل فآذاكم ، وإن شاء أملى لكم ليزيد فى عقابكم ويمعن فى النكاية بكم .

• شكواه إلى الله :

فلما لم يجد نوح عليه السلام حيلة فى هدايتهم بث شكواه إلى الله ، وعرض ما انتهى إليه أمره وما آل إليه حاله ﴿ قالَ ربِّ إنِّى دَعَوتُ قَومِى ليلاً ونهاراً . فلم

(١) سورة هود آية : ٣٢ .

يَزدْهُم دُعائى إلا فِرَارًا . وإنِّى كُلَّما دَعَوتُهم لتَغْفِرَ لهم جَعَلُوا أصابعَهم فى آذانِهِم واستغشَوْا ثيابَهُم وأصرُّوا واستكبَرُوا استكبَارًا ثم إنِّى دَعوتُهُم جِهَارًا . ثم إنِّى أعلَنتُ لهم وأسْرَرتُ لهم إسرَارًا ﴾ (١) وهذه الشكوى لم تكن عن ضجر ولا عن يأس وإنما كانت تنفيسًا عن قلبه المتعب الحزين ، وإبراءً لذمته أمام ربه عز وجل إذ لم يدخر جهدًا فى دعوة قومه وهدايتهم .

وبعد أن عرض شكواه على النحو المفصل فى سورة نوح دعا عليهم بالعذاب الذى طلبوه واستعجلوه ﴿ وقَال نوحٌ ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرينَ ديَّارًا . إنَّكَ إن تَذَرْهُم يُضلُّوا عبادكَ ولا يَلِدُوا إلا فَاجرًا كفَّارًا ﴾ (٢) .

فاستجاب الله له ، وأمره أن يصنع الفلك ويكف عن مخاطبته فى شأنهم فإنهم هالكون لا محالة، فقال جل شأنه : ﴿ وأُوحى إلى نوحٍ أنَّه لن يؤمن من قومِك إلا من قد آمن فلا تبتئسْ بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلكَ بأعيننا ووحْينا ولا تخاطبْنى فى الذين ظلموا إنهم مُغرَقون ﴾ (٣) .

فاتخذ نوح عليه السلام مكانًا قاصيًا عن المدينة وأعد الألواح والمسامير وأخذ يعمل ، ولكنه لم ينج من سخرية القوم واستهزائهم .

فقال بعضهم : إنك يا نوح كنت تزعم قبل اليوم أنك نبى ورسول فكيف أصبحت اليوم نجارًا ، أزهدت فى النبوة ، أم رغبت فى النجارة ؟ . وقال غيرهم : ما بال سفينتك تصنعها بعيدة عن البحار والأنهار ، أأعددت الثيران لجرها ، أم كلفت الهواء حملها ؟! .

ولكنه كعادته لم يكن فاحشًا ولا لعانًا فاكتفى بقوله كما حكى القرآن عنه : ﴿إنْ تسخروا منا فإنَّا نسْخرُ منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتِيه عذابٌ يُخْزيه ويَحِلُّ عليه عذابٌ مقيم ﴾ (٤) .

• نجاته ومن معه من المؤمنين :

واستمر نوح عليه السلام فى صنع السفينة حتى أحكم بناءها وأتقن صنعها ،

---

(١) سورة نوح آية : ٥ – ٩ . (٢) سورة نوح آية : ٢٦ – ٢٧ .
(٣) سورة هود آية : ٣٦ – ٣٧ . (٤) سورة هود آية : ٣٨ – ٣٩ .

وانتظر ما يكون من أمر الله تعالى ، فأوحى إليه أنه إذا جاء أمرنا وظهرت آياتنا فاعمد إلى سفينتك ، وخذ من آمن من قومك وأهلك واحمل معك من كل زوجين اثنين حتى يبلغ الأمر مداه .

قال تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أمرُنا وفار التنورُ قلنا احملْ فيها من كُلٍّ زوجين اثنين وأهْلك إلا من سبق عليه القولُ ومن آمن وما آمنَ معه إلا قليل ﴾ (١) .

وفوران التنور كناية عن اشتداد الأمر واستحكام الخطر ، والتنور : هو ما يخبز فيه .

وتفتحت أبواب السماء بالماء ، وتفجرت عيون الأرض ، وبلغ السيل الزُّبى ، ثم جاوز القيعان والرُّبا ، فهُرع نوح إلى السفينة ، وحمل ما أمره الله بحمله من الإنسان والحيوان والنبات .

وقال لأهله ومن آمن معه : استقروا على ظهر السفينة واحمدوا الله على نعمة النجاة ، ولا يخيفنكم ما ترون من السيول العارمة والأمواج المتلاطمة ، ولا تخشوا على سفينتكم من الغرق فى هذا الطوفان العظيم لضآلتها ، وضعف مقوماتها ؛ فإنها تسبح فى عباب الماء بقدرة الله وعنايته ، وتستوى بمشيئة الله تعالى حيث أراد الله أن تستوى ، ولا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه ، والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين، فإن الله عز وجل قد أوصاه إذا ركب السفينة هو ومن معه أن يثقوا جميعا بالنجاة ، وأن يلهجوا بحمده والثناء عليه ليكون حسن توكلهم وجميل ثنائهم وخالص دعائهم صمام الأمان لهم فى رحلتهم إلى الوجهة التى أرادها الله لهم ، حيث تستقر سفينتهم، ويستتب الأمر لهم بعد أن يهلك عدوهم ، قال تعالى : ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى مُنْزَلاً مباركًا وأنت خيرُ المُنْزِلين ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفورٌ رحيمٌ ﴾ (٣) .

وأطل نوح عليه السلام برأسه ليرى مصارع القوم فأبصر من بينهم ولده-كنعان-يقاوم الأمواج وتقاومه،وكانت شقوة الله قد غلبت عليه فاعتزل أباه ورغب عن

(١) سورة هود آية : ٤٠ . (٢) سورة المؤمنون آية : ٢٨ - ٢٩ .(٣) سورة هود آية: ٤١ .

دينه والتحق بأمه ، فناداه مستعطفًا أن يركب معه السفينة لينجو بنفسه ، وكرر النداء مرة بعد مرة لعل نداءه يصل إلى مكان الإيمان من قبله فيؤمن ، أو يلمس ناحية الشعور فيه فيذعن ، ولكن هذا النداء المتكرر لم يصل إلى شغاف قلبه ، بل لم يتجاوز أذنيه ، فقال فى عناد وصلف وغرور : سآوى إلى جبل مرتفع يعصمنى من الماء ، ولم يعلم هذا الغِرُّ الأثيم أنه لا عاصم له من أمر الله ، ولا مهرب من قضائه وقدره ، فغالبته الأمواج ، وحالت بينه وبين أبيه فلم يعد يرى كل منهما الآخر فكان من المغرقين ، قال تعالى : ﴿ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوحٌ ابنه وكان فى مَعْزِلٍ يا بُنَىَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى إلى جبل يعصمُنى من الماء قال لا عاصمَ اليومَ من أمر الله إلا من رحِمَ وحال بينهما الموجُ فكان من المغرَقين﴾ [1] .

ولما حال الموج بين نوح وولده كنعان ، استبد به الحزن واشتد عليه الكرب ، وغالبه حنان الأبوة ، فاستغاث بربه لينقذ فلذة كبده من الغرق المحقق لعلمه أنه القادر على كل شىء، وقد ظن أن ولده من أهله الذين وعده الله نجاتهم ، فأخبره الله عز وجل أن الكفر قد حال بينهما وأن كلمة العذاب قد حقت على ولده فلا مهرب له منها ، وأن شفاعته له لا محل لها ·

قال تعالى : ﴿ونادى نوحٌ ربَّه فقال ربِّ إنَّ ابنى من أهلى وإن وعدَك الحقُّ وأنت أحكمُ الحاكمين · قال يا نوحُ إنَّه ليس من أهلِك إنه عَملٌ غيرُ صالحٍ فلا تسألنى ما ليس لك به علم إنى أعظُك أن تكونَ من الجاهلين ﴾ [2] .

ولما قضى الله ما هو كائن وأتم إغراق القوم الظالمين ، أمر السماء أن تقلع عن إنزال الماء ، وأمر الأرض أن تغيب الماء فى أعماقها ؛ لتعود الحياة عليها كما كانت قبل الطوفان فى جو آخر يسود فيه الأمن والسلام ، ويعبد المؤمنون فيه ربهم مخلصين له الدين يرجون رحمته ويخافون عذابه ·

قال تعالى : ﴿ وقيل يا أرضُ ابلعى ماءَك ويا سماءُ أَقْلعى وغيضَ الماءُ وقضِىَ الأمرُ واستوتْ على الجودىِّ وقيل بُعداً للقوم الظالمين ﴾ [3] .

---

(١) سورة هود آية : ٤٢ _٤٣ (٢) سورة هود آية : ٤٥ – ٤٦٠ (٣) سورة هود آية : ٤٤ ·

وهبط نوح عليه السلام بسفينته على هذا الجبل بسلام من الله كما أمره الله عز وجل ، وخرج هو ومن معه إلى الفضاء الواسع الفسيح ، يستنشقون نسيم الحرية ، ويتفرغون لعمارة الأرض من جديد بعد أن غسلها الطوفان وطهرها من الشرك وأهله ﴿ قيل يا نوحُ اهبط بسلام منا وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ ممن معك وأممٌ سنمتعهم ثم يَمَسُّهم منا عذابٌ أليم ﴾ (١) .

وظل نوح عليه السلام بعد الطوفان زمنًا يعلم المؤمنين أمور دينهم ، ويزكى نفوسهم بما أوحاه الله إليه من المواعظ والعبر ، حتى لقى ربه عز وجل ، وقد مات المؤمنون الذين كانوا معه فى السفينة واحدًا بعد الآخر ، ولم يتركوا من بعدهم ذرية تخلفهم فى الأرض إلا أولاد نوح عليه السلام وهم سام وحام ويافث ، فإنهم قد تركوا من خلفهم ذرية ، تفرقوا فى الأرض وعمروها ، فكان جميع أفراد البشر من نسلهم . فسام أبو العرب والعبريين ، وحام أبو السودان والحبشة وغيرهم من الأفارقة، ويافث أبو الترك وغيرهم من العجم .

قال تعالى : ﴿ وجعلنا ذريَّتَه هم الباقين ﴾ (٢) .

وحفظ الله لنوح عليه السلام ذكراه العطرة في كل أمة من العالمين ، فكل مؤمن يذكره يسلم عليه تحية له وتعظيمًا لمكانته ، فهو الأب الثانى للبشرية وهو أول من دعا إلى الله على بصيرة ، وتعرض للأذى من قومه فى سبيل دعوته ، وهو من أولى العزم ، وأصحاب الهمم العالية والأخلاق السامية ، وهو المثل الأعلى لغيره من الأنبياء والمرسلين .

قال تعالى : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلامٌ على نوحٍ فى العالمين . إنَّا كذلك نجزِى المحسنين . إنَّه من عبادنا المؤمنين ﴾ (٣)

* * *

---

(١) سورة هود آية : ٤٨ . (٢) سورة الصافات آية : ٧٧ .

(٣) سورة الصافات آية : ٧٨ - ٨١ .

قصة هود عليه السلام

تفرقت ذرية نوح عليه السلام بعد موته فى الأرض ليعمروها ، فمنهم من سكن الشام ، ومنهم من استوطن العراق ، ومنهم من أقام فى مصر ، واتخذ قوم عاد لهم سكنًا شرقى عدن باليمن قرب ساحل البحر الأحمر يقال له الأحقاف ، والأحقاف : جمع حقف ، وهى الرمال الغزيرة والروابى المرتفعة ، وكانت أرضهم قاحلة يقل فيها الماء ، ويعتمدون فى السقيا على ماء المطر .

وقد أمدهم الله بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، وزادهم فى الخلق بسطة وقوة لا مثيل لها ، كما قال جل شأنه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيفَ فَعَلَ ربُّك بعادٍ إِرَمَ ذاتِ العِمَادِ التى لم يُخْلَقْ مثلها فى البلادِ ﴾ [1] أى مثل قبيلة عاد ، وليس هناك بلد تسمى إرم – كما يظن كثير من الناس – ليس فى البلاد مثلها ، بل إرم اسم جد لهم ، وتسمى هذه القبيلة عاد إرم ، وسميت أيضًا فى القرآن بعاد الأولى وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى﴾[2] وهم أبناء عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

وقد كان هؤلاء القوم يعبدون الله عز وجل على دين أبيهم نوح عليه السلام زمنًا ، فلما طال بهم العمر قست قلوبهم وساءت أخلاقهم ، وفسدت طباعهم ، واجتالتهم الشياطين ، فسولت لهم عبادة الأصنام ، فاتخذوها آلهة ، يدعونها رغبًا ورهبًا كما كان يفعل قوم نوح عليه السلام ، فأرسل الله إليهم رسولاً من أنفسهم ، هو هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

فدعاهم إلى التوحيد الخالص ، والدين القيم بلغتهم التى يتكلمون بها وهى العربية .

كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومه ليُبيِّنَ لهم ﴾ [3] وكان من أوسطهم نسبًا ، وأعرقهم حسبًا ، وأفصحهم لسانًا ، وأعذبهم بيانًا ،فأدلى إليهم

---

(١) سورة الفجر آية : ٥ – ٨ . (٢) سورة النجم آية : ٥٠ .

(٣) سورة إبراهيم آية : ٤ .

بالحجج المقنعة والبراهين الساطعة على صدق ما دعاهم إليه ، وحضهم عليه ، وأنذرهم به ، وحذرهم منه فأعرضوا عنه ، وأغلظوا له القول ، واتهموه بالسفه والجنون والكذب .

وقالوا : يا هود ما أنت إلا سفيه طائش الحلم ، فاسد العقل ، كيف تعيب آلهتنا ، وتعيب ما وجدنا عليه آباءنا ؟ من أنت من بيننا ؟ وبأى شىء تتميز علينا ، حتى يخصك الله بالرسالة من بيننا ؟ هلاّ اختار لها عظيمًا من عظمائنا ذا مال وسعة وجاه وسيادة ؟ .

قال هود عليه السلام : يا قوم ليس بى سفاهة عقل ولا حماقة رأى ، وما جربتم علىَّ مِنْ كذب ، ولقد لبثت فيكم عمرًا طويلاً لم تروا منى إلا خيرًا ، وما العجب فى أن يختص الله واحدًا من خلقه برسالته ويؤتيه من لدنه علمًا وقدرة على تبليغها بالحكمة والموعظة الحسنة ، والحجة البالغة ، ففكروا بعقولكم فيما دعوتكم إليه ، وانفذوا إلى حقائق هذا الكون ببصائركم ، تروا أن كل شىء فى هذا الوجود يدل على أن الله واحد لا شريك له ، فآمنوا به ، واستغفروه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويمددكم بأموال فوق أموالكم ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين، واعلموا أنكم بعد موتكم سوف تبعثون ، من عمل صالحًا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، فتدبروا لأنفسكم وخذوا الأهبة لآخرتكم ، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ولكنى أراكم قومًا تجهلون .

ولكنهم لووا رءوسهم ، ودارت أعينهم ميمنةً وميسرة وقالوا يا هود : ما جئتنا بخير ، وما أتيت على قولك هذا ببينة ، وما نقول إلا أن إلهًا من آلهتنا قد أصابك بسوء فأفسد عليك عقلك ورأيك ، ثم ما هذا الاستغفار الذى يرسل الله به السماء علينا مدرارًا ويمدنا بالمال ويزيدنا فى القوة ؟، وما يوم البعث الذى تزعم أننا نعود فيه بعد أن نصبح عظامًا نخرة ، وجثثًا بالية ؟، هيهات هيهات لما تعد وتزعم ، وما هى إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين .

ثم ما العذاب الذى تعدنا وتتوقع أن نلقاه ؟ ،إننا لن نذعن لما تقول ، ولن نرجع عن عبادة آلهتنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

فلما تبين له أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ، أشهد الله عليهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، وتبرأ منهم ، وتحداهم أن يصيبوه بسوء إن استطاعوا ، فلم يستطع أحد على كثرتهم وقوتهم أن يناله بأذى ، وفى هذا التحدى معجزة على صدق دعوته ·

ولعلهم سألوه عن السر الذى عصمه منهم ، والقوة التى حالت بينهم وبينه ، فأخبرهم بأنه قد توكل على الذى بيده نواصى الخلق جميعًا ، فعصمه منهم ؛ لأنه هو صاحب الأمر والقوة ، الغالب الذى لا يغلب ، والقاهر الذى لا يقهر ·

﴿ قالوا يا هودُ ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين · إن نقولُ إلا اعتراكَ بعضُ آلهتنا بسوءٍ قال إنى أُشهد الله واشهدوا أنى برئٌ مما تشركون · من دونه فكيدونى جميعًا ثم لا تُنظِرُون · إنى توكلتُ على الله ربى وربكم ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها إنَّ ربى على صراطٍ مستقيمٍ ﴾ (١) ·

وظل هود عليه السلام يترقب ما يحل بهم ، فما هى إلا أيام حتى رأوا سحابة سوداء قد أظلتهم ، فحسبوها من السحب الممطرة ، ففرحوا واستبشروا وهيأوا أنفسهم لاستقبالها ، فأخبرهم أنها العذاب الذى استعجلوه ، قد حل بساحتهم ونزل بواديهم ·

قال تعالى : ﴿ فلما رأوْه عارضًا مستقبلَ أوديتِهم قالوا هذا عارضٌ مُمطرنا بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذابٌ أليم · تُدمِّر كلَّ شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يُرَى إلا مساكنُهم كذلك نجزى القومَ المجرمين ﴾ (٢) ·

واستمرت هذه الريح حتى أتت على آخرهم فى سبع ليال وثمانية أيام متتابعة ، فجعلتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ونجّى الله هودًا ومن معه من المؤمنين ، كما نجا نوحًا ومن معه من قبل فى الفلك المشحون ، وتلك سنة الله فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً · وقد وردت أطراف هذه القصة فى سورة الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء ، وفصلت والأحقاف ، والذاريات والقمر ، والحاقة والفجر وغيرها ·

* * *

---

(١) سورة هود آية : ٥٣ - ٥٦ · (٢) سورة الأحقاف آية : ٢٤ - ٢٥ ·

قصة صالح عليه السلام

لما أهلك الله عادًا بذنوبهم ، وطهر الأرض من أرجاسهم ، أورثها ثمود فعمروها أكثر مما عمروها ، وفجروا فيها العيون والآبار ، وغرسوا فيها الحدائق والبساتين ، ونحتوا لهم فى الجبال بيوتًا ، ووسع الله عليهم فى الرزق ، وأمدهم بأنعام وبنين ، فطغوا وبغوا ، وعبدوا غيره ، وكانوا أشد من قوم عاد ظلما وعلوًا ، وكانوا يسكنون بالحِجْر فى شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام ، فأرسل الله إليهم صالحًا بن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، عليه وعلى جميع الأنبياء السلام .

فدعاهم إلى عبادة الله ، وحضهم على توحيده ، فهو الذى خلقهم ، وعمر بهم الأرض ، واستخلفهم فيها ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة .

ونهاهم عن عبادة الأصنام فإنها لا تنفعهم ولا تضرهم ، ولا تملك لهم من الله شيئًا ، وحذرهم مغبة الشرك ، وعاقبة الظلم والإفساد فى الأرض .

وذكرهم بأواصر القربى التى تربطه بهم ، ووشائج النسب التى تصل بينه وبينهم ، فهم قومه وأبناء عشيرته ، وقد عاش فيهم عمرًا طويلاً ، يحسن إلى صغيرهم وكبيرهم ، وما جربوا عليه من كذب ولا خيانة ، وما عرفوه إلا رجلاً كريمًا حليمًا ودودًا ، رشيدًا سديدًا فى أقواله وأفعاله ، فما عليهم إلا أن يستجيبوا إليه ويؤمنوا به ، وقد جاءهم بالبينات من ربه ، وأتاهم بما فيه خيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وهو لا يرجو منهم على دعوته أجرًا ، ولا يريد أن يكون عليهم ملكًا ، وما أمرهم بما يشق عليهم ، بل أمرهم أن يعبدوا الله ويستغفروه ويتوبوا إليه، فهو لمن دعاه قريب ، ولمن سأله مجيب .

قال تعالى : ﴿ وإلى ثمودَ أخاهم صالحًا قال يا قومِ اعبدوا الله مالكم من إله غيرُه هو أنشأكم من الأرضِ واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إنَّ ربى قريبٌ مجيبٌ ﴾ (١) .

---

(١) سورة هود آية : ٦١ .

لكن القوم قد صموا آذانهم عن هذه الدعوة الكريمة ، وتمسكوا بما كان عليه آباؤهم ، وهزئوا برسولهم وأنكروا عليه نبوته ، ولاموه فيها ، وأنبوه على صدورها منه ، وارتابوا فى أمره .

﴿ قالوا يا صالحُ قد كنتَ فينا مَرْجُوًّا قبلَ هذا أتنهانا أن نعبدَ ما يعبدُ آباؤنا وإننا لفى شكٍ مما تدعونا إليه مُريبٍ ﴾ (١) .

أى قالوا : يا صالح لقد عهدناك ثاقب الفكر ، مصيب الرأى ، لا تقول إلا حقًا ، ولا تتكلم إلا بخير ، وكنا ندخرك لُملمَّات الدهر ، تضيء ظلماتها بنور عقلك، وتحل معضلاتها بصائب رأيك ، وكنا نرجو أن تكون عُدَّتَنا حين يحزب الأمر ويشتد الخطب ، فنطقت هُجرًا (٢) وأتيت نكرًا ، ما هذا الذى تدعونا إليه ؟! أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا ، وقد درجنا عليه ونشأنا متمسكين به ! إننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ، ولا نطمئن إلى قولك ، ولا نثق بصدق دعوتك ولن نترك ما وجدنا عليه آباءنا ، ونميل مع هواك وزيفك .

فحذرهم مخالفته وأعلن فيهم رسالته ، وذكرهم بما أسبغ الله عليهم من نعمه ، وخوفهم بأسه وبطشه ، وأبان لهم أنه لا يرجو من وراء دعوته نفعًا ، ولا يطمع فى مغنم ، أو يتطلع إلى رياسة ، وهو لم يسألهم أجرًا على الهداية ، ولا يطلب جزاءً على النصيحة، وإنما أجره على الله رب العالمين ، درءًا لكل شبهة قد تساور نفوسهم، ودفعًا لكل شك قد يجول فى خواطرهم .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبتْ ثمودُ المُرسَلينَ . إذا قالَ لهم أخوهم صالحٌ ألا تَتَّقُونَ . إنِّى لكم رسولٌ أمينٌ . فاتقوا اللهَ وأطيعونِ . وما أسألُكُم عليه من أجرٍ إن أَجْرِىَ إلا على ربِّ العالمينَ . أتُتْرَكُونَ فى ما هاهنا آمنين . فى جناتٍ وعيونٍ . وزروعٍ ونخلٍ طلعُها هضيمٌ . وتَنْحتُونَ من الجبالِ بيُوتًا فارهين . فاتقُوا اللهَ وأطيعونِ . ولا تُطِيعُوا أمرَ المسرفينَ . الذين يُفسِدون فى الأرضِ ولا يُصلِحُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة هود آية : ٦٢ .   (٢) هجرا : قبحًا وزورًا .
(٣) سورة الشعراء آية : ١٤١ - ١٥٢ .

وتمادى القوم فى غيهم وضلالهم ، وأغلظوا له فى القول ، واتهموه بالسحر ، وسألوه معجزة تكون دليلاً على صدقه ، وبرهانًا على صحة دعوته ، وتفننوا فى هذا الطلب وغلوا فيه وبالغوا ، سخرية منهم به ، واستهزاء بدعوته .

ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يومًا فى ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله ، وذكرهم وحذرهم ، ووعظهم وأمرهم ونهاهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة ، من صفتها كيت وكيت ، وذكروا أوصافًا سموها ، وتعنتوا فيها ، فقال لهم النبى صالح عليه السلام : أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوننى فيما أرسلت به إليكم ، قالوا : نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له أن يصلى ، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه الذى طلبوه ، فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ومنظرًا هائلاً ، وقدرة باهرة ، ودليلاً قاطعًا ، وبرهانًا ساطعًا ، فآمن بعضهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، ولهذا قال تعالى : ﴿ وآتينا ثمودَ الناقةَ مُبصرةً فَظَلَموا بها ﴾[1] .

وقد سميت هذه الناقة « ناقة الله » تشريفًا لها وتعظيمًا لشأنها . واشترط عليهم صالح عليه السلام أن يتركوها ترعى فى أرض الله تعالى ، ولا يتعرضوا لها بسوء حتى لا يصيبهم العذاب الأليم ، واقتضى الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وترد الماء يومًا بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك ، فكانوا يرفعون حاجاتهم من الماء فى يومهم لغدهم ، ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ، قال تعالى : ﴿ وإلى ثمودَ أخاهمُ صالحًا قالَ يا قومِ اعبُدُوا اللهَ مالكم من إلهٍ غَيْرُهُ قد جاءَتْكُم بينةٌ من ربِّكم هذه ناقةُ اللهِ آيةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فى أرضِ اللهِ ولا تَمَسُّوها بسوءٍ فيأخُذَكُم عذابٌ أليمٌ ﴾ [2] .

---

(١) سورة الإسراء آية : ٥٩ . (٢) سورة الأعراف آية : ٧٣ .

وقال تعالى : ﴿ قالَ هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكم شِرْبُ يومٍ معلومٍ . ولا تَمَسُّوها بسوءٍ فيأخُذَكم عذابُ يومٍ عظيمٍ ﴾ [1] .

فلما طالت عليهم هذه الحال اجتمع ملؤهم ، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ، ويتوفر عليهم ماؤهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم .

قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم وقالوا يا صالحُ ائتِنَا بما تَعِدُنَا إن كنتَ من المُرسَلِين ﴾ [2] .

وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم قدّار بن سالف ، بمعونة ثمانية من أفراد القبيلة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وكانَ فى المدينةِ تسعةُ رَهْطٍ يُفسِدون فى الأرض ولا يُصلِحُون . قالوا تَقَاسَمُوا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهلَهُ ثم لنقولَنَّ لوليِّه ما شَهِدْنَا مَهْلِكَ أهْلِه وإنَّا لصادِقُون ﴾ [3] .

أى قال بعضهم لبعض : احلفوا بالله أن نذهب إلى صالح فى بيته ، فنقتله هو وأهله ، ثم نقول لوليه - أى لعصبته - ما قتلناه ولا شهدنا قتله ، وظنوا أنهم قادرون على ذلك ، ولكن الله كان من ورائهم محيطًا .

قال تعالى : ﴿ ومكَرُوا مكْرًا ومكَرْنَا مكْرًا وهم لا يَشعرون فانظر كيف كان عاقبةُ مكرِهم أنَّا دمَّرْنَاهم وقومَهم أجمعين . فتلك بيُوتُهُم خاويةً بما ظَلَمُوا إنَّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يَعْلَمُون . وأنَجْيَنَا الذين آمَنُوا وكانوا يَتَّقُون ﴾ [4] .

وقد متعهم الله فى ديارهم بعد قتل الناقة ثلاثة أيام ، فى اليوم الأول اصفرت وجوههم ، وفى اليوم الثانى احمرت وجوههم ، وفى اليوم الثالث اسودت وجوههم ، وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ فَعَقَرُوها فقال تَمَتَّعُوا فى دارِكم ثَلاثةَ أيامٍ ذلك وَعْدٌ غيرُ مكذوبٍ ﴾ [5] .

---

(١) سورة الشعراء آية : ١٥٥ - ١٥٦ .
(٢) سورة الأعراف آية : ٧٧ .
(٣) سورة النمل آية : ٤٨ - ٤٩ .
(٤) سورة النمل آية : ٥٠ - ٥٣ .
(٥) سورة هود آية : ٦٥ .

وفى صبيحة اليوم الرابع جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ، ورجفة شديدة من أسفلهم فغاضت الأرواح ، وزهقت النفوس ، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين جثثًا لا أرواح فيها ، ولا حراك بها ٠

قال تعالى : ﴿ فلمَّا جاءَ أمرُنا نَجَّيْنَا صالحًا والذين آمنوا معه برحمةٍ منَّا ومن خِزىِ يومئذٍ إن ربَّك هو القوىُّ العزيزُ ٠ وأخذَ الذين ظَلَمُوا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارِهم جاثمين ٠ كأن لم يَغْنَوْا فيها ألا إنَّ ثمودَ كَفَرُوا ربَّهم ألا بُعْدًا لثمودَ ﴾ (١) ٠

وقال جل شأنه : ﴿ كذبتْ ثمودُ بطَغْوَاها ٠ إذ انبعَثَ أشقاها ٠ فقال لهم رسولُ اللهِ ناقةَ اللهِ وسُقْيَاهَا ٠ فكَذَّبُوه فعَقَرُوهَا فدَمْدَمَ عليهم ربُّهم بذنبهم فسوَّاها ٠ ولا يخافُ عُقْبَاهَا ﴾ (٢) ٠

ولقد كان الطغيان هو السبب فى تكذيب ثمود ، وكان كفرهم وعقرهم الناقة هو السبب فى إهلاكهم ٠

وقد عرفنا من سياق الآيات أن الذى قتل الناقة واحد منهم ، تعاون معه فى قتلها آخرون ، لكن التبعة تقع عليهم جميعًا ، لأنهم لم يأخذوا على يد الظالم ، ولم يمنعوه من عقرها ، بل استحسنوا فعلته ، واستخفوا بوعيد الله عز وجل ، فسوى الله أرضهم ، ودمرها عليهم تدمير من لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ٠

﴿ وكذلك أخذُ ربِّك إذا أخذ القرى وهى ظالمةٌ إن أخذَه أليمٌ شديدٌ ﴾ (٣) ٠

* * *

---

(١) سورة هود آية : ٦٦ – ٦٨ ٠

(٢) سورة الشمس آية : ١١ – ١٥ ٠

(٣) سورة هود آية : ١٠٢ ٠

قصة إبراهيم عليه السلام

● مولده ونشأته :

في العراق .. في أرض بابل .. في عهد ملك طاغية اسمه نمروذ ، وفي بلدة « فدام آرام » ، ولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وأبوه : تارح بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن خالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

ولقب تارح : آزر ، كما قيل ، وقيل إن آزر اسم لعمه، والله أعلم بالصواب .

وقد نشأ إبراهيم عليه السلام وسط فريقين ضالين ، فريق كانوا يعبدون الأصنام ، ويتمسحون بها ، ويدعونها رغبًا ورهبًا ، ويرجون منها جلب الخير ودفع الضر ، وفريق كانوا يعبدون الكواكب ويصنعون لها الهياكل ، ويسمونها بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، ويزعمون أنها أرباب ، بعضها أشد من بعض ، وأنها تدعى فتجيب وتنفع وتضر .

ولكنه - عليه السلام - كان بمعزل عن هؤلاء وهؤلاء فقد عصمه الله من زلاتهم وترهاتهم ومعتقداتهم الفاسدة ، فنشأ طرازًا فريدًا في اتجاهاته وأخلاقه وسلوكه وعقيدته ، مع أن أباه كان يصنع تلك الأصنام التي كان يعبدها قومه ، ويبيعها لهم ، ويعبدها معهم .

لقد دعته فطرته إلى مخالفة هذه العقائد الفاسدة ، وأعانه عقله الرشيد ، وقلبه الكبير ، وضميره الحي على معرفة ربه ، والاتجاه إليه ، وهو لم يزل في مطلع شبابه، قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَه من قبلُ وكنَّا به عالمِين ﴾ [1] .

ولما بلغ الأربعين بعثه الله رسولاً إلى الناس مبشرًا ونذيرًا ، وداعيًا إليه بإذنه ، فبدأ بدعوة أبيه ، بإسلوب هادئ مشرق مقنع ، فيه أدب وتلطف ورعاية للأبوة الحانية مع شدة لا تخل بالأدب ولا تتنافى مع المروءة والمودة .

● دعوته لأبيه :

لقد ذكر الله حوار إبراهيم مع أبيه آزر في سورة الأنعام ، وهو حوار ساخن

(١) سورة الأنبياء آية : ٥١ .

مقتضب يعلن فيه إبراهيم عليه السلام اعتراضه وغضبه وإنكاره لما عليه آزر ، دون أن يذكر الله لآزر ردًا ، إشعارًا بأنه لا يجد الرد ولا يقدر عليه ، لأن الحق أبلج ، وحجته قاهرة ، ولا يسعه إلا اتباعه من غير إمهال ولا تباطؤ .

﴿ وإذ قال إبراهيمُ لأبيه آزر أتتخذُ أصنامًا آلهةً إنى أراك وقومَك فى ضلال مبين ﴾ (١) .

وذكر الله حوارًا آخر لإبراهيم عليه السلام مع أبيه فى سورة مريم ، لا تظهر فيه هذه الشدة ، ولكن تظهر فيه الملاطفة والملاينة والدعوة إلى تحكيم العقل والضمير، فقد كرر إبراهيم عليه السلام النداء بلفظ الأبوة أربع مرات ، وجعل نهاية المطاف سلامًا عليه مع وعده بالاستغفار له ، وإظهار الترحم عليه ، والحفاوة به ، وهذا فوق أنه أدب يوجبه حق الأبوة ه ـ و أدب تقتضيه النبوة .

قال تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيمَ إنَّه كانَ صدِّيقًا نبيًّا ۝ إذْ قالَ لأبيه يا أبَتِ لِمَ تعبدُ ما لا يَسمعُ ولا يُبصرُ ولا يُغنى عنك شيئًا ۝ يا أبتِ إنِّى قد جاءَنى من العلم ما لمْ يَأْتك فاتَّبعنى أهْدكَ صراطًا سويًّا ۝ يا أبتِ لا تعبد الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كانَ للرحمنِ عَصيًّا ۝ يا أبتِ إنِّى أخافُ أن يَمَسَّك عذابٌ من الرحمن فتكون للشيطانِ وَليًّا ۝ قال أراغبٌ أنتَ عن ءالهتى يا إبراهيمُ لئن لم تَنْتَه لأرجمنَّك واهجرنى مَليًا ۝ قالَ سلامٌ عليك سأسْتَغفرُ لك ربِّى إنَّه كانَ بى حَفيًّا ﴾ (٢) .

ولم يعِدْ إبراهيم عليه السلام أباه بالاستغفار له إلا حين رأى منه ميلاً ما إلى اتباعه ، والتسليم بدعوته، فلما رأى أنه لا يؤمن ولا يستجيب بسبب التقليد الأعمى والتعصب الجامح، والحب الغامر للمال والرياسة - تبرأ منه وعدل عن الاستغفار له.

قال تعالى : ﴿ وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن موعِدَةٍ وعدها إيَّاه فلما تبينَ له أنه عدوٌّ لله تَبَرأَ منه إن إبراهيمَ لأواهٌ حليمٌ ﴾ (٣) .

﴿ أواه ﴾ رجَّاع إلى ربه يتوب إليه ويستغفره ، ويشكو إليه هَمَّه وحزنه ، وما يلقاه من أبيه وقومه ، ﴿ حليم ﴾ لا يجهل على أحد ، ولا يتجاوز حَدَّه فى المقال

---

(١) سورة الأنعام آية : ٧٤ .   (٢) سورة مريم آية : ٤١ - ٤٧ .

(٣) سورة التوبة آية : ١١٤ .

ولا فى الفعال ، ولا يتكلم إلا بخير ، والحلم سيد الأخلاق وجماع الفضائل ، ومنبعها ومصبها وهو أكمل ما يكون فى الأنبياء ، وقد تجلى بوضوح تام فى إبراهيم عليه السلام ، تراه ماثلاً فى قصته من أولها إلى آخرها ، لهذا قربه الله إليه وأدناه من حضرة قدسه وأراه ملكوت السماوات والأرض واتخذه خليلاً ٠

• حواره مع أبيه وقومه :

وبعد أن بدأ إبراهيم عليه السلام دعوته لأبيه بوصفه رئيس القوم وكبيرهم ، ووجد منه صدوداً وإعراضًا ، وسمع منه ما لا ينبغى أن يقوله والد لولده ، اتجه إلى قومه - ومعهم أبوه - يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، بأسلوب واضح ، وحجة مقنعة ، وبرهان ساطع ، فى حوار هادئ ذكره الله جل شأنه فى سورة الأنبياء والشعراء والصافات وغيرها ٠

وقد تكرر حواره معهم فجاء كل حوار على حسب ما تمليه عليه الظروف والمواقف ، ومقتضيات الأحوال ، ولعل أول حوار وقع بينه وبين قومه ما جاء فى سورة الشعراء ٠

فقد كان حوارًا يشبه الحوار الذى أجراه مع أبيه من قبل ، فقد بين لهم بطريق الاستفهام أن هذه الأصنام لا تسمعهم حين يدعونها ، ولا تنفعهم حين يستجدونها ، ولا تضرهم حين يستنجدون بها ، فما وسعهم إلا أن يتعللوا فى عبادتها بأنهم وجدوا آباءهم هكذا يفعلون ، فشهدوا على أنفسهم بسفه العقل وضآلة الفكر ، وفساد الرأى وسوء الصنيع ، والتعصب الأعمى ، وشهدوا على أصنامهم بهذا التقليد الذى أفصحوا عنه بأنها لا تسمع ولا تبصر حقًا ، وأنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تغنى عنهم شيئًا ٠

وقد تلطف بهم إبراهيم عليه السلام فى دعوتهم إلى الله ، فحدثهم عن نفسه وعن عقيدته ، واتجاهه ، ومنهجه ، وذكرهم بالبعث والنشور وما يلقى فيه المجرمون من خزى ونكال ، وما يلقى فيه أصحاب القلوب السليمة من نعيم مقيم فى جنات النعيم ، وهو أسلوب حكيم يشد إليه النفوس الجامحة ، ويأخذ بتلابيب العقول الشاردة ، ويرقق القلوب القاسية من غير أن يجرح المشاعر ، أو يثير الحمية المتسلطة، أو يبعث الضغائن الكامنة ، إنه أسلوب يترك المرء مع نفسه يفكر ويتدبر ويوازن ، بين

حاله وحال من دعاه إلى الهدى بطريق غير مباشر ، ثم يقرر فى هدوء ما يراه ، ويطمئن إليه ٠

اقرأ هذه الآيات بتدبر وإنعام نظر ، وحاول أن تتلمس ما فى ثناياها من لطائف وعبر ، فوق ما ذكرناه لك وبالله توفيقك ٠

يقول الله تعالى : ﴿ واتلُ عليهم نبأَ إبراهيمَ ٠ إذْ قالَ لأبيه وقومه ما تعبدُون ٠ قالوا نعبدُ أصنامًا فنظلُّ لها عاكفين ٠ قال هل يسمعُونكم إذ تَدْعُونَ ٠ أَو ينفعونكم أو يضرُّون ٠ قالوا بل وجدنا آباءَنا كذلك يفعلون ٠ قال أفرأيتُم ما كنتم تَعْبُدُون ٠ أنتم وآباؤكم الأقدمون ٠ فإنَّهم عدوٌّ لى إلا ربَّ العالمين ٠ الذى خَلَقَنى فَهُوَ يهدِينِ ٠ والذى هو يُطعمُنى وَيسْقينِ ٠ وإذا مرضتُ فهو يَشْفينِ ٠ والذى يُميتُنى ثم يُحيينِ ٠ والذى أطمعُ أن يَغفرَ لى خطيئَتى يومَ الدِّين ٠ ربِّ هَبْ لى حُكمًا وألحقنِى بالصالحين ٠ واجعلْ لى لسانَ صدقٍ فى الأخرِين ٠ واجعلْنى من ورَثَة جنَّة النَّعيمِ ٠ واغفرْ لأبى إنَّه كانَ من الضَّالِّين ٠ ولا تُخْزِنِى يومَ يُبْعثُون ٠ يومَ لا ينفعُ مَالٌ ولا بنونَ ٠ إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ﴾ [١] .

والحوار الثانى ما جاء فى سورة الأنبياء ، وقد تميز عن سابقه بالشدة والحدة ، وإعلان الحرب عليهم ، وعلى أصنامهم ، وذلك لما أعيته الحيل فى هدايتهم إلى الدين القيم الذى فطر الله الناس عليه ، ورضيه لهم وتعبدهم به ٠

قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشدَهُ من قبلُ وكُنَّا به عالمين ٠ إذْ قالَ لأبيه وقومِه ما هذه التماثيلُ التى أنتم لها عاكفون ٠ قالوا وَجَدْنا آباءَنا لها عابدين ٠ قالَ لقد كنتُم أنتم وآباؤكم فى ضلالٍ مبينٍ ٠ قالوا أجئتَنا بالحقِّ أم أنتَ من اللاَّعبين ٠ قال بل ربُّكم ربُّ السماواتِ والأرضِ الذى فَطَرهُنَّ وأنا على ذلِكم من الشاهِدين ٠ وتاللهِ لأكيدَنَّ أصنامكم بعد أن تُولُّوا مُدبِرِين ﴾ [٢] .

• تحطيمه الأصنام :

وقد عزم إبراهيم عليه السلام على ما أقسم عليه، وتحين الوقت المناسب لذلك ، فاغتنم الوقت الذى يخرجون فيه يوم عيدهم للنزهة والسياحة ، فتسلل خفية إلى

(١) سورة الشعراء آية : ٦٩ - ٨٩ ٠ (٢) سورة الأنبياء آية : ٥١ - ٥٧ ٠

أصنامهم فحطمهـــا وعلق الفأس على كبيرهم،لعلهم يسألونه عن الذى حطَّم أصنامهم ، ويلومونه على تمكينه من ذلك ، فلا يجدون له جوابًا ، ولا حراكًا فيعلمون حينئذ علم اليقين صدق ما قاله لهم فيستجيبون له ويؤمنون به ·

قال تعالى : ﴿ فجعلَهم جُذَاذًا إلا كبيرًا لهم لعلَّهم إليه يَرجِعُون ﴾ [١] ·

وأفصحت سورة الصافات عن الطريقة التى سلكها فى التسلل إليها ، والآلة التى حطمها بها فقال جل شأنه : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تَعبُدون · أئفكًا آلهةً دونَ الله تُريدُون · فما ظَنُّكم بربِّ العالَمين · فَنَظَرَ نَظْرَةً فى النُّجومِ · فقالَ إنى سقيمٌ · فتولَّوا عنه مُدبِرين · فراغَ إلى آلهتِهم فقالَ ألا تَأكلُون · مالكم لا تَنطِقون · فراغَ عليهم ضربًا باليَمين ﴾ [٢] ·

واليمين : هى الفأس ، وقيل المراد بها اليد اليمنى ، وقيل المراد باليمين القوة، وكلها معان يقوى بعضها بعضًا ·

● موقف قومه منه بعد تحطيم أصنامهم :

جاء القوم من سياحتهم إلى أصنامهم ، وقد وضعوا الطعام عندها لتباركه ، فوجدوها مهشمة ، ملقاة على الأرض ، ووجدوا الفأس معلقًا على كبيرهم ، فهاجوا وماجوا وسقط فى أيديهم ، وعرفوا أن الذى حطمها هو إبراهيم ، فسألوه على رءوس الأشهاد عن تهشيمها فأومأ إلى كبيرهم ، وقال فى سخرية واستهزاء - كما حكـــى القـــرآن عنه : ﴿ قال بل فَعَلَه كبيـــرُهم هذا فَاسْألُوهم إنْ كانوا يَنطقُون ﴾[٣] ·

بهذا الأسلوب الساخر القاتل ، يجيب إبراهيم عليه السلام على اتهام القوم له: أنا لم أفعل هذا بتلك الأصنام ، بل الذى فعله هو كبيرهم هذا الذى ترونه قائمًا على هذه الأشلاء ، لقد قامت بينه وبين أتباعه معركة ، وليس ببعيد ، فما أكثر أن يقع الخلاف بين المتبوع والتابعين ، وما أكثر ما يملك المتبوع من القوة والسلطان ما يضرب به أتباعه الضربة القاضية ، وليس من المستبعد إذن أن يكون قد وقع خلاف بين هذا الصنم الكبير ، وبين أتباعه ، فأخذهم ببأسه ونكل بهم هذا التنكيل الذى ترون ، فإن كنتم لا تصدقون ﴿ فاسألـــوهم إن كانوا ينطقـــون ﴾ أى إن كان فى قدرتهم

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٥٨ · (٢) سورة الصافات آية : ٨٥ - ٩٣ ·
(٣) سورة الأنبياء آية : ٦٣ ·

أن ينطقوا ، وأن يكشفوا عن الجانى الذى جنى عليهم ، وحطّم رءوسهم ، ومزّق أشلاءهم .

ولم يرد إبراهيم أن يسألوا هذا الصنم الكبير ، بل دعاهم إلى أن يسألوا المجنى عليهم فهم أعرف بمن جنى عليهم إن كان بهم قدرة على الكلام ، أما الجانى فقد ينكر جنايته ولا يكشف عن فعلته .

فماذا كان منهم بعد هذه المواجهة الصارمة ؟

لقد رجعوا إلى أنفسهم يلومونها على ما وقع منها من تفريط فى حق آلهتهم ، وكيف أنهم غفلوا عنها حتى تمكن إبراهيم من تحطيمها ، وكيف وكيف .... ؟

ثم عاودتهم إشراقة من نور ، فاعترفوا لإبراهيم عليه السلام ، وهم ناكسوا الرءوس ، تعلوا وجوههم ذلة بأن هذه الآلهة لا تنطق ، فكيف نسألها ، وما كادت هذه الشرارة المضيئة تنطلق حتى نفخ فيها الهوى والضلال فماتت فى مهدها ، وخبت فى مكانها ، فاشتدت عداوتهم لهذا النبى الكريم ، وأوصى بعضهم بعضًا بإحراقه نصرة لآلهتهم المهشمة ، وهو أسلوب من أعيته الحيل فى طمس الحق وإطفاء نور الهداية ، قال تعالى : ﴿ فَرَجَعُوا إلى أنفسِهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نُكِسُوا على رءوسهم لقد علمتَ ما هؤلاء ينطِقون . قال أفتعبدون من دون اللهِ ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضرُّكم . أُفٍ لكم ولِمَا تعبدون من دون الله أفلا تعقلونَ قالوا حَرِّقُوه وانصرُوا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ [1] . أى : احرقوه بشدة ، وتكلفوا فى إحراقه ما وسعكم .

وقال تعالى : ﴿ قالوا ابنُوا له بُنيانًا فألقُوه فى الجحيمِ ﴾ [2] .

وقد أجمعوا على ذلك ، وعقدوا العزم عليه ، وجمعوا الحطب من هنا وهناك ، وتقربوا إلى آلهتهم بهذا العمل ، وأعدوا العدة لإلقائه فى النار التى أججوها ، فاستسلم إبراهيم عليه السلام لله ، واتجه إليه بقلبه يدعوه بخشوع وضراعة ، وهو راض بقضائه ، صابر على بلائه ، فسلب الله النار قوة الإحراق ، وجعلها عليه ظلاً ظليلاً لا يعانى من حرها ولا من بردها ، فبهت القوم ، وضل

(١) سورة الأنبياء آية : ٦٤ - ٦٨ . (٢) سورة الصافات آية : ٩٧ .

سعيهم ، وخاب ظنهم بآلهتهم ، وباءوا بخسران ما بعده خسران ، وبذلة ليس فوقها ذلة . قال تعالى : ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسَرِين ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ (٢) .

ولا يبعد أن يكون قد آمن به بعض القوم عندما رأوا هذه المعجزة الباهرة ، وأكثرهم أعرض ونأى بجانبه وتمسك بما كان عليه آباؤه الأقدمون .

ولا يبعد أن يكونوا جميعًا قد ازدادوا كفراً على كفرهم ، وهذا الاحتمال أقرب إلى الصواب بدليل قوله تعالى : ﴿ فآمَنَ له لوطٌ وقالَ إنِّى مُهاجرٌ إلى ربِّى إنَّه هو العزيزُ الحكيمُ ﴾ (٣) .

ولوط هو ابن أخيه ، وقد بعثه الله رسولاً فى قومه ، ولو كان آمن به أحد من قومه غير لوط عليه السلام ما هاجر وحده إلى أرض أخرى غير الأرض التى ولد فيها ونشأ فى ربوعها ، وقد قال الله تعالى حكاية عنه :

﴿ وأعتزِلُكم وما تَدعُون من دونِ اللهِ وأَدعُوا ربِّى عسى ألا أكونَ بدعاءِ ربِّى شَقيًّا ﴾ (٤) .

والحق أن أمر هؤلاء عجب ، كيف يرون إبراهيم عليه السلام فى نار قد بلغ شررها عنان السماء لم يصبه حرها بسوء ، ويخرج عليهم منها بسلام وعافية ثم بعد ذلك لا يستجيبون له ولا يؤمنون بما جاء به ، لكنه الغباء المستحكم ، والهوى الجامح ، والتقليد الأعمى الذى لا ينفع معه نصح ولا معجزة رسول .

• حواره مع النمروذ :

وكان النمروذ بن كنعان ملكًا جباراً يعبد الكواكب ، ويصنع لها الهياكل ، ويقيم لها الطقوس والأعياد ، فتوجه إليه إبراهيم عليه السلام - كما توجه إلى أبيه من قبل - يدعوه إلى عبادة الله وحده ، فإنه لو آمن به لآمن به الفريق الذى يمثله ويحكمه .

فما كان من النمروذ إلا أن سأله فى صلف وغرور عن ربه ، من هو ؟ وما حدود ملكه ؟ وما حدود قدرته ؟ . فقال إبراهيم عليه السلام : ربى الذى أعبده وأدعوك إليه هو الذى يحيى ويميت ، وهو أمر لا يملكه أحد سواه .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٧٠ . (٢) سورة الصافات آية : ٩٨ .
(٣) سورة العنكبوت آية : ٢٦ . (٤) سورة مريم آية : ٤٨ .

فقال النمروز فى عزة وكبرياء : أنا أحيى وأميت ، وحكم على اثنين بالقتل - فيما زعموا - فقتل واحدًا وأبقى الآخر، فقال : أنا أحيى وأميت ، فأقتل من أشاء ، وأبقى من أشاء ، فسلم له إبراهيم عليه السلام جدلاً هذه الفرية ليأتيه بشىء لا يستطيع دفعه ، ولا يقدر على ادعائه بأى طريقة صبيانية مثل التى تبجح بها ، فأعجزه وأبهته ، وألزمه الحجة ، ووضعه على المحجة البيضاء ، لكنه أبى واستكبر وطغى وتجبر ، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر .

قال تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذى حاجَّ إبراهيم فى ربِّه أن آتاه اللهُ الملكَ إذ قال إبراهيمُ ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميتُ قال إبراهيمُ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغربِ فبُهتَ الذى كفر والله لا يهدى القومَ الظالمين ﴾ [(١)] .

• حجته على عبَّاد الكواكب :

وقد كشف الله لإبراهيم عليه السلام حجب الغيب ، وأطلعه على ملكوت السماوات والأرض ، ليكون على يقين تام بقدرته وبديع صنعه ، وأحقيته فى التفرد بالعبادة، وليأخذ مما يراه من البراهين الصادقة ما يؤيده فى دعوته ، قال تعالى : ﴿وكذلك نُرِى إبراهيمَ ملكوتَ السماواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنين ﴾ [(٢)] .

وقد ذكر الله جل شأنه بعد هذه الآية طرفًا من حجته على قومه من عباد الكواكب ، انتزعها من الواقع المشاهد لا تدع ريبة لمرتاب فى أن هذه الكواكب لا تصلح لأن تكون آلهة ، لأفولها وزوالها عن مواضعها ، لأن من شأن الإله ألا يكون جرمًا تراه الأعين فى مكان معين ؛ لأنه حينئذ يكون فى حاجة إلى هذا المكان ، ولا يكون عرضة للتغيير يظهر ثم يستتر ، يعلو ثم يهبط ، يبدو صغيراً ثم يكبر ، يزهو ثم يذبل ، إلى آخر ما هنالك من تغيرات .

إن الإله الذى يستحق أن يعبد ويحمد هو الذى يتنزه عن المكان والزمان ، وعن التغيير والتبديل ، وعن المماثلة للحوادث والمخلوقات ، ولا تدركه الأبصار ، ولا تحيط بكُنه ذاته العقول والأفهام .

فقال جل شأنه : ﴿ فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكبًا قال هذا ربى فلما أفلَ قال لا أُحبُّ الآفلين . فلما رأى القمرَ بازغًا قال هذا ربى فلما أفلَ قال لئن لم يهدنى ربى

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٨ .   (٢) سورة الأنعام آية : ٧٥ .

لأكونن من القومِ الضالين · فلما رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربى هذا أكبرُ فلما أفلتْ قال يا قوم إنى برىءٌ مما تشركون · إنى وجهت وَجْهِىَ للذى فَطَرَ السماواتِ والأرضَ حنيفًا وما أنا من المشركين ﴾ [1] ·

ومعنى : ﴿ وجهت وجهى ﴾ وجهت قلبى ، فالقلب هو الوجه الوجيه الذى يتجه به كل مؤمن إلى خالقه الذى لا يحده مكان ، ولا يكون فى مقابل الوجوه التى هى فى الرءوس ·

وقوله تعالى : ﴿ للذى فطر السماوات والأرض ﴾ تعبير صادق عن الخصائص التى يتميز بها الإله المعبود ، فهو الذى بدأ خلق السماوات وما فيها ، وخلق الأرض وما فيها دون شريك ولا منازع ، وهو الذى يدبر أمر العـــالم كله ، لأنه دائم الوجود والأبدية ، يغير ولا يتغير ، ولا يغيب عن خلقـــه طرفة عين ، ولا تأخذه سنة ولا نوم·

ومن حقه على عباده أن يتحنفوا إليه بمعنى أنهم يميلون عن سواه إليه ، ويخضعون إلى عظمته ، ويعبدونه عبادة خضوع وتواضع ومسكنة ·

وقد لقن الله إبراهيم عليه السلام هذه الحجة ، إذ جاراهم أولاً فيما يقولون عن هذه الكواكب ، فلما رأى كوكبًا باديًا فى ظلمات الليل البهيم قال : هذا ربى ، فظنوا أنه وافقهم فى معتقدهم ، فلما غاب الكوكب قال : لا أحب الآفلين ، أى : لا أحب أن أدين له ولأمثاله من الكواكب التى تغيب عن عالمها ، لأنها لا تصلح أن تكون آلهة بأى حال ، فمن ذا الذى يدبر أمر العالم أثناء غيبته ، ومن الذى غيبه ، لابد أن يكون الذى غيبه أقوى منه ، ربما يكون القمر هو الذى غيبه ، فلما غاب أظهر لهم أن الأمر محير ، وأنه لابد للمرء أن يفكر ليهتدى إلى الإله الذى يغير ولا يتغير ، فلما رأى الشمس بازغة وهى أكبر معبوداتهم قال : هذا ربى ، فلما غربت ، قال : يا قوم أقول لكم بصراحة كلمة ليس فيها أدنى شك ، إن الإله الذى ينبغى أن تتوجه إليه القلوب هو الخالق البارئ الذى احتجب بقوة ظهوره عن سائر خلقه ·

والآيات تحمل من المعانى ما يضيق المقام هنا عن ذكره ، وفى ثناياها من اللطائف والعبر ما يعجز الإنسان عن التعبير عنه بلسانه أو بقلمه ·

---

(1) سورة الأنعام آية : ٧٦ - ٧٩ ·

وهذه المناظرة لم تكن فى طفولته فيما يبدو لنا بل كانت بعد بعثته عليه السلام بدليل قوله تعالى : ﴿ وحاجَّه قومُه قال أتحاجُّونِّى فى الله وقد هدانِ ولا أخافُ ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئًا وَسِعَ ربى كلَّ شىءٍ علمًا أفلا تتذكرون وكيف أخافُ ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزلْ به عليكم سلطانًا فأىُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يَلبِسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون وتلك حجّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِه نَرفعُ درجاتٍ من نشاءُ إن ربك حكيمٌ عليمٌ ﴾ (١) .

وهذا الأسلوب الحكيم فى المحاجة والمناظرة ، ينبغى أن يتفطن إليه الدعاة المرشدون ويسيروا على منواله وبالله توفيقهم ·

• ربِّ أرنى كيف تحيى الموتى :

لما أتم الله على إبراهيم النعمة ، وأراه شيئًا من ملكوت السموات والأرض وأطلعه على كثير من أسرار الكون ، وقربه إلى حضرة قدسه ، وفرغ قلبه لمحبته وخلته ، اشتاقت نفسه عليه السلام أن يحصل على مزيد من النور وجديد من العلم، وشىء من متعة الروح ، فطلب من ربه بأدب واستحياء أن يريه حالة من حالات إحياء الموتى ، وصورة من صور تركيب الكائنات الحية ليزداد قلبه سكينة على سكينة ، والمحبون لله يطمعون دائمًا فى المزيد من حبه وقربه ، فكلما انتهى أحدهم إلى درجة من الكمال ، أبصر درجة فوقها فطمع فى ارتقائها ، فإن شاء الله أن يرفعهم إليها رفعهم ·

وقد شاء الله عز وجل أن يستجيب لإبراهيم عليه السلام فأراه صورة حية من إحياء الموتى ، قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيمُ ربِّ أرِنى كيف تُحيِ الموتَى قال أوَ لم تؤمنْ قال بلى ولكن ليطمئنَّ قلبى قال فخذْ أربعةً من الطيرِ فَصُرْهُنَّ إليك ثم اجعلْ على كل جبلٍ منهن جزءًا ثم ادعهنَّ يأتينَك سعيًا واعلمْ أنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ ﴾ (٢) .

وقد ذكرت هذه القصة عقب قصة العزير للدلالة على أن الله القادر على إحياء الموتى فى الدنيا ، قادر على إحيائهم يوم القيامة ·

وقضية الموت والبعث هى القضية الأولى فى باب الإيمان ، وهى الثغرة التى

---

(١) سورة الأنعام آية : ٨٠ – ٨٣ · (٢) سورة البقرة آية : ٢٦٠ ·

تنفذ منها رميات الشيطان إلى قلوب المؤمنين ، وإبراهيم عليه السلام فى وثاقة إيمانه وقوة يقينه لا عليه إذا هو وجد طريقًا إلى مزيد من الإيمان حتى يمتلئ به قلبه ، فلا يبقى فيه مكان لم يغمره نور اليقين ولم تغمره الطمأنينة - لا عليه أن يطلب المزيد حتى يرتوى ريًّا لا ظمأ بعده .

وقد وجد أن ألطاف الله تحف به ، ونفحاته ورحماته لا تنقطع عنه ، فهفت نفسه إلى أن يسأل الله هذا السؤال الذى يشهد به جلال الله وعظمته من قريب : ﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى ﴾، وقد سأل موسى عليه السلام سؤالاً أعظم من هذا، فقال : ﴿ رب أرنى أنظر إليك ﴾ (١) .

والسؤال « بكيف » لا يكون جوابه إلا بأن يشهد إبراهيم عملية الإحياء وكيف تتم هذه العملية ، والعناصر التى تعمل فيها ، وأمر كهذا هو فوق مستوى الإدراك البشرى ، إنه سر من أسرار الألوهية ، لا يستطيع أحد أن يحتمله .

وفى قوله تعالى لإبراهيم :﴿ أو لم تؤمن ﴾ إثارة لمشاعر إبراهيم واستحضار للإيمان الذى يعقد عليه قلبه .

ولهذا كان جواب إبراهيم : ﴿ بلى ﴾ أى : أنا مؤمن كل الإيمان ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ وتلك درجة فوق درجة الإيمان ؛ إذ لا سلطان للإنسان على قلبه ، وليس من شأن القلب أن يستقر على حال واحدة فى جميع الأحوال ، لما يموج فيه من شتى المشاعر ومختلف العواطف والنزعات ، واطمئنان القلب اطمئنانًا مطلقًا أمر يكاد يكون مستحيلاً ، لا يبلغه إلا المصطفون من عباد الله بعد ابتلاء ومجاهدة ، وقوله تعالى : ﴿ قال فخذ أربعةً من الطير فَصُرْهُن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا ثم ادعهن يأتينَك سعيًا ﴾ هو كشف عن تجربة يجربها إبراهيم بنفسه ، ويصنعها بيديه ، ويشهد آثارها بعينيه ، وذلك بأن يأخذ أربعة من الطير فيضمهن إليه ثم يقطعهن إربًا ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعوهن ، فإذا بهن يأتينه سعيًا على أقدامهن بعد أن دبت فيهن الحياة بقدرة الله العزيز الغالب الحكيم ، الذى لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

وقد ذكر الله الطير بنون النسوة التى هى للعقلاء فى الغالب حيث قال : ﴿فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا ثم ادعهن يأتينك سعيًا ﴾ ، ولم

(١) سورة الأعراف آية : ١٤٣ .

يقل فصرها إليك ثم اجعل على كل جبل منها جزءًا ثم ادعها تأتك سعيًا · فعل ذلك سبحانه مبالغة فى تجسيد الصورة الدالة على عظيم قدرته ، فجعل هذه الطيور كأنها تعقل نداء إبراهيم حين يدعوها إليه فتستجيب له كما يستجيب العقلاء لدعاء الداعين ، وفى ذلك من البلاغة المحمودة ما فيه ، فالقرآن كما نعلم معجز فى جمال تعبيره ، ودقة تصويره ، وروعة بيانه ، وبديع نظمه ·

هذا وقد زعمت طائفة أن إبراهيم عليه السلام قد اعتراه شك فى قدرة الله تعالى فطلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، واستدلوا على ذلك بما رواه البخارى فى كتاب التفسير عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿ رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴾ » ، وهذا زعم باطل ، وفهم سقيم لحديث رسول الله ﷺ ، ومعنى الحديث كما يقول ابن عطية فى تفسيره : « إنه لو كان شاكًا لكنا نحن أحق به ، ونحن لا نشك ، فإبراهيم أحرى أن لا يشك » ·

أى : إن إبراهيم أعظم منا إيمانًا ، وأكمل منا يقينًا ، فلو تطرق إلى قلبه شك لكان تطرق الشك إلينا من باب أولى ، فإذا كنا لا نشك - ونحن دونه فى المنزلة - فكيف يشك هو !! فالحديث ينفى عنه الشك ولا يثبته ·

ولا يخفى ما فى هذا الحديث من تواضع وبر من قِبَل النبى ﷺ بأبيه إبراهيم عليه السلام ·

وقد أراد إبراهيم عليه السلام بهذا الطلب أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، وأن ينزه نفسه فى ساحة القدرة الإلهية نزهة فيها الرَّوْح والريحان ·

لقد كان هذا الطلب بدافع الحب الإلهى واليقين النقى الصافى ، فالمحب يريد أن يعرف من محبوبه ما يزيده به حبًا وقربًا ، وما يدنيه من حضرة قدسه وجلال عظمته ، فقد اتخذه الله خليلاً وأخلصه لنفسه ، ومحضه لعبادته ، وأطلعه على ملكوته ، فلا عجب أن يطلب المزيد والمزيد من معاينة أسرار خلقه وبديع صنعته وهكذا شأن المؤمن كلما ارتقى درجة من درجات الحب ، واعتلى منصبًا من مناصب القرب - ازداد شوقه إلى السمو بروحه وحسه إلى المزيد من الحب والقرب والمشاهدة ·

نسأل الله تعالى أن يرزقنا إيمانًا كاملاً ، ويقينًا صادقًا ، وحبًا يغمر شغاف قلوبنا ،

ويملك علينا عقولنا وعواطفنا ، فلا يشغلنا عنه شاغل ، ولا يردنا عن ساحته باطل ، ولا يحول بيننا وبين مرضاته حائل .

● هجرته وقصة امرأته مع والى مصر :

ولما لم يجد إبراهيم عليه السلام من قومه فى بابل إلا صدودًا وإعراضًا عن الحق الذى جاءهم به من ربه – أعد العدة للرحيل عنهم إلى بلاد أخرى لعله يجد فيها من يؤمن به ويسير على نهجه .

فلما حان الوقت الذى عزم فيه على الهجرة صحب معه ابنة عمه سارة بنت هاران ، وهاجر معه ابن أخيه لوط عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ فآمن له لوطٌ وقال إنى مهاجر إلى ربِّى إنه هو العزيزُ الحكيمُ ﴾ (١) .

أى : فاستجاب له لوط وآمن له ، وقال له : إنى مهاجر معك إلى ربى وليس من أجلك أنت ،فكلانا مهاجر إلى الله فار بدينه من وجه الكفر والطغيان .

وقيل إن الذى قال : ﴿ إنى مهاجر إلى ربى ﴾ هو إبراهيم ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وقال إنى ذاهبٌ إلى ربى سيهدين ﴾ أى : مهاجر إليه بقلبى وقالبى وإنه سيهدينى حقًا إلى سواء السبيل ؛ لأن من توكل عليه كفاه ، ومن سأله أعطاه ، ومن اعتصم به هداه إلى الصراط المستقيم .

فلما هاجر من بابل هو ومن معه مر بأرض الشام ثم مر بمصر ، ثم استقر به المقام بعد ذلك فى الشام، قال تعالى : ﴿ ونجيناه ولوطًا إلى الأرضِ التى باركنا فيها للعالمين ﴾ (٢) .

والأرض التى بارك الله فيها هى بيت المقدس بالشام ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذى باركنا حولَه ﴾ (٣) .

وقال ابن عباس هى مكة ، واستدل على هذا بقوله تعالى : ﴿ إن أولَ بيتٍ وضعَ للناسِ لَلَّذى ببكةَ مباركًا وهدى للعالمين ﴾ (٤) .

ومكث إبراهيم عليه السلام ومن معه ببيت المقدس إلى ما شاء الله ثم ارتحلوا

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٢٦ . (٢) سورة الأنبياء آية : ٧١ .
(٣) سورة الإسراء آية : ١ . (٤) سورة آل عمران آية : ٩٦ .

إلى مصر بسبب قحط قد نزل بهذه البلاد ، وهناك قد حدث لسارة حادث كان محنة أعقبتها منحة .

وذلك أن جباراً من الجبابرة كان واليًا على مصر قد أخبره بعض حاشيته أن رجلاً قدم من الشام ، ومعه امرأة غاية فى الجمال تسمى سارة ، فقال : ائتونى بها فلما جاءوه بها آراد أن ينال منها أكثر من مرة فعصمها الله منه ، وكف يده عنها فظن أنها شيطان ، فأمر بإخراجها من ساحته وأعطاها جارية يقال لها « هاجر » .

قال البخارى : حدثنا محمد بن محبوب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد عن أبى هريرة قال : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات [1] ثنتان منهن فى ذات الله : قوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه وسأله عنها، فقال: من هذه ؟ قال : أختى ، فأتى سارة، فقال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى . فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت الله ، فأطْلِق ، ثم تناولها الثانية ، فأُخِذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعا بعض حجبته ، فقال : إنك لم تأتنى بإنسان وإنما أتيتنى بشيطان فأخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلى ، فأومأ بيده مهيم [2] فقالت : رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره ، وأخدم هاجر ، قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بنى ماء السماء [3] .

• دعوته لذريته عند البيت الحرام :

فرحت سارة بهاجر ، وأحبتها حبًا شديدًا ، ووهبتها لإبراهيم عليه السلام ،

---

(١) ليس الكذب هنا على حقيقته بل هو عبارة عن تعريض وتلويح ، واستعمال المعاريض عند الضرورة جائز ، فهو كقوله ﷺ : « لا حسد إلا فى اثنتين » فالحسد هنا معناه الغبطة ، وهى تمنى مثل ما للغير بخلاف الحسد على الحقيقة ، فإنه تمنى زوال نعمة الغير ، والعرب يتوسعون كثيراً فى إخراج الكلمات عن حقائقها إلى معان أخرى مجازية .

(٢) أى ماذا حدث ؟ أو كيف الحال ؟

(٣) يريد به والد النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

فولدت له إسماعيل ، ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يخرج بهاجر وولدها إلى مكة ويتركها هناك ليعمر بهما هذا الوادى المبارك ، فامتثل إبراهيم عليه السلام أمر ربه عز وجل وخرج بهما إلى هناك ، حيث لا ماء ولا زرع ، ثم تركهما وانصرف بعد وداع طويل ومرير ، وكلما خطا خطوة تبعده عنهما أحس بالحنين إليهما ، فلما أشرف على الوادى وكاد ينفصل عنه راجعًا إلى الشام دعا ربه بدعوات سجلها له القرآن فى سورة سميت باسمه .

قال تعالى : ﴿ وإذ قالَ إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذ البلدَ آمنًا واجنُبْنِى وبَنِىَّ أن نعبدَ الأصنامَ . ربِّ إنهنَّ أضلَلْنَ كثيراً من الناسِ فمن تَبِعَنِى فإنَّه منِّى ومن عصانى فإنك غفورٌ رحيمٌ . ربَّنا إنى أسكنْتُ من ذُرِّيتِى بوادٍ غيرِ ذى زرعٍ عند بيتِك المُحرَّمِ ربَّنا ليقيموا الصلاةَ فاجعلْ أفئدةً من الناس تَهوى إليهم وارزقهم من الثمراتِ لعلهم يشكرون . ربَّنا إنَّك تَعْلَمُ ما نُخفى وما نُعلنُ وما يَخفَى على اللهِ من شىءٍ فى الأرضِ ولا فى السماءِ . الحمدُ للهِ الذى وَهَبَ لى على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ إنَّ ربِّى لسميعُ الدعاء . ربِّ اجعلنى مقيمَ الصلاة ومن ذريتى ربَّنا وتَقَبَّلْ دعاءِ . ربَّنا اغفر لى ولوالدىَّ وللمؤمنين يومَ يقومُ الحساب ﴾ (١) .

وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لإبراهيم دعوته فى البلد المحرم ، وجعله آمنًا فى الجاهلية وفى الإسلام .

أما فى بنيه : فقد استجاب له فى بعضهم ولم يستجب فى بعض آخر ، فكان منهم فى الجاهلية حنفاء يعبدون الله على دين إبراهيم ،وكان منهم - وهم الأكثرون - عبَّاد أصنام ، مشركون بالله .

وقد أخبر الله إبراهيم بأن دعوته هذه فى بنيه ليست مجابة على إطلاقها، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلُك للناسِ إمامًا قال ومن ذريتى قال لا ينالُ عهدى الظالمين ﴾ (٢) .

فليس كل ذرية إبراهيم ممن يتابعه ، ويكون على دينه إلى يوم القيامة ، وإلا لكان ذلك ضمانًا موثقًا لكل من اتصل نسبه بإبراهيم أن يكون مؤمنًا ، وهذا من شأنه أن يرفع التكليف والابتلاء ، ويجعل مثل هذا الإيمان إيمان قهر وإلجاء ليس للإنسان فيه كسب واختيار .

---

(١) سورة إبراهيم آية : ٣٥ - ٤١ . (٢) سورة البقرة آية : ١٢٤ .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى : ﴿ وإذ قال إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا بلدًا آمنًا وارزقْ أهلَه من الثمراتِ من آمن منهم بالله واليومِ الآخر قال ومن كفرَ فأمتعه قليلاً ثم أَضْطَرُّه إلى عذابِ النَارِ وبئس المصير ﴾ [١] .

فإبراهيم عليه السلام إذ يدعو ربه بما دعاه به ، يعلم هذه الحقيقة ، وأنه ليس كل بنيه إلى يوم القيامة ممن يهدى الله ، ولهذا قال : ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم ﴾ ، فدعا بالرزق لمن آمن ، دون من لم يؤمن ، وقد أجابه الله سبحانه ، بأنه لن يحرم أحدًا رزقه فى هذه الدنيا ، فهو سبحانه سيرزق من آمن ، ومن لم يؤمن ، فهذا الرزق هو متاع قليل ، هو متاع الحياة الدنيا .. ولن يحرم الكافر حظه من هذا المتاع ، أما جزاء كفره فسيلقاه فى الآخرة : ﴿ قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ .

ففى أبناء إبراهيم إذن : مؤمنون ومشركون ، هكذا كان وهكذا يجب أن يكون، تحقيقًا لقوله تعالى : ﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمن ﴾ [٢] .

واتجه إبراهيم عليه السلام إلى ولده إسماعيل بعد أن أشرف على فراقه فدعا له ولذريته بدعوة جامعة لخيرى الدنيا والآخرة .

فقال بعد أن نادى ربه نداء الواثق بفضله مفصحًا عما فى قلبه لمن هو أعلم به من نفسه استجلابًا لرحمته به وبذريته كما يقتضيه أدب الدعاء : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ .

أى : فاجعل قلوبًا من الناس تميل إليهم وتقيم معهم إذ لا غنى لهم عن بنى جنسهم ، ولا يستطيعون أن يعيشوا بمعزل عنهم بواد قفر لا زرع فيه ولا ماء ، وطلب من ربه أن يرزقهم من الثمرات حيث كانت ، فهو الرزاق ذو القوة المتين ، ثم ختم دعاءه بالثناء على ربه ، وأتبع ذلك بالدعاء لنفسه ولوالديه وللمؤمنين بالمغفرة يوم يقوم الحساب .

لكن ماذا وقع لهاجر وإسماعيل بمكة عندما تركهما إبراهيم عليه السلام فى رعاية الله وحفظه ؟ هذا ما سنعرض له فيما يلى :

• ما كان من هاجر وإسماعيل :

ولما ودع إبراهيم عليه السلام هاجر وهم بتركها عند البيت الحرام تبعته فقالت :

---

(١) سورة البقرة آية : ١٢٦ .   (٢) سورة التغابن آية : ٢ .

يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا ؟، وكررت عليه هذا السؤال وهى تعلم أنه لا يظلمها ولا يهضمها حقها ، ولا يفرط فيها ولا فى ابنها ، لكنها تريد أن تستوثق من هذا الأمر ، وتستفسر عن مصيرها ومصير ابنها فلعلها تجد منه جوابًا مقنعًا مرضيًا مطمئنًا ، وهى تعلم أن ما قدر سوف يكون ·

هى تسأله وتكرر عليه السؤال وهو لا يلتفت إليها ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذًا لا يضيعنا · ثم رجعت إلى مكانها فلما نفد ما معها من ماء عطش ابنها ، فأخذت تبحث له عن ماء هنا وهناك فلم تجد ، فصعدت على الصفا ثم صعدت على المروة ، وأخذت تحدق بعينيها نحو الطرق المؤدية إلى مكة لعلها تبصر إنسانًا يسعفها بجرعة ماء لرضيعها ، وكررت ذلك سبع مرات ، فلم تجد شيئًا ·

قال ابن عباس فيما يروى البخارى : « قال النبى ﷺ فلما أشرفت [١] على المروة سمعت صوتًا ، فقالت : صه [٢] تريد نفسها ، ثم تسمَّعت فسمعت أيضًا ، فقالت : قد أسمعت [٣] إن كان عندك غواث [٤] فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه [٥] وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهى تفور بعد ما تغرف » ·

قال ابن عباس قال النبى ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً [٦] » فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها المَلَك : لا تخافى الضيعة ، فإن هنا بيتَ [٧] الله يبنى هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ·

وظلت هاجر مع ولدها وحيدين حتى جاءت عليهم رفقة من قبيلة عربية يقال لها جرهم ، فطلبوا منها أن يعيشوا بجوارها لينتفعوا بهذا الماء فأذنت لهم واستأنست بهم ، وترعرع إسماعيل فيهم ، وتزوج منهم وأنجب ذرية كثيرة على ما سيأتى بيانه فى قصته ·

---

(١) ارتفعت · (٢) كلمة بمعنى أنصت ·
(٣) أى بلغ قولك سمعى · (٤) أى إن كان عندك غوث فأتِ به ·
(٥) تحركه بشدة هكذا وهكذا ·
(٦) أى لسقى الناس منها فى مكة كلها وفى غيرها من القرى والمدن ·
(٧) بيت : مفعول به مقدم ·

• هل كانت غيرة سارة سببًا فى إبعاد هاجر ؟

يذكر ابن كثير [١] وغيره أن هاجر لما وضعت ولدها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم ٠

والحق أن سارة لم تأمر زوجها بذلك مهما اشتدت غيرتها ؛ لأنها كانت امرأة صالحة قانتة تقية قد ملأ الإيمان قلبها فلا يصدر عنها مثل ذلك ٠

قالت عائشة رضي الله عنها : لله دَرُّ التقوى ما تركت لذى غيظ شفاءً ٠

وقد أثنى الله عز وجل عليها ، وبشرها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، فكيف يتأتى منها هذا وحالها ما قد وصف الله عز وجل فى قوله :

﴿ رحمتُ الله وبركاتُهُ عليكم أهلَ البيت إنه حميدٌ مجيدٌ ﴾ [٢] ٠

إن هذا العمل لو نسب إلى امرأة عادية لكانت موضع ذم عند العقلاء من خيرة الناس ، فكيف بامرأة نبى آمنت به وهاجرت معه ، وتخلقت بأخلاقه ٠

ومن أقوى الأدلة على أن الغيرة لم تحملها على ذلك ، ما ورد فى صحيح البخارى من أن هاجر سألته حين تركها : « آلله أمرك بهذا ؟ ٠ قال : نعم »

إذًا هو أمر الله لم يكن إبراهيم عليه السلام ليفعل ذلك عن أمره أو أمرها ، وهل يليق به أن يسمع لها ويطيع فى أمر كهذا !

لو قيل : إن فلانًا من الناس أطاع امرأته فى إلقاء ولده فى مكان قفر لا نبات فيه ولا ماء ، بعيدًا عنه ، وهو رضيع ، وأمه لم ترتكب جرمًا ، ماذا يقول عنه الناس ؟

فعلى المسلم أن لا يتلقى كل خبر بالقبول حتى يعرضه على كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويحكم عقله فى فهم النصوص ، وما تحتويه من المعانى اللائقة بالمقام ، والمناسبة لمقتضى الحال والمآل ٠

• بشراه بإسحاق :

رزق الله إبراهيم عليه السلام بإسماعيل وهو ابن ست وثمانين سنة ، ففرح به،

---

(١) انظر البداية حـ ١ ص ١٥٤ ٠ (٢) سورة هود آية : ٧٣ ٠

وفرحت به سارة أيضًا - فيما أرى - لشدة حبها لزوجها ، فهى إنما تفرح لفرحه ، وتسر بما يسر به ، ولا يمنع هذا من أن تكون قد غارت من هاجر ، وقد كانت تتمنى من أعماق قلبها أن يكون لإبراهيم عليه السلام ولد منها .

ولعلها سألت ربها أن يرزقها مثل ما رزق هاجر ، ولا حرج فى ذلك لأنه من باب الغبطة ، لا من باب الحسد ، فاستجاب الله لها ، ولزوجها ، فتدلت إليه وإليها البشرى من فوق سبع سماوات بمولود اسمه « إسحاق » ، ومن وراء إسحاق يعقوب، وهذه البشرى تحمل فى طياتها بشريات :

الأولى : أنها تلد غلامًا كما ولدت هاجر غلامًا .

والثانية : أن هذا الغلام سيكبر فلا تخشى عليه من الموت المبكر ، وفى هذا ما فيه من إدخال الطمأنينة على قلبه وقلبها ، وأنه يتزوج وسيولد له غلام اسمه يعقوب، وولد الولد أعز من الولد - كما يقولون .

ثم جاءتها بشرى أخرى فوق هذه البشرى وهى أن الله عز وجل سيعمهم برحمته وينعم عليهم بالمزيد من بركاته جزاء صبرهما الطويل ، وشكرهما الدائم .

ومن عظيم هذا الأمر أن الملك الذى حمل البشرى لإبراهيم عليه السلام حملها إلى سارة أيضًا بخصوصها ، وكلمها كما كلمه ، وأزال من قلبها الوحشة والخجل ، وأعلمها أن الأمر لا يخضع للأسباب ولا تعوقه العوائق ؛ فهو أمر الله الذى لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ ولقد جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبُشرَى قالوا سلامًا قال سلامٌ فما لَبِثَ أن جاءَ بعجلٍ حَنِيذ . فلما رأى أيديَهم لاتصلُ إليه نكِرَهُم وأوجسَ منهم خِيفَةً قالوا لا تخفْ إنَّا أُرسِلْنا إلى قومِ لوط . وامرأتُه قائمةٌ فضَحِكَتْ فبَشَّرناها بإسحاقَ ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبَ . قالتْ يا وَيْلَتَى أَأَلدُ وأنا عجوزٌ وهذا بَعْلِى شيخًا إنَّ هذا لشىءٌ عجيبٌ قالوا أتعجبِينَ من أمرِ اللهِ رحمتُ اللهِ وبركاتُه عليكم أهلَ البيتِ إنَّه حميدٌ مجيدٌ ﴾ (١) .

يذكر الله تبارك وتعالى فى هذه الآيات أن الملائكة - وكانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل - لما دخلوا على إبراهيم سلموا عليه فسلم عليهم بسلام هو

---

(١) سورة هود آية : ٦٩ - ٧٣ .

أحسن من سلامهم كما يقول النحاة [1] وأحسن استقبالهم وقدم لهم طعامًا شهيًا وهو لا يعلم أنهم ملائكة ، وهذا الطعام عجل حنيذ أى مشوى ، وقد وصفه الله فى سورة الذاريات بالسِمَن ، فيضم هذا الوصف إلى ذاك .

وقوله تعالى : ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ يدل على سرعة إحضار الطعام ، وهذا من أدب الضيافة ، وقد عبر الله عن هذه السرعة فى سورة الذاريات : ﴿ فراغَ إلى أهله فجاءَ بعجلٍ سمينٍ ﴾ [2] ، أى تسلل خفية من غير أن يشعر الضيف به ، وهو أدب آخر من آداب الضيافة .

وقال تعالى : ﴿ فقرَّبَه إليهم قالَ ألا تأكلون ﴾ [3] ،وهذا أدب آخر من آداب الضيافة ، حيث أحضر الطعام إليهم وهم فى أماكنهم ، ولم يأمرهم بالقيام إلى مكان آخر ، وتلطف معهم فى الدعوة إليه ، وخدمهم بنفسه وأخدم امرأته ، كل هذا من الآداب التى ينبغى أن يراعيها المسلم مع ضيفه ، وقد أخبر الله عز وجل فى سورة الذاريات أنه أنكرهم قبل إحضار الطعام حيث قال جل شأنه : ﴿ قال سلام قوم منكَرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴾، وأخبر فى سورة هود أنه نكرهم حين رأى أيديهم لاتصل إلى الطعام .

وليس فى هذا تعارض فإن هناك فرقا بين نكر وأنكر ، فالإنكار يكون بالقلب والنكِر يكون باللسان ، فأخبر الله فى سورة الذاريات عن إنكاره بالقلب ، وأخبر فى سورة هود عن إنكاره باللسان ؛ إذ لا يعقل أن ينكرهم بلسانه قبل أن يأتى أهله فيجيئهم بطعام لأن هذا يتنافى مع أدب الضيافة ، فالإنكار أولاً كان بالقلب فلما رأى أيديهم لاتصل إلى الطعام أنكرهم بلسانه وأوجس منهم خيفة ، فأخبروه بشأنهم وبما جاءوا به من البشرى ومن أمر آخر يتعلق بقوم لوط .

وقد أنكرتهم سارة أيضًا حين رأت أيديهم لاتصل إلى الطعام فقامت من المجلس تعبيرًا عن هذا الإنكار - فيما يبدو لى - فضحكت تعجبًا من أمرهم وداخلها الريب من جهتهم ، فكأنها قالت فى نفسها : هل أخطأت فى حقهم وفعلت ما يتنافى مع أدب الضيافة ؟ هل هذا الطعام غير لائق بهم ؟ هل يريدون بها وبزوجها سوءًا ؟

---

(١) وذلك لأن الجملة الإسمية أبلغ من الجملة الفعلية . يراجع هذا فى كتابى : تأملات فى سور الذاريات .

(٢) سورة الذاريات آية : ٢٦ .   (٣) سورة الذاريات آية : ٢٧ .

إلى آخر ما هنالك من الظنون التى دارت فى رأسها ورأس زوجها أيضًا ، ولهذا أسرعت الملائكة فى إدخال السرور عليها وإزالة ما دار برأسها فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، فتعجبت من ذلك وهى فى غاية السرور والخجل ، وقد بلغت التسعين من عمرها ، وناهز عمر زوجها المائة كما قال تعالى عنه فى آية أخرى :

﴿ قال أَبَشَّرْتُمونى على أن مسَّنِىَ الكِبَرُ فبمَ تُبَشِّرُون . قالوا بشَّرْناك بالحقِّ فلا تكن من القانطين . قال ومن يَقْنَطُ من رحمةِ ربِّه إلا الضالون ﴾ [1] وقد وصف الله إسحاق بالعلم فقال : ﴿ قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ [2] . بينما وصف إسماعيل عليه السلام بالحلم فقال : ﴿ فبشرَّناه بغلامٍ حليمٍ ﴾ [3] .

ولا شك أن وصف إسحاق بالعلم مما يزيد البشرية سرورًا وحبورًا ؛ لأن العلم من أَجلِّ النعم وأعظمها قدرًا كما هو معلوم .

وكذلك الحلم ، إذ لا خير فى علم إلا بحلم . وكل منهما كان عالمًا وكان حليما إلا أن أبرز صفة من صفات إسحاق هو العلم ، وأبرز صفة من صفات إسماعيل هو الحلم - كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

● ابتلاؤه بذبح ولده :

كبر إسماعيل عليه السلام وشَبَّ وترعرع وصار قادرًا على العمل ، يمشى مع أبيه ويشاركه آلامه وآماله ، ويحمل عنه بعض متاعب الحياة ، فتعلق قلبه به بعض الشيء ، فأراد الله عز وجل أن يُمحِّص قلبه لحبه ويُفرِّغه عما سواه ، فأراه فى المنام أن يذبح ولده ، ورؤيا الأنبياء حق وصدق ، فأتى إلى ولده إسماعيل فأخبره بما رأى، لا ليستشيره فى أمر قضاه الله وقدره ولكن ليعرف رأيه ويختبر حلمه وصبره ، وليهيئ نفسه لاستقبال هذه التضحية ، بصدر رحب ، وقلب مطمئن ، فوجده يسرع إلى امتثال أمر الله إسراعًا فاق كل تصور ، ويحضه على تنفيذ ما رأى دون أن يخشى عليه الجزع والهلع ، ودون أن تأخذه به رأفة تجعله يعدل عن تنفيذ هذا الأمر أو الإبطاء فيه ، ويخبره أنه سيكون واحدًا من أولئك الصابرين الذين صبروا على البلاء مع شدته ابتغاء وجه الله تعالى ، وطلبًا لمرضاته .

---

(١) سورة الحجر آية : ٥٤ - ٥٦ .   (٢) سورة الذاريات آية : ٢٨ .

(٣) سورة الصافات آية : ١٠١ .

فسُرَّ إبراهيم عليه السلام بمقالة ولده ، وحسن بلائه وسرعته فى امتثال أمر ربه، فأخذ السكين وتلّه للجبين ، وأجرى السكين على عنقه فلم تؤثر فيه ، وحالت قدرة الله بينها وبين ما صنعت لأجله ·

وضجت الملائكة وأدرك الله إبراهيم برحمته ، وفدى ولده إسماعيل بكبش عظيم فذبحه تحقيقًا للرؤيا وتلبية للأمر ، وجعل هذا الفداء سنة متبعة فى شريعة محمد عليه وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والتسليم ·

وقد سجل الله هذه القصة فقال : ﴿ وقالَ إنِّى ذاهبٌ إلى ربِّى سيهدين · ربِّ هَبْ لى من الصالحين · فَبشَّرناه بغلامٍ حليمٍ · فلما بَلَغَ معه السَّعىَ قالَ يا بُنَىَّ إنِّى أرَى فى المنامِ أنِّى أذبَحُك فانظرْ ماذا ترى قال يا أبتِ افعلْ ما تُؤْمَرُ ستجدُنى إن شاءَ اللهُ من الصابرين · فلما أسلمَا وتَلَّهُ للجبين · وناديناه أنْ يا إبراهيمُ· قد صَدَّقْتَ الرؤيا إنَّا كذلك نَجزِى المحسنين · إنَّ هذا لهو البلاءُ المبينُ · وفديناه بِذبحٍ عظيمٍ · وتَركنا عليه فى الأخِرين · سلامٌ على إبراهيمَ كذلك نَجزِى المحسنين · إنه من عبادنا المؤمنين﴾[1] ·

وقد وصف الله إسماعيل بالحلم · فما الحلم ؟

إنه رزانة فى العقل ، ورجاحة فى الرأى ، وغزارة فى العلم ، وسعة فى الصدر ، وهو ضد الجهل بكل معانيه ، كالسَّفَه ، وفساد الرأى ، وعدم إدراك العواقب ، والغضب بغير حق ، والتطاول على الناس ·· إلى آخره ·

ومعنى ذلك أن إسماعيل عليه السلام قد أوتى كمال العقل والعلم والخلق إلا أنه قد برز فى الحلم أكثر مما برز فى العلم ، كما أن إسحاق قد برز فى العلم أكثر مما برز فى الحلم – كما سبق أن ذكرنا – وقد وصف الله إبراهيم بالحلم كما وصف ابنه إسماعيل فقال تعالى : ﴿ إن إبراهيمَ لحليمٌ أواهٌ منيبٌ ﴾ [2] ·

وهذا يعنى أن هذا الغلام هو على صورة أبيه إبراهيم فى كمال عقله وسلامة إدراكه ، فلا عجب أن يكون عند حسن ظن أبيه به ، فهذا الشبل من ذاك الأسد ، فقد بادله علمًا بعلم ، وحلمًا بحلم ، وصبرًا بصبر ، ورضًا برضا ·

فقال مسترحمًا ومستحثًا ومستسلمًا : ﴿ يا أبتِ افعل ما تؤْمَرُ ستجدنى إن شاء اللهُ من الصابرين ﴾ ·

---

(١) سورة الصافات آية : ٩٩ – ١١١ · (٢) سورة هود آية : ٧٥ ·

فما أروع عاطفة البنوة حين تلتقى مع عاطفة الأبوة على أمر قد جمع بينهما على هدف واحد هو التفانى فى مرضاة ربهما تبارك وتعالى ·

إن سرور الوالد بولده عندئذ قد أنساه وطأة الحادث وألم المصاب مما جعله يقدم على تنفيذ الأمر بهمة عالية وعزم صادق ، غير مبال بما وراء ذلك من بشاعة المنظر ولوعة الفراق ·

وفى قوله تعالى : ﴿ افعل ما تؤمر ﴾ يظهر لنا ما فضل الله به هذا الغلام الحليم من العلم ، إذ عرف أن رؤيا الأنبياء حق ، وأنها أمر من الله تعالى يجب تنفيذه - كما قلنا من قبل - فحث أباه على فعله مزيلاً كل ما قد يعترض طريقه من عقبات ، وذلك بقوله : ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ ولا يخفى عليك ما فى هذا التعبير من أنواع التوكيد التى تنزع من نفس إبراهيم عليه السلام كل ريبة فى حلم ولده وقوة صبره وجلده ، منها :

١ - (السين) فى قوله ﴿ ستجدنى ﴾ فإنها تفيد التحقيق ، كما هو معروف عند علماء اللغة ·

٢ - ومنها قوله ﴿ تجدنى ﴾ فإنه مضارع (وجد) وهو من الأفعال التى تدل على اليقين ، كما أن الفعل المضارع يفيد التجدد والحدوث ، واسم الفاعل فى قوله: ﴿ من الصابرين ﴾ يفيد الاستمرار والدوام ·

٣ - ومنها التواضع الجم ، والتسليم الكامل لله عز وجل فى إسناد المشيئة إليه، فهو يعد أباه بالصبر الجميل معتصمًا فى ذلك بحول الله وقوته كما هو شأن العارفين به ·

٤ - ومنها أنه لم يقل : ستجدنى إن شاء الله صابرًا ، وإنما قال : ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ جازمًا بذلك أنه ليس أول من صبر ، ولا آخر من يصبر، وإنما هو واحد من جملة الصابرين على كثرتهم ·

وفى هذا الجواب ما يجعل أباه أكثر ثقة بقدرته على الصبر ، وأشد عونًا له على تنفيذ أمر الله عز وجل ·

ولا يخفى ما فى هذا التعبير - فوق ما ذكرناه - من دلالة على علمه بسنن الله فى عباده المخلصين فإنهم يبتلون بحسب قربهم من الله تعالى ومقامهم فى خشيته ·

قيل : إن قول إسماعيل حين قرن مشيئة الله بما سيكون عليه من صبر مضاف إلى صبر الصابرين -- قد كان سببًا فى أن وفاه الله جزاء الصابرين كاملاً ، فنجاه من هذا البلاء وفداه بالذبح العظيم ·

هذا ليس هو السبب الوحيد فى ذلك ، ولكن يضاف إليه عزم إبراهيم عليه السلام على التضحية به ابتغاء مرضاة ربه وهو قرة عينه ، قد جاءه على الكبر وصحبه فى الحضر والسفر ، فلما خلا قلبه من الاشتغال به أعفاه الله من ذبحه ، إلى غير ذلك من الأسباب التى يعلمها الله عز وجل ·

وبعد هذا التطواف نجد أنفسنا أمام نموذج فريد فى التضحية والفداء والطاعة والانقياد لله تعالى لم نعهد مثله فى الأولين والآخرين ·

ويستفاد من هذه القصة أن المؤمن الحق لا يدخر وسعًا فى طاعة ربه وطلب مرضاته ، حتى لو كان يترتب على ذلك الجود بالنفس والولد ؛ لعلمه أن نفسه وولده ملك لله ، ولله ما أعطى وله ما أخذ ، وأنه من لوازم الإيمان أن يؤثر المؤمن حب الله على حب من سواه بحيث لا يكون فى قلبه ما يشغله عن ذكره ويعوقه عن طاعته ·

فها هو الخليل يبرهن على صدق يقينه ، وسلامة قلبه وتفريغه من جميع الشواغل بالإقبال على ذبح ولده بسكِينْة وطمأنينة وطيب نفس ·

وكذلك ولده إسماعيل لم يكن بالمعوق لأبيه عن تنفيذ أمر ربه ، بل كان نعم العون له ، ونعم البار به ، ونعم المستجيب لأمر ربه ، الراضى بقضائه ، والصابر على بلائه · فهما لنا أسوة حسنة على مر العصور ·

ومن هذه القصة نعلم أن الله عز وجل أرحم على الولد من أبيه بل هو أرحم به من نفسه ، وأنه جل شأنه لا يحب لعباده إلا الخير ، ولا يريد أن يكلفهم ما لا طاقة لهم به ، وإذا اختبرهم بشىء فإنما يريد أن يُمحِّص قلوبهم لذكره ؛ لكى لا تكون مشغولة بغيره ، غيرة منه جل شأنه على الصفوة من عباده ·

فقد ابتلى خليله إبراهيم عليه السلام غيرة عليه من ابنه الذى بلغ السعى معه وقَرَّت به عينه ، وكاد يشغل به بعض الشىء عما مَحَّضه الله له وهى الخُلَّة ، كما قال جل شأنه : ﴿ واتخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً ﴾ [1] · فأمره بذبحه لينزع منه ما قد يحمله

---

(١) سورة النساء آية : ١٢٥ ·

- ولو للحظة - على التقصير فى واجب هذه المرتبة العظيمة ، فلما كان الله ما أراد لم يكن هناك داع لذبحه ، فسلب من السكين قوة التأثير ، وفعل به ما يستحقه من التعظيم والتكريم ، وجعل قصته مثلاً للآخرين ، وعظة للمتقين .

• تحقيق أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق :

زعم أهل الكتاب أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل ؛ لينالوا شرف هذا الذكر العطر ، وليغيظوا محمداً ﷺ وأصحابه مع أن فى التوراة نصًا يخالف زعمهم ففيها : « إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده » أو بكره .

ولا يشك أهل الكتاب ولا المسلمون أن إسماعيل هو بكره ووحيده . ولكن اليهود جبلوا على التحريف والتبديل حسب أهوائهم . والأدلة على أن الذبيح هو إسماعيل كثيرة ، ذكر ابن القيم فى كتابه « زاد المعاد » أكثرها ، وذكرت أنا فى سورة الصافات أهمها ، وأذكر هنا بعضها ، وهو كاف فى الدلالة على صحة ما ذهب إليه الجمهور من العلماء المحققين :

١ - إن الله عز وجل قد بشر سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، فكيف يأمر الله إبراهيم بذبح إسحاق وقد أخبره أنه سيكبر ويتزوج ويولد له ولد اسمه يعقوب .

٢ - لما ذكر الله قصة الذبح فى سورة الصافات أتبع ذلك بقوله : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيًا من الصالحين ﴾ فدل هذا بوضوح على أن الذى تحدث عنه من قبل هو إسماعيل .

٣ - وقد لقب الله الذبيح بالحلم حتى صار علمًا عليه ، وكأنه اسم من أسمائه، ولقب إسحاق بالعلم - كما قد علمت فيما سبق - فكيف يكون الذبيح إسحاق ؟! .

٤ - وصف الله إسماعيل بالصبر وصدق الوعد ، ولم يصف إسحاق فى كتابه بذلك فقال : ﴿ واذكرْ فى الكتابِ إسماعيلَ إنَّه كانَ صادقَ الوعدِ وكانَ رسولاً نبيًا ﴾[1] . وقال : ﴿ وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفلِ كلٌّ من الصابرين ﴾ [2] .

---

(١) سورة مريم آية : ٥٤ . (٢) سورة الأنبياء آية : ٨٥ .

وهذا يؤكد أنه كان هو الذبيح لأنه صدق أباه فيما وعده به ، فصبر واستسلم لله تعالى ، وأسلم نفسه له ليذبحه .

● بناء البيت :

كان البيت الحرام ربوة حمراء تنزل السيول أحيانًا عن يمينها وشمالها ، ولما كبر إسماعيل عليه السلام أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يبنى البيت الحرام بعد أن عَرَّفه مكانه ، ليكون محجة للناس وأمنًا ، ومقرًا للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وأمره أن يصحب معه ولده إسماعيل فقاما معًا ببناء هذا البيت بالحجارة ، فكان إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يضرعان إلى الله تعالى أن يجعلهما مسلمين له ، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يريهما مناسك الحج والعمرة ، وأن يبعث فى أهل مكة ومن حولها رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ، ويعلمهم مما علمه الله ، ويطهرهم من رجس الشرك والضلال .

وفى ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ وإذ جعلنا البيتَ مَثَابَةً للناسِ وأمنًا واتَّخذُوا من مقامِ إبراهيمَ مُصَلًّى وعَهدنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طَهِّرا بيتىَ للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجودِ ﴾ (١) .

ثم يقول الله عز وجل : ﴿ وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ ربَّنا تَقَبَّلْ منا إنك أنتَ السميعُ العليمُ . ربَّنا واجعلنا مُسلمَيْن لك ومن ذريتنا أُمَّةً مُسلمَةً لك وأرنا مناسكَنا وتُب علينا إنك أنت التوابُ الرحيمُ . ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ ويزكِّيهمْ إنك أنت العزيزُ الحكيمُ ﴾ (٢) .

فاستجاب الله لإبراهيم وإسماعيل فبعث النبىَّ العربى محمدَ بن عبد الله ﷺ وفى هذا يقول النبى الكريم ﷺ : « أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى » .

والكتاب هو القرآن ، والحكمة هى السنة ، وبهما يتزكى المؤمن ويتطهر ، ولما أتم إبراهيم بناء البيت أمره الله أن يؤذن فى الناس بالحج ، فكان الحج فريضة فى شريعته كما هو فريضة فى شريعتنا ، وأراه الله مناسكه وساق الناس إلى بيته من كل مكان قريب أو بعيد ، فجاءوه رجالاً - أى ماشين على أرجلهم - وركبانًا على كل ضامر - أى جمل خفيف البطن سريع السير .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٢٥ . (٢) سورة البقرة آية : ١٢٧ - ١٢٩ .

وجعل الله فى حج البيت منافع كثيرة للناس ، من أعظمها غفران الذنوب ، والتقاء المسلمين من أجل التشاور فيما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وإذ بَوَّأْنَا لإبراهيمَ مكانَ البيتِ أن لا تُشركْ بى شيئًا وطَهِّر بيتىَ للطائفين والقائمين والرُّكَّع السجودِ . وأَذِّنْ فى الناسِ بالحجِ يأتوك رجَالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتِينَ من كل فَجٍّ عميق ليشهَدُوا منافِعَ لهم ويَذكُرُوا اسمَ اللهِ فى أيامٍ معلوماتٍ على ما رزَقَهُم من بهيمةِ الأنعامِ فكُلوا منها وأطعِموا البائسَ الفقيرَ . ثم ليقضُوا تَفثَهم وليُوفُوا نُذُورَهم وليَطَّوَّفُوا بالبيتِ العتيقِ ﴾ [١] .

* * *

(١) سورة الحج آية : ٢٦ - ٢٩ .

قصة لوط عليه السلام

هاجر لوط بن هاران بن تارح مع عمه إبراهيم - عليهما السلام - إلى مصر ثم إلى الشام فاجتمع لديهما مال كثير ضاق به الوادى ، فاستأذن لوط عليه السلام عمه الخليل فى الرحيل إلى أرض أخرى فأذن له عليه السلام، فاستقر به المقام فى قرية كبيرة يقال لها سدوم . فوجد فيها قومًا لم تعرف البشرية فى تاريخها الطويل أفجر ولا أكفر ولا أخبث منهم ، فقد كانوا يقطعون السبيل على المارة ، ويسلبون أموالهم ويزهقون أرواحهم ويأتون فى ناديهم المنكر ، نهارًا جهارًا ، بعضهم أمام بعض ، دون خجل أو وجل ، وهذا غاية التدنى والإسفاف فى عالم الإنسان ، إلى درجة لا ينزل إليها كثير من عالم الحيوان . . حيث تأبى على بعض الحيوان طبيعته أن يتصل بأنثاه على مرأى من بنى جنسه ! بَلْه اتصاله بذكر ، الأمر الذى لم تعرفه الكائنات الحية ، إلا فى هذا الصنف الرذل الخسيس من الناس .

ولما كان الله عز وجل لا يعذب قومًا بذنوبهم حتى يبعث فيهم رسولاً يدعوهم إلى عبادته ، والدخول فى طاعته ، ويزكيهم بما آتاه الله من العلم والحكمة - بعث فيهم لوطًا عليه السلام فدعاهم إلى التوحيد الخالص ، وزجرهم عن الأفعال المنكرة التى يأتونها ، والتى لم يسبقوا إليها ، فأبوا عليه ، وانصرفوا عنه ، وازدادوا كفرًا على كفرهم ، وطغيانًا على طغيانهم ، وأوصى بعضهم بعضًا بإخراج لوط من قريتهم .

قال تعالى : ﴿ فما كان جوابَ قومِه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوطٍ من قريتكم إنهم أُناسٌ يتطهرون ﴾ [1] .

ألا ما أفجرهم وأخبثهم حالاً ومآلاً ينبذون الطهر والأطهار ، ويرضون لأنفسهم حياة الذل والعار ، ولا يخافون من سوء العاقبة التى توعدهم الله بها على لسان نبيه لوط عليه السلام .

ولقد تلطف بهم لوط عليه السلام زمنًا طويلاً ، ودعاهم إلى الله على بصيرة بأسلوب حكيم متوج بالبراهين الساطعة ، والحجج المقنعة ، شأنه فى ذلك شأن جميع

---

(١) سورة النمل آية : ٥٦ .

الأنبياء، ولكن القوم صموا آذانهم وصمموا على إخراجه من قريتهم ، فدعا ربه أن ينصره عليهم ·

يقول الله عز وجل : ﴿ كَذَّبتْ قومُ لوطٍ المُرسَلِين · إذ قال لهم أخوهم لوطٌ ألا تَتَّقون · إنى لكم رسولٌ أمينٌ · فاتقوا اللهَ وأطيعونِ وما أسألُكم عليه من أجرٍ إن أجرِىَ إلا على ربِّ العالَمِينَ · أتأتُون الذُّكرَان من العالمينَ · وتَذرون ما خلقَ لكم ربُّكم من أزواجِكم بل أنتم قومٌ عَادُون · قالوا لئن لم تنتَهِ يا لوطُ لتكُونَنَّ من المُخرَجِين · قال إنى لِعملِكم من القَالِين [1] · ربِّ نجِّنى وأهلى مما يعملون ﴾ [2].

وتتصل أحداث قصة إبراهيم بأحداث قصة لوط ، وينتقل المشهد من بين يدى إبراهيم إلى يدى لوط ، فإذا هو وجهًا لوجه مع هؤلاء الرسل ، الذين يحملون الهلاك إلى قومه ·

وكما كان لقاء الملائكة لإبراهيم لقاءً مفاجئًا ، أثار فى نفسه ريبة ، وأوقع فى قلبه خوفًا ، كذلك كان لقاؤهم للوط لقاءً مباغتًا له ، ولكنه لم يلتفت إلى هؤلاء الوافدين عليه إلا من جهة واحدة ، كانت هى مبلغ همه ، ومبعث خوفه وقلقه ، وهى أن يحمى هؤلاء الضيوف من عدوان قومه عليهم ، وفضحه فيهم ·

فقد طلع عليه الملائكة فى صورة سوية من صور البشر ، فيهم الشباب والنضارة والجمال ، وتلك هى مغريات قومه بهم ، وإنه ليرى من بعيد ما سيكون من قومه ،إذا هم رأوا هؤلاء الضيوف الذين نزلوا بساحته،وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ ولما جاءتْ رسلُنا لوطًا سِيءَ بهم وضاقَ بهم ذَرعًا وقال هذا يومٌ عصيبٌ ﴾ [3].

سىء بهم : أى ساءه وآلمه نزولهم عنده ، واحتماؤهم به ·

وضاق بهم ذرعًا : أى أحس العجز عن حمايتهم ، لأنه يتصدى وحده لقومه جميعًا ، وأصل الذرع من الذراع التى يعملها الإنسان فى تناول الأشياء ثم استعملت استعمالاً مجازيًا فى الدلالة على قدرة الإنسان أو عجزه ، حسب طول ذراعه أو قصرها ·

والإحساس بالمسئولية الملقاة على لوط لحماية ضيوفه ، هو الذى آلمه وأوجعه ،

---

(١) أى من الكارهين المبغضين المنكرين · (٢) سورة الشعراء آية : ١٦٠ - ١٦٩ ·
(٣) سورة هود آية : ٧٧ ·

وضيق مسالك النجاة بهم فى وجهه ، فقال : ﴿ هذا يوم عصيب ﴾ أى يوم قاس ، شديد الوقع على النفس ، لما سيطلع عليه فيه من أحداث مزلزلة ، توقعه فى هذا المأزق ، وتفتح بينه وبين قومه مجالاً فسيحًا للصراع بين جبهتين غير متكافئتين .

ولقد وقع ما توقعه لوط عليه السلام فقد سمع القوم بضيفه فجاءوا يسرعون إليه يطلبون منه أن يمكنهم منهم ، فوبخهم شر توبيخ ، وذكرهم بالله الذى بيده نواصيهم ، وحذرهم مغبة الفضيحة والعار ، وردهم إلى الفطرة التى فطرهم الله عليها ، ولكنهم أساءوا إليه القول ، وأغلظوا له فى السب ، وأعلنوا أنه لابد لهم من ضيفه ، وأنهم لا حاجة لهم فى النساء ، فعندئذ قال لوط فى نفسه : لو كان لدى رجال مؤمنون ينصروننى ، أو آوى إلى قوم لديهم نخوة وغيرة على الحرمات يحموننى .

يقول الله عز وجل : ﴿ وجاءَه قومُه يُهرَعُون إليه ومن قبلُ كانوا يَعملُون السيئاتِ قال يا قومِ هؤلاء بناتى هنَّ أطهرُ لكم فاتَّقوا اللهَ ولا تُخْزُونِ فى ضَيفِى أليسَ منكم رَجلٌ رشيدٌ . قالوا لقد عَلِمْتَ مالنا فى بناتك من حقٍّ وإنكَ لتعلمُ ما نُريدُ . قال لو أنَّ لى بكم قوةً أو آوى إلى ركنٍ شديدٍ ﴾ (١) .

وانظر كيف تبلغ السفاهة بالقوم إلى هذا الحد القذر ، إذ جاءوه جماعة يقتحمون عليه أسوار بيتِه بلا خجل ولا استحياء ليفعلوا الفاحشة مجتمعين ، وليس أوزاعًا متفرقين ، وعندما عرض عليهم بنات القرية ليتزوجوهن ويستمتعوا بهن حلالاً طيبًا ، يقولون له فى وقاحة : ﴿ مالنا فى بناتك من حق ﴾ إننا لا نريد إلا الذكران .

وماذا يفعل لوط أمام هؤلاء القوم ، الذين ركبوا رءوسهم ، فانقلبت فى أعينهم أوضاع الأشياء ، وتغيرت معالمها ؟ .

ولكن الله كان معه ، وهو - جل شأنه - لن يتخلى عن رسله فى أوقات الشدة، ولن يتركهم نهبًا لأولئك الضالين ، فأدركته عنايته ، وأنطق رسله بالبشرى التى كان ينتظرها ، وبالهلاك الذى كان ينتظرهم :

﴿ قالوا يا لوطُ إنَّا رسلُ ربِّك لن يَصلُوا إليك فَأسْرِ بأهلك بِقِطْعٍ من الليلِ ولا يلتَفِتْ منكم أحدٌ إلا امرأتَك إنَّه مُصِيبُها ما أصَابَهم إنَّ مَوعِدَهم الصبحَ أليسَ الصبحُ بقريبٍ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة هود آية : ٧٨ - ٨٠ . (٢) سورة هود آية : ٨١ .

والأمر الذى توجه به الملائكة إلى لوط عليه السلام هو أن يخرج بأهله فى بقية من الليل قبل أن يطلع الصبح ، وألا يلتفت هو ومن معه إلى الوراء حيث القرية التى تركوها وراء ظهورهم .

وفى النهى عن الالتفات إلى تلك القرية ومن فيها إشارة إلى أنها دار إثم ، ومباءة فسق ، ينبغى أن يقطع المؤمن كل مشاعره نحوها ، فلا يتبعها بصره ، ولا يلقى عليها نظرة وداع ، وهكذا ينبغى أن يكون شأن المؤمن مع كل منكر أن يعتزله ، ويعتزل مواطنه والمتعاملين به ، فلا يحوم حوله ، ولا يمر بداره ولا يتصل بأهله ، فإن المنكر مرض خبيث ، يَعْلَق داؤه بكل من يدنو منه ، أو يتنفس فى الجو الذى تفوحُ عفونته فيه .

ولهذا فقد أمر النبى ﷺ المسلمين حين مروا بديار ثمود ، وهم فى طريقهم إلى تبوك - أمرهم أن يجدّوا فى السير ، وألا يلتفتوا إلى هذه المواطن وأن يغلقوا حواسهم عنها ، حتى لا يدخل عليهم شىء منها ، شأنهم فى هذا شأن من يمر بجثث متعفنة ، تهب منها ريح خبيثة فيسد أنفه وينطلق مسرعًا حتى يبرحها ، وفى هذا درس عملى للتشنيع على المنكر وأهله .

ولما جاء الصبح الموعود ، وقع الأمر الذى قضاه الله وقدره ، أمر جبريل عليه السلام فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليها حجارة من نار جهنم مُعلَّمة ، كل حجر يقع على من يشاء الله أن يقع عليه لا يخطئه ولا يصيب غيره ، فذهبت معالم القرية بأسرها ، وصار أهلها حديثًا تتناقله الأجيال ، وآية للذين يخافون العذاب الأليم ، وذلك جزاء الظالمين الذين لم يعرفوا للحق موطنًا ، ولم يراعوا فى رسولهم عهدًا ولا ذمة .

وقد ذكرت هذه القصة لتكون عبرة لمشركى مكة ومن حولها على وجه الخصوص وللناس جميعًا على وجه العموم .

* * *

قصة إسماعيل عليه السلام

عرفنا فيما سبق أن إسماعيل عليه السلام هو أول غلام وهبه الله لإبراهيم عليه السلام، وعرفنا أنه من « هاجر » التى وهبها ملك مصر لسارة ، وعرفنا قصته مع أبيه حين عرض عليه رؤياه، ورأينا كيف استجاب لأمر الله واستسلم لقضائه ، وأنصف أباه من نفسه ، وامتثل له لينفذ فيه ما رآه فى منامه، صابراً محتسباً ، لم يعكر صفو إيمانه شيء يعاب به أو يعاتب عليه .

وعرفنا أنه قد اشترك مع أبيه فى بناء البيت الحرام ، وغيرَ ذلك مما تقدم ذكره فى قصته مع أبيه وأمه .

وقد كان لإبراهيم عليه السلام من الولد كثير - كما ذكر ابن كثير فى البداية نقلاً عن السهيلى من كتابه « التعريف والإعلام » .

وكان إسماعيل بكره ، وظل وحيده أكثر من ثلاث عشرة سنة ، ثم رزقه الله بإسحاق من سارة ، ثم تزوج بعدها « قنطورا بنت يقطن » الكنعانية ، فولدت له ستة : مدين ، وزمران ، وسرج ، ويقشان ، ونشق ، ولم يسم السادس .

ثم تزوج بعدها « حجون بنت أمين » فولدت له خمسة : كيسان ، وسورج ، وأميم ، ولوطان ، ونافس .

وإسماعيل وإسحاق هما أشهر أولاده ، وأكرمهم وأرفعهم منزلة عند الله ، ورثا من أبيهما النبوة والكتاب والعلم والحلم .

وقد عاش إسماعيل بمكة مع أمه هاجر بين جبال فاران فى جوار عصبة من قبيلة جرهم ، ونشأ بينهم نشأة كريمة ، وأحبهم وأحبوه ، وتكلم بلغتهم العربية ، وكان أفصحهم لسانًا وأعذبهم بيانًا ، وذلك أمر بدهى ؛ لأن الله عز وجل قد أعده للرسالة، ومن شأن الرسول أن يكون أفصح القوم وأجدرهم على التعبير عن مراده ، وأصدقهم قولاً ، وأقومهم سبيلاً ، وأقواهم حجة ، وهو الوارث لأبيه فى ذلك وغير ذلك من المحامد العلية ، والصفات المرضية .

ولما بلغ إسماعيل مبلغ الرجال تزوج امرأة من العماليق يقال لها « عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقى » .

وماتت هاجر رضي الله عنها وجاء إبراهيم عليه السلام بعدما تزوج إسماعيل عليه السلام فلم يجده ، فسأل امرأته ، فقالت : خرج يبتغى لنا رزقًا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بشرّ (فى ضيق وشدة) · وشكت إليه ، فقال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ ، فقالت : نعم جاءنا شيخ صفته كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أننا فى جهد وشدة ·

قال : فهل أوصاك بشىء ؟· قالت : نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول لك غير عتبة بابك ، قال : ذاك أبى وأمرنى أن أفارقك ، فالحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج من جرهم امرأة أخرى ·

ولبث عنهم إبراهيم عليه السلام ما شاء الله ثم أتاهم بعد ، فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا رزقًا ، قال : كيف أنتم ؟، وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟، قالت : اللحم ، قال : ما شرابكم ، قالت : الماء ، قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء ·

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل ، قال : هل أتاكم من أحد ؟، قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة - وأثنت عليه - فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير ، قال : فأوصاك بشىء ؟ ، قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك أبى وأمرنى أن أمسكك ·

ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة قريبًا من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد ، والوالد بالولد ، ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك به ربك ، قال : وتعيننى ، قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتًا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه ، وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ ·

هذا وقد ذكر علماء النسب والسير أن إسماعيل عليه السلام هو أول من ركب الخيل واستأنسها بعد أن كانت متوحشة .

قال ابن كثير فى البداية [1] : قال سعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه حدثنا شيخ من قريش حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « اتخذوا الخيل واعتبقوها [2] فإنها ميراث أبيكم إسماعيل » .

وقد أنجب إسماعيل عليه السلام من الزوجة الثانية وهى « السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى » اثنى عشر ولداً ذكراً .

ولقد لقى إسماعيل عليه السلام ربه عز وجل بعد عمر جاوز مائة وسبعًا وثلاثين سنة . ودفن مع أمه هاجر بالحِجْر ، وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه « نابت » و« قيذار »، وإسماعيل عليه السلام هو أبو العرب المستعربة ، ونحن المصريين ننتسب إليه من جهة أمه هاجر ، وهى قبطية من بنات مصر .

* * *

---

(١) جـ ١ ص ١٩٢ .   (٢) أى : الزموها .

قصة إسحاق عليه السلام

ذكر الله قصة إسحاق ضمن قصة أبيه إبراهيم عليهما السلام ، فقد بُشِّر به على الكبر ، ووهبه له بعد أن وهب له إسماعيل ، كما ذكرنا من قبل ·

فشب الغلام بين أبويه الكريمين على مثال الخلق الفاضل والكمال الوافر ، ونهل مع أبيه العلم ، وورث منه الحلم كما ورثه منه إسماعيل إلا أن إسحاق قد برز فى العلم ، وإسماعيل قد برز فى الحلم ، فوصف الله كلا منهما بما قد برز فيه واشتهر به حتى صار كالعلم عليهما ، بحيث إذا قيل : أقبل العليم – عرف بأنه إسحاق ،وإذا قيل : أقبل الحليم – عرف بأنه إسماعيل ·

ولما شب إسحاق عليه السلام وبلغ مبلغ الرجال زوجه أبوه من « رفقة بنت بتوئيل » فولدت له « عيسو » و « يعقوب » فى بطن واحدة ·

وكان عيسو حقودًا حسودًا يضمر الشر لأخيه يعقوب ، فنجاه الله منه بهجرته إلى خاله « لابان بن بتوئيل » على ما سيأتى بيانه فى قصته ، وقد أرسل الله إسحاق إلى قومه فلبث فيهم عمراً طويلاً يدعوهم إلى الله ، ويعلمهم أحكام الشريعة التى جاء بها إبراهيم عليه السلام حتى لقى ربه عز وجل·

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف حميدة غير الوصــف الذى اشتهر به فقال : ﴿ وبشَّرْنّاه بإِسحاقَ نبيًا من الصالحين ﴾[1] وقال :﴿ واذكرْ عبادَنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أُولِى الأيدِى والأبصار · إنَّا أخلَصْنَاهم بخَالِصةٍ ذِكرَى الدارِ · وإنَّهم عندنا لمن المُصْطَفَيْنَ الأخيارِ﴾[2] ·

وعاش إسحاق حتى بلغ من العمر مائة وثمانين سنة · وكانت وفاته بعد غياب حفيده يوسف بمصر باثنتى عشرة سنة ، ودفنه ابناه عيسو ويعقوب فى الغار الشريف حيث دفن إبراهيم وزوجه سارة ، ورفقة امرأته ·

* * *

(١) سورة الصافات آية : ١١٢ ·　　(٢) سورة ص آية : ٤٥ – ٤٧ ·

قصة يعقوب عليه السلام

ورث يعقوب عليه السلام من أبيه النبوة والحلم والعلم والصبر الجميل ، وغير ذلك من صفات المهابة والجلال ، فحقد عليه أخوه « عيسو » وأضمر له شرًا فخاف يعقوب من أن يقتله فرحل إلى « حاران » فى « فدان آرام » عند خاله « لابان » أخى « رفقة » وهو ابن « ناحور » .

وبعد أن وصل إلى خاله لابان واستقر به المقام زوجه خاله بنته الكبرى«ليئة » ، ثم زوجه أختها الصغرى « راحيل » فاجتمعتا عنده معًا ، وكان الجمع بين الأختين جائزًا فى شريعتهم .

وخدم يعقوب خاله لابان عشرين سنة ثم رحل قافلاً إلى فلسطين ، فسكن فى « شكيم » حيث اشترى أرضًا هناك ، ثم أتى بإلهام إلهى إلى « بيت إيل » ، ثم اتجه إلى بلدة « إفراته » التى سميت فيما بعد « ببيت لحم » ، فولدت راحيل بنيامين وماتت هناك ، ثم ارتحل إلى « حبرون » حيث أبوه إسحاق فيها ، ثم إلى « شيلون » وفيها سكن إلى زمن حادثة ولده يوسف ، ثم رحل لمصر ، وبها توفى بعد سبع عشر سنة .

قيل : ومن محاسن الصدف أن يوسف أقام عنده فى فلسطين فى صغره سبع عشرة سنة ، وأقام أبوه يعقوب عنده بمصر سبع عشرة سنة .

وقد عاش يعقوب عليه السلام مائة وسبعًا وأربعين سنة « وحنط أطباء مصر جثته وجاء بها يوسف وإخوته إلى حبرون ، ودفنوها فى الغار الشريف ورجعوا لمصر حيث عيالهم ومعيشتهم »(١) .

وقد ولد يعقوب عليه السلام قبل نبينا عليه الصلاة والسلام بنحو (٢٤٠٧ سنة) وتوفى قبله بنحو (٢٢٦٠ سنة) - كما قال الشيخ عبد الله العلمى فى كتابه «مؤتمر سورة يوسف » .

وكان ليعقوب عليه السلام من الولد اثنا عشر ولدًا .

ستة من « ليئة » وهم : « رأوبين » و« شمعون » و« لاوى » و« يهودا » و

---

(١) انظر : مؤتمر سورة يوسف للشيخ عبد الله العلمى .

«يساكر » و« زبولون » . واثنان من جاريته « بلهة » وهما « دان » و « نفتالى » . واثنان من جاريته الأخرى « زلفة » وهما : « جاد » و« أشير » ، واثنان من أحب النساء إليه « راحيل » وهما : « يوسف » و« بنيامين » .

هذا وليعقوب عليه السلام فى القرآن اســم آخر هو « إسرائيل » ومعناه : عبد الله .

قال تعالى : ﴿ كلُّ الطعامِ كان حلاً لبنى إسرائيلَ إلا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسه من قبلِ أن تُنَزَّلَ التوراةُ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ [1] .

وقد حرم إسرائيل على نفسه - إن شفاه الله من مرض ألمَّ به - لُحمان الإبل وألبانها ، فقد روى أحمد فى مسنده عن ابن عباس ﷺ أن عصابة من اليهود حضرت عند رسول الله ﷺ ، فقالوا حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى ، قال : « سلونى عما شئتم ، ولكن اجعلوا لى ذمة الله ، وما أخذ يعقوب على بنيه [2] : لئن أنا حدثتكم شيئًا فعرفتموه لتتابعنى على الإسلام » ، قالوا : فذلك لك، قال : « فسلونى عما شئتم » ، قالوا : أخبرنا عن أربع خلال : أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه ؟، وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ كيف يكون الذكر منه ؟ وأخبرنا : كيف هذا النبى الأمى فى النوم ؟، ومن وليه من الملائكة ؟. فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه ، وقال : « أنشـدكم بالذى أنزل التوراة على موسى : هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضًا شديدًا وطال سقمه ، ونذر لله نذرًا لئن شفاه الله من سقمه ليُحرِّمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه ، وكان أحب الطعام إليه لُحمان الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها » ، قالوا : اللهم نعم، قال : « اللهم اشهد عليهم » ، وقال : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو، الذى أنزل التوراة على موسى : هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ،

(١) سورة آل عمران آية : ٩٣ .

(٢) هو ما جاء فى قوله تعالى من سورة البقرة : « أم كنتم شهداء إذا حضر يعقوب الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون » آية ١٣٣ - ١٣٤ .

فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله » ، قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد عليهم » ، وقال : « أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى : هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه » ، قالوا : اللهم نعم ، قال : « اللهم اشهد » ، قالوا : وأنت الآن فحدثنا من وليّك من الملائكة ؟ فعندها نجامعك أو نفارقك ، قال : « إن وليِّى جبريل ، ولم يبعث الله نبيًا قط إلا وهو وليُّه » ، قالوا : فعندها نفارقك ، لو كان وليُّك غيره لتابعناك .

ونكتفى بهذا القدر من قصة يعقوب عليه السلام هنا لأن قصته تتجلى فى قصة ولده يوسف ، ففيها يظهر حلمه وعلمه ، وصبره وفطنته ، وأدبه وحسن معالجته للأمور ، وعفوه وصفحه عمن أساء إليه من أبنائه وعشيرته ، وغير ذلك من خلائقه الكريمة وأوصافه المحمودة .

* * *

قصة يوسف عليه السلام

قصة يوسف قصة فريدة فى نمطها ، وأسلوبها وإعجازها ، ومقاصدها وغاياتها، قد اشتملتها سورة واحدة ، لم تتكرر حلقة من حلقاتها فى سورة أخرى ؛ لهذا كان لها طابع خاص فى ترابط أحداثها وترتيب أهدافها ، ومذاق متميز عن سائر قصص القرآن الكريم ، ولعل الحكمة فى عدم تكرارها ، أو تكرار حلقة من حلقاتها فى سور القرآن كغيرها من القصص أنـها قصة أسرية موصولة الأواصر متماسكة الأطراف ، متتابعة الأحداث فى نسق لا يقبل الانفصام بحال . فهذا الطابع الأسرى المتماسك حَسَّن مجىء القصة برُمَّتها فى سورة واحدة .

• مقاصدها :

ولهذه القصة مقاصد عامة نلمحها من بعيد ، ومقاصد خاصة نلمحها من خلال تدبر الآيات والنظر فيما وراء المعانى اللفظية من لطائف بيانية ومقاييس دقيقة لتحليل شئون الدنيا وأمور الدين .

من هذه المقاصد العامة :

١ - مواساة النبى ﷺ ، ومواساة المؤمنين معه فى محنتهم ؛ إذ نزلت فى وقت عصيب اشتد فيه الكرب على النبى ﷺ ؛ فقد أمعن المشركون فى إيذائه ﷺ وإيذاء من معه من المسلمين ، فملُّوا يومًا مَلَّةً احتاجوا فيها إلى ما يسرى عنه، فسألوا رسول الله ﷺ أن يقص عليهم طرفًا من أخبار الأولين وهو نبى أمى لم يجلس إلى معلم ، ولا إلى قصاص ، فأنزل الله عليه هذه السورة لتكون له ولهم أعظم سلوى .

وقد كانت هذه القصة له ﷺ من أعظم السلوى لما بينه وبين أخيه يوسف من شبه فى أخلاقه وظروفه ومحنه :

(أ) فيوسف قد آذاه وكاد له أقرب الناس إليه وهم إخوته ، ومحمد ﷺ قد آذاه وكاد له أقرب الناس إليه .

(ب) وكان أول ما بُدئ به يوسف عليه السلام من الوحى الرؤيا الصالحة ، وأول ما بدئ به محمد ﷺ فى نبوته الرؤيا الصالحة كان يراها فتجىء كفلق الصبح .

(جـ) وقد أوتى محمد ﷺ علمًا غزيرًا فى تأويل الرؤى كما أوتى يوسف عليه السلام، ونحن نلمح ذلك من خلال تأويله لكثير من الرؤى التى رآها بنفسه والتى رآها بعض أصحابه ·

(د) تآمر إخوة يوسف على قتله أو طرحه أرضًا أو إلقائه فى الجب ، وتآمرت قريش على النبى ﷺ لقتله أو حبسه أو إخراجه إلى أرض بعيدة ·

(هـ) ألقى يوسف فى الجب ، واضطر محمد ﷺ إلى الدخول فى الغار ، فكتب الله النجاة لهما ، فكان خروج يوسف من الجب منطلقًا إلى قصر رحب فسيح، وجد فيه إكرامًا لم يجده فى سواه ، وخرج النبى ﷺ من الغار ليلقى قومًا آمنوا به من قبل ، فحملوه على أعناقهم وطاروا به فرحًا ، وأنزلوه من نفوسهم منزلة آبائهم وأبنائهم ، بل أنزلوه منهم بمنزلة أنفسهم من أنفسهم ·

(و) ودخل يوسف السجن ، وحوصر النبى ﷺ فى شعب بنى هاشم ، هو ومن معه من المؤمنين ، حتى أكلوا أوراق الشجر من شدة الجوع ، ومصوا الحصى من شدة الظمأ ·

(ز) أعز الله يوسف بالملك والسلطان ، وأحوج إليه إخوته ، فأكرم وفادتهم، وعفا عنهم : ﴿ قال لا تثريبَ عليكم اليومَ يغفرُ اللهُ لكم وهو أرحمُ الراحمين ﴾[1] ، ونصر الله نبيه محمدًا على قريش وفتح الله له مكة ، وملكه نواصى القوم ، فقال بعد أن جمعهم إلى ساحة الكعبة : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » ·

إلى غير ذلك من وجوه الشبه التى يستطيع القارئ أن يستنبطها من خلال الأحداث التى مرت بيوسف عليه السلام ·

٢ - هذا والمقصد الأصيل الجامع لكل المقاصد الخاصة والعامة: هو وضع منهج متكامل فى التربية الخلقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ·

إذ تحدثت هذه السورة عن نوازع الخير والشر فى الإنسان ، وانعكاس هذه النوازع على سلوكه مع نفسه ، ومع أسرته ومع مجتمعه الذى يعيش معه ، ويختلط به ، وكشفت عن أغوار النفس البشرية ، ودخلت بنا إلى أعماقها البعيدة ، وحللت أسباب هذه النوازع ، ووسائلها فى تحقيق مآربها وغاياتها ·

---

(١) سورة يوسف آية : ٩٢ ·

• مطلعها :

وتبدأ القصة بذكر أخص خصائصها وأبرز سماتها البلاغية كتمهيد للدخول فى أحداثها ، فقد بين الله عز وجل أنها قصة من أحسن القصص من حيث مقاصدها ومراميها وغير ذلك من مناحى الجلال والجمال القصصى الرائع البليغ ·

﴿ نحن نقصُّ عليك أحسنَ القصصِ بما أوحينا إليك هذا القرآنَ وإن كنتَ من قبلِه لمن الغافلين ﴾ (١) ·

فهى قصة قصها الله فى محكم كتابه لتكون فى الإعجاز آية الآيات ، ولتكون فى مجال التربية والأخلاق غاية الغايات ، وليعلم من يكذب الرسول ﷺ أنه قد جاء بالصدق من ربه ، فكيف يقص عليهم نبأ يوسف وإخوته بهذه الدقة الفائقة والأسلوب المحكم وهو أمى لم يقرأ كتابًا ، ولم يجلس إلى معلم من أحبار اليهود ولا من رهبان النصارى ، وصدق الله حيث يقول :

﴿ وما كنت تتلو من قبلِه من كتابٍ ولا تخطُّه بيمينك إذًا لارتابَ المبطلون﴾ (٢) .

ثم تأخذ القصة طريقها برؤيا رآها يوسف عليه السلام فقصها على أبيه فأوصاه أبوه بكتمانها عن إخوته لعلمه أنهم لا يحبونه كما يحب الأخ أخاه ، وأخبره أنهم لو علموا بتأويلها لكادوا له كيدًا يمليه عليهم الشيطان ، وهم فى قمة حقدهم عليه وحسدهم إياه ·

وقد ذهب المفسرون إلى أن يعقوب عليه السلام هو الذى أوّل له رؤياه التى قصها عليه ·

والحق عندى أن يوسف هو الذى أوّل رؤياه بنفسه ، فقص على أبيه الرؤيا وتعبيرها كما أشرت إلى ذلك فى كتابي « من لطائف البيان فى سورة يوسف عليه السلام» ·

وقد بشر يعقوب يوسفَ - عليهما السلام - بالنبوة وإتمام النعمة بالعلم والحكمة وتأويل الأحاديث لأنه هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، سيرث عن آبائه ما أعزهم الله به وفضلهم به على سائر البشر، يقول الله عز وجل : ﴿ إذ قال يوسفُ لأبيه يا أبتِ إنى رأيتُ أحدَ عشرَ كوكبًا والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لى ساجدين · قال يا بنيَّ لا

(١) سورة يوسف آية : ٣ ·　　(٢) سورة العنكبوت آية : ٤٨ ·

تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدًا إنَّ الشيطانَ للإنسان عدوٌ مبينٌ . وكذلك يجتبيك ربُّك ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث ويُتِمُّ نعمته عليك وعلى ءَالِ يعقوبَ كما أتمَّها على أبويْك من قبلُ إبراهيمَ وإسحاقَ إنَّ ربَّك عليمٌ حكيمٌ ﴾ (١) .

وينتهى الحديث الطيب ، والحوار المشرق بين يوسف وأبيه لتأخذ القصة طريقها إلى التفصيل بعد هذه المقدمة التى ظهر لنا فيها حسن المطلع وبراعة الاستهلال ، ولكن هذا التفصيل لم يأت بغتة بل تقدمته آية تشير إلى عظمة هذه القصة فى مقاصدها وأساليبها وإعجازها البيانى بوجه عام ، وإعجازها القصصى بوجه خاص ، آية تشوق طلاب العلم والمعرفة ورواد الحق إلى ما فى القصة من عظات وعبر وأحكام وحكم .

يقول الله عز وجل : ﴿ لقد كانَ فى يوسفَ وإخوته آياتٌ للسائلين ﴾ (٢) .

أى لقد كان ولا يزال فى قصة يوسف علامات واضحة الدلالة على قدرة الله تعالى فى إعزاز من شاء ، وإذلال من شاء وفق حكمته البالغة فى تدبير شئون خلقه، وأمارات دالة على صدق رسوله فيما يبلغ عن ربه .

وهذا المطلع كفيل بتحريك الانتباه والاهتمام بمتابعة أحداث القصة على نور وبصيرة ، فجميع ما فيها يعد فى نظر العقلاء من أصدق البراهين على سمو العدل الإلهى فى الحكم بين عباده ، إذ ينصر المظلوم ، وينتقم من الظالم ، ويجزى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، ويؤتى الملك من يستحقه ، ويسند الأمر لأهله ويضع كل شىء فى موضعه ، وهو يقول الحق ويهدى السبيل .

فقصه يوسف عليه السلام منهج متكامل للحياة الفاضلة فى أسمى صورها وأبهى معانيها،وصاحب هذه القصة هو المثل الأعلى فى النبل والشرف والعزة والعفة والنزاهة والصبر والتقى ، وكلها من جماع خصال الخير ، ومن أمهات شعب الإيمان .

• مكر إخوة يوسف به وتآمرهم عليه :

وبعد هذه الآية تأخذ القصة طريقها إلى التفصيل فيذكر الله عز وجل أن إخوة يوسف قد حقدوا عليه وحسدوه على حب أبيه إياه ، وعلى ما أوتيه من علم وجمال

---

(١) سورة يوسف آية : ٤ - ٦ . (٢) سورة يوسف آية : ٧ .

وجلال ، فأتمروا على قتله أو إبعاده عن أبيه بطرحه فى أرض بعيدة لا يمكنه الرجوع منها إليه ، ولا يعرف أحد من أهله مكانه فيأتى به إلى أبيه ·

وقد بنوا على ذلك آمالاً وأحلامًا تدل على سفه عقولهم وفساد رأيهم وقسوة قلوبهم ؛ فقد سول لهم الشيطان أمرًا ما هم ببالغيه أبدًا ، فأملى لهم أنهم لو قتلوه ، أو أبعدوه سيخلص لهم حب أبيهم ، وينعمون بنظرته إليهم واعتماده عليهم فيما جل وعظم من شئون الحياة ·

لكنهم لم يتفقوا جميعًا على قتله ، ولا طرحه فى أرض بعيدة يكون فيها هلاكه محققًا ، فأشار عليهم واحد منهم بأن يتخلصوا منه بإلقائه فى غيابة الجب ، ليلتقطه بعض السيارة من المسافرين ، ويذهبوا به بعيدا عن أبيه ، وهو فى مأمن من الهلاك ، وبذلك يتم لهم ما أرادوه - بزعمهم - من خلو وجه أبيهم دون أن يزهقوا روحًا بريئة أو يعرضوها لخطر محقق ، فارتضوا ذلك وعقدوا العزم على فعله ·

يقول الله عز وجل : ﴿ إذ قالوا لَيُوسُفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منَّا ونحنُ عصبةٌ إنَّ أبانا لفى ضلال مبينٍ · اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضًا يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم وتكونوا من بعده قومًا صالحين · قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسفَ وألقُوه فى غَيَابَتِ الجُبِّ يَلتَقِطْه بعضُ السَّيَّارَةِ إن كنتم فاعلين ﴾ [1] ·

وهذا منهم أمر عجيب ، إذ كيف يجتمعون على هذا الشر المستطير وهم عصبة مؤمنة ، أبناء نبى مرسل ، سمعوا من أبيهم من العظات والعبر ما من شأنه أن يغرس فى نفوسهم حب الخير ، وينزع من قلوبهم آفات الحقد والحسد ، ويسموا بعقولهم عن التفكير فى مثل هذه الجريمة النكراء ، أو فيما دونها من الجرائم التى لا يفكر فيها إلا من فقد عقله ، وألغى حسه وتخلى عن إنسانيته وعقيدته ·

لكنه الهوى لعب برءوسهم جميعًا على كثرتهم ، والهوى الجامح من شأنه أن يضل صاحبه عن الحق وينأى به عن الجادة والصراط السوى ، ويفقده الشعور بأخوة النسب ، وأخوة الإيمان ، وينسيه ما يترتب على جرمه من مخاطر لا تدرك أبعادها ، ومهالك لا يمكنه أن يتوقاها ، ومآزق لا يقدر أن يتخلص منها ، وينسى أيضًا ما أعده الله للمجرمين من عذاب فى الدنيا ، وعذاب فى الآخرة، فأى صلاح يكون لإخوة يوسف بعد أن يبعدوه عن أبيه وهو قرة عينه !! ·

---

(١) سورة يوسف آية : ٨ - ١٠ ·

هل تراه يحمدهم على هذه الجريمة ، ويتحول بوجهه إليهم ، ويخصهم بحبه وقربه !! هل تراه ينسى ما فعلوه بأحب أبنائه إليه ، وخليفته من بعده مهما كرت الأيام ، ومرت السنون !! وهل مثل هذه الجريمة مما يطويها النسيان ! أو يقلل من حدة وقعها مر الزمان !! ·

فمن الذى هو فى ضلال مبين !!

أبوهم الذى يحنو على يوسف لأنه كان صغيرًا ، والصغير أحق بالرعاية من الكبير ، وقد كان يوسف قريب الشبه به في محاسنه وشمائله لهذا قربه إليه ليؤهله إلى حمل الرسالة من بعده ، فأين هم منه !! ·

أقول : من الذى كان فى ضلال مبين أبوهم أم هم !! ·

إنهم كانوا أجهل الناس بغريزة الأبوة ، وأبعد الناس عن الحق الواضح والخلق الفاضل ، والسلوك النبيل ·

فقد استخفوا بأبيهم وقسوا عليه وعلى يوسف ؛ لأنهم جبلوا على الحقد والحسد ففعلوا ما فعلوا ، وبئس ما فعلوا إنهم ارتكبوا جرمًا لم يذكر لنا التاريخ له مثيلاً من قبلهم ولا من بعدهم ·

إنهم عشرة رجال درجوا فى بيت النبوة ، وعاشوا فى ظلها ، فكيف يجتمعون على ضلالة ! ·

وأى عصبة هذه وهم لا يرقبون فى أبيهم ولا فى أخيهم إلاً ولا ذمة !

فإن قلت : لم دبروا هذا الكيد ليوسف دون أخيه بنيامين وقد جمعوا بينهما فى الحكم إذ قالوا : ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ ؟

قلت : لعلهم أحاطوا علمًا بالرؤيا التى رآها يوسف فى منامه وعرفوا تأويلها بطريق ما، وأدركوا أنه سيعلوهم ويسودهم ، ويضطرون إلى استجدائه والسجود له، فأتمروا به ودبروا له دون أخيه الشقيق ·

وربما كان أخوه صغيرًا جدًا ليس له عند أبيه من المكانة ما ليوسف ·

وقد جمعوه معه فى الحكم أيضًا لأنه شقيقه وهما من امرأة كانت محبوبة عند أبيهم دون أمهاتهم ، إلى غير ذلك من دواعى الحقد والغيظ والحسد التى تفيض بأصحابها وتنزع من قلوبهم الحب والرحمة ·

وانطلق إخوة يوسف إلى أبيهم يجرون وراءهم ذيول الخزى والعار ويحملون بين جوانحهم قلوبًا قد خلت من نوازع الخير والرحمة ، وسألوه سؤالاً يخفون وراءه المكر السيىء وينبئ عن مصير الفتى الذى ائتمروا به ودبروا له فى غيبة من العقل والضمير ، فقد قرروا فى أنفسهم أن مصيره فى كلمة بين شفتى أبيه .

إنهم أعملوا جهدهم فى الاحتيال عليه ، ومهدوا لطلبه منه بخطاب مهذب وقول معسول ، وأفصحوا عن شيء لا تنطوى عليه نفوسهم ، ولا هو ترجمة لما فى قلوبهم .

﴿ قالوا يا أبانا مالَكَ لا تَأْمَنَّا على يوسفَ وإنَّا له لناصحون . أرسلْه معنا غدًا يرتعْ ويلعبْ وإنَّا له لحافظون ﴾ [١] .

إنهم كانوا يعرفون سلفًا أن أباهم يخشى عليه منهم لسوء صنيعهم به وإهمالهم إياه ، لهذا وجهوا إليه هذا السؤال الذى يحمل فى طياته جوابه ، وهم يعرفون هذا الجواب لكنهم تجاهلوه ومضوا فى كلامهم يرسلونه إرسالاً كأنهم واثقون بما يقولون ، مطمئنون إلى الوفاء بما يعدون به أباهم ، كيف لا وهم عصبة أولو قوة وبأس، يقولون بألسنة حداد : ﴿ مالك لا تأمنا على يوسف ﴾ وقد طلبناه منك أكثر من مرة، ونحن له مخلصون لا نضمر له العداوة ولا نرغب إلا فى إسعاده ومرضاته .

أرسله معنا غدًا صباحًا ﴿ يرتع ويلعب ﴾ يعنون يأكل ويرعى معنا أغنامنا ويلعب تحت أسماعنا وأبصارنا ، ولا تخش عليه من العوادى والمؤذيات فنحن له حافظون ، وعلى حراسته قائمون .

لكن أباهم لم يكن غافلاً عنهم ولا خافيًا عليه أمرهم فهو نبى مرسل ، له من النور ما يميز به الصدق من الكذب .

لقد تفرس الكذب فى وجوههم وعرف ما انطوت عليه سرائرهم ، فأفصح لهم عما يكنه قلبه وما يعتمل فى نفسه نحوهم ، وصارحهم بالحقيقة التى ما غابت عنه لحظة : ﴿ قال إنِّى لَيَحْزُنُنِى أن تذهبوا به وأخافُ أن يأكلَه الذئبُ وأنتم عنه غافلون﴾[٢] .

أى إنه ليحزننى حقًا انطلاقكم به ، فأنتم لستم موضع ثقتى فمجرد خروجه معكم أمر يقلقنى ويشقينى ، وأخاف عليه من الذئب لعدم اهتمامكم به وحرصكم

---

(١) سورة يوسف آية : ١٠ - ١١ . (٢) سورة يوسف آية : ١٣ .

عليه ، فأنتم عنه غافلون دائمًا ، لا تعاملونه معاملة الأخ لأخيه ، فإذا خرجتم به كانت غفلتكم عنه أشد وإهمالكم له آكد ، فهو يخشى عليه منهم مثل خشيته عليه من الذئب .

إنه لا يخشى عليه من أن يخرج وحده أو مع آخرين لكنه يخشى أن يخرج معهم فلا يعود .

إنه إحساس الأبوة مع نور النبوة ، مع الفطنة التى هى من أخص صفات النبيين مع توارد الخواطر وتداعى المعانى وقرائن الأحوال ، مع هذا كله أدرك أن نجاة ولده فى كلمة « لا » لا فى كلمة « نعم » ، وقد تجاهل أبناؤه ما رماهم به وما أفصح لهم عنه ، ومضوا يستعرضون قوتهم ، ويستدلون على صدقهم بما لا دليل فيه ولا برهان .

﴿ قالوا لَئن أكلَه الذئبُ ونحن عصبةٌ إنَّا إذًا لخاسرون ﴾ [1] يا لها من عصبة فقدت قوتها بسبب اغترارها بها ، وخسرت أنفسها بتشددها وتنطعها وتشدقها بكلام لا قدرة لهم على تنفيذه ، ولا عزم لهم على إمضائه .

لقد صدقوا فى قولهم : ﴿ ونحن عصبة ﴾ نعم هم عصبة لكن فى الشر لا فى الخير ، لقد أجمعوا أمرهم أن ينتزعوا يوسف من أبيه طوعًا أو كرهًا ، فآثروا أن يجربوا معه الحيلة، فإن فشلت حيلتهم اعتمدوا على حولهم وقوتهم فى أخذه بطريقة أو بأخرى من طرق الاغتصاب واللصوصية ، إنهم قرروا عن عزم مؤكد وتصميم لا رجعة فيه أن يبعدوه عن ساحة أبيه ، مهما كلفهم هذا الهدف من جهد ونَصَب .

وكان أبوهم عليه السلام يستطيع أن يحجبه عنهم ويمنعه من الذهاب معهم ، وله كل المبررات التى تحمله على ذلك ، لكنه استجاب لهم بعد حوار تلطفوا معه فيه فأرسله معهم ثقة بالله وتوكلاً عليه إذ لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، فخرج يوسف مع إخوته ، بل قل مع العصبة التى لا تُرى إلا فى الشر - خرج من البيت وما خرج من قلب أبيه ، وغاب عن عينيه وما غاب عن عقله ووعيه - خرج يوسف فرحًا مسروراً تكسو وجهه براءة الطفولة ونزاهة المقصد - خرج وهو لا يدرى ما تكنه له الأقدار ، وإنها لأقدار مزجت فيها المحن بالمنح ، إنها أقدار تبدأ من هنا فى أول خطوة من خطوات المسير فى تحقيق الرؤيا التى رآها وأولها بنفسه لنفسه ، وقصها على

---

(١) سورة يوسف آية : ١٤ .

أبيه مصحوبة بتأويلها فأقره عليها وأوصاه بكتمانها وبشره بما تنطوى عليه من آثار سارة ونعم غامرة ·

انطلق الفتى بعيدًا بعيدًا عن العمران إلى أرض لا أنيس فيها ولا مغيث فرأى هناك من الهول ما تذهب النفس فى تقديره كل مذهب ·

يقول الله عز وجل : ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غَيَابَتِ الجُبِّ وأوحينا إليه لَتُنَبِّئَنَّهُم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ (١) وجواب « لما » هنا محذوف مبالغة فى تصوير هذا الموقف الذى لم يحدث له مثيل فى التاريخ- تقديره : فلما ذهبوا به إلى مكان قصى بعيد عن العمران وأجمعوا على أن يجعلوه فى أعماق الجب - وهو بئر عميق غائر الماء - حدث من الهول والفزع ليوسف ما لا يعبر عنه لسان ، ولا يحكيه وصف ، ولا يتصوره عقل ، ولا يصبر على تحمل وقعه قلب صابر ، ولكن الله عز وجل قد أدرك هذا الغلام الصغير فى سنه وجسمه ، الكبير فى عقله وقلبه ، فأوحى إليه وحى إلهام أو بواسطة ملك ببشرى عظيمة تبدد حزنه وأسفه وأساه ، وتجدد فى قلبه الأمل والرجاء فى رحمة ربه الواسعة ، وتبعث فى نفسه السرور بالنصر على هذه العصبة الآثمــة فى يوم يقفون أمامه أذلاء صاغرين يستجدونه الصدقة ، ويطلبون منه العفو والصفح وهو يومئذ ملك متوج على أرض كثيرة الخيرات ، عظيمة البركات ، لا ينقطع مددها ، ولا ينضب معينها ، خيرها للقاصى والدانى ، فاطمأن قلب يوسف عليه السلام وأيقن أن رؤياه ســـوف تتحقق فى يوم ما ، وهذا هو أول الطريق فى تحققها ·

وانتظر يوسف الفرج من ربه صابرًا محتسبًا وهو فى هذا الجب الموحش المهلك، وإن فرج الله لقريب ، وكلما اشتد الكرب هان ·

ولكن ماذا كان من أمر العصبة وقد فعلوا ما فعلوا ، هل تحرك ضمير واحد منهم فأخرجه من الجب وشعر بالندم على ما أقدم عليه ، كما هو الشأن فى كل من له قلب يحمل ذرة من الإيمان ، أو تكمن فيه لمسه من حنان ؟ ·

كلا إنهم تركوه فى هذا السجن الانفرادى بلا ماء ولا زاد ، ورجعوا إلى أبيهم يتصنعون البكاء تمهيدًا لخبر مشؤوم كان يعقوب عليه السلام يعرفه ويتوقعه ، فألقوه إليه من غير مقدمات « كجملود صخر حَطَّه السَّيْلُ من عَلٍ » على رأس أبيهم ، مع

(١) سورة يوسف آية : ١٥ ·

كلام يتناقض مع الوعد الذى قطعوه على أنفسهم ، وكلام آخر ختموا به هذا الخبر يدل على كذبهم فيما ادعوه دلالة لا تبقى ريبة لمرتاب فى كذبهم وتزويرهم .

وجاءوا بقميصه ملوثًا بدماء هى الكذب نفسه ، فنظر يعقوب فى أقوالهم ولم يطل النظر فيها ، لأنها أقوال ساذجة تدل على بلاهتهم وجهلهم بسبك المؤامرات وتلفيق الحجج والبينات ، وهو الأمر الذى جعلهم يفضحون أنفسهم بأنفسهم فجاءوا بكلام فيه إدانتهم .

ومن أخيب ما وقعوا فيه ذلك القميص الذى جاءوا به ملطخًا بالدماء وهو يخلو تمامًا من آثار الذئب الذى ادعوا أنه أكل يوسف ، فقد نظر يعقوب فى هذا القميص - كما قيل - فقال متعجبًا منهم ، ومتهكما بهم : ما أكرم هذا الذئب وما أحلمه ! أكل ولدى وترك قميصه كما هو !! ، فسقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، وعلموا أن أباهم لم يخف عليه أمرهم فبادرهم بالإفصاح عما فى نفسه ، واستعان عليهم بالله ، وتسلح بالصبر الجميل حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً .

يقول الله عز وجل : ﴿ وجاءُوا أباهم عِشاءً يبكون . قالوا يا أبانا إنَّا ذهبنا نَستَبِقُ وتركنا يوسفَ عند متاعنا فأكلَه الذئبُ وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدمٍ كَذِبٍ قال بل سولَّتْ لكم أنفسُكم أمرًا فصبرٌ جميلٌ واللهُ المستعانُ على ما تصفُون ﴾ (١) .

وإنك إذا تأملت هذه الآيات ومعك عقل راجح ، وملكة ثاقبة فى فهم ما وراء المعانى ، وزاد من فقه اللغة - تستطيع بقليل من العناء فى إجهاد الفكر أن تستخلص ما ذكرته لك وأكثر منه بكثير .

سل نفسك لمَ جاءوا أباهم عشاءً ؟

تجد عقلك يسعفك بالجواب ، وهو أنهم جاءوه عشاءً لئلا يتفرس الكذب فى وجوههم ، فمن حاول إخفاء شىء ظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه - كما قال على رضي الله عنه .

وانظر لماذا قال : يبكون ولم يقل يتباكون ؟

إنهم كانوا - مع جهلهم المفرط بسبك الحيل - يحسنون التمثيل إلى حد كبير ، فنزَّل الله تباكيهم منزلة البكاء ليفهم القارئ أنهم أهل تصنُّع وتمثيل ، ومع ذلك لم

---

(١) سورة يوسف آية : ١٦ - ١٨ .

ينجحوا فى إخفاء كيدهم إذ قالوا لأبيهم كما حكىَ القرآن عنهم : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ فهم يعتقدون أنهم ليسوا أهل صدق عند أبيهم ومن باب أولى عند غيره من الناس ، فالصدق نور يتلألأ على وجوه الصادقين ، ودرر تتساقط من أفواههم .

إنهم كما قال القائل : كاد المريبُ أن يقول خذونى .

وأى سخف هذا الذى جاءوا به ليكون برهانًا على صدقهم : قميص ملطخ بالدم يخلو من تمزيق الذئب وآثاره العدوانية التى تكون أبلغ فى البينة من الدم .

وقبل هذا وذاك ألم يعدوا أباهم أن يصحبوا يوسف ليرتع ويلعب ، فلمَ تركوه يحرس المتاع ؟! .

ألم يقولوا لأبيهم : إنا له لناصحون ، إنا له لحافظون ، فأين نصحهم له وأين حفظهم إياه ، وكيف يأكله الذئب وهم عصبة ؟! .

أطلق أيها القارئ الكريم لفكرك العنان ، ودعه يستخلص أبعاد هذه المؤامرة من خلال هذه الآيات ، وانظر إلى حالهم مع أنفسهم ومع أخيهم ومع أبيهم مستعينًا فى ذلك بفقه اللغة ، ودلالات الألفاظ على معانيها ، ودلالات الجمل على مراميها . وبالله توفيقك .

وينتهى الحديث من الحوار الذى وقع بين يعقوب وبنيه لينتقل إلى يوسف فى بداية الرحلة الطويلة من الجب إلى عرش الملك ، إلى لقاء الأحبه وتصفية القلوب مما أصابها ، إلى آخر عهده بالدنيا فى حوادث متتابعة ، بعضُها آخِذٌ بحُجَز بعض ، فى نسق فريد ونظم معجز .

• من الجب إلى بيت العزيز :

وظل يوسف فى الجب حتى جاءت قافلة تجارية فحطُّوا رحالهم بالقرب من مكان الجب ، وأرسلوا إليه من يأتيهم بالماء منهم ، فأدلى دلوه فيه فتعلق يوسف به ، فلما رآه الساقى طار فرحًا واستبشر خيرًا ، وأخفاه مع رفاقه فى الرحل ، ولم يبالوا به ولم يرقوا لحاله فيسألوه عن أهله ليسلموه إليهم ، كما هو شأن الأمناء وذوى المروءات من الناس ، فأشبهوا اللصوص فى سرقتهم لأمتعة الناس وأولادهم ، فانطلقوا به إلى مصر حيث باعوه هناك لرئيس الجند وأمير الخزانة وهو ما يلقب بالعزيز ، ويسمى « قطفير » أو « فوطى فار » .

وقد اشتراه منهم بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا يريدون أن يتخلصوا منه بأى ثمن ؛ خوفًا من أن يلقاه واحد من أهله فينتزعه منهم ، أو يلقاه واحد ممن يعرفه من أهل الخير والمروءة فيستخلصه من أيديهم ، أو خوفًا من العزيز أن ينتقم منهم حين يراه معهم فيعلم جلية أمرهم بالأمارات التى لا تخفى على أمثاله ، فمثل يوسف فى جماله وجلاله ورجاحة عقله لا يعقل أن يكون عبدًا يباع ويشترى ، أو أرادوا ببيعه له أن يجعلوا لأنفسهم عنده مكانة يحققون بها بعض ما يريدون من التسهيلات والتيسيرات فى التنقل والإقامة ، وترويج بضاعتهم ، وعقد صفقات تجارية مع أهل مصر ، وغير ذلك من المصالح والحاجات .

وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ وجاءتْ سيَّارةٌ فأرسلوا واردَهم فأدْلَى دَلْوَه قال يا بُشْرَى هذا غلامٌ وأَسَرُّوه بضاعةً واللهُ عليمٌ بما يعملون . وشَرَوْهُ بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ [1] .

وانطلق العزيز بيوسف إلى بيته ، وكأن الدنيا كلها جمعت فى يديه ، وشاركته امرأته فرحته بقدومه ، ورأت فيه ما لم تره فى غيره من الوسامة والجلال والجمال ، فقال لها زوجها : أكرمى مثواه - أى أحسنى إليه فى كل شىء يتعلق به وفى كل شأن من شئونه الخاصة والعامة ، واجعليه فى مصاف المقربين إلينا - فعسى أن ينفعنا فى شئون الملك والسياسة ، أو نتزله منا منزلة الولد ، فإنى أرى فيه من النجابة والذكاء وسعة الإدراك وبعد النظر ما يؤهله لذلك .

وقد تبوأ يوسف عليه السلام مكان الصدارة والعز فى بيت العزيز ، وتعلم فيه فنون الحكم والسياسة ، وعلمه الله من فنون التعبير والتأويل ما زاده فى هذا البيت رفعة وإجلالاً .

ولعله كان يعبر الرؤيا فى هذا القصر للعزيز وغيره من رجال السياسة والملك فاشتهر بينهم بذلك فأحبوه وقربوه .

وقد وهبه الله من لدنه علمًا بشئون الدين والدنيا ، وآتاه الحكمة وأدبه فأحسن تأديبه ، وجعله من المحسنين فى القول والعمل ؛ ليبعثه للناس فيما بعد رسولاً ، يخرجهم بإذنه من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان .

---

(١) سورة يوسف آية : ١٩ - ٢٠ .

﴿ وقال الذى اشتراه من مصرَ لامرأته أكرمِى مثواه عسى أن ينفعنا أو نَتَّخِذَه ولدًا وكذلك مكَّنّا ليوسفَ فى الأرض ولنعلِّمَه من تأويل الأحاديث والله غالبٌ على أمرِه ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون · ولما بلغَ أشُدَّهُ آتيناه حُكمًا وعِلْمًا وكذلك نَجزِى المحسنين ﴾ (١) .

• محنته مع امرأة العزيز :

ولبث يوسف فى بيت العزيز زمنًا لا يجد منه ولا من زوجه إلا الحب والإجلال والتقدير ، حتى سول الشيطان لامرأة العزيز أمرًا ما كان ينبغى أن يقع منها أو يصدر عنها ، فقد راودته عن نفسه أكثر من مرة ، وهو يأبى عليها كل الإباء ، ويعتصم بالله ويستعيذ به من الوقوع فيما تدعوه إليه ، أو فى أى مقدمة من مقدماته ·

وقد بلغ بها الحب مبلغه وافتتنت بجماله ، ولم تطق الصبر على بعده واعتزاله، وضاقت ذرعًا بتعففه واستعصامه ، فغلَّقت الأبواب عليه وخلت به ، وقد تزينت له وتوددت إليه ، وصنعت كل ما فى وسعها من عوامل الإغراء والفتنة ، وقالت : ﴿ هيت لك ﴾ أى ها أنا قد تهيئت لك فهلم إلى ، فالتفت إلى السماء وهى قبلة الداعى يلتمس من الله النجاة من أشنع عمل أنكرته الأديان السماوية ، والطبائع السوية ·

اتجه إلى الله وهو يعلم أنه لا قدرة لمخلوق مع قدرته ، فقال لها والأسى يملأ قلبه : معاذ الله أن أقدم على معصية الله تعالى ، وأخون العزيز الذى وفقه الله لإكرام مثواى · ووعظها وعظًا بليغًا ، وذكرها بعاقبة الظالمين ، ولا سيما الذين يقابلون الإحسان بالإساءة ، وقد عزَّ عليها أن يرفض لها طلبا كهذا وهى ذات الحسب والمنصب والجمال ، وهو منها بمنزلة الخادم ، وقد أحسنت وفادته وأكرمت مثواه ، فهمت بضربه أو بأن تنال منه ما تريد بالقوة والقهر ، فهم بضربها إن ضربته ، أو هم بالفرار من وجهها إن هى حاولت أن تقهره على هذا الفعل الأثيم ·

وقد رأى بنور الله أن يفر من وجههـــا إلى الباب الخـــارجى ، فاستبقا الباب ،وأسرعت خلفه لترده إليها بالقوة ، فقد أضحت بين نارين - نار الشهوة المحرقة ، ونار الانتقام لنفسها ، وقد قدَّت قميصه من دبر فقطعته طولاً من أعلى إلى أسفل ، ولكنه مضى إلى الباب ففتحه ، فإذا بالعزيز عنده فرأى ما هاله وأدهشه ،

---

(١) سورة يوسف آية : ٢١ - ٢٢ ·

فأسرعت إليه تشكو يوسف قبل أن يشكوها إليه ، على حد المثل القائل : (ضربنى وبكى ، سبقنى واشتكى) .

قالت : لا أرى إلا أن تسجن هذا الخائن الذى أراد بأهلك ما يريده الرجل من المرأة ، أو تعذبه عذابًا أليمًا يشفى الصدر ويذهب الغيظ .

فما كان من يوسف عليه السلام إلا أن وقف موقف الشهامة والرجولة ، وشهد لنفسه بالبراءة فقال : هى راودتنى عن نفسى ، نعم هى راودتنى وأنا تمنعت وتعففت، واعتصمت بالله منها ومما دعتنى إليه .

فنظر العزيز فى وجه يوسف عليه السلام فرأى فيه البراءة كل البراءة ، وهو الرجل الخبير بما يرسم على صفحات الوجوه وما يظهر من فلتات الألسنة ، وهو السياسى المحنك الذى يدرك بالنظر الثاقب أمارات الصدق وأمارات الكذب بالبديهة التى أهلته لهذا المنصب ، ولكنه مع ذلك يريد ألا يأخذ بالظن فطلب البينة منها ومنه، شأنه فى ذلك شأن القاضى الذى لا يحكم إلا بالحجة القاطعة والبرهان الساطع .

فتطوع شاهد من أهلها لا تستطيع امرأة العزيز أن تتهمه بمحاباة يوسف فى شهادته ، فأعطى العزيز أمارة من الواقع تشهد ببراءة يوسف عليه السلام مما ألصقته به تلك المرأة اللعوب، قال له: انظر إلى قميصه تعرف الصادق منهما ، فإن كان القميص قد قُدَّ من قُبُلٍ فهو الذى راودها وحاول أن ينال منها السوء بالقوة والقهر ، وإن كان قميصه قد قدَّ من دبُر فهى التى راودته وحاولت أن ترده إليها حين فر منها . وهى أمارة تكشف الحقيقة كشفًا يفيد العلم ويقطع الظن .

نظر العزيز فى القميص فعرف براءة يوسف ، فزجر امرأته ، وجعلها من عامة النساء اللاتى لا يتنزهن عن الكيد والمكر ، والكذب والخداع ، والخيانة والغدر، حتى ولو كانت فى قمة الحسب والنسب والمجد .

وقد واسى يوسف وطَيَّب نفسه بمعسول الكلام ، وأوصاه أن يصرف النظر عما وقع له من امرأته ، وأن ينسى هذه المأساة التى مر بها فسلم من شرها ومرت به فلم تزلزل له قدمًا ، وأمرها أن تستغفر الله من ذنبها ، وأخبرها برأيه فيها بصراحة لا مواراة فيها ولا مواربة ، أخبرها أن ما صنعته بيوسف جزء من كيد النساء وأنها من الخاطئين الذين لا يبالون بما يرتكبونه من المعاصى والجرائم فى سبيل تحقيق رغباتهم الجامحة ونزواتهم الفاضحة .

إلى هنا يكون قد انتهى الفصل الأول من هذه المحنة وأعقبه فصل آخر أشد منه بأسًا وخطرًا ·

وقد حكى الله هذا الجزء من المحنة بأسلوب ترى فيه الأدب فى أسمى صوره ، وأبهى معانيه ، إنك لا تشعر بأى شيء تخجل من ذكره الطباع ، أو تَمُجُّه الأسماع ·

وحسبى هنا أن أشركك معى فى تدبر هذه الآيات ، فأشير إليك ببعض ما فيها من اللطائف وعليك أن تستخرج بنفسك بعض ما لم أذكره لك، يقول الله عز وجل: ﴿ وراودَتْهُ التى هو فى بيتها عن نفسِه وغَلَّقتِ الأبوابَ وقالتْ هَيْتَ لك قال معاذَ الله إنه ربِّى أحسنَ مثواىَ إنه لا يُفلحُ الظالمون · ولقد هَمَّتْ به وهَمَّ بها لولا أن رءَا بُرهانَ ربِّه كذلك لِنَصْرِفَ عنه السُّوءَ والفحشاءَ إنه من عبادِنا المُخلَصين · واستَبَقَا البابَ وقَدَّتْ قميصَه من دُبُرٍ وألفَيَا سَيِّدَها لَدَا البابِ قالت ما جزاءُ مَن أرادَ بأهلك سوءًا إلا أن يُسْجَنَ أو عذابٌ أليمٌ · قال هى راودَتْنِى عن نفسِى وشَهِدَ شاهدٌ من أهلِها إنْ كانَ قميصُه قُدَّ من قُبُلٍ فصَدَقَتْ وهو من الكاذبين · وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبُرٍ فكَذَبَتَ وهو من الصادقين · فلما رءا قميصَه قُدَّ من دُبُرٍ قالَ إنه من كَيْدِكُنَّ إن كَيْدَكُنَّ عظيم · يوسُفُ أَعرِضْ عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كُنتِ من الخاطئين ﴾(١) ·

إن الله عز وجل لم يذكر فى هذه الآيات اسم المرأة ولا اسم زوجها سترًا عليهما ، وقوله تعالى : ﴿ وراودته ﴾ يدل على تكرار الطلب وتكرار الرفض ·

وقوله تعالى : ﴿ هو فى بيتها ﴾ يدل على أنها مع تمكنها منه وتمكنه منها لم تستطع أن تغريه بجمالها وسعة حيلتها ، ولم تستطع أن تقهره على شيء قد عصمه الله منه ، ولم تتمكن من أن تنال من عفته شيئًا، فقد حفظ الله عليه سمعه وبصره ، وجعل هواه فى طاعته ومراده فى محبته ·

وفى قوله تعالى : ﴿ وغلَّقت الأبواب ﴾ دليل على أنها يئست من مطاوعته فحاولت أن تحقق رغبتها منه بالقوة ، وتضعه أمام الأمر الواقع ·

وفى قوله تعالى : ﴿ وقالت هيت لك ﴾دلالة على أن هذه المرأة قد فقدت

(١) سورة يوسف آية : ٢٣ - ٢٩ ·

توازنها فذهب حياؤها وشردت منها مروءتها، وتناست حسبها ومنصبها ، فدعته إلى نفسها بالكلمة الصريحة التى تحمل الرجل على الإجابة طائعًا أو مكرهًا ، فالمرأة مهيأة والأبواب مغلقة، ولا خيار له فى الإحجام عنها ، ولكنه مع ذلك تعفف واستعصم .

وفى قوله : ﴿ قال معاذ الله ﴾ دلالة على قوة عزمه على الرفض والامتناع ، فهى كلمة بليغة معناها : ألوذ بالله ملاذًا تامًا ، واعتصم بقوته اعتصامًا شديدًا ، وألجأ إليه ليصرف عنى السوء بقدرته ، وقد قالها يوسف عليه السلام هنا وقالها عندما طلب منه إخوته أن يأخذ واحدًا منهم مكان أخيه بنيامين ، فقال كما حكى القرآن عنه: ﴿ معاذَ اللهِ أن نأخذَ إلا من وَجَدْنَا متاعَنا عندَه إنَّا إذًا لظالمون ﴾ [1] .

إن يوسف عليه السلام كان عدلاً كما كان عفيفًا ، يكره الظلم وينفر منه نفورًا تامًا، إنه رجل قد اكتملت فيه كل صفات الفطرة فعاش بها وهى كاملة فيه حتى لقى ربه عز وجل .

وفى قوله تعالى : ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ أقوال أرجحها وأولاها بالقبول هى: أنها همت بضربه أو بحمله على الفاحشة قَسْرًا وقهرًا ، وهَمَّ هو بضربها أو الفرارِ من وجهها ،فكان هَمُّها هَمَّ إقدام وكان هَمُّه هَمَّ إحجام .

والبرهان الذى رآه يوسف هو نور عقلى جعله يختار الفرار من وجهها لأنه مأمون العواقب ، وليس كما قال المُخَرِّفون أنه رأى جبريل يعض على أصبعه ، أو رأى أباه يعض على أصبعه يقول : لا تفعل إنك نبى .

فقد قال يوسف فى نفسه : لو ضربتها ما سلمت من لمسها وكشف شىء من جسمها ، وأنا لا يجوز لى أن اضربها وعفتى تأبى علىَّ ذلك ، ولا أنسى مالها عَلَىَّ من فضل ، ولا آمن على نفسى إن ضربتها من معاقبة العزيز أو غضبه علىَّ ، وما إلى ذلك من عواقب الأمور ، فهداه نظره الصائب أن يفر من وجهها استبراءً لدينه وعرضه ، ولهذا قال الله عز وجل : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ فالسوء الذى صرفه عنه هو مقدمات الفحشاء المباشرة وغير المباشرة، وقد شهد له بالإخلاص التام فنفى عنه كل شبهة ، وبرأه من كل زيغ وانحراف .

والشاهد الذى هو من أهلها لم يكن طفلاً صغيرًا كما قال بعض المفسرين لأن الله سماه شاهدًا ، والشاهد لابد أن يكون بالغًا عاقلاً قد رأى وسمع حتى يؤدى

(١) سورة يوسف آية : ٧٩ .

الشهادة على وجهها ، هذه هى حقيقة الشاهد فى الشرع ، فإذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة فلماذا نحمله على المجاز ، أو من أين لنا أن الشاهد كان طفلاً صغيرًا ، إننى لم أجد حديثًا مرفوعًا إلى النبى ﷺ فى ذلك .

ولو كان طفلاً صغيرًا ما كان لقوله تعالى : ﴿ من أهلها ﴾ معنى ؛ لأن شهادة الطفل الصغير الذى لا قدرة له على الكلام والفهم معجزة سواء كان هذا الطفل من أهلها أو من غير أهلها ، لكنه قال من أهلها ليدل على أنه رجل يريد إحقاق الحق ولا يحابى أحدًا ، ولا يخاف من أحد .

وما قاله الشاهد لون من ألوان الطب الشرعى الذى يأخذ بالقرائن والملابسات ليصل إلى مرتكب الحادثة بالأدلة اليقينية .

فلم يكن هذا الشاهد شاهدًا وكفي ، ولكنه كان شاهدًا وحكيمًا عرف كيف يقنع العزيز أن زوجه هى المخطئة الآثمة .

إنه شاهد قد اجتمعت له خصائص الشاهد والحكيم . والقاضى الخبير بما تنطوى عليه النفوس ، وما تستلزمه هذه الأحداث من الحيل التى تؤدى حتمًا إلى الهدف المقصود ، وهو إظهار الحق وإزهاق الباطل .

ومن حكمة الشاهد : إنه لم يقطع بأنها هى التى راودته عن نفسه ، لأنه لم يدرِ ما وقع فى غياهب القصر مع علمه بالأمارة أنها هى المتهمة فعلاً ، ولو أقر بذلك صراحة لكان قاذفًا ، ولكان وقع كلامه على العزيز قاسيًا ولاستطاعت المرأة أن تصده عن شهادته هذه بطرق كثيرة وحيل شتى ، فتقع الخصومة بينها وبينه ، بل بينه وبين العزيز أيضًا ؛ لأن الصراحة المجردة فى مثل هذه الأمور يعز على النفوس سماعها فضلاً عن قبولها والاقتناع بها .

فرأى الشاهد أن يعطى العزيز أمارة يعرف بها الحقيقة بنفسه ولا يسعه إلا أن يتقبلها ولو على مضض ، ليتصرف بعد ذلك فى الأمر بحسب ما يمليه عليه ضميره وتدفعه إليه فطنته .

وكان العزيز رجلاً حكيمًا أيضًا ، ولم يكن بارد المشاعر لا يغار على أهله - كما يقول بعض الناس - إنه كان رجلاً عاقلاً يقدر عواقب الأمور ؛ فهو يعلم أنه لو أعطى الأمر أكثر مما حكاه القرآن عنه لأضر بمنصبه ، وأساء إلى مملكته ، وأساء إلى نفسه فى عرضه ، وشمت فيه أعداؤه وقال فيه الناس ما لا ينبغى أن يقال ، وما دام متيقنًا من أمانة يوسف وعفته ، فلماذا يعطى الأمر أكثر من ذلك ؟

• مكر النسوة بامرأة العزيز ومكرها بهن :

وإذا كان يوسف عليه السلام يستطيع أن يكتم هذا الأمر عن الناس جميعًا ، ويُسِرُّه فى نفسه على لوعة ومضض ، فهل تستطيع تلك المفتونة بحبه أن تكتم ذلك فلا تحدث به أقرب المقربات إليها ، من بنات جنسها ؟ .

والنساء معروفات بالثرثرة ، وكثرة النجوى ، والخدم جواسيس على أهل البيت، تدفعهم غريزة حب الاطلاع إلى معرفة كل خفى ، فإذا ما عرفوا شيئًا ملأوا بحديثه البقاع والأصقاع ، ولهذا شاع الخبر فى المدينة ، وتناقلته النسوة فيما بينهن ، حتى انتهى حديثهن إلى صاحبة الحديث المخزى ، فأرسلت إليهن ، ومكرت بهن ، فكان من أمرها وأمرهن ما حكى القرآن عنه : ﴿ وقال نِسوَةٌ فى المدينةِ امرأةُ العزيزِ تُرَاوِدُ فتاها عن نفسه قد شَغَفَهَا حُبًّا إنَّا لنراها فى ضلالٍ مبين . فلما سَمِعَتْ بمكرِهِنَّ أرسلتْ إليهنَّ وأعتَدَتْ لهنَّ مُتَّكأً وءَاتت كلَّ واحدةٍ منهنَّ سكينًا وقالت اخرج عليهنَّ فلما رأَيْنَه أَكْبَرْنَه وقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وقُلْنَ حَاشَ للهِ ما هذا بَشَرًا إن هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ . قالت فذلكنَّ الذى لُمْتُنَّنِى فيه ولقد راودتُّه عن نفسِه فاستعصم ولئن لم يفعلْ ما ءامرُه ليُسجنَنَّ وليكونًا من الصاغرين ﴾ (١) .

فالنسوة حين سمعن الخبر لم يطقن صبرًا على عدم رؤية هذا الغلام الذى جمع بين أروع آيات الجلال والجمال والكمال البشرى ، فوصفن امرأة العزيز بما كان ينبغى أن يصفن به أنفسهن ؛ فهن اللاتى قد شغفن به حبًا دون أن يرينه ، وقد تعشق الأذن قبل العين أحيانًا .

إن حبه قد ملك عليهن شغاف قلوبهن فأردن أن يرينه فينلن منه ما يطمع النساء فيه من الرجال ، فسخّرن مَنْ ينقل إلى امرأة العزيز هذه المقولة لعلها تسمح لهن برؤيته ليعذرنها فيه ، وهذا من مكرهن،فبادلتهن امرأة العزيز مكرًا بمكر ، وكيدًا بكيد، فكانت أعظمهن مكرًا وأشدهن كيدًا ، فأعتدت لهن متكئًا حافلاً بالفواكة والأطعمة الشهية ، وآتت كل واحدة منهن سكينًا حادة ، وأمرت يوسف أن يخرج

(١) سورة يوسف آية : ٣٠ - ٣٢ .

عليهن ، فلما رأينه عظمنه غاية التعظيم ، وهممن بالوقوف له ، وجرحن أيديهن جروحًا بالغة عبر عنها القرآن بالتقطيع ، وذلك حين أصابهن الذهول ، وملأت شغافَ قلوبهن مهابتُه ، وأخذت بتلابيبهن الروعةُ ، وسحر أعينَهن جمالُهُ ، فأيقن أنهن أمام ملك كريم وليس أمام واحد من البشر .

ونجحت امرأة العزيز فى خطتها ، وشفت منهن غيظ قلبها ، فقالت لهن والدماء تنزف من أيديهن : فذلكن الذى لمتننى فيه ، فأنتن من أول نظرة قد وقع لكُنَّ من أمره ما وقع ، فكيف بى وهو يلازمنى فى بيتى، ويدنو منى وأدنو منه ، وأدعوه إلىّ فيأبى علىّ ، ولكني سوف أنال منه ما أريد ، أو يكون مصيره السجن فى ذِلَّة وصَغار .

لقد اعترفت لهن بإدانتها ، واعترفت لهن ببراءته من السوء والفحشاء ، واستعصامه بربه منها ومن شرها وأشرها ، ولكنه اعتراف لا يدينها ؛ لأنه اعتراف لمن لا يملك من الأمر شيئًا ، فالنسوة اللاتى اعترفت لهن ليس لهن سلطان عليها ، ومن الهين اليسير أن تعترف المرأة للمرأة بما تخفيه عن الرجل ولو كان من أقرب المقربين إليها .

ولعلها أرادت بهذا الاعتراف أن تغيظهن ، وتظهر لهن عدم الاكتراث بمكرهن ، وتشنيعهن عليها هنا وهناك ، وأنها السيدة المطاعة التى إذا قالت فعلت ، وإذا أرادت شيئًا فلا مرد له .

وهكذا تستبد المرأة بالأمر الذى تظن أنها قادرة عليه تبعًا لشهواتها الجامحة وأهوائها المنحرفة ، ولاسيما إن كانت تحت رجل يعد من عظماء القوم وسادتهم .

وفى نظرى أن هذه المرأة لم يؤتها الله شيئًا من الحكمة ، ولم يكن لها من العقل ما تعرف به أقدار الرجال ، وما تدرك به عواقب الأمور .

ولو كان لديها شىء من الفهم لعرفت يوسف من أول نظرة من هو - لعرفت أنه الرجل الذى اجتمعت فيه كل خصال الخير وكل أوصاف الكمال البشرى ، وأنه بطبعه مصون عن كل رذيلة ، معصوم بفطرته عن كل سوء .

إن النسوة اللاتى مكرت بهن كن أعقل وأقدر على فهم طبائع الرجال منها ، فقد أصدرن حكمهن عليه من أول نظرة، فقلن ما قد حكى القرآن عنهن : ﴿ ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

• مناجاة واستغاثة :

وقد رأى يوسف عليه السلام أن الخطر قد أحدق به من كل جانب ، وأضحى فى كرب عظيم وهم لا يطاق ، وكرب لا يكشفه إلا الله ، فاستغاث به ، وفضَّل السجن على ما هو فيه ، وخشى على نفسه أن يميل إليها أو إلى واحدة من النسوة اللاتى لا يقل طمعهن فيه عنها ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيد النسوة جميعًا وعصمه منهن بقدرته ، إنه سميع قريب يجيب المضطر إذا دعاه .

ولقد اشتهر حديثه بين خاصة القوم فاجتمعوا ليتشاوروا فيما بينهم على إبعاده والتخلص منه ومما وقع للسادة والكبراء بسببه ، فقرروا بعد حوار طويل أن يلقوه فى غيابات السجن حتى تنساه النسوة وينساه الناس مع أنهم يعلمون أنه برىء من كل ما ينسب إليه .

وهم لم يحكموا عليه بالسجن المؤبد لأنه فى نظرهم غير متهم ، ولكنهم حكموا عليه بالسجن إلى حين ، وهو الحين الذى تنقطع فيه أخباره ، وتتوالى فيه الأحداث التى تنسى قصته .

قال الله تعالى : ﴿ قال ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونَنِي إليه وإلاَّ تصرفْ عنى كيدَهُنَّ أَصْبُ إليهنَّ وأكُن من الجاهلين . فاستجابَ له ربُّه فصرفَ عنه كيدَهُنَّ إنَّه هو السميعُ العليمُ . ثم بَدَا لهم من بعدِ ما رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّه حتى حينٍ ﴾ (١) .

ويوسف عليه السلام لم يختر السجن كما يتوهم بعض الناس ، ولكنه فضله على ما تدعوه إليه النسوة ، وكأنه قال : السجن بكل ما فيه من لوعة وقسوة وذلة وصَغار ، وكربة وغربة أفضل بكثير وكثير من قصر منيف أتعرّض فيه لهذا النوع من المراودة ، فإن الصبر على السجن أحب إليَّ من الصبرِ على هؤلاء النسوة ، ورؤيةِ هذه الوجوه الشعثة فى تلك القصور المقفهرة الخالية من الأخلاق السامية والمثل العليا ، السجن أحب إلى لأنه مكان لا يعوقنى فيه عائق عن طاعتك يا رب ، ولا يحول بين التفكر فى بديع مخلوقاتك وجلائل نعمك عائق بخلاف تلك القصور التى ينسى الإنسان فيها نفسه ويفقد فيها حسه ، ولا يجد فيها ما يعينه على طاعة مولاه .

هكذا كان مراد يوسف - فيما يبدو لنا - من قوله : ﴿ السجنُ أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ﴾ .

---

(١) سورة يوسف آية : ٣٣ - ٣٥ .

ومن تواضع يوسف عليه السلام لله عز وجل أنه اعترف على نفسه بالعجز عن التمادى فى التعفف والاستعصام ما لم يكن هناك من الله عاصم يعصمه يكون خارقًا للعادة ، وهو الغالب على أمره الذى لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

● يوسف فى السجن :

ودخل يوسف السجن ومعه فَتَيان ، أحدهما كان ساقى الملك والآخر كان خازن طعامه ، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ويبدو أنهما من أصحاب الفطر السليمة التى التوت بها البيئة عن نهجها القويم وانحدرت بها العادات والتقاليد إلى عبادة غير الله تعالى بدليل أنهما قد صحبا يوسف ، ومن العادة أن يصحب المظلوم مظلومًا مثله يشاركه آلامه وآماله، و« المرء على دين خليله » ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد عرفا قدره فاتخذاه مرشدًا ومعلمًا يسألانه عما بدا لهما أن يسألا عنه ، ويستفتيانه فى ما لم يحيطا بعمله .

وقد حكى الله عنهما أن كل منهما قد استفتاه فى رؤيا رآها فقال جل شأنه : ﴿ودخلَ معه السجنَ فَتَيَان قال أحدُهما إنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خمرًا وقال الآخرُ إنِّى أَرَانِى أحملُ فوقَ رأسِى خُبزًا تأكلُ الطيرُ منه نَبِّئْنَا بتأويلِه إنا نراك من المحسنين﴾ (١) .

اغتنم يوسف حاجتهما إلى تعبير رؤييهما وحسن إصغائهما ليعرض عليهما الدين الذى ارتضاه الله له ولآبائه الكرام ، واصطفاه لنشره بين الناس - فمهد الطريق إلى إقناعهم بهذا الدين ، فذكرهم بما يجرى على يديه من كرامات ، منها أنه كان يخبرهما عن الطعام الذى يرزقانه قبل أن يأتيهما من أى جهة من الجهات، ويذكر لهما نوعه ومنافعه ومضاره وكيف صنع ، وغير ذلك مما علمه ربه عز وجل .

﴿ قال لا يأتيكما طعامٌ تُرزَقانه إلا نَبَّأْتُكما بتأويله قبل أن يأتِيكُما ذلكما مما علَّمنى ربِّى إنى تركتُ ملَّةَ قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعتُ ملةَ آبائى إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ما كان لنا أن نُشركَ باللهِ من شىءٍ ذلك من فضلِ اللهِ علينا وعلى الناسِ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَشْكُرُون ﴾ (٢) .

لقد حملهما أولاً على الإقرار بفضله فى العلم بالأمور المغيبة عنهما حتى إذا عبر لهما رؤييهما لم يسعهما إلا تصديقه ، وقد عرفا صدقه من قبل .

وأخبرهما أنه لا يعلم الغيب لكنه يستمد هذا العلم من ربه عز وجل ، ثم يطلعهما على السبب الذى من أجله كان هذا العلم فقال : ﴿ إنى تركت ملَّةَ قوم لا

(١) سورة يوسف آية : ٣٦ . (٢) سورة يوسف آية : ٣٧ - ٣٨ .

يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ وفى هذا القول تعريض بهما وبملتهما التى يدينان بها ، ثم أخبرهما أنه على دين آبائه ، وهم رسل كرام لم يشركوا بالله شيئًا ، وأن الله قد زادهم من فضله وأمدَّهم بالعلم والمعرفة ، وأمدَّ كل من آمن بهم واتبع ملتهم ، وفى هذا ترغيب لهم فى اعتناق ملة التوحيد الخالص بطريق غير مباشر ، وأوحى إليهم أن الناس لو عرفوا بهذه الملة لاعتنقوها ، وشكروا الله الذى دعاهم إلى تحكيم العقل فى أمر هو الفيصل بين عقيدتين - عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ، فقال كما حكى القرآن عنه : ﴿ يا صاحِبَىِ السجنِ ءَأَرْبَاب متفرقون خيرٌ أم اللهُ الواحدُ القهارُ ﴾ (١) .

أى : أأرباب متفرقون ليس بينهم ارتباط ولا اتفاق ، ولا قدرة لأحدهم على النفع والضر ، خير فى التوجه إليهم بالدعاء والضراعة أم الله الواحد القهار الذى بيده ملكوت كل شىء وله الأمر من قبل ومن بعد ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ، هذا سؤال تقرير بعد تخيير ، فقد رغَّبهم فى اعتناق ملته - كما قلنا - وخيَّرهم بين ما هم فيه من ظلمة الجهل والكفر ، وما هو عليه من نور العلم والإيمان .

والجواب عن هذا السؤال إذا صدر عن عاقل كان بلا ريب هو : الله الواحد القهار ، ولما رأى منهما سمات الهدى قد بدت على وجهيهما واجههما مواجهة صريحة بفساد معتقداتهما ومعتقدات قومهما ، وبين لهما بوضوح لا خفاء فيه أن هذه الأوثان التى يعبدونها إن هى إلا أشياء صنعوها بأيديهم وسموها آلهة ، ما أتاهم بها من الله من حجة ولا برهان ، وأن الله هو المعبود بحق ، وأن الحكم له والأمر إليه وحده ، وأن التوحيد الخالص هو الدين القيم الذى لا عوج فيه ولا زيغ ولا ضلال : ﴿ ما تعبدونَ من دُونه إلا أسماءً سميَّتُمُوها أنتم وآباؤكم ما أنزلَ اللهُ بها من سلطان إن الحُكْمُ إلا للهِ أمرَ ألَا تعبدوا إلا إيَّاه ذلك الدينُ القيمُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ ﴾ (٢) .

وبعد أن أدى يوسف عليه السلام رسالة ربه بهذا الأسلوب الحكيم الذى ينبغى أن يسلكه كل من دعا إلى الله عز وجل - عَبَّر لصاحبيه رؤييهما كما علمه الله تبارك وتعالى .

قال تعالى : ﴿ يا صاحِبَىِ السجنِ أما أحدُكما فَيسقى ربَّه خمرًا وأما الآخرُ فيُصلَبُ فتأكُلُ الطيرُ من رأسِه قُضِىَ الأمرُ الذى فيه تَستفتيانِ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة يوسف آية : ٣٩ . (٢) سورة يوسف آية : ٤٠ . (٣)سورة يوسف آية: ٤١

وهذا التعبير فى غاية الوضوح، فالذى رأى أنه يعصر خمراً سيخرج من السجن ويمارس عمله فى عصر العنب وغيره مما يصير خمراً ، فلا زيادة على ما رأى فى منامه .

وأما الآخر وهو الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه فإنه سيصلب ويترك مصلوبًا حتى يموت وتأكل الطير من رأسه .

إن صدقت رؤياهما فسوف يقع لهما ما قد ذكر ، فالرؤيا على رجْل طائر كيفما فسرت وقعت كما جاء عن الرسول ﷺ (١) .

وقد دار فى ذهن الخباز أن يوسف سيفسر له رؤياه وفق ما فسر رؤيا الساقى فكان الأمر على خلاف ما كان يتوقع وعلى غير ما كان يؤمِّل ، فقطع عليه يوسف الطريق إلى الجدل والشك فى التأويل بقوله كما حكى القرآن عنه : ﴿ قُضِيَ الأمرُ الذى فيه تستفتيان ﴾ أى ما قلت لكما سيقع حتمًا بإذن الله تعالى فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

وبدأ يوسف عليه السلام حديثه مع الناجى منهما فأوصاه خيراً وقال له فى وصيته : إن وقع للملك أمر عجز عن تأويله والبت فيه ، أو رأى رؤيا لم يستطع أحد أن يعبرها له فاذكرنى عنده وأخبره بحالى فلعلنى أنفعه ، ولعله يجد عندى ما لم يجده عند غيرى ، وأنا لازلت مخلصًا لمصر وأهل مصر ، ولا أقول لك ذلك من أجل أن يتذكرنى الملك فيخرجنى من السجن كلا فإنى راض بحكم الله تعالى وصابر على بلائه ، بل إنى اعتبر هذا السجن أرحم بكثير من العيشة فى تلك القصور الخاوية من الخلق الفاضل والسلوك النبيل .

اذكرنى عند سيدك إذ جد الجد واحتاج الناس إلى علم ، وأنا لا أبتغى منهم أجراً على ذلك ، وأجرى على الله الذى لا إله إلا هو الواحد الأحد .

---

(١) روى الترمذى وأبو داود عن لقيط بن عامر بن حبرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوة ، وهى على رجل طائر ما لم يتحدث بها ، فإذا تحدث بها سقطت » . قال : وأحسبه قال : « ولا يحدث بها إلا لبيبًا أو حبيبًا » . وكونها على رجل طائر تشبيه يفيد أنها إذا فسرت تقع كما فسرت ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فقد يكون لها وجهان فيحملها المفسر على وجه الشر بينما لو قصها على حبيب أو عالم لبيب لكان الأمر بخلاف ذلك .

هذا الكلام كله وأكثر منه قد حوته فقرة من آية ، وجاءت الفقرة الأخرى منها تخبر أن الساقى بعد خروجه من السجن قد أنساه الشيطان تلك الأيام التى قضاها فى السجن مع أكرم خلق الله تعالى خُلقًا ، وأشرفهم نسبًا ، وأغزرهم علمًا ،وأشدهم معرفة بالله تعالى فى عصره ·

قال تعالى : ﴿وقال لِلَّذى ظَنَّ أنه ناجٍ منهما اذكرْنى عند ربِّك فأنساه الشيطانُ ذكرَ ربِّه فَلَبِثَ فى السجنِ بضعَ سنينَ ﴾ (١) .

وليس يوسف هو الذى نسى ذكر ربه وإنما نسيه الساقى ، والرب من معانيه السيد ، والمعنى أن يوسف عليه السلام قال للساقى اذكرنى عند سيدك الملك ·

ولم يكن مُكْث يوسف فى السجن بضع سنين عقابًا له بل كان رحمة به وإعزازًا لشأنه ؛ فقد أصقل الله مواهبه فى السجن وأطلعه على كثير من الأمور التى ما كان ليطلع عليها وهو فى قصر العزيز أو خارج أسوار السجن ، وقد فصلت القول فى هذا فى كتابى « من لطائف البيان فى سورة يوسف عليه السلام » ·

• رؤيا الملك وعجز الملأ عن تأويلها :

ويرى الملك - الريان بن الوليد - رؤيا أدهشته ، وحيرت فكره ، وأدخلت فى قلبه الهلع والجزع ·

رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف مهازيل ، ورأى سبع سنبلات خضر يأكلهن سبع سنبلات يابسات !!

فدعا أشراف قومه وسادتهم وكبراءهم وعلماءهم من رجال الدين وغيرهم ، وعرض عليهم هذه الرؤيا ، وطلب منهم أولاً أن يعبروها له ، ثم يبينوا له عواقبها وما تؤول إليه من خير وشر ، ففكر الملأ طويلاً فى أمر هذه الرؤيا ، ولكن لم يعرف أحد لها تأويلاً ، فحكموا على هذه الرؤيا بأنها أخلاط من الصور ليس لها رابط ولا ضابط ﴿ أضغاث أحلام ﴾ ليس لها تعبير ولا تأويل ، واعترفوا جميعًا بأنهم لا يحسنون تأويل الرؤى فهو فن لم يألفوه ، وعلم لم يعرفوه ، وما على الملك إلا أن ينسى أو يتناسى ما رآه فالأمر لا يعدو ما ذكروا ، فلا ينبغى أن يشغل نفسه بشىء لا تأويل له ·

وهنا يتذكر الساقى يوسف عليه السلام بعد مدة من الزمان ، ألهاه فيها عن ذكره

---

(١) سورة يوسف آية : ٤٢ ·

رغد العيش وصخب الحياة ، فقال للملك ومن حوله : أنا قد وجدت بغيتكم ، أنا أخبركم بتأويلها ، لكن عن طريق رجل صالح عليه سمات الجلال والجمال ، ولديه علم غزير بفنون التعبير وغيرها من شئون الدنيا ·

إنه فتى ليس كالفتيان دخلت السجن معه فى يوم واحد ، أنا وطباخ الملك ولقد رأى كل واحد منا رؤيا فعرضها عليه ، فأولَّها كأحسن ما يكون التأويل ، فأرسلونى إليه · فأرسلوه ، فلما انتهى إليه وجده صابرًا محتسبًا ، ينعم بذكر الله تعالى، فناداه بأحبِ الأوصاف إليه : يوسف أيها الصديق ، يا من بلغتَ الغاية فى الصدق ، وارتقيتَ فيه إلى الكمال - أفتنا فى رؤيا رآها الملك ، وعجز الملأ جميعًا عن تعبيرها لعلى أرجع إليهم منك بعلم نافع ، وقول سديد ، ونصح صائب ·

وقد عرض القرآن رؤيا الملك عرضًا موجزًا بليغًا تلمح فى كل كلمة معنى من المعانى لا تسعه عشرات الصفحات ·

وعرض عجز الملأ عن تعبيرها فى أسلوب يظهر تخبطهم فى تحديد الرؤيا ، هل هى رؤيا أم هى أضغاث أحلام ، ثم ينتهى قولهم إلى خطأ فاحش أساءوا فيه إلى أنفسهم وأساءوا إلى الملك ، ثم يشهدون على أنفسهم أنهم جهلة بكل المقاييس فى فن تعبير الرؤى وتفسير الأحلام ·

وقد وقعوا فى حرج شديد لأن الذى رأى الرؤيا هو الملك وليس واحدًا من عامة الناس ، وأن رضا الملك أمر يسعى إليه كل واحد منهم محافظة على كرسيه واستبقاء لمنصبه ·

والساقى يجد طلبته فى عجزهم فيطلب من الملك أن يرسله إلى السجن ، نعم إلى السجن ، لا إلى قصر من القصور ، فهناك علم غزير مسجون فى فتى مسجون ، والملك يعرف قصته ، وقد مكث فى السجن بضع سنين ، ولو كان فى الملأ ما حار الملك فى تعبير رؤياه ، وما وجد فى دنياه هذا العسر الذى يجده فى صحبة هؤلاء الذين اصطفاهم لنفسه وأسند إليهم أمر مملكته ·

قال تعالى فى حكاية هذا المقطع من القصة : ﴿ وقال الملكُ إنِّى أرى سبعَ بقرات سِمَانٍ يأكلُهن سبعٌ عِجَافٌ وسبعَ سنبلات خضرٍ وأُخَرَ يابسات يأيها الملأُ أفتونى فى رُءْيَاىَ إن كنتم للرُّءْيَا تَعْبُرُون · قالوا أضغاثُ أحلامٍ وما نحن بتأويلِ الأحلام بعالمين · وقال الذى نجا منهما وادَّكَرَ بعد أُمَّةٍ أنا أُنَبِّئُكُم بتأويله فأرْسِلُون · يوسفُ أيُّها

الصِّدِّيقُ أفْتنَا فى سبعِ بقرات سمان يأكلُهن سبعٌ عِجَافٌ وسبعِ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخَرَ يابساتٍ لعلِّى أَرجعُ إلى الناسِ لعلَّهم يعلمون ﴾ (١) .

الملك هو الريان بن الوليد - كما أشرنا من قبل - أحد ملوك الهكسوس الذين استعمروا الوجه البحرى لمصر وهو من العمالقة ، ومن الأسرة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة قبل الميلاد .

وقد عبر القرآن الكريم عن كبير مصر الذى كان فى عهد يوسف بلفظ (ملك) ولم يعبر عنه بلفظ (فرعون) ؛ لأن هذا الملك لم يكن من القبط بل كان من البدو الغرباء المحتقرين المكروهين فى نظرهم ، وقد كان فى اصطلاح المصريين الأقباط أن لا يطلقوا كلمة (فرعون) إلا على من كان مستوليًا على مصر استيلاءً شرعيًّا ، وكان مصريا قُحًّا (٢) ، وليس دخيلاً أو مستعمراً ، وعلى هذا جرت سنة كتاب الله تعالى أن يراعى الاصطلاحات المعروفة عند أهلها (٣) .

وتعتبر هذه الرؤيا التى رآها هذا الملك تمهيدًا لخروج يوسف من السجن وتمكينه فى الأرض وتوليته شئون الملك .

• عبقرية يوسف وأدبه فى تأويلها :

ولما عرض الساقى على يوسف رؤيا الملك أسرع يوسف بتأويلها وبيان عواقبها ، ومزج التأويل بالنصح والإرشاد لمواجهة الجدب الذى سوف ينزل بالبلاد لمدة سبع سنين متواصلة بعد رخاء يدوم سبع سنين متصلة ، وأخبرهم بشىء آخر لا تحتمله الرؤيا ، التمسه بالوحى أو بالحكمة التى أودعها الله فى عقله وقلبه .

يقول الله عز وجل فى هذا التأويل الذى جرى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ قال تَزْرَعُون سبعَ سنينَ دَأَبًا فما حَصَدتُّم فذَرُوه فى سنبلِه إلا قليلاً مما تأكلُون . ثم يأتى من بعد ذلك سبعٌ شِدادٌ يأكلنْ ما قدمتُم لهنَّ إلا قليلاً مما تُحصِنُون . ثم يأتى من بعدِ ذلك عامٌ فيه يُغَاثُ الناسُ وفيه يَعْصِرُون ﴾ (٤) .

---

(١) سورة يوسف آية : ٤٣ - ٤٦ .

(٢) القُحُّ : هو المحض الخالص . يقال : فلان من قح العرب وكحهم أى من صميمهم . انظر لسان العرب مادة « قحح » .

(٣) راجع « مؤتمر سورة يوسف » للشيخ عبد الله العلمى جـ ٢ ص ٨٥٨ ، ٨٥٩ .

(٤) سورة يوسف آية : ٤٧ - ٤٩ .

إن يوسف عليه السلام يعرض تأويل الرؤيا بأسلوب لا يشعر معه الملك بوطأة الشدة التى ستتعرض لها البلاد فى أيام ملكه ، ويعلم الناس مع هذا التأويل كيف يواجهون هذه الأزمة ، ويختم التعبير ببشرى عظيمة تدخل السرور على الملك وعلى أهل البلاد جميعًا ·

وقد قال : ﴿ تزرعون ﴾ ولم يقل : ازرعوا ؛ لأنه يعلم أن أهل مصر بطبعهم زراع ، وهو أدب فى التعبير ؛ لأن الأمر بالشىء قد يصعب على المأمور وقعُه وتقبُّله، ولا سيما إذا كان الآمر مسجونًا والمأمور ملكًا ، ثم إن التعبير يقتضى الإخبار ، ولا يقتضى الأمر ·

وقد نصحهم إذا حصدوا زرعهم أن يذروه فى سنبله بطريقة تحفظه من السوس بعدم سريان الرطوبة إليه ، إلا قليلاً مما يحتاجون إليه فى مأكلهم، مع مراعاة القصد والاكتفاء بما يسد حاجة الجوع ، فهذه السنين السبع تأويل للبقرات السبع السمان ، والسنبلات الخضر على ظاهرها فى كون كل سنبلة تأويلاً لزرع سنة ·

وأخبرهم بأنه سيأتى بعد هذا الخصب والرخاء سبع سنوات شداد صعاب على الناس يأكلن ما قد ادخرتموه لهن من الأقوات،حتى تنفض الخزائن وتفنى المدخرات ، ويشتد الكرب ولا يبقى إلا القليل مما أحصنوه وصانوه عن التلف ·

وبعد أن أوّل يوسف الرؤيا ، وأفتاهم فى أمرها وأوصاهم بما يجب عليهم فعله بمقتضاها - أخبر الساقى بأنه سيأتى بعد هذه السنين المجدبة عام يجد فيه الناس خيراً كثيراً يغيثهم مما كانوا فيه من جدب وشدة ، عام يعصرون فيه كل ما من شأنه أن يعصر عندهم من الفواكه والقصب والسمسم وغيره ·

وهذا الخبر الزائد عن الرؤيا جاءه بطريق الوحى على الصحيح من أقوال المفسرين ، كبرهان على صدق نبوته ، وفيه - كما ذكرنا - بشرى بالفرج بعد الشدة ، وباليسر بعد العسر ·

وشأن المعلم إذا سئل عن المسألة أن يجيب عنها ، ويضيف إليها ما يرى أن السائل فى حاجة إليه ، وقد أراد يوسف عليه السلام أن يرجع الرسول بهذه البشرى تأليفًا لقلوبهم ، واستدعاءً لسرورهم ، وإذهابًا لخوفهم من تلك السنين الجدبة التى تعقب السنين الخصبة ·

ولو رجع إليهم الرسول بتأويل الرؤيا فحسب ، لتخوفوا الأيام ، وهابوا ما

سيقع لهم فيها من شدة وجدب ، فعاقهم ذلك عن الدأب فى العمل ، فكان فى هذه البشرى ولا شك ما يبعث فى نفوسهم الأمل ، ويدعوهم إلى الجد والاستمرار فى زراعة الأرض من أجل تحاشى الجدب فى السنين التى لا غيث فيها ولا إنبات .

يا له من عالم لبيب، ومصلح أريب، وناصح أمين، وصديق كريم، ونبى عظيم .

فهذا التأويل يدل على أنه عليه السلام قد أوتى من العلم بشئون الحياة كلها ، فعرف أن الدهر يومان : عسر ويسر ، وأن الناس يتقلبون فى نعمى وبؤسى ، وأنه يجب عليهم أن يأخذوا من رخائهم لشدتهم ، وأن يدأبوا على العمل فيما يصلح أمرهم فى حالى العسر واليسر ، وأن يحتاطوا لأنفسهم بكل الحيل المشروعة لوقايتها مما قد تتعرض له من خطر يهدد أمنها ورخاءها .

كما يدل أسلوبه فى تأويل هذه الرؤيا على أدبه فى الحديث مع الساقى ، ونزاهته فى عرض ما تدل عليه هذه الرؤيا من خير وشر .

فقد وثق أولاً فى أمانته فى النقل ، وقدرته على تأدية ما سمع منه بدقة ، واعتبره واحداً ممن يهمه الأمر ، فخاطبه بقوله : ﴿ تزرعون ﴾ ،ولم يقل له : يزرعون؛ ليستأنس الساقى بكلامه ، فيكون هذا الاستئناس أعون له على سلامة الفهم، وصحة النقل .

ويوسف - كما قلنا - لم يقف عند حدود التعبير للرؤيا ولكنه كان نعم المُدبِّر لشئون البلاد وهو فى السجن ، فكيف لو كان بيده مقاليد الأمور ؟

ولا يدل تأويله لهذه الرؤيا على حسن التخطيط فى شـئون الزراعة وحفظ الحبوب فحسب ، بل يدل على أنه كان وحيد دهره فى تدبير شئون المُلْك كلها على كثرتها كما سيظهر لنا بوضوح عند لقائه بالملك .

● يوسف يرفض الخروج من السجن حتى تثبت عند الملك براءته :

ورجع الساقى إلى الملك فأخبره بتأويل رؤياه فأعجب بالمُعبِّر والتعبير ، ووقر فى قلبه أن مثل هذا العالم بظواهر الأمور وما تؤول إليه هذه الظواهر ،والخبير بتعبير الرؤى - لا ينبغى أن يظل فى سجنه ، فطلب من الملأ أن يأتوا به ليسمع منه بنفسه حتى يطمئن قلبه ويعرف منه جلية الأمور أكثر مما نقله إليه الساقى .

فلما جاءه الرسول أمره أن يرجع إلى سيده فيسأله عن النسوة اللاتى قطعن

أيديهن وما صدر منهن من كيد له ومكر به ، فرجع الرسول إلى الملك وأخبره بما قاله يوسف فازداد له حبًا ، وعظمَّه فى نفسه ، وأجلَّه فى غيبته ، وتمنى من أعماق قلبه أن يراه ، ولكن ليس قبل أن يستجيب لرغبته ، وينظر فى قضيته مع النسوة أو قضية النسوة معه : ﴿ وقال الملكُ ائتُونى به فلما جاءَه الرسولُ قال ارجعِ إلي ربِّك فَسْئَلْه ما بالُ النِّسوةِ اللاتى قَطَّعن أيديَهن إن ربِّى بكيدهِن عليمٌ ﴾ (١) .

• الملك يتحقق من كيد النسوة :

وجمع الملك النسوة ومعهن امرأة العزيز ، ولم ينصب نفسه قاضيًا يحقق فى القضية من جديد ؛ لأنه يعرف كل شىء عما حدث لهذا الفتى ، فقال لهن: ما شأنكن وكيف كان حالكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ، طالبًا منهن الإقرار أمامه بما لا يشك هو فيه إحقاقًا للحق ، وإبطالاً للباطل ، وإنصافًا للمظلوم ، وإحراجًا للظالم، وعبرة للمستمعين فى ساحة الحكم ، وقطعًا لريب المرتابين فى براءة يوسف ، فأجاب النسوة بجواب ينزه يوسف عليه السلام من أى مساءة نسبت إليه ، أما امرأة العزيز فقد أقرت بجرمها فى صراحة تامة وشجاعة أدبية نادرة وأسلوب ينبئ عن ندمها وتوبتها ، وأثنت عليه ثناءً عطرًا ولم تبرئ نفسها مما فعلته به، واعترفت أن النفوس المريضة أمارة بالسوء وأن رحمة الرب واسعة ، وهى تنتظر من الله العفو والمغفرة ، وتنتظر من يوسف أن يصفح عنها وهو أهل لذلك ٠

قال تعالى : ﴿ قال ما خطبُكنَّ إذ راوَدتُّنَّ يوسفَ عن نفسه قُلْنَ حاشَ لله ما عَلِمْنَا عليه من سوءٍ قالتِ امرأةُ العزيز الآن حَصْحَصَ الحقُّ أنَا رَاَوَدتُّه عن نفسه وإنه لمِن الصادقين ٠ ذلكَ ليعلمَ أنِّى لم أخُنْه بالغيبِ وأنَّ اللهَ لا يهدى كيدَ الخائنين ٠ وما أُبرِّئُ نفسى إنَّ النفسَ لأمَّارةٌ بالسوءِ إلا ما رَحِم ربِّى إن ربِّى غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٢) .

إن الملك قد سأل النسوة سؤالاً محددًا فأجبن أجابة غير محددة كشأن كثير من النساء فى الهرب مما يدينهن أو يحرجهن ، فقلن قولاً يصدقن فيه ولا يتهمن بالكذب فى عرضه على هذا النحو الذى يدفع عنهن التهمة ، ويبرئ فى الوقت نفسه ساحة يوسف منها ٠

وكان الجواب عن السؤال المطروح عليهن يقضى بأن يفصحن عما حدث لهن عند رؤية يوسف لأول مرة ، وفى أيديهن من الجروح شاهد على ما حدث ، ويقضى

(١) سورة يوسف آية : ٥٠ ٠ (٢) سورة يوسف آية : ٥١ - ٥٣ ٠

بأن يخبرن عما وقع منهن من الفضائح بشجاعة ، ولا يحاولن الإنكار بعد أن شاع الخبر وذاع ودلت الدلائل كلها على إدانتهن بما نسب إليهن وبراءة يوسف عليه السلام ·

ولولا اعتراف امرأة العزيز بهذا القول الصريح الذى حكاه القرآن لظلت القضية مائعة قابلة للأخذ والرد والقيل والقال ، ولظل يوسف فى سجنه حتى تحسم هذه القضية وهذا من حقه الذى لا ينازعه فيه أحد ·

• خروج يوسف من السجن وتوليته شئون الملك :

وعندما ثبتت براءة يوسف استدعاه الملك مرة أخرى ليستخلصه لنفسه ويجعله من خاصة حاشيته ، ويسند إليه من الأعمال ما يعجز غيره عن القيام به فقد ملك عليه حبُّه والاعجابُ به شغافَ قلبه ·

فخرج يوسف من سـجنه معززاً مكرمًا مبجلاً فى موكب مهيب إلى قصر الملك ، فلما جلس عنده وتجاذبا أطراف الحديث شهد له الملك بالقوة الحسية والمعنوية والأمانة فى الدين والعرض،وأسلم على يديه وأسند قياد ملكه إليه وخيره فى الوظيفة التى يشغلها ، فاختار يوسف عليه السلام أن يتولى خزائن الأرض ويكون مسئولاً عن شئون الزراعة والتجارة ، وتدبير شئون الجند وأقوات الناس وحماية البلاد من كل ما يتهددها ، فأجابه الملك إلى ذلك كله فى سرور وحبور،وقد وجد فيه بغيته ولقى عنده من الحلم والعلم والخبرة بتدبير شئون الملك ما لم يجده عند كل أولئك الذين اصطفاهم لنفسه وأسند إليهم الوظائف الكبرى فوصلوا بالبلاد إلى حافة الهاوية ·

وتولى يوسف شئون الملك ، وصارت الدنيا كلها عنده وفى قبضته ، فملكها بيديه ولم يملكها بقلبه ، وعاش فى مصر ملكًا نبيًا ، جمع الله لأهل مصر على يديه خيرى الدنيا والآخرة ·

وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ وقال الملكُ ائتُونِى به أَسْتَخلِصْه لنفسى فلما كلَّمَه قال إنك اليومَ لدينا مكينٌ أمينٌ · قال اجعلنى على خزائنِ الأرضِ إنى حفيظٌ عليمٌ · وكذلك مكَّنَّا ليوسفَ فى الأرضِ يَتَبَوَّأُ منها حيثُ يَشَاءُ نُصِيبُ برحمتنا من نشاءُ ولا نُضِيعُ أجرَ المحسنين · ولأَجرُ الآخرةِ خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يَتَّقُون ﴾ (١) ·

---

(١) سورة يوسف آية : ٥٤ – ٥٧ ·

• أول لقاء له بإخوته بعد طول غيبته :

وجاء إخوة يوسف بعد أن استقر له الملك فى مصر واستتب الأمر ؛ وعم الرخاء وساد العدل في الرعية، وانتشر السلام والإسلام فى ربوع البلاد - جاءوا من بادية الشام يطلبون المِيرة ، ومعهم من البضاعة ما لا يفى بمطالبهم عند استبدالها ، جاءوه فدخلوا عليه بيسر وسهولة ؛ لأنه ما كان يحيط نفسه بهالة من الأُبَّهة كما يفعل الملوك ورؤساء الدول ؛ لأنه حكم فعدل فأمن ، ففتح باب بيته للقاصى والدانى - دخلوا عليه وهم يطمعون فى عدله وكرمه ، وقد اشتهر فى الآفاق بأوصاف الخير كلها - دخلوا عليه فيمن دخل من أهل البلاد المجاورة والبعيدة على السواء فعرفهم فقربهم منه ، يسألهم عن حالهم وحال أبيهم وذويهم وما فعلته الدنيا بهم ، فأخبروه بما سأل عنه وهم له منكرون لا يعرفونه مع أنهم لمحوا فيه أوصاف الجمال التى لم يروا لها مثيلاً فى غيره ، لكنهم لم يتصوروا - ولو للحظة - أن يوسف الذى ألقوه فى الجب وراقبوا هذا الجب حتى عرفوا أن سيارة قد اصطحبوه معهم إلى حيث لا يعلمون - نعم لم يكونوا يتصورون أن هذا الغلام الذى كادوا له كيداً وأبعدوه عن أبيه إلى أرض لا يعود منها إليه - قد أصبح ملكًا فى قطر واسع فسيح كثير الخيرات ، عظيم البركات يسكنه خلق كثير ، وله بين الأقطار شأن عظيم ·

ولما أكرم وفَادتَهم وهَمُّوا بالرحيل وجهَّزهم بجهازهم اللائق بهم وأغدق عليهم الأرزاق - قال : ائتونى بأخ لكم من أبيكم ليحصل من الميرة بقدر ما حمل كل منكم ·

وكأنه عرف من جلية أمرهم أنهم قد لا يأتون به فى المرة القادمة ويتعللون بأى عذر من الأعذار المعقولة - وما أكثرها - وعرف أن أباهم لن يفرط فى أخيهم بنيامين كما فرط فيه من قبل - لما عرف ذلك بالقرائن هددهم بقطع الميرة عنهم إن لم يأتوا به معهم ، فوعدوه بالمحاولة ولم يدركوا من هذا الطلب فحواه ولا مرماه ، ولو كانوا أذكياء من خلال إلحاحه فى طلبه أن له وإياه شأنًا وأن بينهما صلة ، ولعرفوا من خلال المبالغة فى إكرامهم والإحسان إليهم فى تجهيزهم أن هذا العزيز أو الملك لابد أن يكون أخاهم الذى افتقدوه باختيارهم منذ سنوات بعيدة ، وكانت هناك قرائن أخرى يعرفونه بها لو كانت لهم بصائر مستنيرة ، ولكن قدر الله ألا يعرفوه حتى يذوقوا ألوانًا من الذل والرَّهَق والحرج كجزء من الجزاء الدنيوى على فعلتهم الآثمة التى لم يعرف التاريخ لها مثيلاً ·

وقد بالغ يوسف عليه السلام فى إغرائهم بالرجوع إليه فأمر فتيانه أن يجعلوا بضاعتهم التى جاءوا بها فى رحالهم ؛ حتى إذا وجدوها هموا بردها عليه لظنهم أنه نسيها فى رحالهم ، أو للطمع فى المزيد من هذا الإكرام الذى فاق تصورهم وحاز إعجابهم ، فقد وجدوا منه الإحسان كل الإحسان معنويًا وماديًا ، فلماذا لا يرجعون إليه ومعهم أخوهم بنيامين ، ولكن كيف يأذن لهم أبوه بصحبته وقد فعلوا بيوسف من قبل ما فعلوا ؟

قال بعضهم لبعض : نحاول أن نسترضى أبانا بشتى الحيل ونحن ما نحن فى حبك المؤامرات وصنع المكايد ، والاحتيال من شيَمنا ، فذهبوا إلى أبيهم ووضعوه أمام الأمر الواقع ، وحملوه مسئولية جوع أهله وأهل بلده إن هو عصى أمر الملك ، فقالوا : يا أبانا منع منا الكيل - كلمة نزلت على أبيهم كالصاعقة ، ثم أتبعوها بأمر حازم لا رجوع فيه ولا عدول عنه : أرسل معنا أخانا بنيامين لكى يستمر المدد ويزداد الخير ، ووعدوه بأن يحفظوه ويحسنوا إليه ، فذكرهم يعقوب عليه السلام بما كان منهم فى شأن يوسف ، ولكنه أسند الأمر إلى الله ، وطلب منه وحده الحفظ والرحمة ، ولم يجد بدًا فى إرساله معهم ؛ لأن قطع الميرة عنهم أمر لا يطاق وهو المسئول عن أهله وقومه فماذا يفعل ؟ .

ولما فتح الأبناء متاعهم وجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم فقويت حجتهم على أبيهم ، وقالوا : يا أبانا ماذا نريد من هذا الرجل أكثر من ذلك فقد أكرم وفادتنا وأحسن رفادتنا ، ورد إلينا بضاعتنا ، ولو ذهبنا إليه ومعنا أخونا فسوف نوسع على أهلنا ونزداد كيل بعير ، ونحفظ أخانا حتى نرده سالمًا غانمًا إلى مأمنه .

هو قول جميل ، وتصرف حكيم ، وطلب له مبرراته فما على أبيهم إلا أن يستجيب ، فاستجاب لهم بشرط أن يحلفوا بالله أن يردوه إليه سالمًا ، ولا يكيدوا له مثلما كادوا ليوسف ، إلا أن يحاط بهم فيقتلهم عدو أو يأسرهم عنده ، فعندئذٍ يكونون فى حِلٍّ من هذا الميثاق الغليظ .

يقول الله عز وجل فى هذا المقطع من القصة : ﴿ وجاءَ إخوةُ يوسفَ فدخلوا عليه فعرفَهم وهم له مُنكِرُون . ولَمَّا جَهَّزَهم بِجَهَازِهم قال ائتونى بأخٍ لكم من أبيكم ألا تَرَونَ أنِّى أُوفِى الكيلَ وأنا خير المُنزلين . فإن لم تأتونى به فلا كيلَ عِندى ولا تَقرَبُونِ . قالوا سَنُرَاوِدُ عنه أباه وإنَّا لفاعلون . وقال لِفتيَانِه اجعلوا بضاعَتَهم فى

رحالِهم لعلَّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلَّهم يرجعون · فلما رَجَعُوا إلى أبيهم قالوا يا أبَانَا مُنِعَ منَّا الكيلُ فأرْسِلْ معنا أخانا نَكتَلْ وإنَّا له لحافظون · قال هل ءَامنُكُم عليه إلا كما أمنتُكم على أخيه من قبلُ فاللهُ خيرٌ حافظًا وهو أرحمُ الراحمين · ولما فَتَحُوا متاعَهم وجَدُوا بضاعتَهم رُدَّتْ إليهم قالوا يا أبانا ما نَبْغِى هذه بضاعتُنا رُدَّتْ إلينا ونَميرُ أهلَنا ونحفظُ أخانا ونزدادُ كيلَ بعيرٍ ذلك كيلٌ يسيرٌ · قال لن أُرسِلَهُ معكم حتى تُؤتُونِ موثقًا من اللهِ لَتَأْتُنَّنِى به إلا أن يُحاطَ بكم فلما ءَاتَوه مَوثِقَهم قال اللهُ على ما نقولُ وكيلٌ ﴾ (١) .

• أبوهم يوصيهم بأخذ الحذر مع الإيمان بالقدر :

ورضى الشيخ أن يسلم ولده بنيامين إلى من أسلم إليهم يوسف من قبل ، ولكن على مضض واضطرار ، وهو فى هذه المرة يستوثق منهم بميثاق غليظ أن يردوه إليه ما داموا قادرين على الرد ، ويُشهد الله على ذلك ، فيقول بعد أخذ الميثاق : ﴿والله على ما نقول وكيل ﴾ .

ومن قبل أخذ الميثاق أسند الأمر لله -- عز وجل - وسأله الحفظ لولده بقدرته وواسع رحمته ، فقال كما حكى القرآن عنه : ﴿ فالله خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين ﴾ .

وخرج يودع أبناءه الأحد عُشر إلى وجه الطريق ، وهو يخشى عليهم جميعًا من الحسد أو الحصار أو الأسر ونحو ذلك مما يخشاه الآباء على أبنائهم فى أسفارهم ، ولا سيما إذا كانت هذه الأسفار بعيدة الشقة عظيمة المخاطر ، فأوصاهم بوصية تعبر عما يعتمل فى نفسه ، وذكرهم بالله ووعظهم وعظًا بليغًا ، فحفظوا هذه الوصية ، ووضعوها موضع الاعتبار ، وأغذُّوا السير إلى مصر ، ومعهم أخوهم بنيامين ينعم بصحبتهم ، ويجد منهم من العطف والرعاية ما لم يجـد منهم يوسف من قبل ذَرَّة منه ؛ فالحال قد اختلف ، والأبناء فى هذه المرة لا يضمرون شرًا لأخيهم هذا ؛ لأنهم لم يجدوا منه ما يحسدونه عليه ، وانتهى بهم المسير إلى مصر ، وقد دخلوها من أبواب متفرقة كما أوصاهم أبوهم ، ومكثوا فيها حتى يؤذن لهم بالدخول على يوسف .

وفى هذا يقول الله جل شأنه : ﴿ وقال يا بَنِيَّ لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ

---

(١) سورة يوسف آية : ٥٨ - ٦٦ .

وادخلوا من أبوابٍ متفرقة وما أُغْنى عنكم من اللهِ من شىءٍ إنِ الحُكمُ إلا لله عليه تَوَكَّلتُ وعليه فليتوكَّلِ المتوكّلون · ولما دخلوا من حيثُ أمرَهم أبوهم ما كانَ يُغْنى عنهم من اللهِ من شىءٍ إلا حاجةً فى نفسِ يعقوبَ قَضَاها وإنه لذو علمٍ لِمَا علَّمناه ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلَمون ﴾ (١) ·

وقد قلت فى كتابى « من لطائف البيان فى سورة يوسف عليه السلام » عن السبب الوجيه الذى جعله يوصى أبناءه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة : لعل أظهر ما فى هذه النصيحة من حكمة هى ألا يلفتوا الأنظار إليهم بهذا الموكب الذى ينتظم أحد عشر أخًا فى سمت واحد من الجمال والجلال ، فذلك من شأنه أن يدير الرءوس إليهم ، وأن تدور الأحاديث عنهم وتختلف الآراء فيهم ، وليس ببعيد أن يكاد لهم من أكثر من جهة : من النساء والرجال ، أو من تجار مثلهم ، أو من حاشية العزيز نفسه ، وقد رأت الحاشية ما كان من العزيز من تلطفه بهم ، ومن كيله لهم دون أن يأخذ منهم شيئًا ، فما أكثر دوافع الحسد والغيرة فى قلوب الناس ، وما أكثر ما فى قلوب الناس من حسد وغيرة حول السلطان وحاشية السلطان ··· ولا شك أن هذه النصيحة قد جمعت أصول التوكل الصحيح على الله تبارك وتعالى ، وهو الاعتماد عليه جل شأنه ، والثقة بفضله مع الأخذ بالأسباب ، فعلى العبد أن يسعى ، وليس عليه تحصيل المطالب ، وعليه أن يحتاط لنفسه وما قدر يكون ·

فمن لم يأخذ بالأسباب فهو متواكل لا متوكل ، وقد جرت سنة الله فى خلقه أن يربط المسببات بأسبابها ، فمن أهمل الأخذ بالأسباب ، فقد خرق سنة الله تعالى وخالف أمره ·

● اللقاء الثانى :

ولما جاءهم الإذن بالدخول فدخلوا - بدأ بأخيه بنيامين فحياه واعتنقه ، وضمه إليه وخَصَّه بهالة من التكريم ، لا لأنه شقيقه فحسب ولكن لأنه الرجل الذى لم يصدر منه ما صدر من إخوته ، ولم يكن فيه من السمات البغيضة شىء يعاب به ، بل كان أقرب شبهًا به وبأبيه ، فهو أهل لأن يعزل عن هؤلاء ، ويخص بمزيد من التبجيل والتعظيم ، ويجد بنيامين فى هذه العزلة شيئًا من الغضاضة ، فيزداد الشعور عنده بالغربة ، فهم عشرة كل واحد يأكل مع الآخر ويتحدث معه ويبيت معه على

(١) سورة يوسف آية : ٦٧ - ٦٨ ·

فراش واحد ، فمع من يكون هو !! لو كان شقيقه حيًا لشاركه آلامه وآماله ، ووجد عنده ما يجده الشقيق ، ولا سيما إذا كان الشقيق مماثلاً لشقيقه فى الخلق الفاضل والسلوك النبيل .

رأى يوسف عليه السلام أمارات الحزن والأسى بادية على شقيقه ، فشاركه بنفسه طعامه وشرابه وأجلسه معه على فراشه ، وجاذبه أطراف الحديث ، فلما رأى أنه لا يزال يعانى من الكرب والغربة ، ولا يزال يأسف على فراق شقيقه يوسف - أفصح له عن نفسه وأخبره بجلية أمره ، وحدثه عما وقع له منذ خروجه من بيت أبيه مع أخوته حتى الساعه التى هو فيها الآن ، ففرح بنيامين فرحًا لم يفرح مثله قط ، وتبدد حزنه وزال همه وأحس بالأمان .

وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ ولما دخلوا على يوسفَ ءَاوَى إليه أخاه قال إنِّى أنا أخوك فلا تَبْتَئِسْ بما كانوا يعملون ﴾ [1] .

• احتياله فى ضم أخيه إليه :

وقد طمع بنيامين فى البقاء مع أخيه ، وطمع يوسف فيما طمع فيه أخوه ، فعلمه الله حيلة يحتال بها على تحقيق هذه الرغبة ، تتمثل فى وضع السقاية فى رحل أخيه قبل انصراف إخوته من مصر ، ثم يبعث مؤذنًا ينادى فى العير : ﴿ إنكم لسارقون ﴾ فإذا ما سمعوا هذه المقولة فسيعودون حتمًا إلي ساحة يوسف عليه السلام لإثبات براءتهم ، فيبدأ يوسف فى التفتيش عن السقاية - كما يسميها الخاصة - أو الصواع - كما يسميها العامة - بأوعيتهم ، ثم يفتش وعاء أخيه بنيامين فيستخرج منه السقاية ، فيكون بذلك قد جاز له أن يبقيه عنده على حسب ما تقضى به شريعة يعقوب عليه السلام فإن السارق يُستَرقُّ ، فيكون جزاؤه أن يعيش عند المسروق منه عبدًا رقيقًا يتصرف فيه كيف شاء .

يقول الله عز وجل : ﴿ فلما جَهَّزَهم بجَهَازِهم جعلَ السِّقَايَةَ فى رَحْلِ أخيه ثم أذَّنَ مُؤَذِّنٌ أيتُها العِيرُ إنكم لسارقون . قالوا وأقْبَلوا عليهم ماذا تفقدُون . قالوا نفقدُ صُوَاعَ المَلِكِ ولمن جاءَ به حِملُ بعيرٍ وأنا به زعيمٌ . قالوا تاللهِ لقد علمتُم ما جئنا لنُفسِدَ فى الأرضِ وما كنَّا سارقين . قالوا فما جزاؤه إن كنتمُ كاذبين . قالوا جزاؤه منَ وُجِدَ فى رَحلِه فهو جزاؤه كذلك نَجزِى الظالمين . فبدأ بأوعيتِهم قبلَ وعَاءِ أخيه

---

(1) سورة يوسف آية : ٦٩ .

ثم استخرَجَها من وعاء أخيه كذلك كِدْنَا ليوسفَ ما كان ليأخُذَ أخاه فى دين المَلِكِ إلا أن يشاءَ اللهُ نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ وفَوقَ كلِّ ذى علمٍ عليمٌ ﴾ (١) .

قد يقال كيف يُقْدِم يوسف على هذه الحيلة وهو نبى مرسل ، فيشهر بأخيه بين الناس بأنه سارق أليس فى هذا كذب وتلويث لعرض برىء ، وهذ البرىء أخوه ، ألم يكن له حيلة أفضل من هذه الحيلة ، وهل استأذن من أخيه بنيامين فى تنفيذ هذه الحيلة ؟

والجواب قد سجله الله فى قوله : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ فالأمر أمره والصنع صنعه ، فهو الذى دبر هذا الكيد ، وقام يوسف بتنفيذه لحكمة يعلمها الله تعالى ، ولعل الله أراد ذلك ليشفى صدر يوسف من هؤلاء الذين كادوا له كيداً تأباه الفطر السليمة ، وتنفر منه الطباع المستقيمة .

وليعلم يعقوب عليه السلام ببصيرته وثاقب فكره وحسن تقديره للأمور وجودة فهمه لقرائن الأحوال أن يوسف حىّ ، ويتوقع أنه هو الذى يحكم مصر ولو على سبيل الظن والتخمين ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ يا بَنِىَّ اذهبوا فَتَحسَّسُوا من يوسفَ وأخيه ولا تيأسوا من رَوحِ الله ﴾ (٢) .

ولا يقال : إن يوسف عليه السلام قد اتهم أخاه بالسرقة . وإنما جرت هذه التهمة على لسان منادى ، ولذلك أقبلوا عليه وعلى من معه فقالوا : ماذا تفقدون ، ولم يقولوا : ماذا سرق منكم ، وكأنهم بالعدول عن لفظ السرقة يريدون أن يعلموا هذا المنادى ما ينبغى أن يقال ، إذ كان ينبغى عليه أن يقول : فقدنا صواع الملك ولعله دخل فى رحل واحد منكم سهواً أو نسياناً ، وما أشبه ذلك من الكلام المقبول ، ولقد تعلموا فعلاً منهم ما ينبغى أن يقال ، فقالوا : نفقد صواع الملك ، ووعدوا من جاء به أن يُعطى حمل بعير من الحبوب ، وقال المنادى : أنا بهذا الحمل كفيل .

وقد يقال : إن يوسف عليه السلام هو الذى أمر المنادى أن يقول : إنكم لسارقون على سبيل التعريض ، فقد كانوا سارقين فعلاً عندما أخذوه من أبيه وألقوه فى الجب ، والله أعلم بما كان .

وقد رفع الله مكانة يوسف فى العالمين بالحلم والتعفف ، والعلم والحكمة ، والنبوة والملك ، ورد إليه أخاه تمهيداً لجمعه بأبويه وسائر أهله وذويه .

---

(١) سورة يوسف آية : ٧٠ - ٧٦ .   (٢) سورة يوسف آية : ٨٧ .

• موقفه وموقف إخوته بعد استخراج السقاية :

ولما رأى الإخوة السقاية قد استخرجت من رحل بنيامين سقط فى أيديهم ، وتحركت الأحقاد القديمة فى قلوبهم فتفوهوا بمقالة سوء ينفون بها عن أنفسهم العار الذى ظنوا أنه لاحق بهم ، فاحتملها يوسف منهم ، وأخفى وقعها من نفسه عنهم ، وانبأهم بما هم عليه من مكان لا يحمدون فيه ، ومن شرٍّ هم مواقعوه ·

﴿ قالوا إنْ يَسرقْ فقد سرقَ أخٌ له من قبلُ فَأسَرَّها يوسفُ فى نفسِه ولم يُبْدِها لهم قال أنتم شَرٌّ مكانًا واللهُ أعلمُ بما تَصِفُون ﴾ (١) ·

قالوا ذلك سبة لأمهما « راحيل » إذ أنجبت ولدين كلاهما سارق ، يريدون أن يتنصلوا بذلك من هذا العار الذى ظنوا أنه لاحق بهم جميعًا وهم على قمة الشرف والطهر ·

ووقعت هذه المقالة من نفس يوسف عليه السلام موقعًا آلمه وأحزنه ، لكنه تحلَّم وصبر واحتسب ، واحتفظ لنفسه بالرد المناسب فى الوقت المناسب ، وقال فى نفسه: أنتم شر مكانًا حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ، وفعلتم به ما فعلتم ، ثم طفقتم اليوم تفترون على البرىء فتتهمونه بما كان بكم ألصق ، والله وحده هو الذى يعلم بما تنسبونه إليه ظلمًا وزورًا ·

هذا وقد اختلف المفسرون فى الشىء الذى ادَّعى الإخوة أن يوسف قد سرقه من منطلق أنهم صادقون فى هذه الدعوى ، ونقلوا عن أهل الكتاب وغيرهم روايات لا سند لها ، ولكّن ما يدرينا أنهم كانوا صادقين فى قولهم هذا ، فربما يكونون قد كذبوا فى هذه المقالة ، كما كذبوا على أبيهم من قبل ، ومن عرف بالكذب لم يصدقه أحد ·

والحقد يدفع إلى أكثر من ذلك ، وهم غير معصومين لأنهم ليسوا من الأنبياء على الصحيح من أقوال العلماء ·

وهذا الموقف يظهر لنا ما تحلى به يوسف عليه السلام من حلم ورباطة جأش ، وقدرة فائقة على كظم الغيظ ، والعفو عن المسىء وهو قادر على الانتقام ، إذ أبت عليه نفسه الزكية أن يواجه إخوته بالحقيقة المرة فى غير أوانها وهم فى موقف كرب وبلاء ، ومعاناة نفسية بلغت بهم حدًا لا يؤاخذون فيه على ما يصدر منهم ·

---

(١) سورة يوسف، آية : ٧٧ ·

وطمع الإخوة فى إحسان يوسف عليه السلام فطلبوا منه أن يتجاوز إحسانه حد الوفاء فى الكيل وإكرام النزل إلى شىء أعظم عندهم من ذلك بكثير ، وهو أن يرد إليهم أخاهم ، ويأخذ منهم من يشاء عوضًا عنه ، رحمة بأبيهم الشيخ الكبير .

﴿ قالوا يا أيُّها العزيزُ إنَّ له أبًا شيخًا كبيرًا فَخُذ أحدَنا مكانَه إنَّا نراك من المحسنين ﴾ [1] .

فهم لا يستشفعون لأخيهم فى الحقيقة - كما يفهم من الآية - وإنما يستشفعون لأبيهم الذى بلغ من الكبر عتيًا ، وهم من وراء ذلك أيضًا يستشفعون لأنفسهم ؛ ليكونوا أوفياء بالميثاق الذى أخذه عليهم .

وقد تلطفوا به فاسترحموه بقولهم : ﴿ إن له أبًا شيخًا كبيرًا ﴾ ، واستنزلوه عن حقه فى استرقاق أخيه بقولهم : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ لكن يوسف عليه السلام كان يريد أن يلقنهم درسًا فى الأخلاق الفاضلة ، فقال كما حكى القرآن عنه : ﴿ قالَ مَعَاذَ اللهِ أن نأخذَ إلا من وجدْنا مَتَاعَنا عندَه إنَّا إذًا لظالمون ﴾ [2] .

أى عياذًا بالله أن نبرئ مذنبًا وندين بريئًا ، فنأخذ البرىء بذنب المسىء ، إن ذلك ظلم لا يلتقى أبدًا مع الإحسان الذى تدعوننى باسمه .

فلما رأوا أن العزيز متمسك بمن وجد متاعه عنده كفوا عن التحدث معه فى شأنه ، وعكفوا على تدبير أمرهم ، وتشاوروا فيما بينهم على كيفية مواجهة أبيهم بهذا الأمر الجلل الذى لم تكن لهم فيه إرادة ولا عزم .

قال تعالى : ﴿ فلما استيأسوا منه خَلَصُوا نَجيًّا قال كبيرُهُم ألم تَعلَموا أنَّ أباكم قد أخَذَ عليكم مَوْثقًا من اللهِ ومن قبلُ ما فرَّطتُم فى يوسفَ فلن أبرحَ الأرضَ حتى يأذنَ لى أبى أو يحكمَ اللهُ لى وهو خيرُ الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنَك سَرَقَ وما شَهِدْنَا إلا بما عَلِمْنَا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القريةَ التى كنا فيها والعيرَ التى أقبلْنا فيها وإنَّا لصادقون ﴾ [3] .

قوله تعالى : ﴿ فلمَا استيأسوا ﴾ معناه : لما بلغ منهم اليأس مبلغًا ، بسبب استعاذته بالله مما طلبوه ، وهذا التعوذ يدل على أنه أمر فى غاية الكراهة عنده ، وإنه

---

(١) سورة يوسف آية : ٧٨ . (٢) سورة يوسف آية : ٧٩ .

(٣) سورة يوسف آية : ٨٠ - ٨٢ .

ظلم ينبغى التعوذ منه ، والاحتراز من فعله ، فلما قطعوا الأمل من أخْذ بنيامين ، خلصوا نجيًّا ، أى خلص بعضهم إلى بعض ، واجتمعوا بعيدًا عن الناس يتناجون فى أمرهم هذا ·

فقد قال كبيرهم هذا : أنسيتم أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله أن تأتوه بابنه سالمًا ﴿ ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ﴾ ؟ ، أى هل نسيتم ما فعلتموه بيوسف من قبل ، فكيف تواجهون أباكم ، وبماذا تعتذرون إليه ، وكيف يكون وقع الخبر عليه، إلى آخر ما وقع بينهم من همس ومشافهة، وأخذ ورد طواه القرآن لعدم جدواه·

وقول كبيرهم بعد هذا التذكير المفجع والكلام الموجع : ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ﴾ - يعد فى نظرى تنصلاً من المسئولية ، وخذلانًا عن مواجهة الواقع ، وتخلصًا من هذا الموقف العصيب ، وإن بدا فى كلامه حسن الاستسلام لأمر الله تعالى ، وإظهار الرضا بقضائه وقدره ·

إنه يريد أن يبقى مكانه فى أرض مصر بعيدًا عن المواجهة القاسية التى سوف يلقاها إخوته ، فقال لهم ما حكى القرآن عنه : ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ﴾ إلى آخر هذه المقولة التى أوصاهم بها ، وفيها خبر وشهادة ، وإقرار واستيثاق ·

فقولهم : ﴿ إن ابنك سرق ﴾ إقرار بشىء لم يقع ، وما كان ينبغى أن يقول لهم : قولوا ذلك ؛ لما فى هذا القول من جفاف وجفاء ، وشدة وقع على نفس يعقوب عليه السلام ، إن قولهم ابنك مات أو قتل أخف عليه من قولهم : إن ابنك سرق ، لكنهـا الغلظة التى عرفت فى طباعهم ، لن يستطيعوا التخلى عنها أو التخلص منها ·

وقال لهم كبيرهم : قولوا له معتذرين بعد أن تخبروه بهذا الخبر: ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ أى فإن سألكم هل علمتم أنه سرق ببينة لا تقبل الجدل ، أو كيف حكمتم بأنه سرق ، وعلى أى شىء استندتم ، فقولوا : ما أقررنا بذلك إلا حين رأينا العزيز ، أو أحد فتيانه قد استخرج صواع الملك من رحله ، وقد سئلنا قبل التفتيش عن الصواع عن حكم السرقة عندنا فأجبناهم بما علمنا من شريعتنا ، فوقع لأخينا ما وقع بقضاء الله تعالى ، وهو أمر مغيب عنا ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ ·

أى ما كنا ندرى عواقب الأمور ، ولا بواطن الأحوال ، فإن كنت فى شك من

أمرنا ، فاسأل القرية التى كنا فيها ، وهى عاصمة مصر ، واسأل العير التى أقبلنا فيها لتعلم صدقنا وصحة قولنا .

وانظر إلى ما قالوه هنا ، وما قالوه عند اعتذارهم عن فقد يوسف ، لقد قالوا هنا : ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فأكدوا قولهم بأن واللام والجملة الإسمية .

وقالوا هناك بشيء من التمنى والتحسر ، والشك والمداراة : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ (١) .

فانظر إلى موقفهم هنا وقد جاءوا إلى أبيهم بالصدق كله ، وإلى موقفهم من قبل مع يوسف ، وقد جاءوا إلى أبيهم بالكذب كله .

وكان من حقهم فى هذه المرة أن يقولوا : ﴿ وإنا لصادقون ﴾ بصيغة الجزم ، لأنهم يعلمون أن أباهم لا يصدقهم لما عرف من كذبهم فى المرة الأولى ، ومن عرف بالكذب لم يصدقه أحد ، وكان من حقهم أيضًا أن يقيموا على صدقهم الشواهد والبينات ، والحق أبلج كما يقولون .

● موقف أبيهم بعد سماع الخبر :

وما كاد يعقوب عليه السلام يسمع من أبنائه هذا الخبر المؤلم حتى واجههم بما واجههم به فى المرة الأولى حين جاءوه يلقون إليه بالخبر المفجع فى يوسف ، إنهم متهمون عنده فى الحالين ؛ لأنه كان يتوقع منهم أن يسيئوه فى يوسف وفى أخيه ، ففى يوسف يقول لهم : ﴿ إنى ليحزُنُنى أن تذهبوا به وأخافُ أن يأكلَه الذئبُ وأنتم عنه غافلون ﴾ (٢) .

وعن ابنه الآخر يقول لهم : ﴿ هل آمنكُم عليه إلا كما أمِنْتُكم على أخيه من قبلُ ﴾ (٣) .

وهكذا يأخذهم بحدسه فيهم ، وظنه بهم وقد صدقه حدسه فى الأولى ، وتحقق ظنه فى الثانية ، فوقع المكروه فى الحالين .

﴿ قال بل سَوَّلَتْ لكم أنفسُكم أمرًا فصبرٌ جميلٌ عسى اللهُ أن يأتيَنِى بهم جميعًا إنه هو العليمُ الحكيمُ ﴾ (٤) .

« هى كلمته ذاتها يوم فقد يوسف ، ولكنه فى هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل

---

(١) سورة يوسف آية : ١٧ . (٢) سورة يوسف آية : ١٣ .

(٣) سورة يوسف آية : ٦٤ . (٤) سورة يوسف آية : ٨٣ .

أن يرد الله عليه يوسف وأخويه ﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ الذى يعلم حاله ، ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات ، ويأتى بكل أمر فى وقته المناسب ، عندما تتحقق حكمته فى ترتيب الأسباب والنتائج ·

هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ !! إنه الرجاء فى الله ، والاتصال الوثيق به ، والشعور بوجوده ، ورحمته ، ذلك الشعور الذى يتجلى فى قلوب الصفوة المختارة ، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذى تلمسه الأيدى وتراه الأبصار » [١] ·

وكأن سائلاً قال : ماذا فعل يعقوب بأبنائه فى هذه المرة ؟ فقال الله عز وجل : ﴿ وتَوَلَّى عنهم وقال يا أسَفَى على يوسفَ وابيَضَّتْ عيناه من الحُزْنِ فهو كظيمٌ ﴾ [٢].

أى قال ما قال وانصرف عنهم بقلبه وقالبه ، وقال فى لوعة وأسى : ﴿ يا أسفَى على يوسف ﴾ مع أن الذى فقده فى هذه المرة بنيامين ، ولكن تداعى المعانى وتوارد الخواطر ذكَّرته بالفاجعة الأولى التى كان يتسلى عنها بولده بنيامين ، فلما فقده تذكر مأساته الأولى ، والأسى يبعث الأسى ·

فقد كان يعقوب عليه السلام يرى أن يوسف هو قرة عينه ، وثمرة حياته ووارث علمه ، ومجدد عهده من بعده ، لذلك لم ينسه أبدًا ؛ فكان حزنه عليه لا يكاد يخبو حتى ينفجر لأى حادثة تذكره به ، فكانت صورته لا تفارق ذهنه فى ليله ونهاره ، فلا عجب أن يتأسف عليه بالذات دون أخيه بنيامين ، وأخيه رأوبين ، فقد كان بنيامين يعزيه عنه بعض الشىء ، فلما فقده لم يبق فى قلبه سوى يوسف ، فهو المفقود الذى لا يعرف له مكان ، ولو عرف مكانه ما بكاه ، ولا تأسف عليه ·

والبكاء لا ينافى الصبر ، بل هو وسيلة من الوسائل التى تعين عليه ، إذ به يُفرغ المرء ما فى قلبه من أسى ، ويتخلص من العقد المتراكمة على الصدر ، فيتسع وينفرج ويستريح ·

وقد بكى النبى ﷺ على فراق ولده إبراهيم ، وبكى على موت بعض أصحابه كما هو معلوم من الأحاديث الصحيحة ·

وقد ابيضت عينا يعقوب من شدة الحزن ، فذهب سوادهما ، ولم يصب

---

(١) انظر فى ظلال القرآن · جـ ٤ ص ٢٠٢٥ · (٢) سورة يوسف آية : ٨٤ ·

بالعمى لأنه مستحيل فى حق الأنبياء عليهم السلام - كما قال كثير من العلماء - ورأى أبناء يعقوب أن الحزن قد أخذ بناصية أبيهم وفت فى عضده ، وبلغ منه الأسى والأسف على فقد يوسف وأخويه مبلغًا قد يودى بحياته فدخلوا عليه خلوته وقالوا ما قد حكى القرآن عنهم :﴿ تَاللهِ تَفْتَأُ تذكرُ يوسفَ حتى تكونَ حَرَضًا أو تكونَ من الهالكين ﴾ (١) .

وهى كلمة فيها نصح له وإشفاق عليه ، ولوم على تماديه فى ذكر يوسف ، وشدة تأسفه على فراقه ، وتحمل فى طياتها شيئًا من كوامن الغيرة من يوسف عليه السلام . فمع هذه الهموم وتلك الأحزان التى يعالجها الشيخ - الضعيف فى جسمه القوى فى إيمانه - لم يسلم من لوم أبنائه وهم أقرب الناس إليه ، وهم السبب فى بلواه وشكواه ، وحزنه وأساه .

فإنه إذا خلا بنفسه ، وجرت على لسانه كلمة يهتف فيها بيوسف عليه السلام ، وسمعها أبناؤه وتحركت الغيرة فى صدورهم ، تناولوه بألسنتهم لومًا وتهديدًا له بالمرض الذى يستحيل البرء منه ، أو الهلاك المحقق ، مؤكدين ذلك بكثير من أنواع التوكيد ، فهم يقسمون بالله على أنه يظل يذكر يوسف ويبكى على فراقه حتى يشرف على الموت ، أو يموت فعلاً كمدًا وحسرة .

إنها كلمة تشف عن قسوة وغلظة أكثر مما تشف عن حنان وعطف ، وتَنِّم عن حقد وغيرة من يوسف أكثر مما تنم عن حب لأبيهم وحرص على سلامته وحياته .

وقد قبل يعقوب عليه السلام منهم نصحهم إن كانوا حقا من الناصحين ، وشكرهم على هذا الإشقاق عليه والحرص ، واعتذر إليهم عن تماديه فى ذكر يوسف عليه السلام بما حكى القرآن عنه ، مما يعد منهجًا قويمًا للمتوكلين المخلصين :

﴿ قال إنما أشكُو بَثِّى وحُزنِى إلى اللهِ وأعلمُ من اللهِ ما لا تَعلَمون ﴾ (٢) .

والبث هو : الهم والكرب الذى يغلب صاحبه فلا يتسع له صدره ، فيصرح به ، ويلقيه خارجه .

أى إنما أشكو إلى الله تعالى همى وحزنى ضراعة وتمسكنًا لا يأسًا ولا جزعًا ، وهذا نوع من أنواع العبادة لا تعلمونه مثل ما أعلمه ، ومثل هذا النوع من العبادة لا

(١) سورة يوسف آية : ٨٥ . (٢) سورة يوسف آية : ٨٦

ينشأ منه مرض ولا هلاك ، بل فيه عون على التماسك والتصبر ومواجهة المصائب العظيمة ، فلا تلومونى على ذلك ، ولا تخشوا علىّ منه ، وكان عليكم أن تعرفوا ذلك ، فإن مثلى لا يبكى هلعًا ، ولا يشكو جزعًا ، ولا يأتى شيئًا ينافى الصبر الجميل الذى تحليت به وسألت الله أن يعيننى عليه .

وفى قوله تعالى : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ إشارة إلى أنه إذ يشكو إلى الله ما به فإنما يشكو إلى رب رحيم ، يُضرع إليه فى الكروب ، وتُبسط له الأيدى فى المُلِمَّات ، وتتجه الوجوه إليه فى الشدائد .

وهذا هو منهج العارفين بربهم ، فإنهم لا يشكون الله لمخلوق ، ولا يسألون أحدًا سواه فى كشف الضر وجلب النفع .

إن اللُّجْأَ إلى الله والهُتَاف به ، والشكوى إليه ، والتوجع له هو من دلائل الإيمان به والثقة فيه ، وإظهار العبودية له والافتقار إليه .

إنه عليه السلام يعلم ما لله من صفات الكمال والجلال ما لا يعلمه ابناؤه ، ولو كانوا يعلمون ما يعلم ما لاموه على ذلك ، وما وقفوا منه هذا الموقف السلبى ، ولهذا قطع عليهم الطريق إلى المزيد من هذا النصح الفارغ من المضمون ، وأرشدهم إلى ما هو الأهم له ولهم ، فقال كما حكى القرآن عنه : ﴿ يا بَنِىَّ اذهبوا فتحَسَّسُوا من يوسفَ وأخيه ولا تيأسوا من رَّوْحِ اللهِ إنه لا يَيْأسُ من رَّوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافرون ﴾ [1] .

إنه يدعو أبناءه إلى أن يؤمنوا بالله إيمانه به ، ويثقوا فى فضله مثل ثقته ، ويطمعوا فى رحمته طمعه بها ، فينطلقوا هنا وهناك فى أرض مصر ، ويتحسسوا بجد واهتمام من أمر يوسف وأخيه دون أن يخالجهم يأس من رحمة الله الواسعة .

ويعقوب عليه السلام عندما يدعو أبناءه إلى الخروج فى طلب يوسف وأخيه ، يزودهم بما يعينهم على الجد والاجتهاد فى هذا الأمر ، فيحذرهم من اليأس من رحمة الله ، فإنه كفر به وبنعمته ، وجهل بذاته وصفاته ، فالذين لا يعرفون الله ولا يقدرونه قدره هم الذين يدب اليأس فى قلوبهم بسبب الشبه التى تعرض لهم .

أما المؤمنون فهم أبدًا على رجاء من رحمة الله ، وعلى ترقُّب لفضله ، وتوقُّع

---

(١) سورة يوسف آية : ٨٧ .

لغوثه ، ويوم ينقطع رجاء العبد من ربه فذلك شاهد على انقطاع الصلة بينه وبينه ، وعلى فراغ القلب من أية ذَرَّة من ذَرَّات الإيمان به ·

• اللقاء الحاسم بين يوسف وإخوته :

وامتثل إخوة يوسف أمر أبيهم ، فارتحلوا إلى مصر يتحسسون الخبر ، فأقبلوا إلى البيت الذى فيه أخوهم بنيامين ، فدخلوا على يوسف وهم يطمعون فى رِفْده وسخائه وعفوه عن أخيهم ، فجلسوا عنده ، وأخذوا يستعطفونه بأسلوب غاية فى الملاطفة والملاينة والاستجداء ، لعلهم يستردون منه أخاهم ، فيعيدونه إلى أبيه وعندئذ يرجع أخوهم الأكبر معهم ، فلا يبقى إلا يوسف ، فيسهل عليهم البحث عنه والتعرف على مكانه ، وقد عرفوا من أبيهم أنه لا يزال حيًا ·

قال تعالى : ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيزُ مَسَّنا وأهلَنا الضُّرُّ وجئنا ببضاعةٍ مُّزْجاةٍ فأوفِ لنا الكَيْلَ وتَصَدَّقَ علينا إن اللهَ يَجزى المُتَصَدِّقِينَ ﴾ (١) ·

فقد افتتحوا كلامهم بما يثير عطفه عليهم ، ورحمته بهم فأخبروه أولاً بما أصابهم وأصاب أهلهم من فقر ومجاعة ، وما ألم بأبيهم من حزن أضر بعينيه ، وفَتَّ فى عضده وغير ذلك من أنواع البلاء ·

ولعله سألهم عن حالهم وحال أهلهم استئناسًا لهم ، كما يفعل صاحب البيت مع ضيفه ، فأجابوه عن سؤاله بصدق وأمانة لم يخفوا عنه شيئًا أصابهم ·

ولا يعد هذا من قبيل الشكوى المنافية للتوكل ؛ لأنها غير مصحوبة بسخط ولا جزع فيما يبدو ، وإنما هى سبب من أسباب دفع الضرر ، كشكوى المريض للطبيب ليعرف داءه ، فيصف له الدواء الناجع ·

وقولهم : ﴿ مسَّنا وأهلنا الضر ﴾ كلام موجز بليغ يحمل فى طياته كثيرًا من ألوان البلاء الذى نزل بهم ، فالضر : اسم جامع لكل ما يؤلم الإنسان ، ويؤذيه فى نفسه وأهله وماله ·

وقد اعتذروا إليه بعد أن أخبروه خبرهم عن قلة البضاعة التى جاءوه بها ، ورداءتها ، فقالوا : ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ ·

وإنما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة، إما لنقصانها، أو لرداءتها، أو لهما معًا ·

---

(١) سورة يوسف آية : ٨٨ ·

وبنوا على اعتذارهم هذا مطلبين هما : الوفاء لهم فى الكيل والتصدق عليهم بعتق أخيهم ، أو التسامح معهم فى قبول البضاعة الرديئة ، واستبدالها منه ببضاعة جيدة .

ولما سمع يوسف عليه السلام مقالتهم رَقَّ لهم ودنا منهم ، وأخذ يُسرِّى عنهم ويواسيهم بحديثه العذب ، فأخـذ منهم وأعطى ، حتى لقد كادوا يسألونه : من أنت ؟ ومالك تؤثرنا بقربك وتخصنا بالحديث إليك ؟ وما اهتمامك بأهلنا وبمن خلّفنا وراءنا حتى تحملنا على أن نحضر لك أخانا الذى تخلف عنا ؟ ثم ها هو ذا يصبح رهينة بين يديك ؟ .

هذه الأسئلة وكثير غيرها كانت تدور بين القوم ، ويتناجون بها أفرادًا وجماعات، ثم لا يجدون عليها الجواب الذى يستريحون إليه حتى جاءهم الخبر اليقين. ﴿ قال هل علمتُم ما فعلتُم بيوسفَ وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ [١] .

وما كاد يوسف يقول هذا حتى أطل عليهم الجـواب الذى كان قائمًا فى رءوسهم : ﴿ قالوا أءنَّك لأنتَ يوسفُ قال أنا يوسفُ وهذا أخى قد مَنَّ اللهُ علينا إنَّه من يَتَّقِ ويَصْبِرْ فإنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المحسنين ﴾ [٢] .

وسؤال يوسف يدل على تعظيم ما يسأل عنه ، فإنه سؤال يترتب عليه أمور كثيرة ، ويكشف عن ذكريات مؤلمة مرت بخاطره ، وتداعت إليه معانيها .

إنه سؤال العارف المتجاهل ، يريد به العتاب ، ولا يريد به التشفى والانتقام ، لأنه قد حمل معه ما يمهد به لعذرهم فيما صنعوه به ، فإنه عليه السلام قد قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ ، فلقنهم حجتهم بأن يقولوا : فعلنا ما فعلنا ونحن جاهلون ، فلا تلمنا على ما وقع منا - والعفو أقرب للتقوى . والجاهل يعذر بجهله فى مثل هذه الأمور .

وقد ذكر يوسف أخاه معه لأنه قد عانى مما عاناه من وحشة الفراق ، وقد رأى منهم كثيرًا من ألوان العنف والجفاء والغلظة ، لأنهم كانوا يحقدون عليه ، كما كانوا يحقدون على يوسف ، كما أفصح عنه قوله تعالى : ﴿ إذ قالوا لَيُوسفُ وأخوه أحبُّ

---

(١) سورة يوسف آية : ٨٩ .   (٢) سورة يوسف آية : ٩٠ .

إلى أبينا منا ﴾ فهاهو الآن يقول لهم معاتبًا : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوســـف وأخيه ﴾ .

« وهكذا بسط لهم جناح الصفح والمغفرة حتى لقد رأوا فى تلك المداعبة والملاطفة وجه الأُخوَّة الحانية يطل عليهم ، طاويًا تلك السنين التى غبرت ، وتحول الشك عندهم إلى يقين فقالوا بصوت واحد : ﴿ أءنك لأنت يوسف ﴾ .

نعم إنه ليوسف - يقولونها هكذا بصيغة التوكيد - ﴿ قال أنا يوسف وهذا أخى ﴾ .

ثم أراهم يوسف أن هذا الذى يرونه ولا يكادون يصدقونه هو من فضل الله عليه ، وأنه سبحانه قد أحسن جزاءه ، إذ كان ممن ابتلاهم فصبروا ، وممن مكَّن لهم فاتقوا وأحسنوا : ﴿ إنه من يَتَّقِ ويصبر فإن الله لا يضيعُ أجر المحسنين ﴾» [١] .

ولما استيقنوا أن العزيز الذى غمرهم بعطفه وإحسانه هو ذلك الذى كادوا له من قبل كيدًا أملاه الشيطان عليهم ، ودفعهم إليه الحقد الأعمى اعترفوا له بالفضل ، واعتذروا إليه عن خطاياهم التى ارتكبوها فى حقه وحق أخيه وحق أبيه ، ﴿ قالوا تَاللهِ لقد آثَرَكَ اللهُ علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ [٢] .

أي : تالله لقد فضلك الله علينا بالعلم والحلم والملك ، وإن كنا لمن الخاطئين فيما فعلناه بك ، فقد أسأنا بفعلنا هذا إساءة بالغة لا نستحق عليها العفو ، فإن عفوت عنا فهذا خُلُق قد حلاَّك الله به وميَّزك به عنا ، ولا عذر لنا بجهلنا ، وإن كنت قد مهدته لنا لطفًا بنا ، وتخفيفًا عنا من وطأة الحرج الذى أوقعنا فيه سوءُ صنيعنا ، فقد فعلنا من الشر ما لم يفعله من قبلنا أحد ، إلى غير ذلك مما يفهم من سياق الآية على إيجازها .

وقد صرح لهم يوسف عليه السلام بالصفح عنهم بعد التلميح به إليهم ، ودعا لهم بالمغفرة ليطوى بذلك صفحات الماضى البغيض ، ويفتح للحاضر والمستقبل صفحات أخرى ملؤها الحب والوفاء ، ومدادها الأمن والرخاء ، وأمرهم أن يذهبوا بقميصه - وقد أعطاهم إياه- إلى أبيه الذى طال صبره الجميل ، ليلقوه على وجهه ، فيصير به بصيرًا ، وأمرهم أن يجيئوه بأهله أجمعين ليعيشوا فى ظله آمنين إلى ما شاء الله عز وجل .

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن حـ ١ ص ٤٠ ، ٤١ . (٢) سورة يوسف آية : ٩١ .

﴿ قال لا تَثْرِيبَ عليكم اليومَ يغفرُ اللهُ لكم وهو أرحمُ الراحمين · اذهبوا بقميصى هذا فألقُوه على وجهِ أبى يأتِ بصيراً وأتونُى بأهلِكم أجمعين ﴾ [(١)] .

والتثريب معناه : اللوم والمذمَّة والتوبيخ وما فى معناه ، أى لا لوم عليكم من الآن فصاعدًا ، فقد عفوت عفواً شاملاً عما مضى منكم ، والله يغفر لكم وهو أولى بكم منى ، فهو ربى وربكم ، وهو أرحم الراحمين بعباده المؤمنين ·

وقد عرف يوسف عليه السلام منهم أن أباه قد ابيضت عيناه من الحزن ، فاحتجب نورهما كلاً أو بعضًا إلى حين ، وعرف بطريق الوحى - على الصحيح من أقوال المفسرين - أن قميصه الذى عينه لهم بالإشارة لو ألقى على وجه أبيه لعاد إليه نور عينيه ·

وربما يكون يوسف عليه السلام قد علم أن أباه عليه السلام ما صار محجوب البصر إلا بسبب الحزن الشديد،والبكاء المتواصل ، الأمر الذى نتج عنه ضيق صدره ، واكتئاب قلبه ، فإذا ما جاءته البشرى ، وألقى على وجهه القميص ، وشم ريح يوسف عن قرب فإنه سيحدث له ردُّ فعل قوى يعيد إليه الإبصار ، وذلك مما علمه الله تعالى ، فقد أوتى يوسف عليه السلام أنواعًا كثيرة من العلم بشئون الدين والدنيا ، كما رأينا فيما مضى ، وكما سنرى فيما يأتى ·

فقد كان قوله عليه السلام : ﴿ يأت بصيراً ﴾ لمحة كاشفة من لمحاته المشرقة عرف بها تأويل هذا الأمر تمامًا كموقفه من تأويل الأحاديث والأحلام ·

ولك أن تقول : ردُّ بصر يعقوب بقميص يوسف كان آية من آيات الله تعالى ، أجراها بين يدى هذين النبيين الكريمين ·

أو قل : هى معجزة جعلها الله سبحانه ليوسف عليه السلام ، أعلمه بها قبل وقوعها فوقعت فى الوقت المناسب وفق حكمته تعالى ·

وأى قميص هذا الذى أعطاه يوسف عليه السلام إخوته ، ودعاهم إلى أن يلقوه على وجه أبيه ، فيعيد إليه بصره الذى احتجب ؟

لقد كثرت حوله الروايات ، فقيل : إنه كان لإبراهيم عليه السلام ، نزل به جبريل إليه من الجنة حين ألقى فى النار ، فورثه إسحاق ثم ورثه يعقوب ، ثم جعله يعقوب فى عنق يوسف عليهم السلام ·

---

(١) سورة يوسف آية : ٩٢ - ٩٣ ·

وهذا القول وما فى معناه لا سند له ، فالقميص الذى كان يلبسه يوسف هو الذى جاء به إخوته ملطخا بدم كذب ، فكيف يكون مع يوسف القميص الذى يرد فى أصله إلى إبراهيم عليه السلام .

وما دامت الآثار المروية فى ذلك لم ترد عن المعصوم ﷺ ، ولا عن أحد أصحابه بطريق صحيح - فيما نعلم - فليكن القميص الذى أمر يوسف إخوته أن يلقوه على وجه أبيهم واحدًا من الأقمصة إلى كان يلبسها ، والتى علَق بها بعضُ عَرِقه ، فكان فيها رِيحُه .

• رجوع الإخوة إلى أبيهم بالبشارة :

وخرج الإخوة من مصر بعد أن جهزهم يوسف عليه السلام بجهازهم ، فما كان من يعقوب عليه السلام إلا أن وجد ريح حبِّه ، وملاك قلبه ، فأخبر من حوله من أهله بذلك الشعور الصادق ، والإحساس المرهف ، فأنكروا عليه ، وبدا منهم ما كان يتوقعه ، وبالغوا فى هذا الإنكار فأكدوه بكثير من أنواع التوكيد .

قال تعالى : ﴿ ولما فَصلَت العيرُ قال أبوهم إنِّى لأجدُ رِيحَ يوسف لولا أن تُفَنِّدُونِ . قالوا تَاللهِ إنَّك لفى ضلالِك القديمِ ﴾ (١) .

فقوله تعالى : ﴿ ولما فصلت العير ﴾ معناه فارقت أرض مصر ، ومعنى ﴿تفندون ﴾ : تتهموننى بالخرف .

ويعقوب عليه السلام حين وجد ريح يوسف استبشر خيرًا ، وأراد أن يشرك من حوله فى البشرى ، لكنه عرف مقدمًا أنهم لم يثقوا فى كلامه كل الثقة ، فأخبرهم بمشاعره ، واحتاط لنفسه من تكذيبهم ؛ لما تكرر منهم من لوم شديد على تأسفه وتحسره على فراق يوسف ، فوقع منهم ما كان يحذر ، فأقسموا بالله إنه لفى ضلاله القديم .

والمراد بالضلال هنا : الحب الشديد ليوسف والتعلق البالغ به ، فسمى هذا ضلالاً لخروجه عن حد الاعتدال فى نظرهم .

فقد قالوا مثل ما قال أبناؤه حين تآمروا على يوسف :﴿ إن أبانا لفى ضلال مبينٍ ﴾ (٢) .

واحتمل يعقوب عليه السلام انتقاد أحفاده ومن معهم من أهله ، ولم يجبهم

(١) سورة يوسف آية : ٩٤ - ٩٥ . (٢) سورة يوسف آية : ٨ .

بشىء كما فعل مع أبنائه حين لاموه على حزنه وتأسفه على يوسف ، فقد رأى فى السكوت عن هؤلاء وأولئك خيرًا ، فقد قالوا قولاً شططًا يدل على خفة فى عقولهم، وغلظة فى طباعهم ، فلا يفيده معاتبتهم أو تأنيبهم ، لأنه قد أخذ على نفسه أن يتسلح بالصبر الجميل على كل ما يأتى به القدر فى توكل كامل ورضا تام .

ولبث يعقوب عليه السلام أيامًا كأنها سنوات يترقب وصول خبر يوسف حتى جاء البشير بالقميص ، فألقاه على وجهه كما أمره يوسف عليه السلام ، فعاد إلى الشيخ بصره ، فأبصر ما كان محجوبًا عنه ، وعادت إليه قوته ، وزال عنه حزنه بشدة سروره بقرب لقائه بحبِّه ، وثمرة فؤاده ، وبقرب جمع الشمل بينه وبين أولاده جميعًا فى مصر ، حيث تتحقق الرؤيا التى رآها يوسف عليه السلام من قبل .

﴿ فلما أن جاءَ البشيرُ ألقاه على وجهِهِ فارتدَّ بصيرًا قال أَلَمْ أَقُلْ لكم إنِّى أعلمُ من اللهِ ما لا تعلمون ﴾ (١) .

« أى فلما جاء البشير – وهو ابنه يهوذا – الذى يحمل القميص من يوسف – وهو الذى حمل إليه قميصه الملطخ بالدم الكذب ؛ ليمحوَ السيئة بالحسنة – ألقاه على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيراً كما كان ، بل قد قيل إنه عادت إليه سائر قواه ، وليس ذلك بعجيب ولا منكر ، فكثيرًا ما شفى السرور من الأمراض ، وجدَّد قُوى الأبدان والأرواح ، والتجارب وقوانين الطب شاهدُ صدقٍ على صحة ذلك .

وشفاء سيدنا يعقوب بوضع القميص على وجهه معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان ، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه ، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهم هو طريقة الشفاء وهى إرادة الله المنحصرة فى (كن فيكون) وهى خارجة عن كل السنن الطبيعية التى أمر الإنسان أن يتعلمها ، فعظمة المعجزة ليست فى النتيجة فحسب ، ولكن فى طريق الشفاء » (٢) .

وكما أن رد بصر يعقوب بالقميص كان معجزة كان شمُّه لريح يوسف على بعد شاسع أيضًا معجزة يجب التصديق بها من غير بحث عن العلة والكيفية .

فلما برئ يعقوب عليه السلام من مرضه ، وتخفف من همه وحزنه ،

---

(١) سورة يوسف آية : ٩٦ .   (٢) انظر تفسير المراغى جـ ١٣ ص ٣٧ ، ٣٨ .

أجاب من لاموه بما كان عليه من علم قطعي من ربه بصدق ما كان قاله لهم حين فصلت العير ، وهذا هو الوقت المناسب للجواب ، قال لهم مقررًا صدق قوله : ﴿ألم أقُلْ لكم إنِّى أعلمُ من اللهِ مالا تعلمون﴾ [(١)] .

أى : ألم أقل لكم يوم أرسلتكم إلى مصر ، وأمرتكم بالتحسس ، ونهيتكم عن اليأس من روح الله ، وأقل لمن وراءكم فى أثناء غيبتكم : إنى لأجد ريح يوسف - وإنى أعلم بوحى الله لا من خطرات الأوهام ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام فكان عليكم جميعًا أن تصدقونى فى كل ما قلته ؛ لأنى نبى يوحى إلىّ ، وما كان ينبغى أن تشكوا فى شىء مما ذكرته لكم .

• أبناؤه يطلبون منه الصفح والمغفرة :

وأدرك أبناؤه فحوى هذا العتاب المهذب ، الذى يدل على منتهى الحلم والعلم والحكمة ، وقوة الثقة بفضل الله عز وجل ، وحسن الأدب مع الله أولاً ، ومع أبنائه ومع الناس جميعًا فى عصره ثانيًا .

وأحسوا بأنه قد طابت نفسه ، وسُرَّ فؤاده وذهب عنه بثُّه وحزنُه ، فسألوه على استحياء وهو فى غمرة هذه النشوة أن يستغفر الله لهم ويصفح عنهم ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، فقالوا كما حكى القرآن عنهم :﴿ قالوا يا أبانا استغفرْ لنا ذُنُوبَنا إنَّا كنَّا خاطئين ﴾ [(٢)] . فوعدهم أبوهم بذلك عندما يجد فى نفسه القدرة على ذلك ، فنفسه الذكية لا تزال تحمل من الخواطر المؤلمة ما يجعله غير جاد فى الطلب . ﴿ قال سوفَ استغفرُ لكم ربِّى إنَّه هو الغفورُ الرحيمُ ﴾ [(٣)] .

وكأنى بيعقوب عليه السلام قد أمهلهم مدة يتمكنون فيها من الاستغفار لأنفسهم أولاً وإظهار التوبة النصوح حتى يستجيب الله له فيهم إذا دعا لهم بالمغفرة ، فمن تاب تاب الله عليه وعفا عنه ، ولعله أمهلهم أيضًا ليعلموا أن ما فعلوه ليس بالأمر الهين الذى يستحقون عليه العفو بمجرد طلبه ، وهو قد تعرض بسببهم إلى مأساة لم يتعرض لها أحد من قبل .

ولعل من جملة الأسباب التى جعلته لا يبادر بالاستغفار لهم عند طلبهم منه أنه رأى أن استغفاره لهم لا يكفى ؛ لأن الظلم لم يقع عليه وحده بل وقع عليه وعلى

---

(١) سورة يوسف آية : ٩٦ . (٢) سورة يوسف آية : ٩٧ .

(٣) سورة يوسف آية : ٩٨ .

يوسف وبنيامين وعلى أهله أجمعين ، فلابد من أن يصفح عنه الجميع لهذا قال : ﴿سوف أستغفر لكم ربى﴾ ، أى عندما نجتمع كلنا فى صعيد واحد عند يوسف الحبيب ، وتصفو النفوس ويعم الرضا ، وتعود المياه إلى مجاريها يكون الاستغفار مقبولاً عند الله عز وجل .

• دخول أهل يوسف عليه وتحقيق رؤياه :

وتهيأ يعقوب عليه السلام ومعه أبناؤه وسائر أهله للقاء عزيزهم الذى أعزه الله بالنبوة والملك ، والعلم والحكمة ، فلما تكامل عَددُهم وانتظم عِقْدُهم ، شدوا الرحال إليه مسرعين وقلوبهم تسبق رحالَهم إلى هذا اللقاء الذى طَال انتظارهم له وشوقهم إليه .

وكان يوسف عليه السلام يترقب قدومهم عليه فى لهفة وشوق لا تقل عن لهفتهم وشوقهم إليه ، وخرج إلى استقبالهم إلى حدود مصر ، ونُصب له هناك بيتٌ وجيهٌ يستقبلهم فيه ، فلما دخلوا عليه تلقاهم بقلبه وقالبه وحياهم أحسن تحية ، وبدأ بأبويه فضمهما إليه ، وعانقهما طويلاً ، وبالغ فى برهما والإحسان إليهما فى المقال ، وأذن لهما ولسائر أهله بالدخول فى أرض مصر بمشيئة الله تعالى آمنين على أنفسهم ، لا يخافون بأسًا ولا يخشون لومة لائم ، ﴿ فلما دخلوا على يوسفَ آوى إليه أبوَيه وقال ادخلوا مصرَ إن شاءَ اللهُ آمنين ﴾ (١) .

ودخلوا أرض مصر حيث قصر يوسف ، فلما انتهوا إلى مجلسه بادر برفع أبويه على عرشه تكرمة لهما ، وقام الأبناء ليوسف سجدًا ، وقد كانت هذه تحيتهم والسجود عبارة عن انحناء القامة ، وليس هو وضع الجبهة على الأرض فذاك لله وحده .

وقيل : إن أبويه سجدوا معهم أيضًا ، والأمر محتمل لهذا وذاك ، وكانت أمه « راحيل » قد ماتت من زمن بعيد ، والتى جاءت مع يعقوب هى خالته « ليئة » ويحتمل أن تكون أمه هى التى جاءت مع أبيه . وتحقيق هذا الأمر لا يعنينا كثيراً .

وعندما رأى يوسف عليه السلام إخوته قد سجدوا له ومعهم أبواه تذكر رؤياه وذَكَّر أباه بها ، ثم ذكر إحسان الله إليه إذ أخرجه من السجن وجاء به من البدو من بعد أن لعب الشيطان برءوس إخوته ففعلوا به ما فعلوا ، وفى هـذا يقول الله عز

(١) سورة يوسف آية : ٩٩ .

وجل : ﴿ ورفع أبوَيه على العرش وخَرُّوا له سُجَّدًا وقال يا أبَتِ هذا تأويلُ رؤيایَ من قبلُ قد جعلها ربِّی حقًا وقد أحسنَ بی إذ أخرجَنی من السجنِ وجاءَ بكم من البدوِ من بعدِ أن نَزَغَ الشيطانُ بينی وبينَ إخوتی إن ربِّی لطيفٌ لِمَا يشـــاءُ إنَّه هـــو العليمُ الحكيمُ ﴾ (١) .

وقد قال يوسف عليه السلام : وقد أخرجنی من السجن ، ولم يقل وقد أخرجنی من الجب مع أنه محنته الأولى ، وهو أخطر وأضيق عليه من السجن وفی الخروج منه نجاته من الموت ، لأنه أراد أن يبتعد عن ذكر ما يعكر صفو هذا اللقاء من قول أو فعل ، ولكی لا يحرج إخوته وهم فی ضيافته وقد عفا عنهم من قبل ، وصفح عن مساوئهم ، وهو ما هو من حسن الخلق وسلامة الطبع ، ورقة المشاعر وظرف الحديث ، أضف إلى ذلك أن خروجه من السجن لما كان هو آخر المحن المتصلة ببداية النعم ناسب أن يذكره فی هذا الذی طابت فيه النفوس ونقت فيه السرائر ، واجتمع الشمل على رغد من العيش وصفو من الحياة .

وقد برأ ساحتهم عن كل ما فعلوه به إذ نسب ما فعلوه إلى الشيطان ، فأی حلم وأی عفو وأی إحسان هذا الذی بلغه يوسف وبالغ فيه ! .

وقد عبر عليه السلام تعبيرًا بليغًا عن منتهى الرضا بقضاء الله وقدره ، وعن عظيم شكره له على وافر نعمه ، فقال : ﴿ إن ربی لطيف لما يشاء ﴾ .

وفی هذا القول تغطية لكل ما بدر من إخوته من أفعال دفعهم إليها الشيطان دفعًا ، وإزالة لآثار هذه الأفعال ، وترضية لأبويه وإخوته وأهله جميعًا، وإشارة منه إلى تغليق أبواب العتاب ، وطی صفحات الماضی المعتم .

وقد ختم حديثه بذلك التعبير الذی ختم به أبوه حديثه معه عند تأويل رؤياه فی مطلع القصة فقال : ﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ ليتوافق البدء والختام .

وهكذا يسفر اللقاء عن قلوب قد صفت من الأكدار ، وملئت حبًا قد نبع من الإيمان بالله تعالى ، والثقة بفضله والرضا بقضائه وقدره .

● ختام اللقاء بدعوة جامعة :

ولما فرغ يوسف عليه السلام من هذه الكلمة البليغة التی ألقاها على مسامع أهله

---

(١) سورة يوسف آية : ١٠٠ .

اتجه إلى الله عز وجل وقد نزع نفسه من اللقاء والعناق ، والفرحة والابتهاج ، والجاه والسلطان ، والرغد والسؤدد – اتجه إلى ربه فى تسبيح الشاكر الذاكر بدعوة جمع فيها لنفسه خيرى الدنيا والآخرة .

﴿ ربِّ قد ءَاتيتنى من المُلكِ وعلمتَنى من تأويل الأحاديث فاطرَ السموات والأرضِ أنتَ ولِيِّ فى الدنيا والآخرةِ توَفَّنى مُسلِمًا وأَلحقنى بالصالحين ﴾ [1] .

وختم الله هذه القصة ببيان ما انطوت عليه من العظة والعبرة وتفصيل ما يتعلق بيوسف وإخوته ، وما تشتمله هذه القصة من مناهج الهدى ، ومنابع الرحمة لمن يطلب الهدى والرحمة ، فقال جل شأنه : ﴿ لقد كان فى قَصَصِهم عِبرةٌ لأُولى الألبابِ ما كان حديثًا يُفتَرَى ولكن تَصديقَ الذى بين يَدَيْهِ وتفصيلَ كُلِّ شىءٍ وهدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون ﴾ [2] .

* * *

(١) سورة يوسف آية : ١٠١ . (٢) سورة يوسف آية : ١١١ .

قصة شعيب عليه السلام

أرسل الله عز وجل إلى مدين أخاهم شعيبًا ، يدعوهم إلى عبادته تبارك وتعالى وحده ، ويحذرهم من عبادة غيره ، كما فعل المرسلون من قبله ، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحضهم على مكارم الأخلاق بالحكمة والموعضة الحسنة .

وكان أهل مدين كفارًا طغاة بغاة يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، ويعبدون الأيكة ، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها .

وكانوا من أسوأ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ، ويطففون فيهما ، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص ، فلما دعاهم شعيب إلى عبادة الله وحده ، ونهاهم عن الشرك والإفساد فى الأرض والتطفيف فى الكيل والميزان وغير ذلك من أفعال السوء التى اشتهروا بها - استجاب له بعضهم فآمن به واتبع سبيله ، وكفر أكثرهم واستهزأوا به ، وسخروا منه ، وأغلظوا له القول ، ولم يكترثوا لما توعدهم به وحذرهم منه .

وكان شعيب خطيبًا مفوهًا فصيح اللسان ، قوى الحجة ، له تأثير بليغ فى النفوس الطاهرة والقلوب الواعية ، وهذا شأن الأنبياء جميعًا ، فهم يوصفون بالصدق والأمانة والفطانة ، ليس فيهم رسول يخلو من هذه الأوصاف ، لكن شعيبًا قد اشتهر بالخطابة والفصاحة عند أصحاب التاريخ والسير .

روى ابن إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا قال : « ذاك خطيب الأنبياء » (١) .

وقد ذكر الله قصته فى مواضع من كتابه وذلك فى سورة الأعراف ، وهود والشعراء ، وغيرها .

فقال تعالى : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهُم شعيبًا قال يا قومِ اعبدُوا اللهَ مالكم من إله غيرُه قد جاءتكم بيِّنَةٌ من ربِّكم فأَوْفُوا الكيلَ والميزانَ ولا تَبخَسُوا الناسَ أشياءَهم ولاَ تُفسدوا فى الأرض بعد إصلاحِها ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تَقعُدوا بكلِّ

---

(١) البداية ج ١ ص ١٨٥ .

صراطٍ تُوعِدُون وتَصُدُّون عن سبيلِ الله من ءَامنَ به وتَبْغُونَها عوَجًا واذكروا إذ كنتُم قليلاً فكثَّرَكم وانظروا كيفَ كان عاقبةُ المفسدين . وإن كان طائفةٌ منكم ءَامَنُوا بالذى أُرسِلتُ به وطائفةٌ لم يُؤمنوا فاصبروا حتى يحكمَ اللهُ بيننا وهو خيرُ الحاكمين ﴾[1].

والبينة التى جاءتهم من ربهم هى معجزة خارقة للعادة وقعت على يديه تصديقًا له فى دعوته ، لم يخبرنا الله بها لعدم تعلق الفائدة بذكرها .

وقد أيد الله كل نبى بمعجزة جعلها برهان صدقه .

وقد قال المفسرون فى معنى قوله تعالى : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط تُوعِدون وتَصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجًا ﴾ - إنهم كانوا يقعدون على الطرقات يمنعون من المرور من شاءوا ، ويأذنون لمن شاءوا ، ويأخذون من المارة ضرائب على المرور تبلغ عشر ما معهم أو أكثر ، ويسلبون أموال من شاءوا ، ويقتلون من شاءوا ، يبغون أن تكون سبيل الله معوجة لا يسلكها أحد ممن أراد الهدى ، فقد كانوا يؤذون المؤمنين ويحملونهم على العودة فى ملتهم بشتى السبل ، ويرغمونهم على السير معهم فى الضلال والإفساد فى الأرض، وانتهى بهم الأمر إلى طريق مسدود ، فالمؤمنون لن يتركوا دينهم الذى اعتنقوه وقد هداهم الله إليه مهما وجدوا فى سبيل ذلك من عنت وأذى ، وقد ذاقوا حلاوة الإيمان بعد أن ذاقوا مرارة الكفر ، فقرروا أن يعيشوا بإيمانهم سعداء ، أو يموتوا بإيمانهم شهداء ، وسألوا الله أن يحكم بينهم وبين قومهم بالحق ، ويقضى فيهم بما يشاء وهو الحكم العدل اللطيف .

فلما يأس الكفار من ردهم عن دينهم ، وأعيتهم الحيل أنذروا شعيبًا ومن معه بأن يختاروا بين الرجوع إلى ملتهم والخروج من أرضهم ، فما كان من شعيب عليه السلام إلا أن تلطف بهم وأحسن إليهم القول ، وأبلغ فى الحجة وإيضاح المحجة ، ولكن القوم كانوا فى ضلالهم يعمهون ، لم يعبأوا بما قاله لهم بل لم يفقهوه على وجهه الصحيح ، فتفننــوا فى إيذاء المؤمنين ، وأغرى بعضهم بعضًا بالبقاء على ملتهم ، والتمسك بعاداتهم السيئة ، وتقاليدهم البالية التى كانت تماثل أو تقارب ما كان عليه قوم لوط ، قال الله عز وجل : ﴿ قال الملأُ الذين استكبَرُوا من قومه لَنُخرِجَنَّك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتِنا أو لَتَعُودُنَّ فى مِلتِنا قال أوَ لَوْ كُنَّا

---

(١) سورة الأعراف آية : ٨٥ - ٨٧ .

كارهين . قد افترينا على الله كَذِبًا إنْ عُدْنَا فى ملَّتكم بعدَ إذ نَجَّانا اللهُ منها وما يكونُ لنا أن نعودَ فيها إلا أن يشاءَ اللهُ ربُّنا وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيءٍ علمًا على الله تَوَكَّلْنا ربَّنا افتحْ بيننا وبينَ قومِنا بالحقِّ وأنتَ خيرُ الفاتحين . وقال الملأُ الذين كفرُوا من قومِهِ لئن اتبعتُم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون ﴾[1] .

وقد تكلم شعيب بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن المؤمنين به فجاء الكلام بصيغة الجمع ؛ لأن شعيبًا عليه السلام يعبر عن رأيهم ، وعن موقفهم من قومهم ، وعن شدة تمسكهم بدينهم ، فى أسلوب يبهر العقول ويملك شغاف القلوب .

﴿ قال أو لو كنا كارهين ﴾ أى : أيكون هذا موقفكم منا ، ووعيدكم لنا بالإخراج من القرية التى هى شركة بيننا وبينكم إن كنا مُصرِّين على موقفنا ، متمسكين بعقيدتنا ، كارهين لما تدعونا إليه من العودة إلى ملتكم ، إن الدين لا يكون عن إكراه ، وإن العقيدة لا تقوم على التسلط والقهر ، فكيف تكرهوننا على دين لم نقبله ، وعلى عقيدة لا نرضاها !! .

إنه لا إكراه فى الدين ، وإننا لن نكرهكم على ما ندعوكم إليه ، فكيف تكرهوننا على ما تدعوننا إليه ، ثم تهددوننا بالطرد من قريتنا إن لم نستجب لكم ، ذلك ظلم مبين وعدوان آثم .

﴿ قد افترينا على الله كذبًا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾ أى : إننا وقد عرفنا الحق وآمنا به عن فهم واقتناع فإن الحيدة - بعد هذا - عن طريق الحق هى افتراء على الله ، وكذب صراح فى وجه تلك الحقيقة المشرقة .

﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ إذ كيف يقبل عاقل أن يَرِد موارد الهلاك بعد أن خلص منها ، وسلك مسالك النجاة ! .

إننا لن نعود أبدًا إلى ملتكم بعد أن نجانا الله منها إلا أن يكون ذلك عن مشيئة سابقة لله فينا ، وعن قَدَر قدَّره علينا ، فذلك من شأن الله وحده ، هو الذى يملك من أنفسنا ما لا نملك ، فإذا كان الله قد شاء لنا أن نعود القهقرى إليكم ، ونرد على أعقابنا معكم ، فنحن مستسلمون لأمر الله ، وراضون بحكمه ، أما نحن فى ذات أنفسنا فعلى عزم صادق ألا نعود فى ملتكم أبدًا ، إلا أن ينحلَّ هذا العزم بيد الله ، لأمر أراده الله ، وقضاء قضى به .

---

(١) سورة الأعراف آية : ٨٨ - ٩٠ .

﴿ وسع ربنا كل شيءٍ علمًا ﴾ فهو - سبحانه - وحده الذى يعلم مصائر الأمور ، ولا يدرى أحد قدره المقدور له ، ولا مصيره الذى هو صائر إليه ، فذلك علمه عند علام الغيوب ، أما نحن فمطالبون بأن نستقيم على الحق ، وأن نفوض الأمر لمالك الأمر .

﴿ على الله توكلنا ﴾ فلا نعتمد إلا غليه ، ولا نثق إلا بفضله ، ولا نستسلم إلا له ، ولا نخضع إلا إليه ، ولا ننتصر عليكم إلا به .

﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ أى : ربنا اقض بيننا وبين قومنا بحكمك العادل فى هذه القضية التى بلغت ذروتها فى التعقيد .

ربنا احكم بيننا وبينهم ففى حكمك يتحدد مصيرنا ومصيرهم ، وأنت خير من حكم وخير من عدل .

وقول شعيب : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ - مع أن فتح الله أو حكمه لا يكون إلا بالحق - هو تقرير للواقع ، وإشعار للخصوم بأنهم لا يؤخذون بغير الحق ، وأنهم وشعيب على سواء بين يدى من يفصل بينه وبينهم فيما هم مختلفون فيه ، ومع هذا الموقف المنصف الذى يقفه شعيب ومن معه من المؤمنين لم يقبلوا حكم الله فيه وفيهم ، بل أخذوا زمام الحكم لأنفسهم بأنفسهم ، ولم ينتظروا حكم الله تعالى ؛ لأنهم لا يعترفون بحكمه ولا يؤمنون بقضائه وعدله، فقالوا - فى غيٍ وكبرياء -: لئن اتبعتم شعيبًا فيما جاءكم به ودعاكم إليه لخسرتم السيادة والرياسة والملك والمال ، وصرتم كسائر الناس الذين دانوا لكم وخضعوا إليكم ، وكانوا تحت إمرتكم وسلطانكم .

والذين قالوا هذا هم كبراؤهم وسادتهم - كما لا يخفى عليك - فإنهم يخشون من الدين الذى يُوحِّد الكلمة ، ويجمع الصف ، ويسوى بين الغنى والفقير فى الحقوق العامة ، ويأخذ للضعيف حقه من القوى ، وينشر العدل فى ربوع الأرض .

فهم فى كل أمة رأس الفساد وأئمــة الكفر ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويصدون عن الصراط السوى .

يقول الله عز وجل : ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾(١)

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٦٧ .

وقد استمر شعيب عليه السلام يدعو قومه على بصيرة من ربه وهم يسخرون منه، ويستهزئون به ، ويتوعدونه بالقتل والرجم بالحجارة .

وقد ذكر الله طرفًا مما تفوهوا به في سورة هود فقال جل شأنه : ﴿ وإلى مدينَ أخاهم شعيبًا قال يا قومِ اعبُدُوا اللهَ مالكم من إلَهٍ غيرُه ولا تَنْقُصُوا المكيالَ والميزانَ إنِّى أراكم بخيرٍ وإنِّى أخافُ عليكم عذابَ يومٍ مُحيطٍ . ويا قومِ أوْفُوا المكيالَ والميزانَ بالقِسْطِ ولا تَبْخَسُوا الناسَ أشياءَهم ولا تَعْثَوْا فى الأرضِ مفسدين . بَقِيَّتُ اللهِ خيرٌ لكم إن كنتمُ مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظٍ . قالوا يا شعيبُ أصَلاتُك تأمُرُك أن نتركَ ما يعبدُ آباؤنا أو أن نفعلَ فى أموالِنا ما نشاءُ إنك لأنتَ الحليمُ الرشيدُ . قال يا قومِ أرأيتُم إن كنتُ على بينةٍ من ربِّى ورزقَنى منه رزقًا حسنًا وما أُريدُ أن أخالِفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أُريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقى إلا باللهِ عليه توكلتُ وإليه أُنيبُ ﴾ (1) .

لقد سخروا منه واستهزأوا به ، وهم يعلمون أنه من أوسطهم نسبًا ، وأعرقهم شرفًا ، وأرجحهم عقلاً ، وأرشدهم رأيًا ، وأحسنهم خلقًا .

وأنبياء الله جميعًا كانوا عند أقوامهم قبل دعوتهم إلى الله بالمنزلة العالية من الاحترام والتقدير؛ لحسن سيرتهم، واستقامة سلوكهم، فلما أعلنوا فيهم أنهم رسل الله وأنهم يحملون إليهم كلمته شغبوا عليهم، وأنكروا منهم ما كانوا يعرفون حسدًا وبغيًا .

لقد دعا شعيب قومه إلى عبادة الله وحده أولاً ، ثم دعاهم إلى إيفاء الكيل والميزان ، وقال لهم : ﴿ إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ أى: إنى أتوسم فيكم الخير ، وأضن بكم أن تكونوا من أصحاب الشقاوة فى الدنيا والآخرة ، وأنتم والحمد الله فى رخاء وسعة فما الذى يحملكم على التطفيف فى الكيل والإخسار فى الميزان ، ﴿ بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أى : ما تدخرونه عند الله من عمل صالح خير لكم من ادخار الأموال وكنزها إن كنتم مؤمنين بالله حقًا ، فإن الله لا يقبل الأعمال الصالحة إلا من المؤمنين .

﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أى: وما أنا برقيب عليكم ، ولا بمسئول عنكم إن كفرتم لأنى قد بلغتكم رسالة ربى، ونصحت لكم فعلىّ البلاغ وعلى الله الحساب .

---

(1) سورة هود آية : ٨٤ - ٨٨ .

ولكن القوم استمروا فى ما هم عليه من سوء فى الأفعال والأقوال ، وازدادوا استهزاءً به وبصلاته ، ووصفوه بالحلم والرشد على جهة الاستخفاف والتهكم .

وما كان منه إلا أن أراهم الحلم والرشد فى أسمى مظاهره وأبهى معانيه فقال كما حكى القرآن عنه : ﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ﴾ أى : أخبرونى كيف تنكرون علىّ ما أدعوكم إليه ، وقد جئتكم بآية خارقة للعادة تثبت لكم أنى رسول الله إليكم .

﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ أى ما أريد أن أنهاكم عن شىء وأفعله .

ولعل القوم قد اتهموه بذلك وقالوا له : أتريد يا شعيب أن تنهانا عن تنمية أموالنا كما نشاء ، ثم تعمد إلى التجار فتبيع منهم وتشترى بالطرق التى نبيع بها ونشترى ، فتفوز بالربح الوفير دوننا . ومثل هذا القول لا يصدر إلا عن السفهاء والحمقى .

إن شعيبًا قد بذل أقصى ما فى وسعه لهداية القوم ، وكان يستعين بالله تعالى فى كل خطوة يخطوها ، وفى كل نصح يسديه إليهم ، ويستمد منه التوفيق والسداد فى كل شىء .

﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

إن قوله هذا جمع شُعَبَ الإيمان كلها ، فالمؤمن هو الذى يريد الإصلاح ويدعو إليه ، وهو الذى يعتمد على حول الله وقوته فى تحقيق ما يريد ، وليس هناك أعظم من التوكل على الله تعالى والثقة بفضله والإنابة إليه .

ولا يزال الحديث موصولاً فى سورة هود عن شعيب وقومه فقد أخذ شعيب عليه السلام يذكرهم بما وقع للأمم السابقة ، ولكنهم قد صموا آذانهم ، وألغوا عقولهم ، وأنذروه بالرجم فأنذرهم بالعذاب ، وقضى الأمر فأخذتهم الصيحة التى صاحها جبريل فيهم فزلزل بهم الأرض فهلكوا عن آخرهم .

يقول الله عز وجل : ﴿ ويا قوم لا يجرمنَّكم شِقَاقى أن يصيبكم مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ وما قومُ لوطٍ منكم ببعيدٍ . واستغفروا ربَّكم ثم

توبوا إليه إنَّ ربِّى رحيمٌ ودودٌ . قالوا يا شعيبُ ما نَفقَه كثيرًا مما تقولُ وإنَّا لنَرَاك فينا ضعيفًا ولولا رهطُك لرجمناك وما أنت علينا بعزيزٍ . قال يا قومِ أَرَهطِى أعزُّ عليكم من اللهِ واتَّخذتُموه وراءكم ظِهرِيًا إنَّ ربى بما تعملون مُحيطٌ . ويا قوم اعملوا على مكانَتكم إنى عاملٌ سوف تعلَمُون مَنْ يأتيه عذابٌ يُخزيه ومَنْ هو كاذبٌ وارتقبوا إنى معكم رقيبٌ . ولما جاءَ أمرُنا نجَّيْنا شعيبًا والذين آمنوا معه برحمةٍ منا وأخذَت الذين ظَلَمُوا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارِهم جاثمين . كأنْ لم يَغنَوا فيها ألا بُعدًا لمدينَ كما بَعِدَت ثمودُ ﴾ (١) .

لقد ذكرهم شعيب بالذين أُهلكوا من قبلهم بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم رسله، وهم على الترتيب قوم نوحٍ ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط .

فقال لهم : ﴿ لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ .

أى لا يحملنكم الخلاف بينى وبينكم على ارتكاب الجرم واكتساب المنكر لئلا يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ، وأقربهم إليكم قوم لوط وقد عرفتم ما حل بهم وهم أقرب إليهم إما فى الزمن ، وإما فى المكان ، وإما فى الجرم ، أو فى ذلك كله ، وهو الأصح عندى والله أعلم .

وقوله : ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ أى اعملوا على ما أنتم مقيمون فيه من كفر وضلال ﴿ إنى عامل ﴾ على ما أنا عليه مما تعلمون منى وتنكرونه علىَّ ، سوف ينجلى لكم الأمر ، ويتكشف لكم الحال عن عملكم وعملى ، وسيطلع من عملكم عذاب يخزيكم ، ويومئذ تعلمون من هو الكاذب ، ومن كان فى ضلال مبين . أما متى ذلك ؟ فعلمه عند ربى ، ولكنه آت لا ريب فيه فانتظروا يومكم هذا ﴿ وارتقبوا إنى معكم رقيب ﴾ .

وقد قال الله عز وجل : ﴿ إنى معكم رقيب ﴾ ولم يقل : إنى معكم مرتقب كما يقتضيه النظم فى قوله : ﴿ فارتقبوا ﴾ ليدل على أن شعيبًا كان بالمكان الرفيع الذى ينظر منه إلى قومه ، وهم فى الموقف الدون ، ليكون بمنزلة القاضى الذى يجلس على منصة القضاء .

(١) سورة هود آية : ٨٩ - ٩٥ .

وقد ورد طرف من هذه القصة فى سورة الشعراء لكن لم يصرح فيها بأنهم أهل مدين مما جعل بعض المفسرين يزعمون أنهم أمة أخرى أرسل الله إليهم شعيبًا وكانوا زُرّاعًا ، وقد استدل هؤلاء بأدلة فنَّدها ابن كثير فى البداية وفى التفسير ، وقطع بأن أصحاب الأيكة هم أهل مدين ٠

فقال : ومن زعم من المفسرين - كقتادة وغيره - أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف ، وإنما عمدتهم شيئان ٠

أحدهما : أنه قال ﴿ كذّب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ﴾ ولم يقل أخوهم كما قال : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبًا ﴾ ٠

والثانى : أنه ذكر عذابهم بيوم الظُّلَّة ، وذكر فى أولئك الرجفة أو الصيحة ٠

قال : والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوّة بعد قوله : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾؛ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا ، ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم ٠

وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة ٠

وأما احتجاجهم بيوم الظلة فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان ، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن ٠

قال : وأما الحديث الذى أورده الحافظ ابن عساكر - فى ترجمة النبي شعيب - عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا - أى إلى النبى ﷺ - : « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبًا النبى عليه السلام » فإنه حديث غريب ، وفى رجاله من تُكلم فيه ، والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بنى إسرائيل ٠ والله أعلم ٠

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمَّة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف فى المكيال والميزان فدل على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب ، وذكر فى كل موضع ما يناسبه من الخطاب ٠ أ ٠ هـ [1] ٠

(١) انظر البداية ج ١ ص ١٨٩ وما بعدها ٠

وعذاب يوم الظلة فسروه بأنه حر شديد أرسله الله عليهم سبعة أيام ، وأسكن الله الهواء عنهم فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ، فهربوا من محنتهم إلى البرية فرأوا سحابة فاجتمعوا ليستظلوا بها ، فلما اكتمل عددهم أرسل الله عليهم صيحة من السماء ترميهم بالشرر ، ورجفت بهم الأرض بإمر الله تعالى فهلكوا عن آخرهم ، ونجّى الله شعيبًا والذين آمنوا معه برحمة منه .

وقد ذكر الله كل نوع من هذه الأنواع فى سورة من السور وفق السياق الذى ذكر فيها .

* * *



قصة موسى عليه السلام

قصة موسى عليه السلام هى أطول قصة فى القرآن الكريم ، فيها من العظات والعبر ما ليس فى غيرها من القصص ، إذ كل قصة من قصص القرآن الكريم تتميز عن الأخرى بالتركيز على جانب من جوانب الهداية والتوجيه ، وإن كانت كلها تلتقى على مقصد واحد هو بيان الصراع بين الخير والشر ، وتقوم على منهج تربوى متكامل، كل قصة تضع فيه قاعدة أو قواعد يندرج تحتها من خصال الإيمان ما شاء الله عز وجل .

وقد وردت قصة موسى عليه السلام بمشاهدها المختلفة ومواقفها المتعددة فى سورة البقرة ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، والإسراء ، والكهف ، وطه ، والشعراء ، والنمل ، والقصص ، والصافات ، وغافر ، والذاريات ، والنازعات ، وغيرها . وأكثر ما ورد فى هذه السور حديث عن رسالته ومواجهته لطغيان فرعون وملئه ، وموقفه من بنى إسرائيل فى مصر ، وبعد خروجه منها .

وجاء فى سورة القصص وحدها حديث مفصل عن ميلاده ونشأته وخروجه من مصر إلى أرض مدين حيث التقى بالرجل الصالح ، فعمل له وتزوج ابنته وقضى عنده عشر سنين ، ثم فارقه وسار بأهله إلى جبل الطور ، حيث كلمه الله وأوحى إليه بما أوحى وأرسله إلى فرعون وملئه وإلى بنى إسرائيل .

ولم نر فى كتاب الله تعالى قصة نبى ذكر الله فيها ميلاده ونشأته غير موسى عليه السلام، كما أن قصة ميلاده ونشأته لم تتكرر بل ذكرت فى سورة القصص وحدها.

وقد مهد الله لها بذكر ما كان عليه فرعون وقومه من علو واستكبار وظلم وطغيان ، وما لقيه بنو إسرائيل فى عهده من ذل وهوان .

فقال : ﴿ طسم. تلك آياتُ الكتابِ المبينِ . نتلُوا عليك من نبإ موسى وفرعونَ بالحقِّ لقومٍ يؤمنون . إنَّ فرعونَ علاَ فى الأرضِ وجعلَ أهلَهَا شِيَعًا يستضعفُ طائفةً منهم يُذَبِّحُ أبناءهم ويستَحْيِ نساءَهم إنه كان من المفسدين ﴾ (١) .

(١) سرة القصص آية : ١ - ٤ .

وفرعون موسى هو « رعمسيس الثانى » وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشرة فى اصطلاح المؤرخين وكان فاتحًا كبيرًا شديد السطوة [1].

وقدْ كان هذا الطاغية يخشى على ملكه من أهل مصر ومن بنى إسرائيل أيضًا ؛ لهذا قسم البلاد المصرية وغيرها من البلاد التى كانت تحت ملكه إلى مقاطعات صغيرة، كل مقاطعة لها قوة صغيرة تكفى لحمايتها حتى يضمن الانفراد بالحكم والسيطرة على حكام الولايات ، وضرب بعضهم ببعض لينشغلوا عنه بأنفسهم ، فلا يفكرون فى الاجتماع على حربه ، والقيام بالثورة عليه انتقامًا منه ودفعًا لظلمه وأشره، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وجعل أهلَها شيعًا ﴾ أى أحزابًا متفرقين، وهذا أسلوب الطغاة فى كل زمان ومكان ، وهو أسلوب يزيد النار اشتعالاً ، ويجعل الأمة- إن عاجلاً أو آجلاً - ينضم بعضهم إلى بعض للتخلص من نَيْر الطغاة والقضاء عليهم .

وأما بنو إسرائيل فقد كانوا طائفة من أهل البادية وفدوا على مصر بأمر يوسف عليه السلام وعاشوا فيها آمنين وكثر عددهم ، واشتد بأسهم وصاروا من أهل الرخاء والنعمة وكان الناس يعظمونهم لانتسابهم إلى يوسف عليه السلام .

فلما مات يوسف ومضى على موته زمنٌ طويلٌ ارتكس أكثر هؤلاء ، وحادوا عن الصراط المستقيم ، وغلبت عليهم شقوتهم ، واشتد عدوانهم على أهل البلاد من القبط ، فسعى كهنة مصر وعلماؤها وأشرافها إلى رعمسيس الثانى فرعون مصر ، وأخبروه بخبر صادق - وهم الكذبة الفجرة - أن نبيًا من بنى إسرائيل سيولد فى عصره ، ويدعو إلى خراب ملكه وتأليه غيره ، فأصدر فرعون مرسومًا بقتل كل طفل ذكر يولد لبنى إسرائيل ، وأرسل عيونه فى كل مكان يوجد فيه هؤلاء الإسرائيليون .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم ﴾ .

واستحياء النساء تركهن أحياء للخدمة فى قصور السادة والأمراء .

لقد بلغت هذه القسوة حدًا تَمُجُّ سماعَ ذِكْرِه الآذانُ ، إذ يُذبح الطفل عند ولادته أمام أمه وأبيه وسائر ذويه من غير أدنى رحمة ولا شفقة ، فأى سلوك هذا !.

---

(١) انظر تفسير « التحرير والتنوير » للشيخ محمد الطاهر بن عاشور جـ ٢٠ صـ ٦٧ .

لقد عظم الخطب واشتد الكرب ببنى إسرائيل وبلغ البلاء مداه ، وكان لابد من الفرج ، وإن النصر مع الصبر ، وإن الفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً .

وقد جاءهم الفرج بعد زمن طال أمده ، وذلك عندما أغرق الله فرعون ومن معه ، ونجا موسى ومن معه من المؤمنين، وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ ونُريدُ أن نمنَّ على الذين استُضعفوا فى الأرض ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين . ونمكِّنَ لهم فى الأرضِ ونرِيَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يَحذَرُون ﴾ (1) .

إن الشر حين يخلو من الخير تمامًا يحمل فى طياته أسباب القضاء عليه وعلى أهله ، إما على يد الأخيار الذين يبعثون إلى مواطن الشر من هنا وهناك ، وإما بيد القدرة الإلهية فلا تبقى من الأشرار أحداً .

فبنوا إسرائيل لما ظُلموا ظلمًا أحاط بهم سرادقه ، واشتدت عليهم وطأته ، وعدهم الله بالخلاص على يد رجل منهم من أولاد « لاوى بن يعقوب » وقد أخبرهم بذلك علماؤهم ، وشاع هذا الوعد بينهم فكان يواسى بعضهم بعضًا بقرب قدومه .

ولعل هذا الخبر قد وصل إلى فرعون فخشى على ملكه منهم ففعل بهم ما فعل .

ولما استحر قتل الأطفال الذكور من بنى إسرائيل ، قَلَّ عددُهم وقد كبر رجالهم وصاروا غير قادرين على الخدمة فى بناء الدور والقصور والأهرامات والمعابد وغير ذلك - فقرر فرعون أن يقلل من قتل الأطفال من الذكور ، فيعفو عن أطفال سنة ويقتل أطفال سنة .

فولد هارون فى السنة التى لا قتل فيها وذلك قبل موسى بسنة .

هذه مقدمة وجيزة عن حياة بنى إسرائيل فى مصر ذكرها الله عز وجل فى بداية سورة القصص تمهيداً لذكر قصة موسى عليه السلام من ميلاده إلى منتهى أمره .

● نسبه وميلاده ونشأته :

ينتسب موسى عليه السلام إلى أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، فهو موسى ابن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

---

(1) سورة القصص آية : ٥ - ٦ .

وأمه: لوخا بنت هاند بن لاوى بن يعقوب ، وقيل اسمها « يوكابد » وهو الاسم المشهور فى كتب التاريخ والسير ، وقد وضعت يوكابد حملها فلما رأته ذكراً كادت تصعق من شدة الخوف عليه ، ولم تعرف كيف تخفيه عن العَسَس الذين يطوفون ليل نهار على الحبالى من بنى إسرائيل ؛ ليعرفوا خبر كل مولود يولد منهم .

وقد لمحت فى وجهه نوراً لم تره فى وجوه الأطفال ، ووقع فى قلبها أن له شأنًا عظيمًا ، فبالغت فى إخفائه عن أعين الناس قريبهم وبعيدهم ، وخافت أن ترضعه فيراه واحد من الناس فيبلغ زبانية فرعون عنه فيقتلوه كما قتلوا ألوفًا غيره .

فأوحى الله إليها فى المنام أو ألهمها فى اليقظة ، أو بعث الله إليها ملكًا تسمع صوته ولا تراه ، أو بعث الله إليها ملكًا فى صورة رجل يقول لها :

أرضعيه واستمرى فى إرضاعه ، فإذا خفت عليه فاقذفيه فى تابوت يكون حاضراً لديك ، وألقى التابوت فى اليم ، ولا تخافى عليه من الغرق ولا من الضياع، وأخبرها أنه سيصل إلى يد فرعون عدو الله وعدوه ، ولكنه سيسلم من شره ، وسيربيه فى بيته رغم أنفه ، ووعدها الله عز وجل أن يرده إليها بعد وقت قريب لترضعه من ثديها ، وتغذيه بلبان حبها ، وتقر به عينها ، ولتعلم أن وعد الله حق.، وبشرها أيضًا بأنه سيكون رسولاً إلى بنى إسرائيل وإلى أهل مصر جميعًا ، وسيجرى على يديه المعجزات ، وينصره على فرعون وملئه .

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ وأوحينا إلى أمِّ موسى أنْ أَرضعيه فإذا خفتَ عليه فألقيه فى اليمِّ ولا تخافى ولا تحزنى إنَّا رادُّوه إليك وجاعِلُوه من المرسَلِين﴾ (١) .

وأعدت أمه تابوتًا وكان بيتها على شاطىء النيل ، وعزمت على أن تلقى موسى فى التابوت وتقذف بالتابوت إلى النيل إذا ما أحست بخطر يداهمها ، وربطت التابوت بحبل رفيع حتى تستطيع أن ترده إليها إذا زال الخطر .

وفى يوم نسيت أن تربط التابوت بالحبل ، أو ربطته به لكنه أفلت منها أو انقطع ، وقذف النيل بالتابوت إلى قصر فرعون ، فأرسلت امرأته فى طلبه ، وكانت امرأة صالحة تدين بدين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام ، وهى آسية بنت مزاحم بن عبيد بن « الريان بن الوليد » ملك مصر فى عصر

---

(١) سورة القصص آية : ٧ .

يوسف على ما قيل ، وهى ممن كمل من النساء ، وقد أثنى الله عليها فى كتابه ، وضربها مثلاً للمؤمنين والمؤمنات ، فقال جل شأنه: ﴿ وضَرَبَ الله مثلاً للذين آمنوا إمراةَ فرعونَ إذْ قالتْ ربِّ ابنِ لى عندك بيتًا فى الجنة ونجِّنى من فرعونَ وعمله ونجِّنى من القومِ الظالمين ﴾ (١) ٠وسيأتى الحديث عنها فى هذه القصة إن شاء الله تعالَى ٠

وجاء الخدم بالتابوت إليها فلما فتحته أبصرت وليدًا بَهِىَّ الطلعة ، جميل الصورة ، مستنير الوجه ، ففرحت به فرحًا شديدًا ، وقالت : « موشى موشى » ومعنى موشى أو موسى فى لغة أهل عصرها : الوليد ، فاشتهر بهذه التسمية على ما قيل ٠

فلما جاء فرعون وأبصره غضب من وجوده فى بيته - وقد رأى أنه ليس من بنى جلدته ، وأمر بذبحه على مرأى منه ، فاستوهبته منه آسية ، ونهت عن قتله وقالت لفرعون : دعه حيًّا ليكون قرة عين لى ولك ، نسعد برؤيته ، ونتعم بوجوده معنا فى بيتنا ، وعسى أن ينفعنا فى تدبير شئون الملك ، أو نتخذه ولدًا ، ننسبه إلينا ونفخر به بين أهلينا وذوينا ، وقد حرمنا من الإنجاب ٠ فاستجاب لها بعد أخذ ورد ، وتركه بين يديها وانصرف ٠

وفى هذا يقول الله جل شأنه : ﴿ فالتقطَه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عَدُوًّا وحَزَنًا إن فرعون وهامانَ وجنودَهما كانوا خاطئين ٠ وقالت امرأتُ فرعونَ قُرَّتُ عينٍ لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعَنا أو نتخذَه ولدًا وهم لا يَشعُرُون ﴾ (٢) ٠

أما أم موسى فإنها قد أصبح قلبها خاليًا من كل شىء إلا من وليدها ، ولقد كادت تفقد وعيها وتُظْهِر أنه وليدها ، وتستغيث بمن يأتيها به ، ويستخلصه باللين أو بالشدة من أيدى أولئك الفجار الذين خلت قلوبهم من الرحمة ، وتجردوا من كل صفات الإنسانية الخيرة ، غير أن الله عز وجل ثبت قلبها وقوَّى عزمها على الصبر والاحتساب ، وذكرَّها بما وعدها به ، فالتزمت جانب الحكمة ، وأخذت بالأسباب ، واستعانت بالله على تحقيق المطلب كما هو شأن المتوكلين ، فأرسلت أخته « كلثم بنت عمران » لتبصر حاله فى قصر فرعون من بعيد خوفًا عليها من بطشهم ، ولكى لا يشكوا فى أمرها ، فيحملوها بالقوة على الاعتراف بأنه أخوها فيقتلوه ويقتلوها ٠

وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسى فارغًا إنْ كادت

---

(١) سورة التحريم آية : ١١ ٠ (٢) سورة القصص آية : ٨ - ٩ ٠

لَتُبدى به لولا أن ربطْنا على قلبها لتكونَ من المؤمنين . وقالت لأخته قُصِّيه فَبصُرت به عن جُنُبٍ وهم لا يَشعرون ﴾ (١) .

ومعنى ﴿ قصيه ﴾ تتبعى أثره لتعلمى خبره ﴿ عن جنب ﴾ عن بعد بحيث تتخذين لك جانبًا من جوانب القصر بعيدًا عن الشك والتهمة ، فبصرت به أخته وعرفت أن امرأة فرعون جاءت له بمرضعات كثيرات ، فحرَّمهن الله عليه فلم يتناول ثدى واحدة منهن .

وهنا تدخلت أخته تنصح لهم فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يحسنون كفالته ويكرمون مثواه ، ويقومون بشأنه كله خير قيام ، فقبلوا منها هذا النصح بعد أن استوثقوا من صدقها ، وأيقنوا أنها لا تعرف الوليد ، وليس لها به صلة ، فدلتهم على أمه ، فأرسلوا إليها وهم لا يشعرون بأنها أمه ، وقدموا لها الوليد لترضعه فتناول ثديها وامتصه بسهولة ويسر ، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا ، وقالت امرأة فرعون لها : اسكنى معنا فى هذا القصر المنيف لترضعى هذا الوليد الوضىء . فاعتذرت بأنها لا تستطيع أن تعيش معهم فى هذا القصر ولها زوج وأولاد ، وطلبت منهم أن تصحبه إلى بيتها فأجابوها إلى طلبها وأرسلوه معها ، وأغدقوا عليها وأوسعوا لها العطاء ، وعاش الوليد مع أمه فى أمن ورخاء حتى شب على الطوق ، وبلغ أشده واستوى عوده ، فقرت به عينها صغيراً وكبيراً ، ونعمت بصحبته حتى لقيت ربها عز وجل .

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ وحرَّمْنا عليه المرَاضِعَ من قبلُ فقالت هل أَدُلُّكم على أهلِ بيتٍ يَكفُلُونه لكم وهم له ناصحون . فرَدَدْناه إلى أمِّه كى تَقَرَّ عينُها ولا تحزنَ ولتعلَمَ أن وعدَ الله حقٌ ولكن أكثرَهم لا يَعلَمُون ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فرددناه إلى أمه ﴾ إشاره إلى تحقق الوعد الأول ، وهو ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ ، وأما الوعد الثانى وهو قوله تعالى : ﴿وجاعلوه من المرسلين ﴾ فقد تحقق بعد أن بلغ موسى الأربعين . وقد أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حُكمًا وعلمًا وكذلك نجزى المحسنين ﴾ وبلوغ الأشد اكتمال الرجولة ، والاستواء هو اكتمال العقل ، والقوة الجسمية ، والملكات النفسية التى تجعل الرجل قادراً على تأدية أعظم المهام ، ولا سيما إذا كان مزودًا بالعلم والحكمة .

---

(١) سورة القصص آية : ١٠ - ١١ . (٢) سورة القصص آية : ١٢ - ١٣ .

فعندما بلغ موسى أشده واستوى آتاه الله حكمًا ، أى سلطانًا ماديًا ومعنويًا وقدرة على تدبير الأمور وسياسة القوم ، وهدايتهم إلى الدين الذى ارتضاه الله لهم ، وآتاه علمًا بأمور الدين والدنيا فكان أعلم بنى إسرائيل ، وأنزل عليه التوراة فيها هدى ونور، فعلم منها ما لم يكن يعلم ، وورث عن آبائه شيئًا كثيراً مما تركوه من العلم فاجتمع لديه علم غزير مع السلطان المادى والمعنوى ، فكان وجيهًا عند الله وعند الناس .

• قتله القبطى وما ترتب عليه :

وكان موسى عليه السلام يدين بدين آبائه كما وجد على هذا الدين أمه وأباه وكثيراً من أهله ، فلما رأى فرعون منه ذلك أبغضه ، وربما يكون قد نفاه عن المدينة ومنعه من دخولها ، كما نستشف من سياق هذه الحلقة من قصته ، فقد دخل المدينة - وهى « ممفيس » - وأهلها فى غفلة عنه ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، رجلاً من شيعته ورجلاً من القبط ، وهم عدو بنى إسرائيل ، فاستغاثه الذى من شيعته فأغاثه موسى وخلصه من يد القبطى بوكزة قضت عليه ، فاستشعر موسى عليه السلام بالندم على ما حدث منه ، فاستغفر ربه فغفر له وعفا عنه .

قال تعالى : ﴿ ودخل المدينةَ على حينِ غفلةٍ من أهلِها فوجدَ فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدُوِّه فاستغاثَه الذى من شيعَته على الذى من عدوِّه فوكَزَه موسى فقضى عليه قال هذا من عملِ الشيطانِ إنه عدوٌ مضلٌ مبينٌ . قال ربِّ إنى ظلمتُ نفسى فاغفرْ لى فغفرَ له إنه هو الغفورُ الرحيمُ ﴾ (١) .

فقوله تعالى : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ يدل على أنه كان ممنوعًا من دخولها وكان يعيش بمعزل عن أهلها .

والتصريح فى الآية بأن الرجل الذى وكزه من عدوه يدل على أن القبط كانوا فى عداوة شديدة بينهم وبين بنى إسرائيل ، فلو قتله موسى عمدًا ما كان عليه أثم ، ولكنه لم يقتله عمداً بل ولا خطأ ، ولكن مات الرجل قضاء وقدراً .

وقد رأى موسى أن موت الرجل على يديه بالنسبة له ذنب يجب الاستغفار منه، وأن مثله لا ينبغى أن يكون سببًا فى موت أحد حتى ولو كان من عدوه إذا

---

(١) سورة القصص آية : ١٥ - ١٦ .

أمكن دفع عدوانه من غير قتله ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وذنوبهم أخطاء لا خطايا ، فكل خطيئة خطأ وليس كل خطأ خطيئة .

والأنبياء منزهون عن المعاصى صغيرها وكبيرها ، قبل الرسالة وبعدها على الصحيح من أقوال العلماء ، وقد عزم موسى عليه السلام بعد قتل هذا القبطى ألا يكون نصيراً لمجرم من المجرمين ، سواء كان من شعيته أم كان من عدوه ، وذلك قياماً بشكر الله تعالى على وافر نعمه ، واستخداماً لهذه النعم فيما فيه نصرة الحق على الباطل ﴿ قال ربِّ بما أنعمتَ علىَّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمين ﴾ [1] . أى بسبب ما أنعمت به على من العلم والحكمة والقوة الجسدية فلا ينبغى أن أكون فى يوم من الأيام بعد الذى حدث نصيراً إلا للحق ، وهذا شأن أهل الحق دائماً لا يخافون فى الله لومة لائم ، ولا يميلون مع الهوى حيث مال .

فأصبح موسى فى المدينة بعد قتل القبطى خائفاً مما قد يدبر له فى الخفاء من الذى نصره على عدوه ؛ لأنه مجرم لا يرقب فى أحد إلاً ولا ذمة ، فقد يكون هو الذى يبلغ أمره إلى الحاكم ويوشى به عنده ، ولم لا وبنو إسرائيل معرفون بالنميمة والخيانة وإنكار المعروف .

أخذ موسى يترقب الخبر ويراقب سير الأمور لينجو بنفسه فى الوقت المناسب ، فإذا به يجد على أطراف المدينة هذا الرجل الذى استغاث به بالأمس يستنصر به مرة أخرى على قبطى آخر ، فأنكر عليه موسى سوء خلقه وقبح أفعاله وقال له : إنك لَغَوىٌّ مبين لا تكف عن الشجار والعدوان .

فلما أراد موسى عليه السلام أن يبطش بالقبطى لأنه هو المعتدى على الإسرائيلى خاف الإسرائيلى أن يقتله موسى لما سمع من تعنيفه له ، فصاح بأعلى صوته قائلاً : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ! يا موسى ما تريد إلا أن تكون جباراً فى أرض مصر تزهق الأرواح وتسفك الدماء ، وما تريد أبداً أن تكون من المصلحين كما تدعى .

وفى هذا يقول الله جل شأنه : ﴿ فأصبحَ فى المدينة خائفًا يترقبُ فإذا الذى استنصرَه بالأمسِ يَسْتَصْرِخُهُ قال له موسى إنك لغوىٌ مبينٌ . فلما أن أراد أن يبطشَ

---

(1) سورة القصص آية : ١٧ .

بالذى هو عدوٌّ لهما قال يا موسى أتريدُ أن تَقتُلنى كما قتلتَ نفسًا بالأمس إنْ تريدُ إلا أنْ تكون جبارًا فى الأرضِ وما تريدُ أن تكونَ من المصلحين ﴾ [1] .

قد أراد موسى عليه السلام أن يبطش بالقبطى فى هذه المرة لأنه كان هو الظالم للإسرائيلى ، إلا أنه عنف الإسرائيلى لأنه وجه شؤم لا يُرى إلا فى الشر ، وأنه يعرض نفسه دائمًا للمذلة والإهانة ، ويلقى بنفسه فى المهالك من غير مقتضى يقتضى ذلك .

والبطش ليس معناه القتل بالضرورة ، ولكن من معانيه الضرب والدفع بقوة وشدة ، والقبطى يستحق ذلك لأنه معتد كافر ، وكان الإسرائيلى فيما يبدو مؤمنًا على دين إسحاق ويعقوب لكنه كان سليط اللسان .

ولو كان كافرًا ما نصره موسى عليه السلام لأن موسى لا ينصر القريب لقرابته ولكن ينصر الرجل لدينه وكرامته ، فتكون نصرته جهادًا فى سبيل الله ، وليس للعصبية أو الحمية الجاهلية . والله أعلم .

ولما أحيط فرعون علمًا بما حدث من موسى عليه السلام جمع أفراد حاشيته ومستشاريه ليروا رأيهم فيه ، فحكموا جميعًا بقتله تملقًا لفرعون ومسايرة له ، فقد قالوا : إن هذا الفتى يهدد ملكك ويسعى لزعزعة الأمن فى البلاد ، ولو ترك وشأنه لاستعصى أمره عليك ، وجمع جموعه لحربك ، إلى غير ذلك مما يصدر على ألسنة المنافقين فى مثل هذا الموقف .

وكان هناك رجل شريف يسكن أطراف المدينة قد سمع مقالتهم وعرف مكرهم فجاء إلى موسى يسعى، فأخبره بما عزم عليه فرعون وحاشيته ، ونصحه بالخروج من المدينة إلى أرض بعيدة بحيث لا يعلم بمكانه أحد . فقبل موسى عليه السلام نصحه ، وخرج من المدينة خائفًا من أن يتعرض أحد له بسوء . والأعداء من القبط كثير ، وكل يريد أن يتقرب إلى فرعون وحاشيته بالإتيان به حيًا أو ميتًا .

خرج من مدينة « ممفيس » يرقب العيون ويتحسس الخبر ، حتى وجد نفسه فى الطريق إلى مدين ، فحث الخطأ إليها ضارعًا إلى الله عز وجل أن يهديه إلى سواء السبيل الذى لا يُضِل فيه ولا يُضَل ، ولا يَذِل فيه ولا يُذَل .

---

(1) سورة القصص : ١٨ - ١٩ .

يقول الله عز وجل : ﴿ وجاءَ رجلٌ من أقصى المدينةِ يسعى قال يا موسى إنَّ الملأَ يأتمرون بك ليقتلُوك فاخرج إنى لك منِ الناصحين · فخرجَ منها خائفًا يترقبُ قال ربِّ نجنى من القوم الظالمين · ولما توجَّه تلقاءَ مدينَ قال عسى ربى أن يهدينى سواءَ السبيل ﴾ [1] .

وقد ذكر الله أن الرجل قد جاء من أقصى المدينة - أى من أطرافها البعيدة - ربما للدلالة على أنه من الأشراف لا من السوقة ، فإن الأطراف سكنى الأشراف - كما يقولون - وربما قال ذلك للدلالة على أنه جاء من قصر فرعون من فوره ؛ لأن قصره كان فى أقصى المدينة ·

وهذا الرجل لم يخبره فقط بأن الملأ يأتمرون به ولكنه قد نصحه بالخروج وأخبره بعظيم إخلاصه له وحبه إياه ، ولعله كان على دينه وليس على دين فرعون ·

ويقال : إنه كان من أقاربه والمقربين إليه ، وليس هو الرجل المؤمن الذى ذكره الله فى سورة غافر ؛ فقد كان هذا المؤمن بعد الرسالة ، وكان ذاك قبلها ·

فخرج موسى من المدينة خائفًا ، شأنه فى ذلك شأن البشر ، لكنه كان متوكلاً على الله معتمدًا عليه لا على قوته وحسن تدبيره فى التخفى والتلطف ، فقال ما يقوله كل مؤمن به واثق بنصره وعونه : ﴿ رب نجنى من القوم الظالمين ﴾ ·

وعندما سلك الطريق إلى مدين لم يعتمد على علمه فى قص الأثر وتتبعه لسير النجوم ، ولكنه اعتمد على هداية الله وتوفيقه ·

وصدق الشاعر حيث قال :

إذا لم يكن من الله عون للفتى   فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ولكن لماذا توجه موسى إلى مدين ؟

أقول : لعله كان يعرف أن فيها رجلاً صالحًا سيجد عنده من الخير ما يتمناه فسعى إليه ، وصنع الله معه ما قربه منه وأدناه من مجلسه ، وجمع بينهما فى خير حتى صاهره ، ولبث معه فى مدين ما شاء الله ·

وهذا الرجل الذى قصده موسى هو شعيب النبى الذى قص علينا خبره فى القرآن على الراجح من أقوال العلماء ·

---

(١) سورة القصص آية : ٢٠ -٢٢ ·

وانتهى موسى عليه السلام إلى ماء مدين ، وهى مدينة فى شبه الجزيرة جهة الشام بالقرب من خليج العقبة قبالة تبوك .

فوجد عند الماء أمة من الناس - أى جماعة - يسقون دوابهم وأنعامهم ، ووجد امرأتين تسوقان الغنم بعيداً عن الماء خوفًا من مزاحمة الرجال ، أو أن أهل مدين كانوا لا يمكنونهما من السقى بغضاً لأبيهما ، فَعزَّ على موسى عليه السلام أن يراهما فى هذه الحال ، وحَزَّ فى نفسه مجيئهما ؛ لأن من العادة أن يأتى إلى الماء للسقى الرجال دون النساء ، فسألهما عن شأنهما فأخبرتاه أنهما لا يسقيان حتى يصدر الرعاء . أى حتى يرجعوا إلى أماكنهم ويتركوا الماء لأمثال هاتين المرأتين ، ثم يضعون على البئر حجرًا كبيرًا ينوء بحمله العصبة أولى القوة .

واعتذرتا إليه بأن الذى حملهما على المجىء عدم وجود رجل يكفيهما ذلك . وأخبرتاه أن أباهما شيخ كبير ، ولعلهما أرادتا بذلك أن تخبراه بأنهما خاليتان من الأزواج ، وعليه أن يفهم ما وراء ذلك ، والمرأة لها قدرة عجيبة على التلميح بما تريد، وعلى التعبير بما يدور فى خلدها بالتلويح دون التصريح .

وقد فطن موسى لذلك ، فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل ، وجلس يدعو الله عز وجل أن ينزّل عليه من بركاته ما يسدّ حاجته من الطعام وغيره .

قال تعالى : ﴿ ولمّا وردَ ماءَ مدينَ وجد عليه أمَةً [١]من الناس يَسقُون ووجدَ من دونِهمُ امرأتين تزودانِ [٢] قال ما خطبُكما [٣] قالتا لا نَسقِىَ حتى يُصْدِرَ [٤] الرعاءُ وأبونا شيخٌ كبيرٌ . فسقى لهما ثم تولى إلى الظلِ فقال ربِّ إنى لِما أنزلتَ إلىَّ من خيرٍ فقيرٌ ﴾ [٥] .

ولبث موسى هنيهة فى الظل يذكر نعم الله عليه ويظهر افتقاره إليه ، والمرأتان قد رجعتا إلى أبيهما ، وهما فى عجب شديد من قوة هذا الفتى ، وشهامته ومروءته وحيائه وعفته ومهابته ، ووضاءة وجهـــه ، وقد غمرهما حبه ، فالإعجاب يولد الحب ، ويدعو إليه غالبًا ، ولا سيما إذا صدر عن المرأة من جهة الرجل .

وقصت كل منهما على أبيها ما رأت منه ، فأرسل إحداهما إليه يدعوه لضيافته

(١) جماعة . (٢) تسوقان أغنامهما وتدفعان بها بعيداً عن الماء .
(٣) أى ما شأنكما . (٤) يرجع ، والرعاء جمع راعٍ .
(٥) سورة القصص آية : ٢٣ - ٢٤ .

وقصت كل منهما على أبيها ما رأت منه ، فأرسل إحداهما إليه يدعوه لضيافته وإعطائه أجره على السقاية إن أراد ذلك .

فجاءت إليه على استحياء تدعوه إلى بيت أبيها فلبى الدعوة ، وقال لها : امش خلفى فإن أخطأت الطريق فأشيرى إليه بحجر تلقيه فيه ، لأصحح المسار وأسلكه ، فلما انتهى إلى بيت شعيب عليه السلام، وجلس عنده وقص عليه قصته من أولها إلى آخرها أمنه على نفسه ، وبشره بنجاته من القوم الظالمين .

يقول الله عز وجل : ﴿ فجاءَتْه إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيَك أجرَ ما سقيتَ لنا فلما جاءَه وقصَّ عليه القصصَ قال لَا تخفْ نجوْتَ من القومِ الظالمين ﴾ [1] .

﴿ جاءت على استحياء ﴾ أى جاءت وكأنها تمشى على الحياء ، وكأن الحياء قد تمكن منها وتمكنت منه ، لأن الحرف (على) ، يدل على الاستعلاء والتمكن ،وهو تعبير قرآنى يصور حالة هذه المرأة وما هى عليه من أدب جم ، وخلق فاضل ، وسمت كريم ، وأعظم ما فى خلق المرأة حياؤها ، لكنها فى نظرى لم تكن موفقة فى قولها : ﴿ ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ وهى تتوقع ، بل تعلم أن مثله لا يعمل مثل هذا العمل ليأخذ عليه أجرًا ، لأن مروءته وشهامته تأبى عليه ذلك .

وموسى عليه السلام لم يقف أمام هذه الكلمة ولم يلق لها بالاً ، لأنها راعية غنم تتميز عن غيرها من المتحضرات بالإفصاح عن نفسها بعفوية وصراحة ، لا مداراة فيها ولا مداهنة .

والمهم أن أباها يدعوه لزيارته ، وعليه أن يلبى الدعوة ، ويترك أمر الأجر للظروف ، فربما لا يكون الأجر ماديًّا ، ويكون مناسبًا لقدره ، متفقًا مع حاله ووضعه، غير جارح لشعوره ، ولا متناقض مع مروءته ، وقد كان كذلك فعلاً كما سيأتى بيانه .

وقد استأنس موسى عليه السلام بنبى الله شعيب ، ووجد عنده منتهى بغيته ، ومحط رحاله ، وتمنى من أعماق نفسه أن يلزمه ليتعلم منه العلم والحكمة ، ولو يستأجره فى رعى الغنم .

والتقت مشاعره بمشاعر المرأتين ، فكل منهما تريد من الفتى أن يبقى عند أبيها

---

(١) سورة القصص آية : ٢٥ .

إلى ما شاء الله أن يبقى ، فبادرت إحداهما ببث مشاعرها إلى أبيها فى صراحة ووضوح من غير مواربة ولا التواء : ﴿ قالت إحداهما يا أَبَتِ استأجِرْهُ إن خيرَ من استأجرْتَ القوىُّ الأمينُ ﴾ (١) .

أى اتخذه أجيراً عندك ، فإن خير من استأجرته القوى القادر على مزاولة الأعمال الشاقة ، والأمين على مالك وعرضك .

وقول المرأة لأبيها : ﴿ استأجره ﴾ فيه شىء من الجفاء فى التعبير ، لكنها لم تجد حيلة تبقيه بها فى مدين إلا أن يكون أجيرًا عند أبيها ، فليس هناك فى المدينة عمل أشرف من هذا العمل .

أما أبوها فقد عرف قدر الرجل وسمو مكانته من خلال حديثه معه ، فأبى إلا أن تكون مصاهرته هى التى تبقيه فى المدينة معززًا مكرمًا لا يشعر بالغربة ولا يعانى من العزلة ، فالأجير غالبًا ما يكون بعيدًا عن نظر المستأجر وقلبه ، فكل ما يكون بينهما هو العمل من قِبَل الأجير ، والأجرة من قِبَل المستأجر .

أما المصاهرة ففيها امتزاج العواطف ، واختلاط الدماء ، واتصال الأنساب بالأنساب ، والأرحام بالأرحام .

لقد اتجه الشيخ إلى موسى يخيره فى الزواج بين ابنتيه على أن يكون مهر من يختارها أن يعمل أجيرًا عنده ثمانى حجج ، وإن شاء جعلها عشرًا إذا لم يجد فى ذلك مشقة ، ووعده بأن يكون عند حسن ظنه ، وأنه سيجده مثال الخلق الفاضل فى المعاملة ، لا يظلمه ولا يحقره ، ولا يحمله من الأعمال ما لا يطيق .

﴿ قال إنى أريدُ أن أُنكحَكَ إحدى ابنتَىَّ هاتينِ على أن تأجرَنى ثمانىَ حججٍ فإن أتممتَ عشرًا فمن عندِكَ وما أريدُ أن أشقَّ عليك ستجدُنى إن شاءَ اللهُ من الصالحين ﴾ (٢) .

وهكذا يجىء شعيب إلى موسى صريحًا واضحًا كما يجىء إلى ابنته أبًا حانيًا عاطفًا ، لا يرى حرجًا فى أن يتخير لها الرجل الذى تتمناه زوجًا لها ، ويردها حياؤها عن أن تعرض نفسها عليه .

وما كان أبرع شعيبًا وأحكمه ، وأعدله فيما بينه وبين موسى من جهة ، ثم فيما بينه وبين ابنتيه من جهة أخرى .

---

(١) سورة القصص آية : ٢٦ . (٢) سورة القصص آية : ٢٧ .

إنه لم يشأ أن يفرض على موسى واحدة بعينها من ابنتيه هاتين ، فلموسى أن يختار من يشاء منهما فلقد رآهما من قبل ، كما رآهما فى بيت أبيهما ، وليس من الحكمة ولا من المصلحة أن تفرض عليه واحدة بعينها ، حتى ولو كان لموسى رغبة فيها ، وكان لها رغبة فيه . إن هذا الفرض من شأنه أن يزعج موسى ، وأن يصدم إرادته ، ويصادر رأيه ، ثم إن موسى سيعيش فى بيت شعيب ، فإذا لم يكن قد اختار هو بنفسه من تزوجها ، كان فى ذلك تنغيص له ، واضطراب لحياته الزوجية ، ومعادلة وموازنة دائما بين الأختين فى كل وقت ، الأمر الذى يجعل هواه دائمًا مع من لم يكن له خيار فيها . . هكذا الإنسان .

ثم إنه بهذا التدبير الحكيم ، قد سوى الأب فى القسمة بين ابنتيه فى هذا الذى ساقه الله إليهما فى صورة رجل هو نادرة فى الرجال ، فالأب لا يؤثر بهذا الخير إحدى ابنتيه على الأخرى ، ولو كانت الكبرى ، إنه لو فعل هذا لكان فى نفس الأخرى أسى ومرارة ، وليس الشأن كذلك إذا كان الخيار لموسى ، أو كان بالتراضى بين الأختين ، حيث تبدو كل منهما وكأنها تؤثر أختها عليها .

ومن جهة أخرى فإنه واضح من قول شعيب : ﴿ إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين ﴾ أنه لم يفصح عمن يكون له الخيار فيهما أهو شعيب أم موسى ، وهذا أمر إنْ قام على هذا الوجه فى هذا الموقف وفى مواجهة البنتين ، فإنه قد تُرك البت فيه لمجلس خاص بين الرجلين ، فإذا انكشف الأمر بعد ذلك عمن وقع عليها الاختيار لم يكن من اليسير لدى البنتين القطع بأن هذا الاختيار كان من موسى أو من شعيب أو منهما معًا ، وهكذا تتوزع الصدمة - إن كان هناك صدمة - التى ربما تصيب من لا يقع عليها الاختيار بين هذه الاحتمالات ، فتخف وتهون .

وهكذا تتم الصفقة بين النبيين الكريمين ، فيظفر شعيب بالقوى الأمين الذى يبذل فى خدمته كل ما عنده من قوة وأمانة ، ويظفر موسى بابنة هذا النبى التى كان حسن تدبيرها ، ولمعة ذكائها، وصدق فراستها - خير سفارة تجمع بين الرجلين ، وتفتح قلب كل منهما لصاحبه قبل أن يلتقيا .

وقد عرض شعيب على موسى هذا العرض الكريم وخيره فيه وجعل مهرها خدمته ثمانية أعوام أو عشرة ، فقبل موسى الشرط ، واختار الزوجة ولم يقطع بالأجل ، تأدبًا مع الله تبارك وتعالى ، وإفساحًا لنفسه ؛ فقد يستطيع أن يتمها عشرة،

وقد لا يستطيع ، والأمر فى ذلك لله من قبل ومن بعد ، فأجابه إجابة تلزمه بالثمانية ولا تلزمه بالعشرة ·

﴿ قال ذلك بينى وبينَك أيَّمَا الأجلَين قضيتُ فلا عُدْوَان علىَّ واللهُ على ما نقولُ وكيلٌ ﴾ [1] ·

• خروجه من مدين إلى الطور :

ألقى موسى عصاه فى مدين ، وطاب له فيها المقام ، ونعم بصحبة النبى الصالح ، وسعد بزوجه ذات الخلق الفاضل ، والعقل الراجح والسلوك النبيل ، ورعى الغنم ليتعلم منها كيف يرعى الأمم ، وعاش مع الرعاة عشر سنين ، أو أكثر فى مدين ، وسط قوم غلاظ الطباع ، فتعاون مع شعيب فى هدايتهم بطريق غير مباشر ، كما هى عادة أتباع الرسل ·

ثم بدا له أن يرحل إلى مصر لزيارة أهله ، فاستأذن شعيبًا عليه السلام فأذن له، فسار بأهله من مدين - وهى مدينة فى شبه الجزيرة ناحية الشام عند خليج العقبة قبالة تبوك ، كما ذكرنا من قبل - متجهًا نحو الطور ، وهى المدخل إلى مصر ·

ولكن لماذا يعود موسى عليه السلام إلى مصر ، وقد خرج منها طريدًا ، وغادرها هاربًا ، وبنو إسرائيل يسامون فيها العذاب ألوانًا ، وقد وجد الأمن والطمأنينة فى مدين مع قوم أحبهم وأحبوه ، وألفهم وألفوه ؟

إنها جاذبية الوطن والأهل تتخذها القدرة الإلهية سببًا لما تهيئه لموسى من أعمال، وهكذا نحن فى هذه الحياة نتحرك ، تحركنا أشواق وهواتف ومطامح ومطامع، وآلام وآمال ، وإن هى إلا الأسباب الظاهرة للغاية المضمرة ، والستار الذى تراه العيون لليد التى لا تراها الأنظار ولا تدركها الأبصار ، يد المدبر المهيمن العزيز القهار ·

ويسلك موسى عليه السلام الطريق ، ويمضى فى السير ما شاء الله أن يمضى ثم يخطىء طريقه إلى مصر ، فى ليلة مظلمة ، باردة شاتية ، فيعمل عقله وحيلته فى تلمس الطريق الصحيح مستعينًا بالله تبارك وتعالى فى ذلك ، حتى أبصر من بعيد نارًا

---

(١) سورة القصص آية : ٢٨ ·

عظيمة تتأجج فوق مكان مرتفع ، ففرح واستبشر ، ووقع فى قلبه شىء من الأنس ، فقال لأهله ما حكاه القرآن عنه فى ثلاث آيات ·

الأولى : قوله تعالى فى سورة طه : ﴿ وهل أتاك حديثُ موسى · إذ رأى نارًا فقال لأهلِه امكثُوا إنى آنستُ نارًا لعلى آتيكم منها بقبسٍ أو أجدُ على النارِ هدًى﴾[1]·

والتعبير بقوله ﴿ آنست ﴾ يوحى بشعوره عليه السلام بالأنس والطمأنينة ، وتوقع الخير والنجاة ، فإن النار قد جعلها الله متاعًا للمقوين ، أى المسافرين والمقيمين على السواء ·

وقد كان العرب وغيرهم يوقدون النار فى الليالى المظلمة ليهتدى بها الضال ، وليأتى إليها الضيفان فيجدون عندها القِرى [2] ، ويجدون عندها أيضًا من يهديهم سواء السبيل ·

والآية الثانية فى سورة النمل ، وهى قوله تعالى : ﴿ إذ قال موسى لأهلِه إنِّى آنستُ نارًا سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهابٍ قبسٍ لعلكم تصطلُون ﴾ [3] ·

ومعنى تصطلون : تتخذونها للتدفئة ، وطهى الطعام ، والإضاءة وغير ذلك من المنافع ·

والآية الثالثة فى سورة القصص ، وهى قوله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجلَ وسار بأهله آنَسَ من جانبِ الطورِ نارًا قال لأهله امكثوا إنى آنستُ نارًا لعلى آتيكم منها بخبرٍ أو جَذوةٍ من النارِ لَعلكم تَصطلون ﴾ [4] ·

لقد ذهب موسى عليه السلام يطلب قبسًا من النار وهاديًا يهديه السبيل ، ولكنه وجد الآية الكبرى ، وجد النار التى تدفىء الأرواح ، وتهدى إلى المهمة الكبرى ·

رأى نورًا فى كل مكان قد بدد ظلمات الليل البهيم ، والنار أصل الأنوار ، فهى نار ونور غمرت موسى عليه السلام ، حتى بدا كأنه فيها ، وناداه ربه ، بنداء العظمة والجلال ، وألقى على عاتقه من التكاليف ما شاء أن يلقى ·

قال تعالى : ﴿ فلما جاءَها نُودىَ أنْ بُوركَ مَنْ فى النارِ ومَنْ حولَها وسبحانَ اللهِ ربِّ العالمين · يا موسى إنه أنا اللهُ العَزيزُ الحكيمُ ﴾ [5] ·

---

(١) سورة طه آية : ٩ – ١٠ ·　　(٢) ما يقدم للضيف من طعام ونحوه ·

(٣) سورة النمل آية : ٧ ·　　(٤) سورة القصص آية : ٢٩ ·

(٥) سورة النمل آية : ٨ – ٩ ·

إن هذا النداء قد بدأ بأعظم تحية ، وأجمل منحة وأجل تقدير : ﴿ أن بورك من فى النار ومن حولها ﴾ . أى بورك موسى الذى غمرته النار بأنوارها وقد خلت من صفة الإحراق ، وبورك من حولها من الملائكة الكرام الذين وكلّوا بتقديس المكان وتطهيره وحراسته ، وغير ذلك مما أراد الله منهم .

وهذا المكان مبارك ببركة منْ فيه ، فبركة المكان من بركة السكان - كما يقولون .

وقد حدد الله المكان تحديدًا جغرافيًا فى سورة القصص ، فقال جل شأنه : ﴿فلما أتاها نُودى من شاطىءِ الوادِ الأيمنِ فى البقعةِ المباركةِ من الشجرةِ أنْ يا موسى إنِّى أنا اللهُ ربُّ العالمين ﴾ (1) .

والمراد بشاطىء الوادى : جانبه ، والوادى هو وادى طُوى عند جبل الطور ، وقد وصف بالأيمن : أى المبارك ، مأخوذ من اليُمْن وهى البركة ، وقيل : الأيمن ضد الأيسر ، وهو باعتبار أنه واقع على يمين المستقبل القبلة على طريقة العرب من جعل القبلة هى الجهة الأصلية لضبط المواقع ، وهم ينعتون الجهات باليمين واليسار يريدون هذا المعنى ، وعلى ذلك جرى اصطلاح المسلمين فى تحديد المواقع الجغرافية، ومواقع الأرض، فيكون الأيمن يعنى الغربى للجبل ، أى جهة مغرب الشمس من الطور .

ألا ترى أنهم سموا اليَمَن يمنًا لأنه على يمين المستقبل باب الكعبة ، وسموا الشام شامًا لأنه على شآم المستقبل لبابها أى على شماله ، فاعتبروا استقبال الكعبة ، هو الأصل فى تحديد المواقع - كما قلنا - وهذا هو الملائم لقوله تعالى : ﴿ وما كنْتَ بجانبِ الغربىِّ إذْ قضينا إلى موسى الأمرَ وما كنتَ من الشاهدين ﴾ (2) .

واللفظ محتمل للمعنيين : أما المعنى الأول ، وهو البركة ، فيؤيده قوله تعالى: ﴿ إذْ ناداه ربُّه بالوادِ المقدسِ طوى ﴾ (3) .

وأما المعنى الثانى ، وهو بمعنى اليمين ضد اليسار فقد عرفت توجيهه .

والنص إذا احتمل معنيين فأكثر ، ولم يكن بين المعانى تنافر صَحَّ حَمْلُه عليها جميعًا .

---

(1) سورة القصص آية : 30 . (2) سورة القصص آية : 44 .

(3) سورة النازعات آية : 16 .

وقد ناجى موسى اللهَ من وراء حجاب ، فاستعذب موسى عليه السلام حلاوة المناجاة ، فأراد أن يطيلها فأطالها الله له ، لينشرح صدره بحلاوتها وطلاوتها ولتتهيأ نفسه لما بعدها .

وهذا البسط جاء في سورة طه على نحو تهتز له القلوب خوفًا وطربًا من أول قوله تعالى : ﴿ فلما أتاها نُودىَ يا موسى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إنَّا قد أُوحِىَ إلينا أنَّ العذابَ على من كذَّبَ وتولَّى ﴾ .

وقد كان هذا النداء من الله تبارك وتعالى بكيفية لا نعلمها على التحقيق ، فكلام الله تعالى ليس بالحروف كما هو معروف ، فلا ينبغى أن نسأل عن الكيفية التى ناداه بها ، ولا عن الطريقة التى سمع بها موسى عليه السلام ، وما علينا إلا أن نؤمن بما جاء من ربنا على ما عليه وكما فهمناه من ظاهر اللغة من غير تأويل ، آخذين فى اعتبارنا قوله تعالى : ﴿ ليس كمثلِهِ شىءٌ وهو السميعُ البصيرُ ﴾ [1] .

وقد عرَّف الله موسى بنفسه فى أول النداء فقال : ﴿ فلما أَتَاها نُودىَ يا موسى إنِّى أنا ربُّك فاخلعْ نعلَيْكَ إنَّك بالوادِ المقدسِ طوًى . وأنا اخترتُكَ فاستمعْ لِمَا يُوحَى . إننى أنا اللهُ لا إله إلا أنا فاعبُدْنى وأقمْ الصلاةَ لذكرِى ﴾ [2] .

وأخبره أن الساعة آتية لا محالة فلا ينبغى أن يغفل عنها مكلف ، وأنه سبحانه قد خص نفسه بعلمها حتى كاد يخفيها عن نفسه ، فلم يطلع على وقت قيامها نبيًّا مرسلاً ولا ملكًا مقربًا ، وحذره من التغافل عنها بسبب انشغاله بمجادلة من لا يؤمن بها ، أو بسبب النظر إلى ما فى يديه من متاع الحياة الدنيا حتى لا يضل ولا يشقى ، فقال جل شأنه : ﴿ إن السَّاعة آتيةٌ أكادُ أُخفيها لتُجزَى كلُّ نفسٍ بما تسعى . فلا يصدنَّك عنها من لا يؤمنُ بها واتبعَ هواه فَتَرْدَى ﴾[3] أى يصيبك الردى ، وهو الخسران والشقاء والهلاك .

فلما سمع موسى من ربه عز وجل ما قد ذكر فى هذه الآيات أصابه ما أصابه من الرعب ، وغمره ما غمره من الخشية، فأراد الله عز وجل أن يؤنسه ويُسرِّى عنه ، فسأله عما فى يمينه فقال : ﴿ وما تلك بيمينـك يا موسى ﴾ [4] .

فهو سؤال إيناس ، وسؤال تقرير أيضًا ، وكأنه قال: أليس فى يمينك عصا ،

---

(١) سورة الشورى آية : ١١ . (٢) سورة طه آية : ١١ - ١٤ .
(٣) سورة طه آية : ١٥ - ١٦ . (٤) سورة طه آية : ١٧ .

ليقول : بلى إنها عصاى أنا أعرفها بأوصافها من بين عشرات العصى ، فإذا ألقاها فانقلبت حية تسعى عرف أنها معجزة أيده الله بها ؛ لتكون برهان صدقه عند فرعون وملئه .

وكان من المتبادر فى الجواب عن هذا السؤال أن يقول موسى هى عصاى ، لكنه استعذب المناجاة فأخذ يذكر منافعها ، وفتح الباب لسؤال آخر طلبًا للإيناس واستمرارًا للمناجاة .

﴿ قال هى عَصَاىَ أَتُوكَّؤُ عليها وأَهُشُّ بها على غَنمى ولىَ فيها مآربُ أُخرى﴾[1].

لكن الله عز وجل لم يسأله عن هذه المآرب الأخرى بل أمره بإلقاء العصى ، فألقاها فإذا هى قد انقلبت إلى حية تمشى بنشاط ملحوظ فى الوادى ، فخاف موسى منها ، شأنه فى ذلك شأن البشر ، فَهدَّأ الله من روعه ، وأمره بأخذها ، فلما أخذها أعادها الله عصا كما كانت .

﴿ قال أَلْقِها يا موسى . فألْقَاها فإذا هى حيةٌ تسعى . قال خُذْها ولا تَخَفْ سنعيدُها سيرتَها الأولى ﴾ [2] .

وقال الله تعالى : ﴿ وألقِ عصاك فلمَّا رآها تهتزُ كأنها جانٌّ ولَّى مدبرًا ولم يُعقِّبْ يا موسى لا تخفْ إنى لا يخافُ لدىَّ المُرْسَلُون ﴾ [3] .

وقال جل شأنه : ﴿ وأنْ ألقِ عصاك فلمَّا رآها تهتزُ كأنها جانٌّ ولَّى مدبرًا ولم يُعقبْ يا موسى أَقْبِلْ ولا تخفْ إنكَ من الآمنين ﴾ [4] .

وقد ذكر القُصَّاص عن العصا حكايات هى إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة فذكروا أنها كانت لآدم وتضىء له بالليل ، وتحرس له الغنم إذا نام ، وإنه لما ألقاها أخذت تبتلع الأشجار والصخور ، إلى آخر ما سطروه فى الكتب .

ونحن فى سردنا لقصص القرآن لا نعتمد إلا على الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وأقوال الصحابة والتابعين ـ إذا لم يكونوا قد نقلوها عن أهل الكتاب .

وبعد أن أخذ موسى العصا وعادت سيرتها الأولى منحه الله آية أخرى من آيات

---

(١) سورة طه آية : ١٨ . (٢) سورة طه آية : ١٩ - ٢١ .
(٣) سورة النمل آية : ١٠ . (٤) سورة القصص آية : ٣١ .

قدرته فأمره أن يدخل يده فى جيب قميصه - أى فى فتحة صدره - فيضمها إلى جناحه - أى يجعلها تحت عضده - فإنها تخرج بيضاء ناصعة البياض لها نور يتلألأ ليس بها سوء ، أى ليس بها أذى من برص أو بهق أو نحوه مما يشين ويضر .

قال تعالى : ﴿ واضمُمْ يدَكَ إلى جناحِك تخرجْ بيضَاءَ من غيرِ سوءٍ آيةً أخرى . لنُرِيَكَ من آياتنا الكبرى﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وأَدْخِلْ يدَكَ فى جيبك تَخرجْ بيضاءَ من غيرِ سوءٍ فى تسعِ آياتٍ إلى فرعونَ وقومِهِ إنهم كانوا قومًا فاسقين﴾ (٢) . وسيأتى ذكر الآيات التسع فيما بعد .

وقال : ﴿ اسلُكْ يَدَكَ فى جيبِك تخرجْ بيضاءَ من غيرِ سوءٍ واضمُمْ إليك جَنَاحَك من الرَّهْبِ فَذَانِك برهانانِ من ربِّك إلى فرعونَ وملئه إنهم كانوا قومًا فاسقين ﴾ (٣) .

وبعد أن أراه ربه من آياته الكبرى أرسله إلى فرعون فقال جل شأنه: ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ (٤) . أى اذهب إليه فادعه إلى عبادتى ولزوم طاعتى ، فقد جاوز حده فى الكفر والتعالى ، والظلم والطغيان .

وأخذ موسى ما آتاه الله بقوة وحزم ، لكنه أراد أن يستمر فى المناجاة ، فدعا ربه ضارعًا وذاكرًا وشاكرًا بدعوات جامعة لوسائل الخير وغاياته . دعا ربه بخمس دعوات كلها من أجل نجاح دعوته وإصلاح أمته .

﴿ قال رب اشرحْ لى صَدرِى ويَسِّرْ لى أمرى . واحلُلْ عُقدةً من لسانى . يفقَهوا قولى . واجعلْ لى وزيرًا من أهلى . هارونَ أخى . اشدُدْ به أزْرى . وأَشْرِكْهُ فى أمرى . كى نُسبِّحَك كثيرًا . ونذكُرَك كثيرًا . إنك كنتَ بنا بصيرًا ﴾ (٥) .

وقد أطال موسى عليه السلام فى التحليل والتعليل عندما طلب أن يكون أخاه هارون عونًا له فى تبليغ رسالته لما ذكرنا من حلاوة المناجاة ، فأجاب الله دعاءه، وآتاه سُؤْلَه، وذكره بمنته عليه من ميلاده إلى وقوفه بين يديه فى الواد المقدس، وأطال الحديث معه وبادله حبًا بحب وقربًا بقرب ، وزاده من حلاوة المناجاة ما أعانه على تبليغ رسالته ، ونشر دعوته بقوة وأمانة وإخلاص فى وسط قوم طغاة جبارين قد

---

(١) سورة طه آية : ٢٢ - ٢٣ . (٢) سورة النمل آية : ١٢ .
(٣) سورة القصص آية : ٣٢ . (٤) سورة طه آية : ٢٤ .
(٥) سورة طه آية : ٢٥ - ٣٥ .

اتخذوا فرعون إلهًا لهم من دون الله ، وهم أهل مصر ، وفى وسط قومه الذين طال عليهم الأمر وقست قلوبهم فتركوا دين آبائهم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة بما عصوا وكانوا يعتدون ·

﴿ قال قد أُوتيتَ سُؤْلَك يا موسى · ولقد مَنَنَّا عليك مرةً أخرى · إذْ أوحينا إلى أُمِّك ما يُوحَى · أنْ اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليمِّ فليلقه اليمُّ بالساحلِ يأخُذْه عدوٌّ لى وعدوٌّ له وألقَيتُ عليكَ محبةً منى ولتُصنعَ على عينى · إذ تمشى أختُك فتقولُ هل أدلُكم على من يكفُلُه فرجَعْناك إلى أُمِّك كى تقرَّ عينُها ولا تحزنَ وقتلتَ نفسًا فنجيناك من الغمِّ وفتَنَّاك فُتُونا فلبثتَ سنينَ فى أهلِ مدينَ ثم جئتَ على قَدَرٍ يا موسى واصطنعتُك لنفسى · اذهبْ أنتَ وأخوكَ بآياتى ولاتَنيا فى ذِكرِى · اذهبًا إلى فرعونَ إنه طَغَى · فقولا له قولاً ليِّنًا لعلَّه يتذكَّرُ أو يخشى ﴾ (١) ·

ولكن موسى عليه السلام أراد أن يزداد من الله تبارك وتعالى أمنًا على نفسه وعلى أخيه من بطش فرعون، فقد يقتلهما قبل أن يسمع حديثهما ، أو يجاوز حده معهما فيبالغ فى تعذيبهما وتعذيب أهلهما ويفعل بهم الأفاعيل ﴿ قالا ربنا إنا نخافُ أن يفرطَ علينا أو أن يطغى ﴾ (٢) ·

فثبته الله عز وجل وأدخل فى قلبه الطمأنينة والسكينة بأسلوب لا يدع مجالاً للخوف من فرعون ولا ممن هو على شاكلته ·

﴿ قال لا تخافا إننى معكُما أسمَعُ وأرى · فأتياه فقولا إنَّا رسولاَ ربِّك فأرسِلْ معنا بنى إسرائيلَ ولا تُعذِّبْهم قد جئناكَ بآية من ربِّك والسلامُ على من اتبعَ الهُدَى · إنَّا قد أُوحِيَ إلينا أنَّ العذابَ على من كَذَّبَ وتَولَّى ﴾ (٣) ·

وقد اعتذر موسى بمعاذير أخرى لا تخرج عما جاء فى سورة طه ، ولكنها تفصيل له وبيان لفحواه ، ففى سور الشعراء : ﴿ قال ربِّ إنِّى أخافُ أن يُكَذِّبون · ويَضيقُ صدرِى ولا ينطلقُ لسانى فأرسِلْ إلى هارونَ · ولهم علَىَّ ذنبٌ فأخاف أن يَقتُلُون · قال كلاَّ فاذهبا بآياتنا إنَّا معكُم مستمِعُون · فَأْتيَا فرعونَ فقولا إنَّا رسولُ ربِّ العالمين · أن أَرسِلْ معنا بنى إسرائيل ﴾ (٤) ·

---

(١) سورة طه آية : ٣٦ - ٤٤ ·　　(٢) سورة طه آية : ٤٥ ·

(٣) سورة طه آية : ٤٦ - ٤٨ ·　　(٤) سورة الشعراء آية : ١٢ - ١٧ ·

وفى سورة القصص يقول الله عز وجل : ﴿ قال ربِّ إنِّى قتلتُ منهم نَفْسًا فأخافُ أن يقتُلُونِ . وأخى هارونُ هو أفصحُ منى لساناً فأرسِلْه معى رِدْءًا يُصدِّقُنى إنِّى أخافُ أن يُكذِبونِ . قال سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك ونجعلُ لكم سلطانًا فلا يَصِلُون إليكما بآياتِنا أنتما ومنِ اتَّبعكُما الغالبون ﴾ [١] .

والسلطان معناه فى الآية : الحجة والبرهان ، والحصانة الإلهية، بحيث لا يستطيع فرعون أن ينالهما بسوء ، وقد أمدهما الله بالآيات - أى بالمعجزات- التى تجعلهما قادرين على الهداية والإقناع .

• هل كان فى لسان موسى عقدة تمنعه من الكلام بطلاقة ؟

يزعم أكثر المفسرين وأصحاب السير أنه كان فى لسان موسى عليه السلام رتّه أو تمتمة تجعله يسرع فى الكلام ، وتعوقه عن الإفصاح عن مراده بسهولة ويسر - اعتماداً على ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قالوا : وقد سأل موسى عليه السلام ربه أن يحلل عقدة من لسانه ليفقه الناس قوله ، وقد طلب من ربه أن يجعل أخاه هارون عونًا له ، لأنه أفصح منه لسانًا كما قال ، وقد عاب فرعون عليه هذه اللكنة فقال كما حكى القرآن عنه : ﴿ أم أنا خيرٌ من هذا الذى هو مَهينٌ ولا يكادُ يُبِينُ ﴾ [٢] .

وقد حكى بعضهم فى سبب عقدته هذه قصة رووها عن ابن عباس أيضًا فى حديث طويل يقال له حديث الفتون . خلاصتها أن موسى عندما دخل إلى فرعون وهو طفل صغير وضعه فرعون فى حجرة فتناول موسى لحيته ، فقال رجال السوء من حاشيته : هذا هو الغلام الذى سينتزع ملكك ويدعو الناس إلى عبادة غيرك ، فأمر بذبحه ، قالت امرأته « آسيا بنت مزاحم » : إنه طفل لا يعقل شيئًا . لكن فرعون تمادى فى غيِّه وعقد العزم على ذبحه ، فقالت امرأته : نقدم لهذا الطفل تمرة وجمرة فإن أخذ التمرة فهو يعقل ، وإن أخذ الجمرة فهو لا يعقل ،فلا ينبغى أن تقتله حينئذ وقد وهبته لى من قبل . فلما جاءوه بالتمرة والجمرة ألهمه الله أن يمسك بالجمرة ويترك التمرة ، وقد قرب موسى الجمرة إلى فيه فلسعت لسانه فحدثت له هذه الرته ، وقيل إنه ولد بها .

---

(١) سورة القصص آية : ٣٣ - ٣٥ . (٢) سورة الزخرف آية : ٥٢ .

وما قاله هؤلاء المفسرون وأصحاب السير صحيح لما ذكروه من الأدلة ، ولا يتنافى هذا مع وظيفة النبوة ما دامت قبل الرسالة ، وقد حل الله له هذه العقدة بتمامها على الأصح .

ومن قال من المفسرين وغيرهم : إن الله عز وجل قد حل له عقدة واحدة من عقد لسانه بحيث يستطيع الإفصاح عن مراده بقدر الإمكان ؛ لأن موسى لم يطلب حل هذه العقد جميعًا بل طلب حل عقدة واحدة بدليل قوله : ﴿ واحلل عقدة من لسانى ﴾ولم يقل : واحلل العقدة من لسانى ، أو لم يقل : واحلل عقد لسانى .

وهذا لا دليل فيه ؛ لأن الحرف (من) ليس للتبعيض ولكنه للبيان ، بدليل صحة حذفه فى غير القرآن ، وكأنه قال : واحلل عقدة لسانى ، أى أطلقه من عقدته واجعله فصيحًا مبينًا عن مرادى بسهولة ويسر .

وقد استدل هؤلاء أيضًا بما قاله فرعون عنه ، وهذا لا دليل فيه؛ لأن فرعون كان يريد بهذا القول أن يصد الناس عنه ، ولعل المراد بقوله : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ لا يكاد يفصح عن حجة قاطعة على ما يَدَّعى وهذا من وجهة نظره ، ولا نظر له .

وهناك قول أصح من هذا القول الذى ذكره المفسرون وغيرهم فى معنى العقدة خلاصته أنه لم يكن فى لسان موسى عقدة أصلاً،ولكنه طلب من ربه أن يلهمه رشده ويثبت فؤاده فينطلق لسانه فى الكلام ولا يتلعثم أو يقصر فى الأداء عن المراد ، وهو قول تطمئن إليه النفس ولا تأباه اللغة إذا لم يكن ما رووه عن ابن عباس صحيحًا.

فإن صح الحديث عنه فالقول قوله والله أعلم .

● موسى وهارون فى قصر فرعون :

ولما انتهى موسى عليه السلام إلى مصر بعد مناجاة ربه بالوادى المقدس صحب على الفور أخاه هارون إلى قصر فرعون ، وعرض عليه الدعوة التى نادى بها جميع الرسل من قبل ، وطلب منه أن يرسل معه بنى إسرائيل فيطلقهم من الأسر ، ولا يعذبهم بالإذلال والتسخير ، وذكَّره بعذاب الله تعالى إن هو استمر فى غيه ودعوته لنفسه بالألوهية ، وأخذ الناس بالعسف والقهر والجبروت .

وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ فَأتيَاه فقولا إنا رسولاَ ربِّك فأرسلْ معنا بنى إسرائيلَ ولا تعذبْهم قد جئناك بآية من ربِّك والسلامُ على من اتَّبع الهُدَى . إنَّا قد أُوحِيَ إلينا أنَّ العذابَ على من كذَّبَ وتولى ﴾ [1] .

---

(١) سورة طه آية : ٤٧ - ٤٨ .

وقال تعالى : ﴿ قال كلاَّ فاذهبا بآياتنا إنا معكُم مستمِعون فَأْتِيَا فرعونَ فقولا إنَّا رسولُ ربِّ العالمين ۰ أن أرسلْ معنا بنى إسرائيل ﴾ (١) .

وهنا أدرك فرعون أنه أمام الرجل الذى كان يخشاه على نفسه وعلى ملكه من قبل - أمام الرجل الذى كان يتمنى ألا يخلق ، وألا يجىء اليوم الذى يأتى إليه فى عقر داره وفى ديوان حكمه ليعرض عليه أمراً لم يعرضه عليه أحد من قبله ۰

ومن هو هذا الرجل ؟ إنه الوليد الذى رباه فى بيته وحمله فى حجره وأحسن كفالته حتى بلغ معه السعى ، ثم فر من وجهه بغضًا له واستنكارًا لعسفه وظلمه لرعيته ، ولا سيما بأبناء الأنبياء ، من بنى إسرائيل ، فلما سمع مقالته أراد أن يثنيه عن عزمه وأن يقتل دعوته قبل أن تظهر ويعلم بها الناس فيعتنقوها ، فذكره أولاً بالمعروف الذى صنعه معه ثم بالفعلة التى فعلها وهى قتل رجل من آله وشيعته وهو كافر بألوهيته ساخط عليه : ﴿ قال أَلم نُرَبِّك فينا وليدًا ولبثتَ فينا من عُمُرِك سنينَ ۰ وفعلتَ فَعْلَتَكَ التى فعلتَ وأنت من الكافرين ﴾ (٢) .

لكن موسى عليه السلام لم يعبأ بهذا التهديد ، وكال له الصاع صاعين ، ووضعه على أول طريق الهدى بأسلوب هادئ مقنع ، كما أوصاه ربه عز وجل بقوله : ﴿ فقولا له قولاً لينًا لعله يتذكرُ أو يخشى ﴾ فاعتذر أولاً عن فعلته التى فعلها بأنه كان ضالاً ـ أى حائرًا ـ لا يعرف ماذا يفعل لتخليص الإسرائيلى من يد المصرى ، فاضطر إلى وكزه ، وما كان يعرف أن هذه الوكزة تقضى عليه ، واعتذر عن فراره من مصر لما علم بائتمارهم على قتله ۰

وكأن فرعون يريد أن يقول له : من أين جاءك هذا العلم ، وكيف عرفت أن لك ربًّا غيرى ، ومتى أرسلك الإله الذى تدعى أنه هو المعبود بحق ، وكيف يختار الإله رجلاً طريدًا ينكر نعمة من رباه وأحسن إليه ؟ ، فيجيبه موسى عليه السلام أنه لما خرج من مصر إلى مدين وهب له ربه حكماً وعلمًا ، وجعله من جملة المرسلين الذين أرسلوا إلى الناس مبشرين ومنذرين : ﴿ قال فعلتُها إذًا وأنا من الضالين ۰ فَفَررتُ منكم لمَّا خفتُكم فوهبَ لى ربِّى حكمًا وجعلَنى من المرسَلِين ۰ وتلك نِعمَةٌ تَمنُّها علىَّ أن عَبَّدتَّ بنى إسرائيل ﴾ (٣) .

---

(١) الشعراء آية: ١٥ - ١٧ (٢) الشعراءآية :١٨ - ١٩ (٣) الشعراء آية: ٢٠ - ٢٢ ۰

والمتأمل فى هذه الآيات الثلاثة يجد أن موسى عليه السلام قد اقتبس من كلام فرعون نفسه حجة مقنعة لبراءته من دم المصرى ، ألم يقل له فرعون : ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلتَ وأنت من الكافرين ﴾ . فكان الجواب : ﴿ فعلتها إذًا وأنا من الضالين ﴾ ، أى : فعلتها عن جهل وضلال ، فلم تذكرنى بها وتهددنى بالعقوبة عليها وها أنت قد اعترفت بذلك ومهدت لى هذا العذر ، وأنت تمن على الآن بأنك ربيتنى وليدًا ، وتريد أن تقتلنى بقتلى واحدًا من شيعتك وأتباعك ، وقد استبعدت بنى إسرائيل وقتلت منهم ألوفًا مؤلفة فإن كنت تطالبنى بدم واحد فأنا أطالبك بدم كل من قتلته ظلمًا من أبناء جلدتى .

وبعد هذا الحوار الهادئ المقنع يبدأ فرعون السؤال عن رب العالمين من هو : ﴿قال فرعونُ وما ربُّ العالمين ﴾ [1] وهو سؤال المتجاهل ، وليس هو سؤال الجاهل ، فمعرفة الله تعالى فطرية لا تقبل الإنكار بحال .

فيجيبه موسى عليه السلام بجواب لا يسعه إنكاره : ﴿ قال ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينَهُما إن كنتم مُوقنِين ﴾ [2] .

إن فرعون وقومه لا ينكرون أن الله هو الخالق ، والخالق أحق أن يعبد ، إن كانت هناك قلوب واعية مدركة وضمائر حية .

ويُظْهِر فرعون تعجبه من هذا الجواب ويثير عجب من حوله . ﴿ قال لمن حولَه ألاَ تَسْتَمِعُونَ ﴾ [3] فما هذا اللغو ! وما هذا الهذيان ! هل لكم رب غيرى !! .

ولا يكاد الملأ من قوم فرعون يتجهون بعقولهم إلى ما يدعوهم إليه فرعون حتى يبادرهم موسى عليه السلام بالجواب الذى لا يدع لهم فرصة للتفكير فيما دعاهم إليه فرعون ولو للحظة ، خشية أن ينبعث أشقاهم بكلمة تصد الناس عن دعوته ، وتحفز فرعون على التعجيل بقتله ، وما أكثر المنافقين فى بلاد الملوك وساحة الحكام ، وما أكثر المتعطشين لسفك الدماء والصادِّين عن دعوة الحق خوفًا على مصالحهم الشخصية - لم يدعهم موسى يأخذون الرأى فى هذه القضية ، قضية التوحيد حتى أكدها لهم بأعظم توكيد : ﴿ قال ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين ﴾ [4] نعم هو ربهم وليس فرعون ولا من سبقه من الفراعنة - هو رب العالمين ورب الأولين والآخرين حى لا يموت ،

---

(١) سورة الشعراء آية : ٢٣ . (٢) سورة الشعراء آية : ٢٤ .
(٣) سورة الشعراء آية : ٢٥ . (٤) سورة الشعراء آية : ٢٦ .

قادر لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، أسبغ على عباده النعم ورباهم على موائد الكرم فهو الجدير بأن يعبد وهو الجدير بأن يطاع .

فلما سمع فرعون مقالة موسى عليه السلام لمن حوله من أشراف القوم وسادتهم ، خشى أن يقع فى نفوسهم شيء من تعظيم موسى وإجلاله ، لما رأوا من شهامته وصلابته فى الحق وقوة حجته فى الحوار ، وخاف أن تجد دعوته هذه صدى فى قلوبهم ، فقال على الفور ما قاله الأولون فى رسلهم إذا أعيتهم الحجة .

﴿ قال إنَّ رسولَكم الذى أُرسِلَ إليكم لَمَجْنُونٌ ﴾ (١) ولم يهتم موسى عليه السلام بنفى هذه التهمة ، لأنها تهمة معها من الحيثيات ما ينفيها ، ولكنه اهتم بتوكيد ما سبق أن قرره بالحجة والبرهان : ﴿ قال ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينَهُما إن كنتم تَعقِلُون ﴾ (٢) .

وفى قوله : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ تعريض بمن اتهمه منهم بالجنون ، ودعوة لمن أراد أن يقول مثل ما قال فرعون أن يتعقل ويتثبت قبل أن يقول كلمة لا يجد لها حجة ولا مبررًا .

وهنا يشتد غضب فرعون ، ويفقد كل الحيل التى يصد بها موسى عن دعوته فيرغى ويزبد ، ويتهدد ويتوعد .

﴿ قال لئنِ اتَّخَذْتَ إلهًا غيرى لأجعلنَّك من المسجونين ﴾ (٣) هذا هو كل ما يقدر عليه أمثاله من الأدعياء الأغبياء ، فقد أعيته الحجج ، وانقطعت به السبل ، وتزعزع كرسيه من تحته ، ولم يجد من حوله رجلاً يصدقه ويكذب موسى عليه السلام ، وكأن لسان حالهم يقول : آن الأوان لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وكأن العيون التى كانت تحملق فيه تكذبه وتصدق موسى فيما أخبرهم به ودعاهم إليه .

وما كان من موسى عليه السلام إلا أن عرض عليه برهانًا ماديًا على صدق دعوته ، ﴿ قال أَوَ لَوْ جئتُك بشيءٍ مُبينٍ ﴾ (٤) فلم يستطع فرعون أن يقول : لا حاجة لى بهذا البرهان ، بل أراد أن ينظر إلى آخر ما فى جعبته ، لعله يجد ناحية من

(١) سورة الشعراء آية : ٢٧ . (٢) سورة الشعراء آية : ٢٨ .
(٣) سورة الشعراء آية : ٢٩ . (٤) سورة الشعراء آية : ٣٠ .

نواحى الضعف فيثب عليه منها وثبة الجبار العنيد ، فيستنقذ بذلك ملكه من الزوال ، وهو حتمًا إلى زوال ، ﴿ قال فأتِ به إن كنتَ من الصادقين ﴾ (١) .

قال تعالى : ﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى ثُعبَانٌ مبينٌ . ونزعَ يدَه فإذا هى بيضاءُ للناظرين ﴾ (٢) فلما رأى فرعون هاتين المعجزتين فُتَّ فى عضده ، وسُقطَ فى يده ، وارتجف فؤاده ، ورأى فى وجوه الملأ سمات الإيمان ، وأحس بالخيبة والخذلان ففكر وقدر ، وقال فى نفسه : إن هؤلاء الملأ يحبون أرضهم ، فلو قلت لهم : إن موسى وأخاه ساحران وأنهما يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، لمالت نفوسهم إلى تكذيبهما ، حرصًا على أرضهم وأموالهم وهم أشد الناس حرصًا على البقاء فى الأرض التى نشأوا فيها ، وهذا أمر معروف عن أهل مصر : ﴿ قال للملأ حولَه إن هذا لساحرٌ عليمٌ . يُريدُ أنْ يُخرجكم من أرضِكم بسحرِه فماذا تأمرون ﴾ (٣) أى أشيروا عَلَىَّ أيها الملأ فأنتم السادة والقادة وأصحاب الرياسة والريادة ، فما تأمرون به أقوم بتنفيذه ، إنه الآن يتودد إليهم حتى يميلوا إليه ويصانعوه ، وينصرفوا عن موسى وأخيه .

وقد داخل الملأ شىء مما قاله فرعون وحسبوا أن أمر موسى لا يعدو أن يكون سحرًا كما قال فرعون ، فأشاروا عليه أن يبعث فى المدائن من يجمع له السحرة من كل مكان ﴿ قالوا أَرجِهْ وأخاه وابعثْ فى المـــدائنِ حاشرينَ . يأتوك بكلِّ سحّارٍ عليمٍ ﴾ (٤) .

وفى سورة طه يقول الله عز وجل عنهم : ﴿ قال أَجئتَنَا لتخرجَنَا من أرضِنا بسِحْرِك يا موسى . فلنأتِيَنَّك بسِحْرٍ مثله فاجعلْ بينَنَا وبينَك موعدًا لا نُخلفُه نحن ولا أنت مكانًا سُوًى . قال موعدُكم يوم الزينةِ وأن يُحشَرَ الناسُ ضُحى ﴾ (٥) أى موعدكم يوم عيدكم الأكبر على أن يحشر جميع الناس ضحوة النهار فى مكان واحد، وهو منتهى التحدى .

ولعل موسى عليه السلام قد أراد أن يغتنم هذه الفرصة ، فيعلن دعوته على الناس أجمعين فى وقت واحد ، من غير جهد ولا انتقال من بلد إلى بلد .

وأى فرصة أعظم من هذه الفرصة التى يجتمع فيها أدعياء العلم والحكمة ،

---

(١) الشعراء آية: ٣١ . (٢) الشعراء آية٣٢ - ٣٣ . (٣) سورة الشعراء آية: ٣٤ - ٣٥ .
(٤) الشعراء آية : ٣٦ - ٣٧ . (٥) سورة طه آية : ٥٧ - ٥٩ .

وأصحاب السحر والشعوذة ، فيقهرهم موسى عليه السلام بمعجزة العصا أمام أكبر حشد جمعه فرعون بكيده وصولجانه .

وياله من يوم عصيب على فرعون ؛ لأنه خاف أن ينتصر عليه موسى ، فيتزلزل عرشه ويذهب ملكه إلى الأبد .

فاجتمع القوم مرة أخرى بعد أن جمع فرعون جموعه من السحرة وعامة الناس وخاصتهم ، وتشاوروا فيما بينهم ، فحث بعضهم بعضًا على المضى فى التجربة إلى نهايتها ، ووقف السحرة فى قبالة موسى وقد وعدهم فرعون بأجور كبيرة ومناصب عالية إن هم قهروا موسى وغلبـــوه - وبيد كل ساحر منهم حبل أو عصا أو نحو ذلك ، فخيروا موسى عليه السلام بين أن يلقى هو أولاً ، أو يكونوا هم أول من ألقى ، فقال لهم موسى: ألقوا ما بأيديكم، واصنعوا ما بدالكم ، وهاتوا ما عندكم ، وابذلوا جهدكم فى كيدكم . فألقوا حبالهم وعِصيَّهم ، فخيل لموسى أنها تسعى فى صور حيات مخيفة وحشرات بشعة ، وحيوانات مفترسة ، ووقع الناس فى رعب عظيم ، وخاف موسى عليه السلام أن يُكذَّب فى دعوته ، فطمأنه ربه ، وأمره أن يلقى عصاه ، فألقاها فابتلعت كل ما ألقاه السحرة فى لمحة بصر ، فلم يجد لها السحرة بطنًا ، فعلموا أنه ليس بساحر ، بل هو رسول من رب العالمين ، فخروا لله ساجدين وأعلنوا إيمانهم بموسى وهارون .

يقول الله عز وجل فى حكاية هذا المشهد العجيب : ﴿ فتولى فرعونُ فجَمَعَ كيدَه ثم أتى . قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كَذِبًا فيُسحتكم بعذابٍ وقد خابَ من افترى . فتنازعوا أمرَهم بينهم وأَسَرُّوا النجوى . قالوا إنْ هذانِ لساحرَانِ يريدان أن يُخرجَاكم من أرضِكم بسحرِهما ويذهبا بطريقتِكم المُثْلى . فأَجمعُوا كيدَكم ثم ائتُوا صفًا وقد أفلح اليوم من استعلى . قالوا يا موسى إما أن تُلْقِيَ وإمَّا أن نكونَ أولَ من أَلقَى . قال بل أَلقُوا فإذا حبالُهم وعصيُّهم يُخيَّلُ إليه من سحرِهم أنها تسعَى . فأوجسَ فى نفسِه خيفةً موسى . قلنا لا تخفْ إنك أنت الأعلى . وأَلقِ ما فى يَمينِك تَلْقَفْ ما صنعوا إنما صنعوا كيدُ ساحرٍ ولا يفلحُ الساحرُ حيثُ أَتَى . فَأُلقِيَ السحرةُ سُجَّدًا قالوا آمنَّا بربِّ هارونَ وموسى ﴾ [1] .

(١) سورة طه آية : ٦٠ - ٧٠ .

ويقول الله عز وجل : ﴿ فَجُمِعَ السَّحرةُ لميقاتِ يومٍ معلومٍ . وقيلَ للناسِ هل أنتم مُجتمعون . لعلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إنْ كانوا هم الغالبين . فلما جاءَ السَّحَرَةُ قالوا لفرعونَ أَئِنَّ لنا لأجرًا إن كنَّا نحنُ الغالبين . قال نعم وإنكم إذًا لمن المقرَّبين . قال لهم موسى أَلْقُوا ما أنتم مُلْقُون . فألْقَوْا حبالَهم وعِصِيَّهم وقالوا بعزةِ فرعون إنا لنحنُ الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقفُ ما يأفكون . فأُلقِيَ السحرةُ ساجدين . قالوا آمنَّا بربِّ العالَمين . ربِّ موسى وهارون ﴾ (١) .

قد كان السحر عند أهل مصر صناعة تقوم على خفة اليد أحيانًا ، أو تقوم على استخدام المواد الكيماوية وغيرها ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ قال أَلْقُوا فلمَّا أَلْقَوا سحروا أَعيُنَ الناسِ واسترهبوهم وجاءوا بسحرٍ عظيمٍ ﴾ (٢) أى خيلوا للناس أن ما صنعوه حيات تسعى وحشرات وحيوانات تذهب هنا وهناك ، وأعْملوا حِيَلهم فى إدخال الرعب على الناس ، وجاءوا بسحر كثير على حسب كثرتهم وكثرة حيلهم .

ولما رأى فرعون السحرة قد آمنوا بموسى وخروا لله سجدًا - ثارت ثائرته ، وبلغ الغضب منه مبلغًا فقد فيه رشده ، فهدد السحرة جميعًا بصلبهم فى جذوع النخل بعد تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ولكن الإيمان قد تغلغل فى قلوبهم ، فاستهانوا بعذاب الدنيا فى سبيل النجاة من عذاب الآخرة ، وأعلنوا أنهم لن يكفروا بالله بعد إيمانهم به مهما فعل بهم فرعون ومن معه من الكفرة الفجرة .

يقول الله عز وجل : ﴿ قال آمَنْتُم له قبلَ أنْ آذنَ لكم إنه لكبيرُكم الذى علمكَم السحرَ فلأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خِلافٍ ولأصلبنَّكم فى جُذُوع النخلِ ولتعلَمنَّ أيُّنا أشدُّ عذابًا وأَبْقَى . قالوا لن نُؤْثِرَكَ على ما جاءنا من البيِّناتِ والذى فطَرَنا فاقضِ ما أنت قاضٍ إنما تقضى هذه الحياةَ الدُّنيا . إنَّا آمنَّا بربِّنا ليغفرَ لنا خطايانا وما أكرهْتَنَا عليه من السحرِ واللهُ خيرٌ وأَبْقَى . إنه من يأتِ ربَّه مجرمًا فإنَّ له جهنمَ لا يموتُ فيها ولا يَحيَى . ومن يأته مؤمنًا قد عَمِلَ الصالحاتِ فأولئك لهم الدرجاتُ العُلَى . جناتُ عدنٍ تجرى من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها وذلك جزاءُ من تزكَّى ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الشعراء آية : ٣٨ - ٤٨ .   (٢) سورة الأعراف آية : ١١٦ .

(٣) سورة طه آية : ٧١ - ٧٦ .

وقال تعالى : ﴿ قال فرعونُ آمَنْتُم به قبلَ أنْ آذَنَ لكم إن هذا لَمكرٌ مكرتُموه فى المدينة لتُخرِجوا منها أهلَها فسوف تعلمون · لأُقَطِّعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ثم لأُصَلِّبَنَّكم أجمعين · قالوا إنَّا إلى ربِّنا مُنْقَلِبون · وما تَنْقِمُ منَّا إلا أنْ آمنَّا بآياتِ ربِّنا لما جاءتْنا ربَّنا أَفرِغْ علينا صبراً وتوفَّنا مُسلمين ﴾ (١) .

وقال السحرة الذين آمنوا بموسى وهارون أيضًا كما حكاه الله عنهم : ﴿ قالوا لا ضَيْرَ إنَّا إلى ربِّنا منقلِبون · إنا نَطمعُ أن يَغفِرَ لنا ربُّنا خطايانا أنْ كنَّا أولَ المؤمنين﴾(٢) .

أى لا ضيم ولا خسران علينا إذا ذهب من بين أيدينا كل شىء- ولو كانت حياتَنا - وسلم لنا إيماننا الذى أشرقت شمسه بين جوانحنا ·

فلتذهب هذه الحياة غير مأسوف عليها فإن لنا حياة أخرى ، أفضل وأكرم، إنها حياتنا الآخرة ، والآخرة خير وأبقى ·

إننا بإيماننا هذا نفتح طريقًا من النور وسط هذا الظلام الكثيف فيهتدى بنا الضالون الحائرون ، وبهذا نطمع فى مغفرة ربنا لما كان لنا من خطايا فى السير معك على طريق الضلال ·

وهكذا الإيمان إذا جاء إلى الإنسان ، أو جاء إليه الإنسان عن طريق النظر والبحث والتحليل والتعليل ، إنه حينئذ إيمان يخالط المشاعر ويملك القلوب ، ويأسر العقول ، ويجعل من الإنسان الفقير الضعيف قوة هائلة تتحدى الجبابرة ، وتستخف بأعظم الأهوال وأشد الخطوب ·

وهل كان يقع فى الحسبان أن جماعة من رعايا فرعون ، وعابديه الذين ولدوا - كما ولد آباؤهم - فى ظل ربوبيته وسلطان ألوهيته - هل كان يقع فى الحسبان أن يجىء يوم يقف فيه هؤلاء « العباد » فى وجه هذا الإله المزعوم موقف التحدى والاستخفاف والسخرية؟! ، ولكنه الإيمان يفعل المعجزات ويقلب الأوضاع والمواضعات·

• هل أنجز فرعون وعيده فى السحرة ؟

لا ندرى على وجه التحديد إن كان فرعون قد أنجز وعيده فى السحرة ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم فى جذوع النخل أم لا ،والآيات تنتقل من هذا المشهد الرهيب المهيب إلى مشهد آخر دون أن تخبرنا بشىء وقع على السحرة من جهة فرعون ·

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٢٣ - ١٢٦ · (٢) سورة الشعراء آية : ٥٠ - ٥١ ·

ومن الممكن أن يكون فرعون قد ألقى بالسحرة فى السجن وانتظر تنفيذ حكمه فيهم حتى يفرغ من موسى وقومه ، كما يمكن أن يكون قد أمضى فيهم حكمه .

إن الأمرين يستويان فإنْ يكن السحرة قد هلكوا بيد فرعون فليسوا هم أول أو آخر المستشهدين فى سبيل العقيدة ، وإنْ يكونوا قد نجوا من هذا البلاء فقد نجا كثير غيرهم من المؤمنين وأفلتوا من يد البغاة والمتجبرين ، فليس المهم إذن هو أن يهلك المؤمنون أو يسلموا وإنما المهم هو أن يثبتوا على إيمانهم ، ويوطدوا النفس على احتمال كل بلاء وملاقاة كل شدة ، ثم لا عليهم أن يَسْلَموا أو يَعْطَبوا ، مادام قد سَلِم لهم إيمانُهم ، وظل بمكانه المكين من قلوبهم .

وعلينا أن لا نشغل أنفسنا بالبحث عما طواه القرآن عنا ؛ لما فى ذلك من شغل بما لا خير فيه ، ولا طائل تحته ، ولو كان فيه خير ما طواه الله عنا ، على أن الاشتغال بما طواه الله عنا فى كتابه العزيز إساءة أدب معه - جل شأنه .

وهناك أمور سترها القرآن عنا رحمة بنا ، فلا نعرض أنفسنا لزوالها بالبحث عنها .

وهناك أمور وكل علمها إلى قرائحنا ، لعلمه أننا نستطيع أن نفهمها أو نحصل على أسرارها بالقرائن الملفوظة أو الملحوظة .

ولا يخفى ما فى ذلك من شحذ للأذهان ، وتدريب للعقول على فهم اللطائف القرآنية والدقائق العلمية ، فيسعد كل ذى لب حصيف بما وقع له من العلم والمعرفة بإعمال الفكر وإمعان النظر .

● فرعون بعد إيمان السحرة :

بعد حديث السحرة وما كان من أمرهم قد يخيل للمتأمل فى بادئ الأمر أن المعركة قد انتهت بين موسى عليه السلام وفرعون اللعين ، ولكن المعركة فى الواقع احتدت من هذا المنطلق ، واشتد أُوَارُها بين الفريقين ، فما ازداد فرعون بعد أن رأى الآيات إلا طغيانًا وكفرًا وعدوانًا على بنى إسرائيل .

ولكن هذه الحرب لم تكن معلنة فى بادئ الأمر ، بل كانت حربًا خفية يُذكى نارَها فرعونُ كلما خَبَتْ وخَفَّتْ حِدَّتُها ، والناس لا يرون مشاهدها ولكن يشهدون آثارها ؛ فقد نكل فرعون سرًا بكثير من بنى إسرائيل ، وسلط عليهم من يسومهم عذابًا أشد مما كان يفعله بهم وموسى فى ظهر الغيب .

ولكن الله كان من ورائه محيطًا ؛ فقط سلط عليهم ألوانًا من البلاء ، وصب عليهم مرسلات من النقم ، وأخذهم بها حالاً بعد حال ، وواحدة بعد أخرى ، فما استكانوا لربهم وما تضرعوا له في يوم من الأيام ، ولا لانت قلوبهم لذكر الله ، ولا استنارت بصائرهم بنور الهدى الذى جاءهم به موسى عليه السلام .

قال الله عز وجل: ﴿ ولقد أَخَذْنا آلَ فرعونَ بالسنينَ ونقصٍ من الثمراتِ لعلهم يَذَّكرون . فإذا جاءَتْهم الحسنةُ قالوا لنا هذه وإن تُصِبْهُم سيئةٌ يَطَّيَّروا بموسى ومن معه ألا إنَّما طائرُهم عندَ اللهِ ولكنَّ أكثرَهم لا يَعلمُون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحَرَنا بها فما نحنُ لك بمؤمنين . فأرسَلْنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضفادعَ والدَّمَ آياتٍ مفصلاتٍ فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين ﴾ (١) .

وكان فرعون كلما نزلت به نازلة ، طلب من موسى أن يدعو إلهه ليرفع هذا البلاء ، ويَعِدُه أنه لو أجابه وفرج عنه كربه يؤمن به ويرسل معه بنى إسرائيل ، فيذهب بهم حيث شاء وهم آمنون .

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ ولما وقعَ عليهم الرِّجزُ قالوا يا موسى ادْعُ لنا ربَّك بما عَهِدَ عندك لئن كشفْتَ عنَّا الرِّجْزَ لنؤمِنَنَّ لك ولنرسِلَنَّ معك بنى إسرائيلَ﴾(٢) .

ولكن ما إن يرفع البلاء وتسكن العاصفة ، حتى يعود فرعون إلى سيرته الأولى، فيصب على بنى إسرائيل نقمته ، ويزيد فى قهرهم وإذلالهم ضراوة وقسوة يقول الله جل شأنه : ﴿ فلمَّا كشفْنا عنهم الرِّجْزَ إلى أجلٍ هم بالِغوه إذا هم يَنْكُثُون﴾(٣) .

فيشتد البلاء على بنى إسرائيل وتزداد محنتهم ، فيشكون لموسى عليه السلام فيوصيهم بالصبر الجميل ويعدهم خيرًا : ﴿ قالوا أُوذِينا من قبلِ أن تأتِيَنا ومن بعدِ ما جئتَنا قال عسى ربُّكم أن يُهلِكَ عدوَّكم ويستخلفكم فى الأرضِ فينظرَ كيف تعملون﴾(٤) .

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٣٠ - ١٣٣ .
(٢) سورة الأعرف آية : ١٣٤ .
(٣) سورة الأعراف آية : ١٣٥ .
(٤) سورة الأعراف آية : ١٢٩ .

● **الآيات التسع التى أيد الله بها موسى عليه السلام :**

يقول الله عز وجل : ﴿ ولقد آتينا موسى تسعَ آيات بيناتٍ فَسْئَلْ بنى إسرائيلَ إذْ جاءَهم فقال له فرعونُ إنِّى لأظنُّك يا موسى مسحوراً · قال لقد علمتَ ما أَنْزَلَ هؤلاءِ إلارَبُّ السموات والأرضِ بصائرَ وإنِّى لأظنُّك يا فرعونُ مثبوراً ﴾ (١) .

وهذه الآيات التسع هى : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، وأخذهم بالسنين ، والنقص من الثمرات ·

أما العصا : فهى المعجزة الكبرى التى أيده الله بها فى مواطن كثيرة ، فقد انقلبت حية تسعى وهو بالوادى المقدس طوى ، فصنع انقلابُها به ما صنع من الأمن وحُسْن الاستعداد للقاء العدو ·

وانقلبت ثعبانًا مبينًا بين يدى فرعون ، فأحدثت فى نفسه من الهلع والفزع ما أضعف من قوته وفَتَّ فى عضده ، وأفسد قواه العقلية والنفسية ·

وتلقفت كل ما صنعه السحرة فابتلعته ، وذهبت به أدراج الرياح ·

وضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ·

وضرب بها البحر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا · وهذه كلها معجزات أيّد الله بها موسى فى العصا ·

وأما اليد: فهى المعجزة الثانية ، قرنها الله بمعجزة العصا ؛ لتكونا برهانين على صحة دعواه عند فرعون وملئه ·

وقد كانت هذه المعجزة بشرى لموسى عليه السلام بظهور أمره ، وتلألؤ نور دعوته كتلألؤ يده عندما يخرجها من جيبه وكأنها فلقة قمر ·

ولقد رآها كذلك أولاً وهو بالوادى المقدس طُوى ، عقب رؤيته للعصا ، وأظهرها الله لفرعون فتضاعف خوفه ، واشتدت رهبته حتى فقد وعيه وجُنَّ جنونه ·

ولما تمادوا فى غيهم وكفرهم أرسل الله عليهم الطوفان ، وهو مطر غزير نزل من السماء فأغرق بيوتهم ومزارعهم ، فسألوا موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم ما نزل بهم ، فدعا ربه ، فزال الطوفان وتلاشى الخطر ، فلم يفوا بما وعدوه به ، فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل زروعهم وثمارهم ، ثم أرسل الله عليهم القُمَّل – وهو الذى يشبه البرغوث وقيل هو السوس – أفسد عليهم ما أحرزوه من الحبوب والدقيق ، ثم ابتلاهم بالضفادع فلم تترك شيئًا من أطعمتهم وأسقيتهم إلا دخلت

(١) سورة الإسراء آية : ١٠١ - ١٠٢ ·

فيه، ثم حَوَّل الله المياه التى أعدوها للشرب دمًا طريًا ، وقد أخذهم الله من قبل بالسنين أى بالجدب المستمر ، والنقص الشديد من الثمرات ، فاستكبرو وكانوا قومًا مجرمين، يقولون عن هذا كله : سِحرٌ صنعه موسى بنا . فأى ضلال هذا !! .

إن القلوب إذا قست كانت أشد من الحجارة صلابة ، فإذا انتهت بها القسوة إلى إنكار هذه الآيات البينات المفصلات لا ينفعها وعظ ولا زجر ، ولا يردها عن غيها بلاء مهما بلغ أثره واشتد خطره .

وحينئذ يكون من الخير للبشرية أن يستأصل هؤلاء من الوجود وتبقى آثارهم وقصصهم عبرة لمن اعتبر ، وقد استأصلهم الله بعد أن عَمَّرهم عُمُرًا يتذكر فيه من تذكر، فأغرقهم فى اليم، ونجى موسى ومن معه من المؤمنين - كما سنذكر بعد حين .

وظل بنو إسرائيل يعانون من بطش فرعون وأتباعه زمنًا طويلاً حتى مَلُّوا الحياة، وفقدوا الصبر ، فأوحى الله إلى موسى أن يخرج من هذه الأرض التى أفسدها هؤلاء الفراعنة بتمردهم وطغيانهم ، فخرج موسى بهم ليلاً كما أمره ربه ، فعلم بخروجهم فرعون ، فجمع جُمُوعَه من أجل اللحاق بهم والقضاء عليهم ، فأخرجهم الله من النعيم الذى كانوا فيه إلى الهلاك الذى كان ينتظرهم .

فلما تراءى الجمعان دَبَّ الخوفُ فى قلوب أصحاب موسى ، فأفصحوا له عن ذلك ، وكأنهم أرادوا أن يحملوه مسئولية ما يحل بهم من فرعون وجنوده ، وكأن بعضهم أراد أن يقول لموسى عليه السلام إنك قد أهلكتنا ، فأفصح موسى عليه السلام عما يكنه قلبه من حسن التوكل ، وتمام الثقة بخالقه ومولاه .

واقترب فرعون وجنوده من موسى وأصحابه حتى لم يعد لهم أمل فى النجاة سوى موسى ، فأمره الله أن يضرب البحر بعصاه ، ففعل فانفلق البحر إلى اثنى عشر طريقًا على حسب أسباط بنى إسرائيل ، وكان كل فِرْقٍ أى كل جانب من جوانب البحر كالجبل المرتفع ، وأمر الله موسى أن يترك البحرَ رَهْوًا كما هو بطرقه التى يبست، وصارت صالحة للمشى عليها ، وقَرَّب الله فرعون ومن معه إلى المصير المحتوم ، فأغرقهم أجمعين ، ونَجَّا موسى ومن معه من المؤمنين أجمعين .

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ وأوحينا إلى موسى أنْ أَسْرِ بعبادِى إنَّكم مُتَّبعُون . فأرْسَلَ فرعونُ فى المدائنِ حاشرين . إنَّ هؤلاء لشرذِمةٌ قليلون . وإنهم لنا

لغائظون . وإنا لجميعٌ حاذِرون . فأخرجناهم من جناتٍ وعيونٍ . وكنوزٍ ومقامٍ كريمٍ. كذلك وأورثناها بنى إسرائيلَ . فأَتْبَعُوهم مُشرِقين . فلما تراءا الجمعان قال أصحابُ موسى إنا لَمُدرَكون . قال كلا إنَّ معىَ ربِّى سيهدينِ . فأوحينا إلى موسى أن اضرِب بعصاك البحرَ فانفلَقَ فكان كُلُّ فِرْقٍ كالطَّودِ العظيم . وأَزْلَفْنا ثَمَّ الآخَرين . وأنجينا موسى ومَنْ معه أجمعين . ثم أغرقْنا الآخَرين . إنَّ فى ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنين . وإنَّ ربَّك لَهُوَ العزيزُ الرحيمُ ﴾ (١) .

ويقول الله عز وجل : ﴿ فأَسرِ بعبادِى ليلاً إنكم مُتَّبَعون . واترك البحرَ رَهْوًا (٢) إنهم جندٌ مُغرَقون . كم تركوا من جناتٍ وعيونٍ . وزروعٍ ومَقامٍ كريمٍ . ونَعْمَةٍ كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قومًا آخرين . فما بكتْ عليهمُ السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنظَرين . ولقد نجَّينا بنى إسرائيلَ من العذابِ المُهينِ . من فرعونَ إنه كان عاليًا من المسرِفين ﴾ (٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ فانتقمْنا منهم فأَغرقْناهم فى اليمِّ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . وأورثْنَا القَومَ الذين كانوا يُسْتضعفون مشارقَ الأرضِ ومغاربَهَا التى باركْنا فيها وتمتْ كلمةُ ربِّك الحسنى على بنى إسرائيل بما صَبَرُوا ودمَّرنا ما كان يَصنعُ فرعونُ وقومُه وما كانوا يَعرِشون ﴾ (٤) .

وانطوتْ صفحة من صفحات التاريخ بهذا المصير الذى جرت به الأقدار ، وقضت به حكمة الإله الواحد القهار .

وقبل أن ننتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل هذه القصة ينبغى أن نقف هُنَيْهَةً أمام شبهة من الشُّبَه التى أثارها من لا خبرة له بالتاريخ ولا بالتفسير .

هل عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد إغراق فرعون ومن معه ؟

زعم بعض المؤرخين والمفسرين أن موسى عليه السلام عاد إلى مصر بعد هلاك فرعون وحكم فيها ثلاث عشرة سنة ، واستدلوا على ذلك بقوله : ﴿ وأورثْنا القومَ الذين كانوا يُسْتضعفون مشارقَ الأرض ومغاربَها التى باركنا فيها وتمتْ كلمةُ ربك

---

(١) سورة الشعراء آية : ٥٢ - ٦٨ . (٢) ساكنًا على حاله
(٣) سورة الدخان آية : ٢٣ - ٣١ . (٤) سورة الأعراف آية : ١٣٦ - ١٣٧ .

الحسنى على بنى إسرائيل ﴾ ،وقوله تعالى : ﴿ ونُريدُ أنْ نَمنَّ على الذين استُضعِفوا فى الأرضِ ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين ﴾ [1]وقوله تعالى فى سورة الشعراء : ﴿فأخرجناهم من جناتٍ وعيونٍ وكنوزٍ ومَقَامٍ كريم· كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴾ وقوله فى سورة الدخان : ﴿ كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ ·

وهذه الآيات تبدو صريحة - لغير المتأمل- أن الأرض التى أورثهم الله إياها هى أرض مصر ·

ولكن بشىء من التأمل نستطيع أن ندرك أن الأرض التى أورثهم الله إياها هى أرض الشام ؛ فهى التى وصفها الله بالبركة فى محكم التنزيل ، فقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ ونجيناه ولوطًا إلى الأرضِ التى بَاركنا فيها للعالَمين ﴾ [2]، وقال تعالى : ﴿ ولسليمانَ الريحَ عاصفةً تجرى بأمرِه إلى الأرضِ التى باركنا فيها وكنَّا بكلِّ شىءٍ عالِمين ﴾ [3] ، وقال تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبدِه ليلاً من المسجد الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذى باركنا حوله ﴾ [4] ،وقال تعالى حكاية عن موسى : ﴿يا قومِ ادخلوا الأرضَ المقدسةَ التى كتبَ اللهُ لكم ولا ترتدُّوا على أدبارِكم فتنقلِبوا خاسرين ﴾ [5] ·

وهذا القول مروى عن الحسن البصرى وقتادة وزيد بن أسلم وغيرهم ·

وقد ذكر بعض المفسرين المعاصرين أن المراد بإرث بنى إسرائيل الأرض إرثهم الحياة بعد هلاك فرعون ومن بعده ، فهاهم على الأرض أحياء على حين أصبح مَلَؤُه فى الهالكين ، فالإرث مستعمل مجازاً فى خلافة أمم أخرى ·

والأرجح عندى ما قاله الحسن البصرى وقتادة وزيد بن أسلم من أن الأرض التى ورثوها بعد هلاك فرعون هى الشام ·

فالقرآن الكريم يحدثنا فى مواضع كثيرة عن حياة موسى وبنى إسرائيل فى الصحراء وتيههم فى أرض سيناء أربعين سنة بعد أن أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة فأبوا وخافوا من أن يدخلوها على أهلها ·

وبنو إسرائيل يعلمون أن مصر لا تزال قوية بما فيها من الجند ذوى البأس

---

(١) سورة القصص آية : ٥ · (٢) سورة الأنبياء آية : ٧١ ·
(٣) سورة الأنبياء آية: ٨١ · (٤) سورة الإسراء آية : ١ ·(٥) سورة المائدة آية : ٢١ ·

والجبروت والعتاد الحربى الكثير ، وهم جبناء بطبعهم ولا تزال قلوبهم فى هلع من بطش الفراعنة وأتباعهم ، فكيف يفكرون فى العودة إلى مصر بعد أن خرجوا منها بمعجزة خارقة للعادة ، أجراها الله على يد نبيهم عليه السلام ٠

وأما قوله تعالى : ﴿ كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴾ فمعناه كما نقل القاسمى عن الشهاب : ملَّكنَّاها لهم تمليك الإرث بعد زمان ، أى تمليكًا يشبه تمليك الإرث ، وكأن العاقبة لما كانت لهم صاروا كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها ٠

أقول : لأنهم كانوا يستطيعون - لو أرادوا - أن يعودوا إليها فاتحين ، ولكنهم قوم جُبلوا على الدَّعَة والكسل والخُمول ، وقد أورثهم الله الأرض المباركة بعد الفراعنة والعمالقة ، فقد مَلَكها الفراعنةُ زمنًا وفرضوا سيطرتهم عليها ، ثم مَلَكها العمالقةُ ، ثم دخلها بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام بقيادة يوشع بن نون ، وبهذا يندفع الإشكال ويترجح ما ذكرناه ٠

● أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون :

ولما جاوز الله ببنى إسرائيل البحر - وقد أغرق فرعون وجنوده - وقالوا : يا موسى ما يدرينا أن فرعون قد هلك فى البحر حقًا ! ربما يكون قد نجا وهو الآن يجمع جنوده لإدراكنا وأخذنا ببأسه الشديد ، ومنهم من قال : إن فرعون لا يموت ٠

وكان فرعون قد اعترف بوحدانية الإلة الذى دعا إليه موسى وآمن به بنو إسرائيل ، وأعلن أنه من المسلمين ، وذلك بعد فوات الأوان الذى ينفع فيه الإيمان وتقبل فيه التوبة ٠

وأهل مصر أيضًا كانوا يشكون فى موته لاعتقادهم أنه إله ، والإله لا يموت - فأراد الله عز وجل أن يُرىَ بنى إسرائيل وأهل مصر على السواء آية من آيات قدرته ، فرفع جثه فرعون على مرتفع من الأرض بحيث يراه الناس فيعرفونه بأوصافه وملابسه فيقطعون بموته ، فيرجع أتباعه خائبين ، ويمضى بنو إسرائيل فى طريقهم آمنين ٠

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ وجاوَزْنا ببنى إسرائيلَ البحرَ فأتبَعَهم فرعونُ وجنودُه بغْيًا وعَدْوًا حتى إذا أدركه الغرقُ قال آمنتُ أنَّه لا إلهَ إلا الذى آمَنَتْ به بنو إسرائيلَ وأنا من المسلمين ٠ الآنَ وقد عَصَيْتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين ٠ فاليوم نُنَجِّيك ببدنِك لتكونَ لمن خلفَك آيةً وإنَّ كثيراً من الناسِ عن آياتِنا لغافِلون ﴾ [1] ٠

---

(١) سورة يونس آية : ٩٠ - ٩٢ ٠

وقد تبين لبنى إسرائيل بما لا يدع مجالاً للشك أن فرعون قد هلك فمضوا فى طريقهم إلى سيناء .

وقد أهلك الله فرعون فى يوم عاشوراء كما جاء فى البخارى وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقالوا : هذا يوم ظهر (١) فيه موسى على فرعون ، قال النبى ﷺ : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموا » .

وبينما كان بنو إسرائيل يمشون فى طريقهم إلى سيناء - بعد مجاوزتهم البحر - وجدوا قومًا يعكفون على أصنام يعبدونها من دون الله ، فطلبوا من موسى عليه السلام أن ينصب لهم صنمًا مثل أصنامهم ، يجعلونه واسطة بينهم وبين الله كما يفعل هؤلاء القوم ، فغضب موسى عليه السلام ممن طلب منه ذلك ، ووصفهم بالجهل والحمق وكفران النعم ، والتى من أعظمها نعمة النجاة من فرعون وآله .

قال تعالى : ﴿ وجاوزْنا ببنى إسرائيلَ البحرَ فأَتَوْا على قومٍ يَعكُفُون على أصنامٍ لهم قالوا يا موسى اجعلْ لنا إلهًا كما لهم آلهةٌ قال إنكم قومٌ تجهلون . إنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون . قال أغيرَ الله أبْغِيكم إلهًا وهو فضَّلَكُمْ على العالَمين . وإذ أَنجَيْناكم من آلِ فرعون يَسُومُونَكم سوءَ العذابِ يُقَتِّلُون أبناءَكم ويَستَحيُون نساءَكم وفى ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم ﴾ (٢) .

وليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال بل بعضهم ، فاعتبر قول بعضهم كقولهم جميعًا ، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وقالتِ اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ وقالتِ النصارَى المسيحُ ابنُ اللهِ ﴾ (٣) والثابت أن فرقة من هؤلاء وفرقة من هؤلاء هم الذين قالوا ذلك .

• رفضهم دخول بيت المقدس وعقابهم بالتيه :

أمر موسى عليه السلام قومه بدخول الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم ، وما أخرجهم من مصر إلا من أجل أن يدخلوها سُجَّدًا له- سبحانه- طالبين منه أن يَحُطَّ عنهم ذنوبهم ، ويغفر لهم خطاياهم .

---

(١) أى نُصِر .(٢) سورة الأعراف آية : ١٣٨ - ١٤١ . (٣) سورة التوبة آية : ٣٠ .

وقد ذكَّرهم موسى عليه السلام بنعم الله تعالى عليهم قبل أن يأمرهم بالدخول، لشحذ عزائمهم واستنهاض هِمَمهم ، وبعث كوامن الرغبة فيما أعده الله لهم فى هذه الأرض المباركة من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم .

ولكن القوم جُبلوا على الدَّعَة والكسل ، والجبن والخور ، فأبوا عليه ، واعتذروا له بأن فى هذه الأرض قومًا جبارين من العمالقة والحيثانيين والفزاريين ، وغيرهم ، وقالوا : لا طاقة لنا بهم ، ولا قدرة لنا على قتالهم ، ولن نستطيع أن ندخلها ما داموا فيها ، فإن خرجوا منها دخلناها.

وهذا منطق يدل على شدة اللجاج والعناد والمخالفة لنبى كان هو السبب فى إنقاذهم من تنكيل فرعون بهم ، وإخراجهم من ظلمة الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ، وقد رأوا منه ما رأوا من حبه لهم وعطفه عليهم ، ورحمته بهم ، وشاهدوا ما جرى على يديه من المعجزات الباهرات .

وقد نصح لهم رجلان منهم ، وهما يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا - على ما قيل - وقد أنعم الله عليهما بالعلم والحكمة ، والذكاء والفطنة ، والعزم والحزم .

نصحا لهم أن يدخلوا عليهم باب المدينة مستعينين بالله - تعالى - متوكلين عليه، واثقين بفضله ونصره ، فإذا ما دخلوه غلبوا القوم الجبارين ، وقهروهم بقوة الله تعالى .

ولكن القوم تمادوا فى عنادهم ، وتقاعدوا عن دخول الأرض التى كتبها لهم ، وتفوهوا بألفاظ عرف منها موسى عليه السلام أن القوم لم يؤمنوا إيمانًا يؤهلهم لنصر الله ، وأنهم لم ولن يصلحوا لقتال عدو ، وأنه لا يرجى منهم خير ، فتوجه إلى ربه بدعوة فيها مرارة ولوعة وشكوى ، فاستجاب الله له فيهم وحكم عليهم بالتيه فى أرض جرداء قاحلة أربعين سنة لا يستطيعون الخروج منها مهما حاولوا ذلك ، عقوبة لهم .

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ وإذ قال موسى لقومِه يا قومِ اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ جعلَ فيكم أنبياءَ وجعلكم ملوكًا وءاتاكم ما لم يؤتِ أحدًا من العالَمين . يا قومِ ادخلوا الأرضَ المقدسةَ التى كتبَ اللهُ لكم ولا ترتدُّوا على أَدْبَارِكم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إنَّ فيها قومًا جَبَّارين وإنَّا لن ندخلَها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون . قال رجلانِ من الذين يخافون أَنْعَمَ اللهُ عليهما ادخلوا

عليهم البابَ فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى اللهِ فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنَّا لن ندخلَها أبدًا ما داموا فيها فاذهبْ أنت وربُّك فقاتِلا إنَّا هاهنا قاعدون . قال ربِّ إنِّي لا أملكُ إلا نفسى وأخى فافرُق بينَنا وبينَ القومِ الفاسقين . قال فإنها محرَّمةٌ عليهم أربعينَ سنةً يَتيهون فى الأرضِ فلا تأسَ على القومِ الفاسقين ﴾[1] .

ولكن لماذا حدد الله وقت التيه بالأربعين ؟

أقول - والله أعلم -: حدد وقت التيه بالأربعين من أجل أن يموت هؤلاء الذين تقاعدوا عن نصرة نبيهم ، وتقاعسوا عن دخول الأرض المقدسة التى كتب الله لهم ، وأساءوا القول وأغلظوا فيه ، وخرجوا عن حد الأدب مع الله ورسوله ، ويأتى قوم آخرون من ذريتهم ليسوا على شاكلتهم ولم يذوقوا الهوان الذى ذاقوه ، ولم يعيشوا فى كنف السادة عبيدًا أذلاء ، فإن بقى جماعة منهم إلى الوقت الذى يدخلون فيه بيت المقدس دخلوا شيوخًا ، قد شابت رءوسهم ووهنت عظامهم ، فلا يستمتعون بتلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم التى قدر الله عز وجل أن يرثها بنو إسرائيل يقول الله عز وجل : ﴿ وهل نجازى إلا الكفورَ ﴾[2] .

كيف يرث تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم قومٌ يعيشون على هامش الحياة يأكلون من جهد غيرهم، ويسكنون إلى الراحة والخمول ، ويأبون أن يعيشوا عيشة الأبطال كما أراد لهم نبيهم موسى عليه السلام .

إن الجهاد فريضة على كل من آمن بالله واليوم الآخر ، فريضة تحتمها ظروف الحياة ، وضرورة من الضرورات التى يترتب عليها حفظ الدين ، وحفظ النفس ، وحفظ النسل، وحفظ العقل، وحفظ المال ، ولو تركت هذه الفريضة لهُدِّمَتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ ،وأزهقت الأرواح ونهبت الأموال، ودُمِّرتْ الحياة بأسرها .

يقول الله عز وجل :﴿ ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهُم ببعضٍ لَفَسَدَتِ الأرضُ ولكنَّ اللهَ ذو فضلٍ على العالَمين ﴾[3] ، ويقول الله عز وجل : ﴿ ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهُم ببعضٍ لَهُدِّمتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكرُ فيها اسمُ اللهِ كثيرًا ولينصُرَنَّ اللهُ من يَنْصُرُه إنَّ اللهَ لقوىٌّ عزيزٌ ﴾[4] .

---

(١) المائدة آية: ٢٠ - ٢٦ . (٢) سبأ آية: ١٧ . (٣) البقرة آية: ٢٥١ . (٤) الحج آية: ٤٠ .

• موسى يطلب أن يرى ربه :

جعل الله لموسى عليه السلام ميقاتًا يكلمه فيه ، وواعده ثلاثين يومًا يصوم فيها بعيدًا عن قومه ، وزادها عشرًا فتم ميقات ربه أربعين ليلة .

وقد أوصى موسى أخاه هارون أن يَخْلُفَه فى قومه بخير ، فيقوم بما يقوم به من تعليمهم وإرشادهم ، والحكم بينهم بالحق ، وإصلاح ذات البين ، وما إلى ذلك من أفعال الخير ، وحذره من اتباع سبيل المفسدين ، وهو يعلم أنه نبى مرسل لا يتبع سبيل المفسدين ، ولكنه تذكير وسنة متبعة ؛ فالمسافر يوصى المقيم بوصية يعلم تمام العلم أنه يقوم بها خير قيام ، فهى من باب التذكرة كما قلت .

وذهب موسى لميقات ربه ، فلما كلمه طلب منه أن يراه ، فأخبره أن هذا أمر غير ممكن ، وأحاله للنظر إلى الجبل ، فإن استقر الجبل فى موضعه فسوف يراه ، ولكن الجبل لم يستقر فى مكانه ، بل قد دُكَّ عندما تجلى عليه ربه بنوره .

وعندئذ يَخِرُّ موسى صَعِقًا ، ثم يفيق من صعقته هذه مُسَبِّحًا تائبًا ، معلنًا أنه أول المؤمنين بجلاله وكماله ووحدانيته .

فَعَذَره الله فى هذا الطلب لعلمه أنه ما طلب أن يراه إلا لفرط حبه له ، واستعذابه لمناجاته ، فأراد أن يضم إلى السماع الرؤية ، فناجاه الله : يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما أنعمتُ به عليك ، وأحسنتُ به إليك ، وكن من الشاكرين لى على الدوام .

قال تعالى : ﴿ وواعَدْنا موسى ثلاثينَ ليلةً وأتممْناها بعَشرٍ فتمَّ ميقاتُ ربِّه أربعينَ ليلةً وقال موسى لأخيه هارونَ اخلُفنى فى قومى وأَصْلِحْ ولا تَتَّبعْ سبيلَ المفسدين . ولما جاء موسى لميقاتنا وكلَّمه ربُّه قال ربِّ أَرِنِى أنظرْ إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبلِ فإن استقرَّ مكانه فسوف ترانى فلما تجلَّى ربُّه للجبلِ جعله دكًّا وخرَّ موسى صَعِقًا فلما أفاقَ قال سبحانك تبتُ إليك وأنا أولُ المؤمنين . قال يا موسى إنى اصطَفيتُك على الناس برسالاتى وبكلامى فَخُذْ ما ءاتيتُك وكن من الشاكرين ﴾ (١) .

وقد وعد الله موسى عليه السلام هذا الوعد الكريم ليكون فى ضيافته متبتلاً إليه منقطعًا عما سـواه ، ولكن لماذا وعده ثلاثين ليلة أولاً ثم زاده عشرًا ، ولماذا لم

(١) سورة الأعراف آية : ١٤٢ - ١٤٤ .

يقل : وواعدنا موسى أربعين ليلة من بادئ الأمر كما قال : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعينَ ليلةً ﴾ [1]؟ .

أقول - والله أعلم - لما أتى موسى عليه السلام بألطاف ربه ، وذاق حلاوة قربه ، ووصله الله بمنحه اللَّدُنيِّة ، وأضاف وجوده إلى العالم العلوى - عَزَّ عليه أن تنقطع رحلته بعد هذه المدة ، واشتاق إلى المزيد فى وقت الضيافة ، فزاده الله عشر ليالٍ أُخَر تَتِمَّةً للفضل والنعمة .

هذا هو ما أراه فى زيادة الليالى العشر على الثلاثين من الحكمة .

ولعل الله عز وجل أراد أيضًا بهذه الزيادة أن يمتحن بنى إسرائيل حين يرون أن موسى عليه السلام قد غاب عنهم أكثر من المدة التى أخبرهم بها .

فمنهم من قال : مات فى الطريق ، ومنهم من قال ضَلَّ عن إلهه ، فاغتنم السامرىُّ - لعنه الله - هذا الاضطراب فى القول فجمع زينة القوم وصنع لهم عجلاً له خُوار ، فقال لهم هو ومن وافقه على ذلك : هذا إلهكم وإله موسى قد نسيه هنا وسيعود إليه . فصدقوه وعبدوا هذا العجل حتى رجع إليهم موسى كما سيأتى بيانه فيما بعد .

فأما السؤال عن التفصيل هنا فى سورة الأعراف ، والإجمال هناك فى سورة البقرة ، فذلك لأن سورة الأعراف مكية وقصة الميقات فيها أطول ، وحديثها مُنصَبٌّ عليه ، بخلاف سورة البقرة ، فإن هذا الميقات جاء فى عَرَض التذكير بالنعم وسردها، ولكل حال مقال .

وقد تهيأ موسى لميقات ربه ، وهو فى معزل عن أهله، صعد إلى الطور ، فكلمه ربه وأوصاه بوصايا كثيرة ، وطلب موسى طلبًا لم يكن مخطئًا فيه ، وإلا لعاقبه الله عليه أو عاتبه ، ولكنه طمع فى شىء ليس له فيه مطمع ، فوجهه الله الوجهة الصحيحة التى ذكرها الله فى الآية .

وقد نشأ بين العلماء خلاف حول رؤية الله تعالى ، هل هى جائزة أم هى مستحيلة ؟ وكتبت فى هذه المسألة كتب كثيرة وبحوث مطوَّلة .

وقيل إن الله أنزل عليه فى هذا الميقات التوراة وهى الألواح التى ورد ذكرها فى

---

(١) سورة البقرة آية : ٥١ .

قوله تعالى : ﴿ وكتبنا له فى الألواحِ من كلِّ شىءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شىءٍ فَخُذْها بقوةٍ وأْمُرْ قومَكَ يأخذوا بأحسنِها سأوْرِيكم دارَ الفاسقين ﴾ [1] ، والمعنى : فخذ هذه الأوامر والمواعظ بكل حزم وعزم ، وأمر أهلك أن يأخذوا بأحسنها فيعملوا به ، ولا يختاروا منها ما سَهُل عليهم فِعلُه استمراءً للراحة إذا كان الخير فى الشديد منها ٠

فهذه الأوامر والزواجر التى كتبها الله فى الألواح فيها اليسير والأيسر ، والشديد والأشد ، والأحسن منها ما كان الخير فيه أكثر ، والثواب فيه أعظم ٠

والخطاب فى قوله : ﴿ سأوريكم دار الفاسقين ﴾ خطاب لموسى عليه السلام بالأصالة ، ولقومه بالتبع ٠

• اتخاذهم العجل إلهًا :

فى الوقت الذى كان موسى يناجى ربه عز وجل فوق جبل الطور - عبد قومه عجلاً صنعه لهم السامرى من الذهب الذى حملوه معهم من مصر كما أشرنا ، وقد قال لهم السامرى ومن معه من الضالين : هذا إلهكم وإله موسى فنسيه هنا ، وذهب يبحث عنه على جبل الطور ، ولهذا تأخر عن الموعد الذى ضربه لكم ٠

ففرحوا برؤيته ورقصوا من حوله وعظموه ، وخالط حُبُّه قلوبَهم كما قال جل شأنه : ﴿ وأُشرِبوا فى قلوبِهم العجلَ بكفرِهم ﴾ [2] ٠

وموسى عليه السلام ، قد ترك قومه فى سيناء واستخلف عليهم أخاه هارون كما سبق بيانه ، وعَجِل بالمجىء إلى الميقات ، فأخبره ربه أن قومه قد فتنوا من بعده، وأضلهم السامرى ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا ، يلومهم على ما قد فعلوا لومًا شديدًا ، ويعاتبهم عتابًا غليظًا تقشعر منه القلوب القاسية٠

قال تعالى : ﴿وما أعْجَلَك عن قومِك يا موسى ٠ قال هم أُولاءِ على أَثَرِى وعَجِلْتُ إليك ربِّ لترضى ٠ قال فإنَّا قد فَتَنَّا قومَك من بعدك وأضلَّهم السامرىُّ ٠ فرجعَ موسى إلى قومِه غضبانَ أسِفًا قال يا قومِ أَلَمْ يعدْكم ربُّكم وعدًا حسنًا أَفطالَ عليكم العهدُ أم أردتم أن يَحلَّ عليكم غضبٌ من ربِّكم فأخلفتم موعدى ﴾ [3] ٠

---

(١) سورة الأعراف آية: ١٤٥ (٢) سورة البقرة آية: ٩٣ ٠ (٣) سورة طه آية: ٨٣ - ٨٦ ٠

ربه يسأله – وهو أعلم بحاله – ما الذى جاء بك على عجل إلى ميقاتنا ، ولمَ سبقتَ قومَك · وكان موسى قد أمر قومه أن يسيروا إلى جانب الطور على أن يعود إليهم بعد ثلاثين ليلة ، فأجاب موسى عليه السلام عن هذا السؤال بخشوع وأدب فقال كما حكى القرآن عنهم : ﴿ هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى ﴾ ·

ولعل هذا السؤال تمهيد لإخباره عن فتنة قومه ، وكان عليه ألا يسبقهم كثيراً حتى لا يفتقدوه ، فيضلهم منافق من المنافقين كالسامرى ·

وهذا السؤال يشبه السؤال الذى ألقاه الله على مسامعه فى أول مكالمة فوق جبل الطور ، وهو قوله : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ تمهيداً لقوله: ﴿ ألقها يا موسى ﴾ ولعل الله قد أراد أن يُعلِّمه أدبَ السفر ؛ فرئيس القوم ينبغى أن يكون معهم أو خلفهم أو على مقربة منهم إذا تقدم عليهم لأمر من الأمور ·

وعلى كل حال فموسى مجتهد ، فقد رأى أن هارون عليه السلام يقوم مقامه فى سياسة القوم – وقد فعل كما سيأتى بيانه ·

وقد اعتذر القوم لموسى بأنهم كانوا يحملون أوزارًا ثقالاً من زينة أهل مصر ، وقد ندموا على حملها ، وأشير عليهم بوضعها فى حفرة حتى إذا رجع من الميقات بيّن لهم حكم الله فيها ، وأنهم قذفوها فى هذه الحفرة وقذف السامرى ما معه من الزينة، والسامرى معناه اليهودى ، ولم يعرف أحد اسمه ولا نسبته على وجه التحديد، وقيل اسمه موسى ·

قال تعالى : ﴿ قالوا ما أخلَفْنا موعِدَك بمَلْكِنا ولكنَّا حُمِّلْنا أوزارًا من زينةِ القومِ فقذفناها فكذلك ألقى السامرىُّ · فأخرج لهم عِجلاً جسدًا له خُوارٌ فقالوا هذا إلهُكم وإلهُ موسى فنَسِىَ · أفلا يرون ألا يَرجِعُ إليهم قولاً ولا يَملِك لهم ضَرًّا ولا نفعًا ﴾ (١).

أى ما أخلفنا موعدك برغبتنا ، ولكن بعض القوم حملونا قَهْرًا على إلقاء ما معنا من الزينة الذهبية ، ففعلنا ما أمرونا به ·

وهو فى نظرى حُسْن تخلُّص ، دفعوا به غضبه ، وخففوا به حزنه ، وألقوا التَّبِعةَ على غيرهم ، وظنوا بهذا أنهم لا يستحقون هذا التوبيخ ، ولا يلامون على عجل عبدوه وعظموه قد صنعه لهم غيرهم ، وهو عجل له صوت يشبه صوت

(١) سورة طه آية : ٨٧ – ٨٩ ·

العجل، فلا غرو أن يعجبوا به ويلتفوا حوله ويتخذوه إلها ، وهم قد عرفوا الوثنية ، وعايشوها زمنًا ، ولا تزال قلوبهم متعلقة بها ·

أليسوا هم الذين طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلها ، وأرجلهم لم تجف من الماء ، لمجرد أنهم رأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم ·

إن الإيمان لم يتغلغل فى قلوبهم بعد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأُشربوا فى قلوبهم العجلَ بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانُكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (١) ·

ولو كانوا مؤمنين حقًا لاستمعوا إلى نصح هارون عليه السلام وهو نبى مرسل قد استخلفه موسى فيهم ، وطاعته واجبة عليهم ·

قال تعالى : ﴿ ولقد قال لهم هارونُ من قبلُ يا قومِ إنما فُتِنْتُم به وإنَّ ربَّكم الرحمنُ فاتبعونى وأَطِيعوا أمرِى · قالوا لن نبرحَ عليه عاكفين حتى يرجعَ إلينا موسى﴾ (٢) وها هو موسى قد رجع إليهم ، فساءه ما رأى من ضلالاتهم ومفترياتهم، ولكن لابد أن يتوجه أولاً لمن استخلفه عليهم ، فيلومه ويعاتبه ، فجذبه إليه من شعر رأسه ولحيته جذبًا شديدًا أمام القوم ·

وقال له كما حكى القرآن عنه : ﴿ قال يا هارونُ ما منَعَك إذ رأيتَهم ضَلُّوا · ألاّ تَتَّبِعَنِ أفعصيتَ أمرى ﴾ (٣) فيعتذر هارون لأخيه بأعذار غاية فى الأدب تدل على أنه ما قَصَّر فى إخراج القوم من فتنتهم ، ولا تهاون فى شأن من شئونهم الدينية والاجتماعية ، ولا عصى له أمرًا ، ولا أغفل له نصحًا ، وأنه أبى على نفسه أن يأخذهم بالشدة والعنف ؛ لئلا يتفرق جمعهم ، وينحلَّ عِقْدُهم ، فيقتل بعضهم بعضًا، أو يلعن بعضهم بعضًا ، ويذكر له أن القوم استضعفوه وهموا بقتله ، وإنَّ أَخْذَه أخذًا شديدًا أمام القوم من شعر رأسه ولحيته أمر يجعل أعداء الدين يشمتوّن فيه، ويستخفون به فيما بعد ، فلا يستمعون نصحه ، ولا يقبلون حكمه ، وفى هذا يقول الله عز وجل :

﴿ قال يَبْنَؤُمَّ لا تأخذْ بلحيتى ولا برأسى إنى خَشِيْتُ أن تقولَ فرقّت بين بنى إسرائيلَ ولم تَرْقُب قولى ﴾ (٤) .

وقال جل شأنه : ﴿ ولما رجَعَ موسى إلى قومِه غضبانَ أسِفًا قال بئسما

(١) سورة البقرة آية : ٩٣ · (٢) سورة طه آية : ٩٠ - ٩١ ·
(٣) سورة طه آية : ٩٢ - ٩٣ · (٤) سورة طه آية : ٩٤ ·

خلفتُمونى من بعدى أَعَجِلْتم أمرَ ربِّكم وأَلْقَى الألواحَ وأخذَ برأس أخيه يَجره إليه قال ابنَ أمَّ إن القومَ استضعفونى وكادوا يَقتُلوننى فلا تُشْمِتْ بىَ الأعداءَ ولا تجعلنى مع القومِ الظالمين ﴾ (١) .

ويقبل موسى عليه السلام اعتذار أخيه ، ويدعو له ولنفسه بالمغفرة والرحمة : ﴿ قال ربِّ اغفرْ لى ولأخى وأَدخلْنا فى رحمتِك وأنت أرحمُ الراحمين ﴾ (٢) .

ويذهب موسى عليه السلام إلى السامرى غضبان أسفًا ، فيسأله عن السبب فيما فعل ، فيجيبه فى غرور وكبرياء ، فعلتُ ما فعلتُ عن بَصَر وخبرة ، وقد سولت لى نفسى أمرًا ، فاتبعت هواها فصنعت للقوم هذا العجل الذى تراه أمامك . وهنا يبلغ الغضب بموسى مبلغه فيطرد السامرى من وجهه شر طردة ، ويدعو عليه ، ويتوعده بمرض شديد ينزل به فورًا يجعله لا يطيق أن يمس أحدًا ، أو يمسسه أحد ، مرض يجعل الناس تنفر منه وتبتعد عنه ، وتمقت النظر إليه .

وقال له : انظر إلى هذا الإله الذى صنعته ، لأحرقنه أمامك حتى أجعله رمادًا أقذفه فى اليم ، فلا يبقى له أثر .

ففعل موسى عليه السلام بهذا العجل كما قال ، واتجه إلى القوم يدعوهم إلى التوحيد من جديد ، ويخبرهم أن الله هو المعبود بحق ، وأنه قد وسع كل شىء علمًا، وأنه لا يتمثل بشىء ولا يحل فى شىء .

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ قال فما خطبُك يا سامرىُّ . قال بَصرْتُ بما لم يَبصُروا به فقبضتُ قبضةً من أَثَرِ الرسولِ فنبذتُها وكذلك سولتْ لى نفسى . قال فاذهبْ فإنَّ لك فى الحياة أن تقول لا مِسَاسَ وإنَّ لك موعدًا لن تُخلَفَه وانظر إلى إلهِك الذى ظَلْتَ عليه عاكفًا لنحرِّقَنَّه ثم لَنَنْسِفَنَّه فى اليمِّ نسفًا . إنما إلهُكُم اللهُ الذى لا إلهَ إلا هوَ وَسعَ كلَّ شىءٍ علمًا ﴾ (٣) .

وقد حكم الله على عُبَّاد العجل الذين لم يتوبوا إليه بالذلة والمسكنة فى الحياة الدنيا ، وعذاب الآخرة أكبر ، وأدهى وأمَرُّ ، قال تعالى : ﴿ إن الذين اتخذوا العجلَ سينالُهم غضبٌ من ربِّهم وذلةٌ فى الحياة الدنيا وكذلك نَجزِى المفترِين ﴾ (٤) .

---

(١)سورة الأعراف آية : ١٥٠ .　　(٢) سورة الأعراف آيه : ١٥١ .
(٣) سورة طه آية : ٩٥ – ٩٨ .　　(٤) سورة الأعراف آية : ١٥٢ .

• ما القبضة التى قبضها السامرى من أثر الرسول ؟

جاء فى الآيات من سورة طه قول السامرى كما حكى الله عنه : ﴿ فقضبتُ قبضةً من أثر الرسول فنبذتُها ﴾ .

فما تلك القبضة التى قبضها ، ومن الرسول الذى قبض القبضة من أثره ؟

أقول : ذكر جمهور المفسرين أن الرسول هو جبريل ، وأن السامرى قبض قبضة من أثر فرسه .

وهذا كلام لا دليل عليه من الكتاب ولا من السنة ، وكل ما روى فيه من الآثار الموقوفة ضعيف أو لا يصح ، ومن حكَّم عقله وأعمل فكره وجد هذا القول ساقطًا لا يثبت على حال ، وذلك لوجوه ، ذكرها الرازى فى تفسيره ،وغيره ، حاصلها :

أن جبريل لم يرد له ذكر فى هذه الآيات ، وأنه لم يشتهر باسم الرسول ، وأنه لم يعرف بأنه كان يركب فرسًا فى زمن موسى ، وأنه كيف اختص السامرى بمعرفة جبريل دون قومه ، ومن الذى أدراه أن هذه القبضة التى أخذها لو وضعها على العجل صار له خوار .

ثم إن الكلام يحتاج حينئذ إلى إضمار لو كان ما قالوه صحيحًا ، فيكون معناه: فقبضت قبضة من أثر حافر فرسٍ الرسول . وفى هذا التكلف تنطُّعٌ لا مبرر له .

وما قيل من أن جبريل رباه صغيراً عندما ألقته أمه فى الجبل خوفًا عليه من زبانية فرعون - كلام لا سند له ولا دليل عليه .

والصحيح الذى تطمئن إليه النفس أن المراد بالرسول فى الآية : موسى عليه السلام . وقد وصفه السامرى بالرسالة على سبيل السخرية والاستهزاء كما فعل المشركون مع الرسول محمد ﷺ ، قال الله عز وجل : ﴿ وقالوا يا أيها الذى نُزِّل عليه الذكْرُ إنك لَمجنونٌ ﴾ [1] قالوا ذلك وهم ينكرون نزول الذكر عليه استهزاءً به .

والمراد بالأثر الذى قبض السامرى منه قبضة : سنة الرسول وعلمه . فنبذ هذه القبضة وراءه ظهريًا ونسى أو تناسى ما تعلمه من هذا الرسول الكريم ، وجهل أو تجاهل ما يترتب على مخالفته من عذاب شديد يلقاه فى الدنيا وعذاب أشد منه يوم القيامة .

---

(١) سورة الحجر آية : ٦ .

وهذا القول رجحه أبو مسلم الأصفهانى ، وارتضاه الرازى فى تفسيره ، وأقره القاسمى فى تفسيره المسمى « بمحاسن التأويل » . فأين هذا القول من أقوال كثير من المفسرين ، « والبر ما اطمأنت إليه النفس » كما قال الرسول ﷺ فى الحديث الذى رواه أحمد وغيره .

• توبتهم من عبادة العجل :

وأحس كثير ممن عبد العجل بخطورة الذنب الذى وقعوا فيه وشعروا بالندم الشديد ، وأرادوا أن يُكفِّروا عن ذنبهم وظلمهم لأنفسهم باتخاذهم العجل إلهًا من دون الله ، فرجعوا إلى موسى عليه السلام يسألونه عن كيفية التوبة ، فأمرهم أن يقتلوا أنفسهم فعندئذ يتوب الله عليهم ، ويغفر لهم ذنوبهم ، ويكفر عنهم سيئاتهم .

قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قومِ إنَّكم ظَلمتُم أنفسكم باتخاذكم العجلَ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم فتابَ عليكم إنه هو التوابُ الرحيمُ ﴾ (١) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ اقتلوا أنفسكم ﴾ أى فليقتل بعضكم بعضًا ، ويحتمل أن يكون المراد : فليقتل كل واحد نفسه انتحارًا ، وقد جاء فى التوراة التى بين أيديهم اليوم أن موسى دعا إليه من يرجع إلى الرب ، فأجابه بنو لاوى ، فأمرهم بأن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضًا ففعلوا ، وقتل فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف (٢) .

فلما استحرَّ القتلُ بين التائبين - أنزل الله عفوه عنهم وتاب عليهم ، وأمر نبيه موسى عليه السلام أن يختار سبعين رجلاً من خيار قومه لميقاته بأن يكونوا على جانب الطور عند مناجاته ، ليعلنوا توبتهم فى المكان المقدس ، ويطهروا أنفسهم بالذكر والاستغفار .

فلما ناجى موسى ربه ورجع إليهم وأخبرهم بما أمرهم به ربه وبما نهاهم عنه ، طلبوا إليه أن يروا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة - وهى الرجفة - فقد ارتجت بهم الأرض وصعقوا فماتوا ، فأخذ موسى عليه السلام يبكى ، ويقول : يا ربى تمنيت أن تكون قد أهلكتهم من قبل وأياى ، يا رب ماذا أقول لبنى اسرائيل ؟ أتهلكنا بسبب ما

---

(١) سورة البقرة آية : ٥٤ . (٢) انظر تفسير المنار جـ ١ ص ٢٢٦ .

فعله السفهاء منا - نحن التائبون إليك ، فاعفُ عنا واغفر لنا ذنوبنا ، وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا عندك فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة كذلك ، إنا تبنا إليك فاقبل توبتنا . فقبل الله التوبة وعفا عن هذه الذَّلة ، وهو واسع الرحمة .

وقد أحياهم الله ببركة دعاء موسى عليه السلام ، ليشكروه على وافر نعمه ، وواسع كرمه .

يقول الله عز وجل : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمنَ لك حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فأخذتْكم الصاعقةُ وأنتم تَنــــظُرون . ثم بعثناكم من بعدِ موتِكـــم لعلكم تَشكرون ﴾ (١).

وقال جل شأنه : ﴿ واختارَ موسى قومَه سبعينَ رجلاً لميقاتِنا فلما أخذتْهم الرجفةُ قال ربِّ لو شئتَ أهلكتَهم من قبلُ وإيايَ أَتُهلكنا بما فعلَ السفهاءُ منَّا إنْ هِيَ إلا فتنتُك تُضِلُّ بها من تشاءُ وتَهدِى من تشاءُ أنت وليُّنا فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنت خيرُ الغافرين . واكتبْ لنا فى هذه الدنيا حسنةً وفى الآخرةِ إنا هُدْنَا إليكَ قال عذابى أصيبُ به من أشاءُ ورحمتى وَسِعَتْ كلَّ شىءٍ فسأكتبُها للذين يَتَّقُون ويُؤتُون الزكاةَ والذين هم بآياتِنا يُؤمنون ﴾ (٢) .

وهذا الميقات غير الميقات الذى طلب فيه موسى أن يرى ربه على الأصح من أقوال المفسرين ،والله أعلم .

* * *

---

(١) سورة البقرة آية : ٥٥ - ٥٦ .　　(٢) سورة الأعراف آية : ١٥٥ - ١٥٦ .

بقرة بنى إسرائيل وإحياء القتيل

ذكرت قصة البقرة فى سورة سميت باسمها لعجيب أمرها ، وعظيم دلالتها على قدرة الله الباهرة فى إحياء الموتى وإحقاق الحق مهما حاول المفسدون طمسه وخذلانه، وإبطال الباطل مهما حاول المبطلون إظهاره ونصرته .

وهذه القصة تدل على موقف من مواقف العنت والعناد مع هذا النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، فقد قتل فى القوم قتيل فادَّارأوا فيه ، أى اختلفوا فى التعرف على قاتله ، واتهم بعضهم بعضًا فى قتله ، فلجأ القوم إلى موسى عليه السلام وطلبوا منه آية من ربه تنطق القتيل باسم قاتله ، وهم يريدون بهذا أولاً وقبل كل شىء أن يتأكدوا من صدق موسى عليه السلام فى دعوته ، وأن يستيقنوا أنه كليم الله حقًا ، فهم قوم مَلَكَ الشكُّ عليهم شِغَافَ قلوبهم ، وعشش وباض وأفرخ فى عقولهم ، فكلما جاءتهم آية من آيات ربهم لم يكادوا يؤمنوا بها ساعة من نهار حتى ترد عليهم الشبهات ، فتردهم على أعقابهم خاسئين .

وقد أجابهم موسى عليه السلام إلى ما طلبوا ، فدعا ربه أن يريهم آية من آياته تكشف لهم أمر من قتل القتيل تضاف إلى معجزاته التى أيده الله بها ، وجعلها برهانًا لصدقه فيما يبلغ عنه ، فتجىء آية الله من وراء ما يُقدِّر القوم ، فتدور لها رءوسهم وتضطرب لها عقولهم .

فما كان الظن فى نظرهم بموسى عليه السلام أن يعلق أمر إحياء القتيل على بقرة يذبحونها ، ويضربون القتيل ببعضها ، ولا ارتباط بين بقرة وقتيل ، فارتابوا فى هذا الأمر ارتيابًا شديدًا ، واتهموا موسى بما لا يليق بمثله ، وسألوه عن أوصاف تلك البقرة التى يأمرهم الله بذبحها وسألوه عن لونها ، وعن حالها، فأجابهم موسى عليه السلام عن كل ما سألوا ، فذبحوها وهم فى شك من أن موسى عليه السلام صادق كل الصدق فيما أخبرهم به ، وإن كانوا قد شهدوا له بألسنتهم أنه قد جاءهم بالحق .

فلما ذبحوها أمرهم موسى عليه السلام أن يضربوا القتيل ببعضها ، فقام القتيل حيًّا بإذن الله ودلهم على من قتله .

وقد أوجز الله هذه القصة فى ثمانى آيات من سورة البقرة ، كل آية تحمل فى

طياتها كثيراً من العظات والعبر ، والحقـــائق الجلية عن طبيعة هذا الشعب وأخلاقه وسلوكه مع الأنبياء والرسل ، ومنهجه فى الحياة ، ونظرته إلى عواقب الأمور .

فتعالوا بنا نقرأ هذه الآيات الثمانية أولاً ثم نتدبرها ونستنبط منها ما وسعنا استنباطه مما ينفعنا فى ديننا ودنيانا ، وفى قصص القرآن عبرة لأولى الألباب .

يقول الله عز وجل : ﴿ وإذ قال موسى لقومِهِ إنَّ اللهَ يأمرُكم أن تذبحوا بقرةً قالوا أَتَتَّخِذُنا هزُواً قال أعوذُ بالله أنْ أكونَ من الجاهلين . قالوا ادعُ لنا ربَّك يُبيِّنْ لنا ما هىَ قال إنه يقولُ إنها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بكرٌ عَوانٌ بين ذلك فافعلوا ما تُؤمَرون . قالوا ادعُ لنا ربَّك يُبيِّنْ لنا ما لونُها قال إنه يقولُ إنها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونُها تَسُرُّ الناظرين . قالوا ادعُ لنا ربَّك يُبيِّنْ لنا ما هىَ إن البقرَ تشابَهَ علينا وإنَّا إن شاءَ اللهُ لمهتدون . قال إنه يقولُ إنها بقرةٌ لا ذَلولٌ تُثيرُ الأرضَ ولا تَسقى الحرثَ مُسَلَّمةٌ لا شَيَةَ فيها قالوا الآن جئتَ بالحقِّ فذبحوها وما كادوا يفعلون . وإذ قتلتُم نفسًا فادَّارءْتُم فيها واللهُ مُخرِجٌ ما كنتمُ تكتُمون . فقلنا اضربوه ببعضِها كذلك يحيِ اللهُ الموتَى ويُرِيكم آياتِه لعلكم تَعقلون . ثم قَسَتْ قلوبُكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشدُّ قسوةً وإنَّ من الحجارةِ لَمَا يَتفجرُ منه الأنهارُ وإنَّ منها لما يَشَّقَّقُ فيخرجُ منه الماءُ وإنَّ منها لما يَهبطُ من خشيةِ اللهِ وما اللهُ بغافلٍ عما تعملون ﴾ (١) .

تبدأ القصة فى الواقع من حيث ذكَّرهم الله بقتل النفس التى لم يعرفوا قاتلها ، أى من قوله تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفسًا فادارءتم فيها ﴾ ولكن من الناحية البلاغية تبدأ من حيث بدأها الله عز وجل ، فليس المهم فى اختلافهم على من قتل القتيل ، ولكن المهم فيما يترتب على ذبح البقرة - وهو إحياء القتيل - وما يسبق ذلك وما يستتبعه من عظات وعبر ، وأحكام وحكم ، ومواقف ودروس ، والقوم قد سألوا موسى عليه السلام أن يدعو ربه من أجلهم ليبين لهم من قتل القتيل ؛ حتى لا يشتد النزاع وتتفاقم بينهم الخصومة ، فيؤدى ذلك إلى مزيد من سفك الدماء .

فأجابهم موسى عليه السلام إلى طلبهم ، فدعا ربه عز وجل ، فقال له ربه جل شأنه - مر قومك أن يذبحوا بقرة ، فقال لهم موسى عليه السلام : ﴿ إن الله يأمركم

---

(١) سورة البقرة آية : ٦٧ - ٧٤ .

أن تذبحوا بقرة ﴾ فتعجب القوم من هذا الأمر وأصابهم الذهول ، ووجدوا بين السؤال والجواب تفاوتًا كبيرًا وبُعدًا شاسعًا ، وقالوا فى أنفسهم : ما لهذه البقرة والتعرُّف على القاتل ؟ ولماذا بقرة بالذات ؟ إلى غير ذلك مما دار فى فى رءوسهم من تساؤلات ، وظنوا أن موسى عليه السلام يعبث بهم ويسخر منهم فقالوا : ﴿ أتتخذنا هزوا ﴾ أى أتجعلنا مكانًا للهزء ، وموضعًا للسخرية ، وكأنهم يريدون أن يَصِمُوه بكثرة الاستهزاء والمداومة عليه .

يظهر ذلك من قولهم : ﴿ أتتخذنا ﴾ فالاتخاذ معناه المصاحبة والمداومة ، مع أنهم لم يجربوا عليه شيئًا من هذا ، وحاشاه أن يكون كذلك وهو نبى مرسل ، وقد أسند الأمر إلى الله فقال : ﴿ إن الله يأمركم ﴾ فكيف يظنون أن يعبث بهم فى أمر قد تلقاه من ربه وأُمر بتبليغه ، فما أجهلهم بأمر النبوة وأخلاق الأنبياء !! .

فلما سمع موسى عليه السلام مقالتهم تبرأ مما نسبوه إليه ، واستعاذ بالله أن يكون واحدًا من أولئك الجاهلين الذين يقولون على الله بغير علم ، والذين لا يفرقون بين ما يكون أمرًا من الله وما يكون أمرًا من واحد من الناس ، فقال : ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾، فانظر إلى مقالتهم ومقالته لتعرف الفرق بين أسلوب الأنبياء ، وأسلوب عامة الناس فى الخطاب .

إنهم قد تجرأوا عليه وأغلظوا له فى القول ، ووصفوه بما لا يليق بذاته كنبى مرسل ، فكان بهم حليمًا إذ اكتفى بنفى ما نسبوه إليه دون أن يُعنِّفهم بكلمة واحدة ، وأخبرهم أن ما نسبوه إليه لا يليق بأمثاله ، ولكن هو من شأن السفهاء والحمقى .

ولا يجد القوم فى هذا مَقْنَعًا ، ويذهب بهم جهلهم وحمقهم إلى أن البقرة المطلوبة ليست مجرد بقرة ، وإنما هى على أوصاف نادرة لا تتحقق إلا فيها حتى يمكن أن تتخلق منها الآية التى طلبوها ، هكذا فكروا وقدروا ، فسألوا موسى عليه السلام أن يدعو ربه أن يبين لهم أوصاف هذه البقرة التى يأمرهم بذبحها ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ﴾ . لقد جمعوا بين الجهل والسفاهة ، فأبوا أن يقولوا : ادع لنا ربنا ، وقالوا : ﴿ ادع لنا ربك ﴾ وكأنه رب موسى وليس ربًّا لهم ، ومع هذا فقد أجابهم إلى ما طلبوا : ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ أى هى من أواسط البقر فى سنها ، ليست كبيرة ولا صغيرة ، والفارض التى انقطع نسلها ، والبكر التى لم تلد بعد ، فهى وسط بين هذين الطرفين .

وفى قوله تعالى : ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ تنبيه لهم - إن كانوا يعقلون - أن ينتهوا عند هذا ، وألا يطلبوا وراء هذه الصفات صفات أخرى ، ولكن يأبى القوم إلا أن يلبسوا بقرتهم أثوابًا لا ترى على كثير من البقر ، فعادوا إلى موسى يسألونه : ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾وفى كل مرة يقولون:﴿ربك﴾ ولا يقولون:(ربنا) .

ويجيبهم الرحمن الرحيم إلى ما طلبوا: ﴿ إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ . ولم يَدْعُهم فى هذه المرة إلى أن يفعلوا ما يؤمرون ، بل تركهم وما تختار لهم أنفسهم من ركوب هذا المركب الخشن ؛حتى يتبين لهم أنهم قد شددوا على أنفسهم بغير داع يقتضى ذلك .

ويعودون إلى موسى مرة أخرى : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا ﴾ .

والبقر هو البقر ، يشبه بعضه بعضًا ، ولكنهم يريدونها بقرة لا شبيه لها ، بقرة خلقها الخالق لهذا المطلب ولم يخلق مثلها .

ويأتيهم من الله تبارك وتعالى الجواب المنتظر ، ليزيل من نفوسهم كل شبهة قد تدور برءوسهم حتى لا يبقى لهم بعد ذلك شىء يسألون عنه .

قال : ﴿ إنها بقرة لا ذَلُولٌ تُثِير الأرضَ ولا تسقى الحرث مُسلَّمةٌ لا شِيَةَ فيها ﴾ أى هى بقرة غير مذللة لحراثة الأرض وسقى الحرث ، وهى مسلمة من العيوب لا يشوب لونها الأصفر الفاقع شائبة ، ولا يعيب أعضاءَها شىءٌ .

وهنا يجد القوم أن بقرتهم قد لبست أوصافًا لا تكاد تقع إلا فى القليل النادر ، فيجدُّون فى البحث عنها ، وهم سعداء بهذا الجرى اللاهث وراءها ، ويلقون إلى موسى بتلك الفرحة التى ملأت صدورهم قبل أن يعثروا عليها : ﴿ الآن جئت بالحق﴾ . . الآن فقط !! .

﴿ فذبحوها ، وما كادوا يفعلون ﴾ أى أنهم لم يكادوا يجدون بقرة على تلك الصفة ، أو أنهم حين وجدوها صغرت فى أعينهم ، فكادوا ينصرفون عنها ويطلبون أوصافًا أخرى لبقرة غيرها .

وقد فكرت طويلاً فى إحجامهم عن ذبح البقرة ، وكثرة أسئلتهم عن ماهيتها ولونها وحالها ، وفى الإقدام على ذبحها أخيرًا على مضض ، فهدانى الله إلى جواب لعله يكون صحيحًا . خلاصته : أن القوم لما عبدوا العجل أُشربوا حبه، كما قال جل شأنه فى سورة البقرة : ﴿ وأُشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ .

ولما كان منهم ذلك استعظموا أن يذبحوا بقرة ، ولا سيما إذا كانت هذه البقرة صفراء فاقعًا لونها ، فأراد الله عز وجل أن يذبحوا محبوبهم بأيديهم ، لينزع حبه من قلوبهم ، كما أمر محمد ﷺ خالد بن الوليد بهدم العُزَّى معبودِه ومعبودِ أبيه ؛ لينزع من قلبه ما بقى من أثر الشرك ، ولولا أنهم قالوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿وإنَّا إن شاء الله لمهتدون﴾ ما وفقهم الله لذبحها ·

ولقد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، ولو ذبحوا أى بقرة لكان لهم ما أرادوا ، ولكن هكذا كان ديدنهم فى كل ما يؤمرون به أو ينهون عنه ·

وعندما ذبحوا البقرة تطلعوا إلى موسى يقولون له بلسان حالهم ها نحن قد فعلنا فبماذا تأمرنا بعد ذلك ؟· فيأتيهم الجواب من رب العالمين على لسان موسى عليه السلام : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ ·

ويُضرب الميت ببعض لحم البقرة ، فتعود إليه الحياة ، وينطق باسم قاتله ، ثم يعود إلى عالم الموتى ، إلى يوم يبعثون !

بقدرة الله قام هذا الميت ، وليس للبقرة ولا لذبحها وضربه ببعض لحمها علاقة بهذه الحياة التى عادت إليه ، فقدرة الله فوق الأسباب جميعها ، ولكن المطلوب من الناس أن يعملوا ، وأن يتحركوا إلى الغايات التى ينشدونها ، وأن يعلموا أن الأسباب الظاهرة التى يتخذونها طريقًا إلى المسببات ليست هى العاملة فى النتائج التى يحصلون عليها ، فقد يُقدِّر المرء أسبابًا يراها منتجة لثمرة بعينها ، فيقع الأمر على خلاف ما قدر، فالتلازم بين الأسباب والمسببات مرهون بإرادة الله ، وبقدرة الله ·

ولكن هل ظل بنو إسرائيل على إيمانهم بعد أن رأوا هذه الآية العجيبة أم تمادوا فى غلوهم وضلالهم وسوء ظنهم بموسى وبالأنبياء الذين جاءوا من بعده ؟

الجواب يجىء فى آخر هذه الآيات الثمانية : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ أى بل هى أشد قسوة ، إنها قلوب لا تلتقى مع الخير أبدًا ، ولا تنتفع به إذا هو طاف بها وطرق بابها !!

وهذه القصة ينكرها بعض الباحثين من اليهود والمستشرقين ، ويقولون : إنها لا وجود لها فى التوراة ، وبنو إسرائيل لا يعرفون هذه القصة فمن أين جاء بها القرآن !

نقول : جاء بها من عند الله العزيز الحميد .

وكون بنى إسرائيل لم يعرفوها قول باطل ، وليس كل ما عرفوه قد سطّروه فى كتبهم ، وما سطروه فى كتبهم قد كتبوه بأهوائهم ، وحرفوا فيه فنقصوا وزادوا وغيروا وبدلوا ، وأخفوا كثيرًا من الحقائق ، ونسوا كثيرًا مما أوتوه وعلموه ، قال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أن يُؤمِنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يَسمعون كلامَ اللهِ ثم يُحَرِّفُونه من بعدِ ما عَقَلُوه وهم يعلمون ﴾ (١) .

وقال جل شأنه : ﴿ قلْ من أَنزَلَ الكتابَ الذى جاءَ به موسى نورًا وهُدًى للناسِ تجعلونه قراطيسَ تُبدُونها وتُخفُون كثيرًا وعُلِّمْتُم ما لم تعلموا ﴾ (٢) .

على أن هذا الحكم - كما يقول صاحب المنار فى تفسيره - منصوص عليه فى التوراة ، وهو أنه إذا كان هناك قتيل لم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول فى واد دائم السيلان ، ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتول أيديهم على العِجْلة التى كسر عنقها فى الوادى ، ثم يقولون: إن أيدينا لم تسفك هذا الدم ، اغفر لشعبك إسرائيل ، ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل فى هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء . فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة ، أو كانت هى السبب فيه ، وما هذه بالقصة الوحيدة التى صححها القرآن ، ولا هذا الحكم بالحكم الأول الذى حرفوه أو أضاعوه وأظهره الله تعالى .

وقد جاء هذا فى الفصل الحادى والعشرين من سفر تثنية الاشتراع . أ.هـ(٣) .

هذا وقد وردت أقوال كثيرة نقلها المفسرون عن أهل الكتاب فى شأن البقرة من أنها كانت ليتيم ، وأن بنى إسرائيل قد اشتروها بملئ جلدها ذهبًا إكرامًا من الله لهذا اليتيم لأنه كان بارًا بأمه .

---

(١) سورة البقرة آية : ٧٥ .   (٢) سورة الأنعام آية: ٩١ .

(٣) انظر تفسير المنار ج ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

واختلفوا هل ضربوا القتيل بلسانها أم بعنقها ، وحاكوا حول هذه القصة من الأعاجيب ما لا يقبله عقل .

والواجب علينا أن نحتاط فى ذكر قصص القرآن الكريم فلا نذكر إلا ما تحتمله الآيات من المعانى والمقاصد ، ولا نشغل أنفسنا بما يرويه المؤرخون من التوافه والترهات ، حتى ولو كان فيها وعظ وزجر .

وما طواه القرآن عنا فليس من الأدب أن نخوض فيه ، والمؤرخون الثقات وغيرهم من الباحثين المحققين لا يثقون بكثير من الأخبار التى وردت فى كتب أهل الكتاب ؛ لأنهم كتبوها بأهوائهم وأرخوا لأنفسهم بأنفسهم ولم يؤرخ لهم أحد من غيرهم ممن كان يعيش فى عصرهم ؛ لأنهم شعب مغلق على نفسه يدعى أنه شعب الله المختار ، وأنهم أهل العلم والمعرفة ، إلى غير ذلك من الدعاوى المجردة عن الدليل .

ونحن نعذر المفسرين فيما نقلوه عنهم بحسن نية أو تقليداً لغيرهم ، ونطوى ما نقلوه زيادة عن المعانى والمرامى التى تضمنتها آيات القرآن ؛ لئلا نخلط بين الحق والباطل ؛ فنَضل ونُضل .

وفى القرآن غنى لمن أراد أن يعرف الحق مِنْ أَسْلمِ طريق وأيسرِه ، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبعَ .

* * *

قصة موسى والخضر عليهما السلام

لندع بنى إسرائيل جانبًا ، ونتحدث عن قصة تميزت عن غيرها من قصص موسى بوجه خاص ، وعن قصص القرآن كله بوجه عام .

فهى قصة عجيبة من أولها إلى آخرها من حيث ما ظهر فيها من المعجزات وخوارق العادات ، ومن حيث ما اشتلمت عليه من المفارقات والموافقات ، إلى غير ذلك من الحيثيات التى ستذكر تباعًا إن شاء الله تعالى .

كما أننا سنتحدث فى آخر هذه القصة عن اسم الخضر وكنيته ولقبه ونسبه ، ولماذا لقب بالخضر ، وهل كان نبيًّا أم وليًّا ، وهل هو حى يرزق أم هو قد مات كما مات غيره من البشر ؟ إلى غير ذلك مما يتعلق به .

• بداية القصة ومطلعها :

وردت هذه القصة فى سورة الكهف ، وقد بدأها الله عز وجل بقوله : ﴿ وإذ قال موسى لِفَتَاهُ لا أبرحُ حتى أَبْلُغَ مجمعَ البحرين أو أمضى حُقُبًا ﴾[1] أى واذكر أيها الرسول قولَ موسى لفتاه « يوشع بن نون » لا أزال سائرًا فى الأرض باحثًا عن ملتقى البحرين ، ولو أمضيت فى سيرى حقبًا طويلة من الزمن .

وقد قال لفتاه هذا القول ، وأفصح له عن هذا العزم الصادق ، ليكون الفتى على بصيرة من أمره ، فإن شاء صحبه وإن شاء لم يصحبه ؛ فإنه ماضٍ إلى تحقيق رغبته فى الوصول إلى مجمع البحرين مهما كلفه ذلك من جهد وعناء ومشقة ، وليكون الفتى أيضًا - إن شاء أن يصحبه - متهيئًا إلى مواجهة ذلك بصدر رحب وقلب مطمئن، وهذا شأن الرفيق إذا أراد أن يسير فى طريق ليس لرفيقه بمداها علم ، وليس له باجتيازها خبرة ولا غرض معروف ، فهذا من الأمانة وحسن الصحبة ، ولكن ما الدافع إلى هذه الرحلة الشاقة ، ولماذا يجعل غايته مجمع البحرين ؟

يروى البخارى وغيره « أن موسى عليه السلام خطب فى بنى إسرائيل يومًا حتى أبكاهم، فلما تولى عنهم تبعه رجل منهم فقال : يا رسول الله أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يسند علم ذلك إليه ؛ فأوحى إليه : إن لى عبدًا

(١) سورة الكهف آية : ٦٠ .

بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يا رب وكيف لى به ، قال : تأخذ معك حوتًا فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ » . أى فهو هناك .

إن موسى عليه السلام كان يحب أن يزداد علمًا على علمه ، فالعلم أسمى ما يبتغيه العلماء ، ولا يمل من طلبه امرؤ عرف قدره وذاق حلاوته .

وهذا المطلع من القصة يشير إلى ما ينبغى على طالب العلم من بذل الجهد فى طلبه ، واستعذاب المشقات فى الحصول عليه ، وعدم استطالة الوقت فى المسير إليه .

ولكن ما المراد بمجمع البحرين ؟

أقول : اختلف المفسرون فيه ، فقيل : هو مجمع بحر فارس والروم، وقيل : طنجة ، وهذا القول الثانى بعيد ، والقول الأول مشهور ، والمراد ببحر فارس الخليج العربى ، والمراد ببحر الروم البحر الأبيض المتوسط .

والأصح عندى - والله أعلم - أن المراد بمجمع البحرين : خليج السويس وخليج العقبة ، وأن ملتقاهما هو رأس شبه جزيرة سيناء عند طرفها الجنوبى ، حيث يتفرع عندها البحر الأحمر إلى فرعين يذهبان شمالاً ويحصران بينهما شبه جزيرة سيناء، فحيث كان افتراقهما يكون اجتماعهما أى هو مجمعهما ، وهو مجمع البحرين .

ويقوى هذا الرأى عندنا أن تحرك موسى بعد خروجه ببنى إسرائيل من مصر لم يجاوز شبه جزيرة سيناء ، حيث ضرب فيها التيه على بنى إسرائيل أربعين سنة ، ومن جهة أخرى فإن رأس شبه الجزيرة الجنوبى صخرى تكثر فيه الصخور والآكام وتتشابه فيه معالم تلك الصخور، الأمر الذى اختلط به على موسى وجه الصخرة التى كانت موعدًا له مع هذا العبد الصالح الذى جدَّ فى طلبه .

● بلوغهما مجمع البحرين ونسيان الحوت عنده :

وبينما كان موسى عليه السلام نائمًا عند الصخرة ويوشع بجانبه مستيقظًا يحرسه إذ رأى عجبًا أخذ بمجامع قلبه وملكات عقله - رأى الحوت يضطرب فى المكتل ثم يخرج حيًّا بإذن الله تعالى متخذًا له فى البحر طريقًا على وجه الماء ، وكلما مضى صار ما خلفه يبسًا ، فقد روى البخارى من حديث ابن عباس عن أبىّ عن النبى ﷺ أنه قال : « وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار الماء عليه مثل الطاق ، فكان للحوت سربًا ، وكان لموسى وفتاه عجبًا » .

ويزعم جماعة من أدعياء العلم أن الحوت لم يكن ميتًا بل كان حيًا ، وهذا قول يكذبه الحديث المروى فى البخارى عن ابن عباس عن أبىّ عن رسول الله ﷺ وفيه: « قال خذ نونًا ميتًا حيث ينفخ فيه الروح » والنون هو الحوت ، كما ورد فى الروايات الأخرى .

ولم يكن موسى عليه السلام وفتاه يعلمان أن الصخرة التى كانا عندها تقع بين مجمع البحرين ، فانطلقا بعيدًا عنها وجاوزاها بيوم وليلة ، كما فى حديث البخارى وغيره ، فلما جلسا ليستريحا قال موسى لفتاه : « آتنا غداءنا » وشكا إليه ما لقيه من تعب فى هذه الرحلة مواساة له وتعبيرًا عن مشاعره نحوه .

وعندئذ يتذكر الفتى ما كان من أمر الحوت فيعتذر إليه بأن الشيطان قد أنساه أن يذكره له ، وأخبره بعجيب ما رأى منه ، فعذره موسى عليه السلام ووجد فى ذلك بغيته ، فقام ومعه فتاه يقصان الأثر ليصلا إلى تلك الصخرة التى كانا عندها ، فهذا هو المكان الذى سيلقى فيه الخضر كما وعده ربه عز وجل .

قال تعالى : ﴿ فلما بلَغَا مَجمعَ بينِهما نَسِيَا حوتَهما فاتَّخذَ سبيلَه فى البحر سَرَبًا . فلما جاوَزَا قال لفتاه ءاتنا غداَءنا لقد لقِينا من سفرِنا هذا نَصَبًا . قال أرءَيتَ إذ أَوَيْنا إلى الصخرةِ فإنِّى نسيتُ الحوتَ وما أنسانيهُ إلا الشيطانُ أنْ أذكرَه واتخذَ سبيله فى البحرِ عجبًا . قال ذلك ما كنا نبغِ فارتدَّا على ءاثارِهما قَصَصًا ﴾ (١) .

والسَّرَب : معناه النفق والمسلك والظهور ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سواءٌ منكم من أَسَرَّ القولَ ومن جَهَرَ به ومن هو مُستخفٍ باللَّيلِ وساربٌ بالنهارِ ﴾(٢) .

والغداء : هو الحوت الذى كان فى المكتل ، وقد روى أنه قد أكل منه .

والنصب : هو التعب الشديد ، وقد نسب الله نسيان الحوت إليهما ؛ لأن كلاً منهما كان يجب عليه أن يرقبه ، لأنه العلامة التى يعرفون بها مكان الخضر ، وكان على موسى بالذات أن يكون أشد ترقبًا من الفتى ، فلما نسى أن يسأله عنه وهو عند الصخرة كان جديرًا أن ينسب النسيان إليهما معًا ، فموسى عليه السلام نسى أن يسأله، وفتاه نسى أن يذكره له ويحدثه عما رأى منه ، وموسى أنساه التعب ، والفتى أنساه العجب .

---

(١) سورة الكهف آية : ٦١ - ٦٤ .   (٢) سورة الرعد آية : ١٠ .

وقد نسب الفتى الإنساء إلى الشيطان تأدبًا مع الرحمن ، وتلطفًا فى الاعتذار .

هذا ويزعم بعض المفسرين أن الذى اتخذ سبيله فى البحر عجبًا هو الفتى ، قالوا : إنه ذهب إلى البحر فى سرعة خاطفة ليأتيه بحوت آخر يأكلانه معًا ! .

وهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة ، والقول الذى ذهب إليه جمهور المفسرين أنه الحوت ، فقد كان اتخاذه طريقًا فى البحر على النحو الذى رآه الفتى أمرًا عجبًا ، أى واتخذ الحوت طريقه فى البحر اتخاذًا يدعو إلى العجب .

روى البخارى عن النبى ﷺ أنه قال فيما قال : ﴿ واتخذ سبيله فى البحر عجبًا ﴾ قال : فكان للحوت سربًا ولموسى وفتاه عجبًا » .

• لقاء موسى والخضر :

ولما انتهيا إلى الصخرة التى كانا عندها وجدا العبد الصالح الذى آتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه من لدنه علمًا ، فسلم موسى عليه السلام فرد عليه السلام، وقال : وأنى بأرضك السلام ؟ ، ولعله قال له ذلك لأنه لم يسمع على وجه الأرض من ألقى عليه السلامَ من زمن ، أو المراد بأرضه التى هو فيها حين لقيه ، أو الأرض التى يعيش فيها بنو إسرائيل .

وقوله : « وأنى بأرضك السلام » من رواية البخارى عن سفيان ، وفى رواية أخرى للبخارى قال : « هل بأرضى من سلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال : فما شأنك ؟، قال : جئت لتعلمنى مما علمت رشدًا ، قال : أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحى يأتيك يا موسى ؟! إن لى علمًا لا ينبغى لك أن تعلمه ، وإن لك علمًا لا ينبغى لى أن أعلمه . فأخذ طائر بمنقاره من البحر ، فقال : والله ما علمى وما علمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر » .

ولكن موسى عليه السلام يمضى فيقول : هل تأذن لى أن أصحبك وأخدمك على أن تعلمنى مما علمك الله ، فقال له الخضر : إنك لن تستطيع أن تصبر على ما تراه منى من الأمور التى قد تحسبها شرًا فتلومنى عليها ، وأنت صاحب شريعة تحكم بظواهر الأمور ، فقال له موسى : ستجدنى إن شاء الله صابرًا معك لا أعترض على شىء مما تفعله ، ولا أعصيك فى أمر تأمرنى به .

فاشترط عليه الخضر ألا يسأله عن شىء يراه مخالفًا لشريعته ، أو عن أمر خارق

للغادة ، أو منافى للمروءة فى الظاهر ، حتى يحدثه - إن شاء - عنه ويذكر له الحكمة من فعله ، فاتفقا على ذلك فانطلقا إلى ساحل البحر .

وهنا ندع موسى والخضر على ساحل البحر ينتظران السفينة التى تحملهما إلى الشاطىء الآخر ، وننظر بإمعان وتدبر فى الآيات التى تحدثت فى هذا المقطع ، لنرى فيها مزيدًا من اللطائف والعظات والعبر ، قال تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عبدًا من عبادنا آتيناه رحمةً من عندِنا وعلَّمناه من لَدُنَّا علمًا . قال له موسى هل أتَّبِعُك على أن تُعلمنِ مما عُلِّمْت رُشدًا . قال إنَّك لن تستطيعَ معِىَ صبرًا . وكيف تصبِرُ على ما لم تُحطْ به خُبرًا . قال ستجدُنى إنْ شاءَ اللهُ صابرًا ولا أَعصى لك أمرًا . قال فإنِ اتبعتنى فلا تسئَلْنِى عن شىءٍ حتى أُحدِثَ لك منه ذِكرًا ﴾ [1] .

إن الله عز وجل لم يذكر اسم الرجل الذى لقيه موسى ولا كنيته ولا لقبه ؛ لأنه لم يتعلق بذلك فائدة تنفع المؤمن فى دينه ودنياه . وهذا ديدن القرآن فى طى ما لم يتعلق بذكره فائدة .

ولكن الله عز وجل وصفه بأحب الأوصاف إليه وهو الوصف بالعبودية ، وأخبر أنه عبد آتاه رحمة واسعة من عنده . ويدل على هذا الاتساع تنكير الرحمة فى الآية ، فالتنكير هنا يدل على الاتساع والتعظيم ، وقد فسروا الرحمة هنا بالنبوة .

وأخبر - عز شأنه - أنه قد علمه من لدنه علمًا خاصًا أفاضه عليه بلا واسطة ظاهرة ؛ ولهذا سمى العلم الذى علمه اللهُ الخضرَ بالعلم اللدنى .

وانظر كيف تواضع موسى للخضر من أجل الحصول على بعض ما لديه من علم - وعنده التوراة فيها هدى ونور - فقال له : هل أتبعك ؟ . والتبيع فى اللغة: الخادم الذى يسمع ويطيع ، إنه يستأذنه ولا يفرض عليه ، فيأبى الخضر ويتمنع ويؤكد له أنه لن يستطيع صبرًا وهو معه فى صحبته ، ولكن موسى عليه السلام ، يستميت فى الطلب ، فمن أجله عقد العزم على أن يظل ماشيًا فى طلبه ولو لبث فى المشى أحقابًا طويلة من الزمان .

فيقول : ستجدنى إن شاء الله صابرًا ، فيقدم المشيئة طلبًا لعون الله تعالى من جهة ، وطلبًا لمرضاة الخضر من جهة أخرى ، وتخففًا من ثقل الوعد إن وقعت منه

(١) سورة الكهف آية : ٦٥ - ٧٠ .

مخالفة ، وتبركًا بذكر المشيئة فى هذا الاستثناء الذى لابد منه فى أى شىء يعزم المسلم على فعله أو تركه فى المستقبل ·

كما قال تعالى : ﴿ ولا تقولَن لشىءٍ إنى فاعلٌ ذلك غدًا · إلا أن يشاءَ اللهُ واذكرْ ربَّك إذا نسيتَ وقل عسى أن يهدِيَنِ ربى لأقربَ من هذا رَشَدًا ﴾ (١) ·

ويظهر موسى عليه السلام كمال التواضع عندما يعده بأنه لا يعصى له أمرًا مهما كان فيه من الكلفة والمشقة ما لم يكن هذا الأمر معصية ، وهو يعلم من حاله أنه لا يأمره بمعصية ·

وما كان لموسى عليه السلام أن يقبل من الخضر هذا الشرط الذى اشترطه عليه إلا ليسعد بصحبته ويفيد من علمه ، ففى سبيل العلم تهون الشدائد وتتطامن (٢) النفوس ، وتسمو العزائم وتنهض الهمم ·

ولكنَّ هذا العلم الذى منحه الله للخضر هو علم لا يستسيغه عقل موسى ، ولا يقبله منطقه ، فهو فوق إدراك العقول وتصوراتها ، والعلم الذى يفيد صاحبه هو العلم الذى يحيط به عقله ، وتتسع له مداركه، فينزل عنده منزل القبول والاطمئنان ، فإذا لم يكن كذلك أضر ولم ينفع ، وأثار فى النفس قلقًا واضطرابًا، وعقد فى سماء الفكر سحبًا من الشكوك والريب ·

ولقد روى البخارى عن أبىّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أن الخضر قال لموسى : « إن لى علمًا لا ينبغى لك أن تعلمه ، وإن لك علمًا لا ينبغى لى أن أعلمه» ·

• موسى والخضر فى السفينة :

فلما اتفقا انطلقا فى طلاقة وبشر وحسن صحبة ، وما أجمل صحبة العلماء ولاسيما إذا كان مع كل صاحب من العلم غير الذى عند صاحبه ، وبخاصة إذا كان كل منهما على جانب عظيم من الهداية والتقى ، فكيف بصحبة نبيين هما موسى والخضر !

وجاءت سفينة فاستأذنا أصحابها فى الركوب فأذنوا لهما ولم يأخذوا منهما أجرًا،مبالغة فى إكرامهما وطمعًا فى دعائهما لِما رأوا على وجهيهما من الهدى والنور ·

---

(١) سورة الكهف آية : ٢٣ - ٢٤ ·   (٢) تتواضع وتخضع ·

فلما كانت السفينة فى عرض البحر خرقها بيده ، فاشتاط موسى غضبًا وحكم على فعله هذا بحكم تنص عليه شريعته بحسب الظاهر ، فذكَّره الخضر بشرطه ، فاعتذر اعتذارًا جميلاً ، فقبل الخضر عذره ، وفى هذا يقول الله عز وجل: ﴿ فانطلقا حتى إذا ركَبا فى السفينةِ خرقَها قال أخرقتَها لتُغرقَ أهلَها لقد جئتَ شيئاً إمْرًا · قال ألم أقلْ إنَّك لن تستطيعَ معىَ صبراً · قال لا تؤاخذْنى بما نسيتُ ولا تُرهقْنِى من أمرى عُسراً ﴾ (١) .

والمتأمل فى هذه الآيات يجد الكثير من اللطائف البيانية ، والأخلاق المثالية عند كل من موسى والخضر ، فكل منهما يمثل جانبًا محمودًا من هذه الأخلاق · فتأمل معى هذه الآيات وأنا دليلك على الطريق ·

لماذا عرّف السفينة مع أنه لم يرد لها ذكر فى الكلام من قبل ، ولماذا قال : ﴿لتغرق أهلها ﴾ ، ولم يقل : « لتغرقنا » مثلاً ، ثم لماذا كانت هذه الثورة العارمة من موسى على أستاذه ، ثم لماذا قابل الخضر هذه الثورة بالرفق واللين ، ولماذا يهدأ موسى فجأة فيعتذر للخضر بالنسيان ، ويسأله عدم المؤاخذة على اعتراضه وثورته ، وألا يحمله من الأمر ما يتعسر عليه حمله ؟

وأنا أجيبك عن هذه الأسئلة على قدر علمى وفهمى - والله أعلم بالسرائر - فأقول :

أما تعريف السفينة بأداة التعريف فيشير إلى أنها قدر ساقه الله إليهما فكان فى انتظارهما ، وكأنهما كانا معها على موعد ، فهى تساق إليهما ، وهما يساقان إليها ليحدث فيها ما كان كائنًا فى علمه ·

وأما قوله : ﴿ لتغرق أهلها ﴾ فيشير إلى أن موسى عليه السلام كان أشد حرصًا على نجاة أهلها منه على نفسه ، وهذه هى الرحمة التى يتحلى بها الأنبياء ، فتتجلى فى أقوالهم وأفعالهم ·

وأما هذه الثورة العارمة التى قام بها موسى عليه السلام ضد أستاذه فقد كان له العذر فيها ؛ لأن خرق السفينة كان أول شىء هاله فى أول جولة علمية صحبه فيها ، وخرق السفينة معناه فى الظاهر تخريبها ، وإغراقها ، وهو من الفساد فى نظره بمكان

---

(١) سورة الكهف آية : ٧١ - ٧٣ ·

لا ينبغى السكوت عليه ، وهو عمل يدل على أن الذى قام به إنسان غير مبالٍ بعواقب الأمور ، إنه عدوان صارخ على الأبرياء لا مبرر له ولا عذر لمرتكبيه .

والغضب لله مَحْمَدَة لصاحبه ما دام هذا الغضب لا يؤدى إلى منكر مساوٍ لما غضب لله من أجله ، وموسى عليه السلام لم يزد عن هذه الكلمات التى حكاها الله عنه فى كتابه .

إنه استفهام يحمل فى طياته عتابًا فيه شىء من القسوة ، وفى كلامه أيضًا حكم شرعى رأى من الواجب عليه أن يذكره للخضر ، وإن بدا فيه شىء من العنف استدعاه الغضب - وهو جَمْرَةٌ من فَيْح جهنم - ولم يكن قد تعود على رؤية مثل هذا الفعل من قبل .

أما الخضر فإنه كان يعلم سلفًا أن موسى عليه السلام لا يستطيع الصبر على ما يرى منه من خوارق العادات وخفيات الأمور ، فلم تكن هذه الثورة التى قام بها موسى عليه السلام مفاجئة له ، بل كان يتوقعها ، ويتوقع ما هو أكثر منها ؛ لعلمه أن موسى عليه السلام صاحب شريعة يحكم بالظاهر وأنه شديد الغضب لله ، ولهذا أوصاه ربه أن يتمالك نفسه عندما يذهب هو وأخوه هارون إلى فرعون : ﴿ فقولا له قولاً لينًا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (1) .

ولهذا كان الخضر حليمًا معه لم يزد على تذكيره بما قال له عندما طلب أن يصحبه : ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرًا ﴾ .

والعلم يزينه الحلم ، والأستاذ يجب أن يكون أوسع صدرًا من التلميذ ، وكل منهما أستاذ وتلميذ ، فإن لموسى علمًا لم يكن للخضر ، وإن للخضر علمًا لم يكن لموسى ، فكل منهما يأخذ عن الآخر وإن كان الظاهر على الساحة وفى هذه الفترة أن موسى هو التلميذ والخضر هو الأستاذ ، فلا بأس لدى الأستاذ أن يعفو ويصفح عن تلميذه إذا جاوز حده معه فى الأقوال أو فى الأفعال ، فكان الحلم من الخضر أيضًا محمدة كما كان الغضب من موسى محمدة ، وكلٌّ فى موقعه سديد ، وكل منهما فيما قاله لصاحبه رشيد .

وإذا كان الرجوع إلى الحق فضيلة فإن موسى عليه السلام هو أعرف الناس

---

(1) سورة طه آية : ٤٤ .

بالحق ، وأسرع الناس إلى اعتناقه والدفاع عنه ، وأشدهم تواضعاً لذوى الحقوق وأهل الفضل ، لهذا طلب من الخضر طلبًا حثيثًا بأسلوب مهذب ألا يؤاخذه على أمر قد بدر منه ، وأنساه الشرط الذى أخذه على نفسه ، وكأنه يقول له : لا تؤاخذنى بقطع الصحبة فتجعلنى أحمل ندمًا لا أقوى على احتماله ، وحزنًا لو غشينى ولازمنى لقضى على أو عاقنى عن تبليغ الرسالة والحكم بين الناس ، فإننى قد تجشمت المصاعب فى سبيل لقائك ، وبذلت أقصى الجهد من أجل أن أسعد بصحبتك ، وأن استرشد ببعض ما لديك من علم .

• الخضر وقتل الغلام :

ويقبل الخضر اعتذار موسى عليه السلام ويمضيان معًا فى طريقهما إلى حيث يشاء الله عز وجل ، ويبصر الخضر فى الطريق غلامًا يلعب مع الغلمان فيأخذه بعيدًا عنهم ويقتله أمام موسى عليه السلام ، فلا يتمالك موسى نفسه ولا يستطيع التحكم فى مشاعره ، فقد رأى فَعْلة أشد من سابقتها وقعًا وأفدح منها خطبًا ، إذ كانت الأولى مظنة للقتل ، أما هذه فقد وقعت على نفس إنسانية بريئة براءة الطفولة لم يقترف إثمًا ولم تأت منكرًا .

من أجل هذا ينسى موسى وجوده كله ، ولا يذكر الشرط الذى بينه وبين صاحبه ، ولا يلتفت إلى زلته التى زلها منذ حين مع أستاذه واعتذاره له ، فيصرخ صرخة عالية مدوية لا تدع للصلح موضعًا ، لكن الخضر عليه السلام يفسح له صدره، ويقول له مثل ما قال له من قبل مع زيادة طفيفة تشعرنا بشىء من التبرم به ومن صحبته .

وهنا يغضب موسى عليه السلام من نفسه ، فلا يجد ما يعاقبها به إلا أن يجعل هذا الاعتراض نهاية الاعتذار بحيث لو اعترض عليه فى شىء بعدها لا تلزمه صحبته، ولا يستحق أن يكون من تلاميذه فى طلب هذا العلم الذى خصه الله به.

قال تعالى : ﴿ فانطلقا حتى إذا لَقِيَا غلامًا فقتلَه قال أقتلتَ نفسًا زكيةً بغيرِ نفسٍ لقد جئتَ شيئًا نُكرًا . قال ألم أقلْ لك إنك لن تستطيعَ معىَ صبرًا . قال إن سألتُك عن شىءٍ بعدها فلا تصاحِبْنى قد بلغتَ من لدُنِّى عذرًا ﴾ (١) .

---

(١) سورة الكهف آية : ٧٤ - ٧٦ .

لقد كانت هذه الصرخة أعلى من الصرخة الأولى ، فإن الأولى كانت على استحياء منه ووجل من إغراق السفينة بإهلها وهو يظن أن الخضر قد يمهد لهذا العمل عذرا مقبولاً ، وهو على أمل أيضًا أن يقوم الخضر بإصلاحها وتلاشى الخطر قبل وقوعه ، فكان فى النجاة رجاء ، ولهذا قال له : ﴿ لقد جئت شيئًا إمرًا ﴾ أى شرًا ، والشر قد يتقى أو يحتمل بشىء من الصبر والجلد ·

وفى المرة الثانية يقول له : ﴿ قد جئت شيئًا نُكرًا ﴾ أى لقد فعلت شيئًا غاية فى الشر والقساوة والنكارة ، لقد أتيت أمرًا تنكره الأديان السماوية والعقول السوية والطباع السليمة ، فما ذنب طفل لم يقترف إثمًا ولم يقتل نفسًا بغير حق ·

فالموقف هنا إزاء جريمة شنعاء وليس فى إمكان الخضر أن يقيم العذر فى فعلها من وجهة نظر موسى عليه السلام بخلاف خرق السفينة ، والخضر لم يفقد حلمه كما أشرنا ، ولكنه فى هذه المرة يزيد على ما قاله له فى المرة الأولى كلمة ﴿ لك ﴾ فيقول ﴿ ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرًا ﴾ ، فتكون هذه الكلمة التى زادها فى هذه المرة نوعًا من العتاب الرقيق ، والتذكير الحانى بالشرط الذى أخذه عليه ·

وفيه أيضًا - فوق ما ذكرنا - تنبيه له بأن صبره لم يعد ممكنًا بعد هذا الاعتراض الثانى ، وكأنه يوحى إليه بانقطاع الصحبة ، ويشير من طرف خفى إلى أنه لم يعد يحتمل تدخله السافر فى أمر لا يعرف القصد منه ، ولا يتمكن على وجه التحديد من معرفة حكم الله فيه لعدم علمه ببواطن الأمور ·

فهذه الزيادة كانت لها وقع فى نفس موسى عليه السلام ، فهى قد وضعت النقط فوق الحروف كما يقولون ، وانتهت به عليه السلام إلى الحد الذى يجب أن يقف عنده ولا يتجاوزه ·

ولا يجد موسى أمام هذا البعد البعيد الذى بين منطلقه ومنطلق صاحبه إلا أن يحسم الموقف ، ويقطع الشوط الذى إن طال بينهما إلى أبعد من هذا المدى لم تحمد عاقبته ، لقد رأى موسى عليه السلام أن صاحبه قد مل صحبته وضاق بمقالته الأولى والثانية ذرعًا ، وأحس أنه يريد فراقه ، ولكن يمنعه الحياء من التصريح به ، فيسرع إلى أخذ زمام المبادرة قبل أن يقع التصريح بذلك فى وقت من الأوقات لأى هنة من الهنات ، فقال له : لا عليك فقد أعذرت وأنذرت وأكرمت وتحملت ، وكنت معى

مثال الخلق الفاضل والسلوك النبيل ، فلك العتبى [1] منى حتى ترضى ، والآن قد عرفت أننى لست أهلاً لصحبتك ، لكن الرجاء فيها قائم ، فاجعل لى فرصة أخيرة ألوم فيها نفسى ، واستجمع فيها قواى لاستحضار الشرط الذى أخذته على من قبل ، فإن سألتك عن شىء بعدها ففارقنى ، ولا تتمسك بصحبتى .

وهذا الشرط من موسى عليه السلام كان بدافع الحياء أيضًا ، فالخضر يريد فراقه ويمنعه الحياء من التصريح بذلك ، وموسى يريد صحبته ويمنعه الحياء من الاستمرار فى ذلك ولكن « لا ضرر ولا ضرار » .

قال عليه الصلاة والسلام : « رحم الله أخى موسى استحيا فقال ذلك ، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب » [2] .

● بناء الجدار واعتراض موسى عليه :

وبعد هذا الموقف الحاسم والعتاب الجاد الذى كاد يؤذن بالفراق ، ينطلقان فى أرض الله حيث يشاء الله تبارك وتعالى ، حتى أتيا أهل قرية فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فنزلا فى مكان خرب فوجدا فيه جداراً آيلاً إلى السقوط فبناه الخضر كأحسن ما يكون البناء ، فتعجب موسى عليه السلام من صنيعه هذا ، وعبر عن مشاعره بكلمة لم ير فيها إخلالاً بالشرط الذى قطعه على نفسه ، ورأى فيها الخضر أنها القاضية بالفراق ، فصرح له بذلك ولكن لم يفارقه حتى نبأه بتأويل ما لم يستطع عليه صبراً .

قال تعالى : ﴿ فانطلقا حتى إذا أَتَيَا أهلَ قريةٍ استطعما أهلَها فأبَوْا أن يُضَيِّفوهما فوجدا فيها جداراً يريدُ أن ينقضَّ فأقامَه قال لو شئتَ لَتَّخَذْتَ عليه أجراً . قال هذا فِراقُ بينى وبينِك سأُنَبِّئُكَ بتأويلِ ما لم تستطعْ عليه صَبراً ﴾ [3] .

ونقف أمام هذا النص وقفة تأمل فنرى أن موسى والخضر عليهما السلام لم ينزلا بالقرية ، ولكنهما نزلا بأهلها ، فكان على أهلها أن يضيفوهما بما يجب للضيف

---

(١) المعذرة .

(٢) الحديث ذكره أبو السعود فى تفسيره ، وفى الروايات الصحيحة ما يقاربه فى المعنى فقد روى البخارى ومسلم : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبة ذمامة » أى حياء وإشفاق من الذم (انظر جامع الأصول ج٢ ص ٢٢٥ - ٢٣٠) .

(٣) سورة الكهف آية : ٧٧ - ٧٨ .

على المضيف من تقديم الطعام والشراب وتوفير سبل الراحة له بقدر الإمكان ، فلما تجاهل القوم ذلك طلبا منهم الطعام صراحة ، وهذا من حقهما وهما لم يطلباه شحاذة[1] ولا استجداءً وإنما طلباه ضيافة ؛ ولهذا قال جل شأنه : ﴿ فأبوا أن يضيفوهما ﴾ ولم يقل فأبوا أن يطعموهما ·

ونلحظ أن لفظ الأهل تكرر فى الآية مرتين فلماذا ؟

أقول - والله أعلم - إن الله عز وجل أراد أن يخبرنا أولاً أنهما نزلا بأهل القرية ولم ينزلا بالقرية نفسها ، فقد لا يكون فى القرية سكان ، وأخبرنا ثانيًا أنهما طلبًا الطعام من أهلها لا من الغرباء الذين قدموا إليها ، والواجب على أهل القرية أن يكونوا أول من يلقى النازلين بها وأول من يبادر بضيافتهم وإكرامهم ؛ ولديهم من وسائل الضيافة وسبل الراحة والحفاوة ما ليس لغيرهم من الغرباء ، وهذا ما يحز فى نفوس النازلين بهذه القرية ، كيف يكونون من أهلها ولا يؤدون حق الضيافة لمن نزل بساحتهم وحل بدارهم ، إنها إذًا قرية قد ماتت فيها كل مشاعر الإنسانية ، وذهبت منها كل معانى المروءة ·

وخلاصة الجواب عن هذا السؤال أنه لو حذف لفظ ﴿ أهل ﴾ الأولى لفات الإخبار بنزولهما على جمع من الناس يقيمون فيها ، وأدى إلى احتمال أن يكونا قد نزلا فى مكان من القرية بعيد عن الناس ، فلا يكون لهما عليهم حينئذ حق الضيافة ·

ولو حذف لفظ « أهل » الثانية فقيل : حتى إذا أتيا أهل قرية استطعماهم ، لدخل الغرباء معهم فى البخل ، ولحقهم الذم ، فكان التنصيص على أهل القرية هنا لإزالة الإيهام ورفع الإبهام ، وإلحاق الذم بأهل القرية دون غيرهم من النزلاء ·

وانظر بعين الاعتبار إلى الخضر عليه السلام وهو يبنى الجدار فى قرية لم يصنع أهلها فيه ولا فى صاحبه معروفًا ، ولم يعرفوا لهما حقًا ، وموسى عليه السلام ينظر إليه دهشًا وهو يضع لبنة على لبنة ، ولا يبالى بما هما فيه من جوع ونصب، والقوم ليسوا أهلاً للمعروف ، والمكان الذى يبنى فيه الجدر خرب يخلو من السكان ، وبناؤه

---

(1) الشحاذة فى اللغة من معانيها : الإلحاح فى السؤال ، ويقال للملّح فى السؤال شحاذ بالذال وبالثاء ، ولا يقال شحات بالتاء · انظر هذه المادة بطولها : ص ٣٤٠ فى « معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة » لمحمد العدنانى ·

عمل فى غير محله ، وشغلٌ فى غير وقته ، والحاجة لا تدعو إليه ، وهناك من الأمور ما هو أهم منه ، وهو البحث عن الطعام والمأوى والفراش ونحوه .

فأراد موسى أن يصرح له بما يدور فى نفسه من هذه الخواطر وغيرها بكلمة فيها عرض وليس فيها اعتراض .

إنه لعرض جميل مطابق للشرع موافق للعقل ، وهو إلى التمنى أقرب منه إلى التوجيه أو العتاب واللوم ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ .

وقد تكون هذه الكلمة استحساناً لبناء الجدار ، وإكباراً لمروءة الخضر واستحقاقه الأجر عليه لو شاء ، فإن لم يشأ فهو وشأنه ، وإن كان من الأولى شرعًا وعقلاً أن يأخذ على هذه البناء أجراً من مالك العقار يشترى منه ما ضن عليه القوم به ومنعوه إياه ، وهو الطعام وما إليه .

لكن الخضر عليه السلام يعتبر هذا القول من موسى عليه السلام اعتراضًا لا عرضًا ، وهى وجهة نظر لا يلام عليها ولا يُجادل فيها .

ألم يقل له : ﴿ فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أُحدث لك منه ذكراً ﴾ .

ألم يقل له موسى فى المرة الثانية : ﴿ إن سألتُك عن شىءٍ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغتَ من لدنى عذراً ﴾ .

أليس فى كلام موسى عليه السلام ما يشعر بتبرمه من هذا العمل ولو بطريق غير مباشر !

أليس فيه ما يشعر باستكثاره على أمثال هؤلاء الذين أساءوا لقاءهما ، ولم يكرموا مثواهما ، ولم يقدموا لهما من الطعام ما لا يضن بمثله إلا اللئام !

وموسى عليه السلام لم ينطق بهذه الكلمة الوادعة الضارعة إلا ليجد لها عند صاحبه قبولاً حسنًا ، ولا يعدها مما ينقض الشرط الذى بينهما ، ولكن العبد الصالح لا يلتفت إلى تلك المشاعر التى تجول فى خاطر موسى عليه السلام ويتمسك بظاهر المقولة ، فيأذن بالفراق وهو أمر لابد منه لتعذر صبر موسى عليه ، ولكن ليس قبل أن ينبئه بتأويل ما لم يستطع عليه صبراً ، فلما نبأه ودعه وانصرف .

• تأويل ما اعترض عليه موسى :

جلس العبد الصالح مع النبى المرسل قبل فراقه ليكشف له عن أسرار ما اعترض عليه ، ولم يتسع صدره لتحمله ومواجهته .

وهذا تفضل منه لأنه لم يشأ أن يرجع موسى إلى قومه دون أن يفيد منه علمًا، وقد ساقه الله إليه وأمره أن يلقاه عند مجمع البحرين ، وقد قطع فى ارتحاله إليه مسافة بعيدة وجد فيها كثيرًا من المشقة والنصب ·

ورأى أن من الخير ألا يعود موسى إلى قومه بخفى حنين مزلزل الفكر شارد الذهن ، يضرب أخماسًا فى أسداس ، وهو لا يدرى عما شاهد من هذه الأحداث ما يزيل شكه وأسفه ، ويخفف عنه لوعة الفراق ·

وكان لابد للمعلم أن يكشف لتلميذه عن خفايا هذه التجربة المثيرة التى أراه منها ظاهرًا لا يستقيم على أى منطق ، ولا يتفق مع أى عقل ، ولا يلتقى مع تقدير أى إنسان سليم الإدراك ·

إنها أمور تدور لها الرءوس ، وتضطرب معها العقول ، وإن موسى لفى حيرة بالغة من أمر صاحبه هذا ، الذى جاءه ليطلب العلم عنده بتوجيه من ربه وحيًا وإلهامًا·

وقد فعل المعلم ما تقضى به الحكمة ، ويعتدل به ميزان التربية السليمة ، فلم يدع تلميذه نهبًا للوساوس والشكوك فأخبره أولاً بأمر السفينة التى خرقها ، ثم أخبره بالحكمة الإلهية فى قتله الغلام ، ثم أخبره بالحكمة من وراء بناء الجدار على حسب ترتيب الأحداث ·

ولنقرأ هذه الآيات التى تضمنت هذه الأخبار ، وحوت تلك الحكم والأسرار ، ثم نتدبرها لنستنبط منها - كما هى عادتنا - من اللطائف البيانية ، والآداب المرعية بقدر طاقتنا البشرية ، والله المستعان ·

يقول الله جل شأنه : ﴿ أما السفينةُ فكانت لمساكينَ يعملونَ فى البحرِ فأردَتُ أن أَعيبَها وكان وراءَهم مَلِكٌ يأخذُ كلَّ سفينة غَصْبًا · وأما الغلامُ فكان أبواه مؤمنَيْنِ فَخَشِينا أن يُرهقَهما طُغيانًا وكُفْرًا · فأردنا أن يُبْدلَهما ربُّهما خيرًا منه زكاةً وأقربَ رُحْمًا · وأما الجدارُ فكان لغلامَيْن يتيمَيْن فى المدينةِ وكان تَحتَه كَنزٌ لهما وكان أبوهما صالحًا فأراد ربُّك أن يبلُغا أَشُدَّهما ويَستخرجا كَنْزَهما رحمةً من ربِّك وما فعلتُه عن أمرى ذلكَ تأويلُ ما لم تَسْطِع عليه صبرًا ﴾ (١) ·

(١) سورة الكهف آية : ٧٩ - ٨٢ ·

نرى أن هذه التأويلات الثلاثة للأحداث الثلاث ترجع فى جملتها إلى مقصد واحد خفى على موسى عليه السلام - هو البر والرحمة والإحسان بأصحاب السفينة، والغلام[1] وأبويه ، واليتيمين وأبيهما .

يدل على ذلك بوضوح سياق التأويل ؛ فقد كان العبد الصالح سهلاً فى تعبيره، مشرقًا فى تصويره للحقائق التى أراد إبرازها بكل تواضع وأدب .

وكان ختام التأويل هو المسك الذى تضوع فأراح النفوس وأثلج الصدور ، وأنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ؛ إذ ردّ الأمر فيه لصاحب الأمر ، وهو الذى لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه : ﴿ وما فعلته عن أمرى ﴾ .

عندئذ تكون قد وضحت المحجة ، وظهرت الحجة ، وبان الصبح لذى عينين ، وأبصر الحق أهل الحق فانتهوا إليه ، ولزموه والتزموه .

إن هذا الختام لم يترك لموسى عليه السلام مجالاً لسؤال ولا محلاً لشبهة ، بل ولا أسفًا على فراق ، ولا ندمًا على تلك الرحلة التى تجشمها من أجل هذه الصحبة، لهذا كان نهاية الحديث بينهما هى الكلمة التى أعقبت التصريح بالفراق فكانت هى التعبير عن الوفاء من رجل ديدنه الوفاء ، ﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ .

ولقد أفاد موسى عليه السلام من هذه الرحلة كثيراً من العلم والأدب، وأضاف إلى تجاربه فى الحياة تجارب أخرى لم يكن ليحصل عليها لو لم يلق هذا العبد الصالح ويلزمه مدة من الزمان لا ندرى أطالت أم قصرت ، وأحاط خُبراً بكثير من شئون الله فى خلقه ، فكانت هذه الرحلة بالنسبة له رياضة روحية شرح الله بها صدره بعد أن ضاق ذرعًا بأذى قومه ، وكثرة اختلافهم عليه ، وعصيانهم له فى كثير من الأوامر الإلهية .

ولعل أهم شىء أفاده موسى عليه السلام من هذه الرحلة - والله أعلم - هو معرفة خطئه الذى وقع فيه عندما سأله رجل من قومه قائلاً : أى الناس أعلم ؟، فقال : أنا ؛ وكان عليه أن يرد العلم فى ذلك إلى الله تعالى ، فعتبَ الله عليه ، وأراه من لا يستطيع الصبر معه فى تحصيل بعض ما عنده من العلم ، فكانت هذه الرحلة رحلة تربوية تأديبية أكثر منها رحلة علمية .

---

(١) أما الرحمة بالغلام فإنها تتمثل فى إنقاذه من الكفر وقتل أبويه إذا ما بلغ الحلم فمن الخير له أن يموت صغيراً .

وتربية الأنبياء وتأديبهم يختلف عن تربية سائر الناس وتأديبهم . وهذا مما لا يتسع المجال لذكره هنا « ولله فى خلقه شئون » .

أما نحن فقد أفدنا من قصته مع الخضر فوائد كثيرة ، منها كيف يكون الأدب مع الله تبارك وتعالى فى نسبة الأفعال إليه .

وذلك من خلال هذه الآيات التى ترجمت تأويل العبد الصالح لما اعترض عليه موسى عليه السلام .

يظهر شىء من هذا فى جمال تعبيره فيما نسبه إلى نفسه ، وفيما نسبه إلى ربه أثناء التفصيل ، وفى رده الأمر كله بعد ذلك إليه فى الجملة ؛ ليعلم - من شاء أن يعلم - كيف تكون نسبة الأفعال إلى الله تعالى فى التفصيل والإجمال .

فنحن نرى أن هذا العبد الصالح قد نسب إعابة السفينة إلى نفسه ، ولم ينسبها إلى ربه تأدبًا معه ، ورعاية لمقامه جل شأنه ، فقال : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ ، ولم يقل مثلاً : فأراد ربك أن يعيبها .

وهو أدب أرشدنا إليه القرآن فى هذا الموضع وفى غيره من المواضع .

فهذا هو إبراهيم عليه السلام يقول كما حكى الله عنه : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ [1] ، ولم يقل : وإذا أمرضنى . كما قال : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾، ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾ .

وهذا هو أيوب عليه السلام يضرع إلى ربه ، فيقول كما حكى القرآن عنه : ﴿وأيوبَ إذ نادَى ربَّه أنِّى مسَّنِىَ الضرُّ وأنت أرحمُ الراحمين ﴾ [2] ، وقال : ﴿ واذكرْ عبدَنا أيوبَ إذ نادَى ربَّه أنِّى مسَّنِىَ الشيطانُ بِنُصْبٍ وعذاب ﴾ [3] .

فقد نسب المس للضر وللشيطان ، وهو يعلم أن النافع والضار هو الله سبحانه وتعالى ولكنه الأدب، وقد حكى الله فى هذه القصة عن فتى موسى قوله : ﴿ وما أنسانيهُ إلا الشيطانُ أنْ أذكره ﴾ .

والجن قد كان منهم من يحسن القول ، فينسب الخير لله ، ولا ينسب الشر إليه، كما يفصح عنه قوله : ﴿ وأنَّا لا نَدرِى أَشرٌ أُريدَ بمن فى الأرضِ أم أرادَ بهم ربُّهم رَشَدًا ﴾ [4] ، فقد أبهموا فاعل الشر ، وأبرزوا فاعل الرَشَدَ ، فياله من أدب .

(١) سورة الشعراء آية : ٨٠ . (٢) سورة الأنبياء آية : ٨٣ .
(٣) سورة ص آية : ٤١ . (٤) سورة الجن آية : ١٠ .

وفى سورة آل عمران يعلمنا الله دعاء نقوله صباح مساء ، فيه نسبة الخير إليه دون الشر ، تأدبًا معه ، وتيمنًا بإجابته :

﴿ قُلِ اللهمَّ مالكَ المُلك تُؤتِى الملكَ من تشاءُ وتنزِعُ الملكَ ممن تشاءُ وتُعِزُّ من تشاءُ وتُذِلُ من تشاءُ بيدِكَ الخيرُ إنَّكَ على كلِّ شىءٍ قديرٌ ﴾ (١) .

ونرى العبد الصالح قد نسب الخشية له ولكل من يهمه الأمر ، فقال : ﴿ فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا ﴾ ، أى خفت ، وخاف كل ما من شأنه أن يخاف من سوء عاقبة هذا الغلام ، كأبويه والمقربين إليه ، ومن يرى على وجهه بوادر الشر .

ونسب إرادة بناء الجدار إلى ربه تأدبًا معه فى نسبه الخير إليه . فقال : ﴿ فأراد ربُّك أن يبلغا أشدَّهما ويستخرجا كَنزَهما رحمةً من ربِّك ﴾ .

ثم رد جميع الأفعال فى الجملة إلى الله عز وجل فقال : ﴿ وما فعلتُه عن أمرى ﴾ ومن هنا نضع لأنفسنا فى الأدب مع الله قاعدة خلاصتها : أننا إذا أردنا أن ننسب الشر لفاعله نسبناه إلى أنفسنا أو إلى الشيطان ، وإذا أردنا أن ننسب الخير إلى فاعله نسبناه إلى الله ، وإذا أردنا نسبة الأفعال من غير تمييز نسبناها إلى الله أيضًا تأدبًا ، فالخير بيديه ، والشر ليس إليه ، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد .

وهنا تنبيه ظريف : مفاده أن موسى عليه السلام ما كان ليقول للخضر : ﴿أخرقتَها لتغرقَ أهلَها ﴾ ، وقد نجاه الله من الغرق مرتين من غير سفينة – مرة وهو طفل رضيع ، ومرة وهو نبى مرسل .

وما كان له أن يعترض عليه فى قتل الغلام وقد سبق له أن قتل القبطى قضاء وقدرًا ، فغفر الله له ولم يعاتبه على ذلك .

وما كان له أن يلومه فى بناء الجدار وهو عمل تقتضيه المروءة ، وقد كانت له سابقة عند ماء مدين ، فقد سقى للمرأتين أغنامهما رحمة بهما ، وعطفًا عليهما ، وإحسانًا لأبيهما .

فما فعله الخضر هو من قبيل ما فعله موسى ، فلم كان اللوم والعتاب إذن ؟!

---

(١) سورة آل عمران آية : ٢٦ .

والجواب معلوم لا يحتاج إلى كثير تأمل ، فالأمر بالنسبة إليه كان غامضًا وقع أمام ناظريه فجأة وبدون مقدمات ولا مقتضيات .

هذا، وقد أكثر بعض المفسرين من ذكر الخلاف فى اسم الملك الذى كان يغتصب كل سفينة صالحة لحمل العتاد والعدد والرجال ، وأكثروا من ذكر الخلاف فى اسم الغلام الذى قتله الخضر ، وهل كان أبواه مباشرة أم كانا جدين ، وهل أبدلهما الله بابن بنت لهما ، أم ببنت خلق الله من نسلها سبعين نبيًّا، وأكثروا من ذكر أشياء طواها القرآن عنا لعدم الفائدة من ذكرها ، وليس لها فى السنة سند يعتمد عليه .

وهذا فى نظرى مضيعة للوقت ، وبلبلة للفكر ، وسوء أدب مع القرآن ، وقول على الله بغير علم .

● التعريف بالخضر :

لقد وعدناك - أيها القارئ الكريم - أن نحدثك بإيجاز عن بعض ما يتعلق بهذا العبد الصالح من مسائل تتمة للفائدة ، وتلبية لرغبة الكثير من طلاب العلم .

١ - ورد فى القرآن الكريم أنه عبد من عباد الله آتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه من لدنه علمًا .

وورد فى السنة أن اسمه « الخضر »، بينما ورد فى كتب التفسير أن « الخضر » لقب له واسمه « بليا » أو « إليا بن ملكان » ، وكنيته أبو العباس . ولا دليل على ما ذكروه ، فهو مما لا يصدق ولا يكذب .

فالقرآن والسنة فيهما الغنى عن غيرهما ، فالقرآن أبهم اسمه ، والسنة بينته بأنه الخضر . وهو لقب غلب عليه حتى صار عَلَمًا لا يعرف إلا به ، والسر فى تلقيبه بالخضر ما رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء » ، والفروة : الحشيش الأبيض والهشيم اليابس ، أو الأرض البيضاء التى لا نبات فيها .

٢ - وهو نبى على الأصح من أقوال العلماء بدليل قوله تعالى حكاية عنه : ﴿وما فعلته عن أمرى﴾ .

٣ - وقد عمّر الخضر طويلاً - كما قال الطبرى - حتى أدرك موسى عليهما السلام ومات بعد ذلك بدليل قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا لبَشَرٍ من قبلِك الخُلْدُ ﴾ (١).

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٣٤ .

ولو كان حيًا كما زعم كثير من رجال العلم لكان عليه أن يأتى النبى ﷺ ويعلن إيمانه به ، ويجاهد معه فى سبيل الله ، ولو حدث ذلك لحدث النبى ﷺ به أصحابه ، ونُقل إلينا .

ولا يصح ما ذكروه من أنه يلقى إلياس عليه السلام فى موسم الحج ويحلق كل واحد لصاحبه رأسه .

وقد ذكروا أيضًا أن الخضر جاء بعد موت النبى ﷺ يعزى أصحابه فيه قائلاً: « إن فى الله عزاءً من كل مصيبة ، وخلفًا من كل هالك ، ودَرْكًا من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حُرِم الثواب » .

ومع حسن هذه التعزية لم يثبت أن الخضر هو قائلها من طريق يعتد به ، كما ذكر ابن كثير فى الجزء الثانى من « البداية » ، والقاسمى فى تفسيره « محاسن التأويل» .

وما ورد من أن أناسًا كثيرين رأوا الخضر وكلموه فهو وهمٌ وتخرص وادعاء باطل .

فإن كان قد حدث أن رجلاً رأى رجلاً وجيهًا وسيمًا فخيل إليه أنه الخضر بدليل أنه اختفى عنه فجأة فهو من الجن ، كما قال كثير من أهل العلم .

* * *

مؤمن آل فرعون

كان من بين الذين آمنوا بموسى عليه السلام من قوم فرعون رجل حكيم قد كتم إيمانه عن قومه ليعين موسى عليه السلام فى دعوته ، ويُطلْعه على مكر فرعون ، وملئه أولاً بأول .

فلما علم أن فرعون وهامان وقارون قد عقدوا العزم على قتل موسى ومن معه من المؤمنين - هاله الأمر ، وقام بما يُحتِّمه عليه إيمانه ، ويمليه عليه ضميره فدعا الناس إلى التريث والتعقل فى هذا الأمر الجلل،وحثهم على الإيمان به بأسلوب بليغ مقنع،يأخذ بمجامع القلوب،قد حكاه الله عنه فى ثمانى عشرة آية من سورة غافر .

وخلاصة قصته أن السحرة لما آمنوا برب العالمين بلغ الغيظ من فرعون غايته ، واشتد حرص هامان وقارون على تذكية نار الغضب فى هذا الرجل الطاغية ، الذى قال : أنا ربكم الأعلى ، فأشارا عليه بقتل أبناء الذين آمنوا مع موسى واستحياء نسائهم للخدمة فى البيوت كما كان الحال فى بنى إسرائيل من قبل .

وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ ولقد أرسلْنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبينٍ إلى فرعونَ وهامانَ وقارونَ فقالوا ساحرٌ كذَّابٌ . فلما جاءَهم بالحقِّ من عندنا قالوا اقْتُلوا أبناءَ الذين آمنوا معه واستحيوا نساءَهم وما كيدُ الكافرين إلا فى ضلالٍ ﴾ (١) .

إنه منطق الطغيان العارم ، كلما أعوزته الحجة وخذله البرهان .

أما فرعون فقد كان له رأى آخر ، وهو أن يقتل موسى أولاً حتى يعلم الناس أنه لو كان له رب سواه لخلصه من يده ، وحال بينه وبين قتله .

﴿ وقال فرعونُ ذَرونى أَقتُلْ موسى ولْيَدْعُ ربَّه إنِّى أخافُ أن يُبَدِّلَ دينكم أو أن يُظْهِرَ فى الأرضِ الفسادِ ﴾ (٢) .

ومن التبجح أن يجعل فرعون حجته فى قتل موسى هى الخوف من أن يبدل دينهم الذى نشأوا عليه بدين آخر لا عهد لهم به ، أو أن ينشر موسى فى أرض مصر التفرق والتمزق والفوضى والانحلال .

---

(١) سورة غافر آية : ٢٣ - ٢٥ .   (٢) سورة غافر آية : ٢٦ .

وهذه كلمة لا يقولها إلا من يجهل أو يتجاهل قواعد التمييز بين الخير والشر ، وبين من هو المصلح ومن هو المفسد ، إنها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ، وهى بعينها كلمة الباطل الكالح فى وجه الحق الجميل ، بل هى بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر فى وجه الإيمان الهادئ .

إنه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل ، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان ،وعلى توالى الزمان واختلاف المكان .

وموسى عليه السلام عندما عرف خيوط هذه المؤامرة عن طريق هذا الرجل المؤمن ، أو من طريق آخر ، اعتصم بالله تعالى ، واستعاذ بحوله وقوته من كل جبار متكبر ، لا يؤمن بأن وراءه يومًا ثقيلاً يحاسبه الله فيه ، ويجازيه :

﴿ وقال موسى إنِّى عُذتُ بربِّى وربِّكم من كلِّ مُتكَبِّرٍ لا يُؤمنُ بيومِ الحسابِ﴾(١)

ولا ندرى على وجه التحقيق هل قال ذلك لمن آمن به ، أم قال ذلك لمن كفر وأعرض من آل فرعون تذكيرًا لهم بأن الرب الذى يستعاذ به هو ربه وربهم ، فهو القادر وحده على نصرتهم .

وقد أعاذ الله موسى ومن معه بحوله وقوته من شر فرعون وأشره ، وسخر له هذا الرجل المؤمن يدافع عنه ويعينه فى تبليغ رسالته، وتثبيت دعائم الإيمان بالحجة القاطعة والبرهان الساطع والأسلوب الحكيم .

وكانت أول حجة أدلى بها فى صرف فرعون عن قتل موسى عليه السلام هى ما حكاه الله عنه بقوله : ﴿ وقال رجلٌ مؤمنٌ من آلِ فرعونَ يكتُمُ إيمانَه أتقتلُون رجلاً أن يقولَ ربِّىَ اللهُ وقد جاءَكم بالبيناتِ من ربِّكم وإن يكُ كاذبًا فعليه كَذِبُه وإن يكُ صادقًا يُصبْكم بعضُ الذى يَعِدُكم إنَّ اللهَ لا يَهدِى من هو مسرفٌ كَذَّابٌ ﴾ (٢) .

إنه منطق الفطرة قد جاءت به قريحة صافية وسريرة نقية .

إنه منطق مرتب ، كل مقدمة مبنية على ما قبلها ممهدة لما بعدها .

إنه يبدأ بتفظيع ما هم مقدمون عليه : أتقتلون رجلاً لأنه يقول ربى الله ، وهى كلمة بريئة مبنية على ما جاءكم به من البينات التى برهنت على صدقه فيما دعاكم إليه ، وأنه ليس بوسعكم إنكار شىء منها ، ولقد عرفتم أن السحرة الذين هم أعلم

---

(١) سورة غافر آية : ٢٧ . (٢) سورة غافر آية : ٢٨ .

الناس بفنون السحر قد سلموا لموسى ما رأوه من أمر العصـــــا ، وخروا لله سجدًا ،وآثروا الآخرة على الدنيا ! ·

ثم يفرض لهم أسوأ الفروض ، ويقف معهم موقف المنصف أمام القضية تمشيًا مع أسوأ فرض يمكنهم أن يفترضوه :

فإن يكن موسى كاذبًا فعليه وزر كذبه ، وهو وحده يتحمل تبعة عمله ، وإن يكن موسى صادقًا فى دعوته فسوف يصيبكم بعض ما وعدكم به من خير فى الدنيا والآخرة ، وليس هناك مبرر لقتله على كل حال ، وهذا منتهى الإنصاف فى الجدل والإفحام ·

ثم يهددهم من طرف خفى فيقول كلامًا ينطبق على موسى كما ينطبق عليهم : ﴿ إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾ ·

فإذا كان موسى هو المسرف الكذاب فدعوه يلقى جزاءه من الله ، واحذروا أنتم من أن تكونوا كذلك بأن تسرفوا فى إيذاء موسى وتكذيبه فيصيبكم ما يصيب المسرفين المكذبين ·

وهو بهذا القول يصيب أهدافًا كثيرة - فهو أولاً يخبرهم عن الله الذى بيده الأمر كله ، والذى يجب الإيمان به دون سواه من الأدعياء كفرعون وغيره ، وكأنه يُعرِّض به ويزدريه بأسلوب لا يؤخذ به ولا يلام عليه ·

ويزدرى به أيضاً من أعانه على ادعائه الألوهية ، وأخذ له البيعة بالباطل من أهل الباطل من أولئك الذين استخفهم فأطاعوه ·

ولا يخفى أيضًا ما فى ختام هذه الآية من زجر ووعظ ، وتذكير بعاقبة البغى والكفر بالله ورسله ·

وعندما يصل بهم إلى هذا الحد من الموعظة ينتقل بهم إلى التخويف من عقاب الله فى الدنيا والآخرة بأسلوب أشد قليلاً من الأسلوب الأول : ﴿ يا قومِ لكم المُلكُ اليومَ ظاهرين فى الأرضِ فمن ينصُرُنا من بأسِ اللهِ إن جاءَنا ﴾ [1] ·

إن الرجل يشعر بما يشعر به القلب المؤمن من أن بأس الله أقرب ما يكون من أصحاب الملك والسلطان فى الأرض ، فهم أحق الناس بأن يحذروه ، وأجدر الناس

---

(١) سورة غافر آية : ٢٩ ·

بأن يحسوه ويتقوه ، وأن يبيتوا منه على وجل ، وهو واقع بهم إن تمادوا فى غيهم فى ساعة من ليل أو نهار ، وهو حين يذكرهم ببأس الله يدخل نفسه فيهم ليشعرهم أن أمرهم يهمه وهو واحد منهم ينتظر مصيره معهم ؛ لأن البلاء إذا نزل بقوم ربما يحيط بهم ولا يغادر منهم أحداً حتى الصالحين منهم .

وهنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية عندما توجه إليه نصيحة تخالف ما هو عليه من طبع وجبلة ، فيرى فى النصح الخالص افتياتًا عليه ، واستخفافًا بسلطانه ومشاركة له فى حكمة ، فيطلع على الناصح بما ينبئ عن مفتاح شخصيته ، وهو الاستبداد بالرأى والاعتزاز به ولو كان خطأً بينا .

﴿ قال فرعونُ ما أُرِيكم إلا ما أَرَى وما أَهْدِيكم إلا سبيلَ الرَّشادِ ﴾ [1] .

أى أنه ليس لكم عندى فى هذا الأمر إلا ما رأيته من قبل وما سمعتموه منى حين قلت لكم : ﴿ ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ﴾ تلك هى الكلمة الأولى والأخيرة ، وإنها الكلمة التى فيها رشادكم وحمايتكم من هذا الشر الذى يهب عليكم، فهل تشكون فى حمايتى لكم وحرصى عليكم ، وارتياد مواقع الخير لكم .

وتؤذن هذه الكلمة بانفضاض مجلس المشورة ، وما يكاد القوم يهمون بالانصراف حتى تمسك بهم نظرة من هذا الرجل المؤمن تريد أن تقول شيئًا ، فيتلكأ بعضهم فى القيام ويهم آخرون بالانصراف ، حتى إذا تكلم عاد المجلس إلى ما كان عليه . فيتابع حديثه بعد أن قطعه فرعون بتلك الكلمة الجافية ، وكأن هذه الكلمة من فرعون ليست هى الكلمة الأخيرة فى هذا الأمر ، وأنه ليس لفرعون أن يطاع فى كل شىء فقد جاء الحق وزهق الباطل ، وآن للطغاة أن يعلموا أن مُلْكهم مهدد بالزوال إذا تمادوا فى هذا الصلف والغرور والاستخفاف بعظائم الأمور ، والاستبداد بالرأى واستعباد الناس بقوة السلطان .

وتخرج الكلمات من فم الرجل المؤمن بعد أن عاد المجلس إلى مكانه متدفقة هادرة ، تحمل نبرة عالية من الأسى والحزن والإشفاق : ﴿ وقال الذى آمنَ يا قومِ إنى أخافُ عليكم مثلَ يومِ الأحزابِ . مثلَ دأبِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدِهم وما اللهُ يُريدُ ظلمًا للعبادِ . ويا قومِ إنِّى أخافُ عليكم يومَ التَّنادِ . يوم تُوَلُّون مُدبِرِين مالكم من اللهِ من عاصمٍ ومن يُضللِ اللهُ فما له من هادٍ . ولقد جاءكم

(١) سورة غافر آية : ٢٩ .

يوسفُ من قبلُ بالبيناتِ فمازلتم فى شكٍ مما جاءَكم به حتى إذا هلكَ قلتم لن يبعثَ اللهُ من بعدِه رسولاً كذلك يُضِلُّ اللهُ من هو مسرفٌ مرتابٌ ﴾ (١) .

إن هذا الرجل المؤمن يفيض قلبه عطفًا وحنانًا على قومه ، فيناديهم نداء الحب والاستعطاف محذرًا إياهم من طاعة فرعون ، حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب الأمم المكذبة قبلهم ، ويخوفهم عذبًا آخر فى يوم ما لهم من الله فيه من عاصم ، ثم يذكرهم بنبى بعث فى مصر من قبل موسى وقد جاءهم بالمعجزات الدالة على صدقه فارتابوا فى أمره كمـــا أرتابوا فى أمر موسى ، ولم ينعموا كثيرًا بالخير الذى جاءهم به ، حتى إذا مات استيأسوا وصرفوا أبصارهم عن الحق الذى جاءهم به وكأنهم لم يرسل إليهم رسول ، وقالوا : لن يبعث الله من بعده رسولاً يدعو بدعوته ، وها هو ذا موسى يبعث على فترة من الرسل فيدعو بدعوة يوسف ، فهل يستقبلونه بالارتياب والإيذاء كما استقبل آباؤهم يوسف .

إن الله يعلق على قول هذا الرجل المؤمن بقوله : ﴿ كذلك يُضِلُّ اللهُ من هو مسرفٌ مرتابٌ . الذين يُجادلون فى آياتِ اللهِ بغيرِ سلطان أَتَاهم كَبُرَ مقتًا عند اللهِ وعندَ الذين آمنوا كذلك يَطبعُ اللهُ على كلِّ قلبِ متكبرٍ جبارٍ ﴾ (٢) .

وينفض المجلس من غير أن يستجيب القوم لهذا الداعى الحكيم ، لا لأنهم لم يقتعنوا بقوله ولكن لأنهم يطمعون فى إرضاء فرعون ليمنحهم قربه وينالوا شيئًا من رفده ، فهم طلاب دنيا ، وليسوا طلاب دين .

أما فرعون فقد تولى كبره وتمادى فى سخريته من موسى عليه السلام ، وسعى فى بلبلة الفكر وزعزعة القلوب التى أشرفت على الدخول فى هذا الدين ، فأمر وزيره هامان أن يبنى له صرحًا عاليًا يبلغ عنـان السماء ليصعد عليه فينظر إلى إله موسى : ﴿ وقال فرعونُ يا هامانُ ابنِ لى صرحًا لعلِّى أَبْلُغُ الأسبابَ . أسبابَ السمواتِ فأَطَّلِعَ إلى إله موسى وإنِّى لأظنُّه كاذبًا وكذلك زُيِّنَ لفرعونَ سُوءُ عَمَلِه وصُدَّ عن السبيلِ وما كيدُ فرعونَ إلا فى تَبَابٍ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وقال فرعونُ يا أيها الملأُ ما عَلِمتُ لكم من إلهٍ غيرى فأَوْقِد لى

---

(١) سورة غافر آية : ٣٠ - ٣٤ . (٢) سورة غافر آية : ٣٤ - ٣٥ .
(٣) سورة غافر آية : ٣٦ - ٣٧ .

يا هامانُ على الطينِ فاجعلْ لى صَرحًا لعلِّى أَطَّلِعُ إلى إلهِ موسى وإنِّى لأظنُّه من الكاذِبين ﴾ [1] .

وعندئذ يكشف الرجل المؤمن عن حاله ، ويعلن ما كان يخفيه من إيمانه ، ويخرج عن سلطان فرعون ، وينطلق يلقى الناس مواجهةً بالدين الذى دان به ويجادلهم بمنطق الحق الذى استقام عليه .

﴿ وقال الذى آمنَ يا قومِ اتَّبِعُونِ أهدِكم سبيلَ الرَّشادِ . يا قومِ إنَّما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ وإن الآخرةَ هى دارُ القرارِ . من عَمِلَ سيئةً فلا يُجزَى إلا مثلَها ومن عَمِلَ صالحًا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنةَ يُرزقون فيها بغيرِ حساب . ويا قومِ ما لى أدعوكم إلى النجاةِ وتدعونَنى إلى النارِ . تدعونَنى لأكفُرَ بالله وأُشركَ به ما ليس لى به علمٌ وأنا أدعوكم إلى العزيزِ الغفارِ . لا جَرَمَ أنَّما تدعونَنى إليه ليسَ له دعوةٌ فى الدنيا ولا فى الآخرةِ وأنَّ مردَّنا إلى الله وأنَّ المُسْرِفين هم أصحابُ النارِ . فستذْكُرُون ما أقولُ لكم وأُفوِّضُ أمرى إلى اللهِ إنَّ اللهَ بصيرٌ بالعبادِ ﴾ [2] .

فلما ذكرهم بما فيه الكفاية ختم حديثه معهم بأعظم كلمة يقولها المؤمن فى الحرب والسلم،والعسر واليسر ، وهى برهان التوكل على الله والثقة بفضله ، والرضا بقضائه وقدره ، فكان الله عند ظنه به ، فنجاه من سيئات أعمالهم ، وأهلك فرعون ومن معه بالغرق وأوردهم النار فى قبورهم ، وأعد لهم يوم القيامة عذابًا ليس كمثله عذاب : ﴿ فَوَقَاهُ اللهُ سيئاتِ ما مكَرُوا وحاقَ بآلِ فرعونَ سوءُ العذابِ . النارُ يُعرَضون عليها غُدُوًّا وعَشيًّا ويوم تقومُ الساعةُ أَدْخِلُوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذابِ ﴾ [3] .

وبعد فإننا فى حاجة ماسة لدراسة أسلوب هذا الرجل المؤمن فى الدعوة لكى نقوم بواجبنا فى هداية الضالين إلى سواء السبيل ، ومواجهة أهل البغى والطغيان بما يردعهم عن غيهم ، ويقضى على نوازع الشر فيهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

* * *

---

(١) سورة القصص آية : ٣٨ .   (٢) سورة غافر آية : ٣٨ - ٤٤ .
(٣) سورة غافر آية : ٤٥ ـ ٤٦ .

قصة قارون

هذه قصة من قصص القرآن الكريم ترينا عاقبة البغى والاغترار بكثرة المال ، والاهتمام البالغ بجمعه وكنزه ، والتفانى فى حبه إلى الحد الذى يملك على المرء قلبه وعقله وكيانه كله ، فينسى معه كل ما يشغله عنه ويثنيه عن طلبه ، ويعيش عبدًا لهذا الحطام الزائل ، ويكفر بمن خلقه وسواه ، وعلى موائد كرمه رباه .

هذه القصة ترينا أن كفران النعم يكون سببًا فى زوالها ، وأن الباغى تدور عليه الدوائر ، وأن الله ليس عنه بغافل ، وأنه يمد له فى النعم ، ويطيل له فى الأمد إنذارًا وإعذارًا ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر فلا يجد له من دون الله من ولى ولا ناصر .

وتضع لنا هذه القصة منهجًا سويًّا للحياة الكريمة ، وهو منهج متكامل يقوم على خمس مبادئ تجمع للمؤمن بين خيرى الدنيا والآخرة .

وفى هذه القصة من اللطائف والعظات والعبر ما يجعلنا - لو فهمناها - نمسك بالموازين الدقيقة التى تضمن لنا الاعتدال فى كل شأن من شئوننا المعيشية من غير يأس على ما فات ولا اغترار بما فى الدنيا ، باعتبار أن ما فاتنا لم يكن ليصيبنا لأنه ليس من نصيبنا ، وأن ما أتانا من خير فليس من الضرورى أن يكون نعمة لنا ورحمة بنا ؛ فقد يكون نقمة علينا واستدراجًا لنا .

وقد وردت قصة قارون بتمامها فى سورة القصص دون أن يحدد الحق جل شأنه زمان وقوعها ولا مكانه ، ولكن يكتفى بأن يذكر أن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، فنحن لا ندرى على وجه التحديد متى وقعت أحداث هذه القصة ، هل فى زمن موسى عليه السلام أم بعده .

وهناك روايات تقول إنه كان ابن عم موسى ، وأن القصة وقعت فى زمن موسى ، وروايات تزعم أن قارون قد آذى موسى فى عرضه ؛ فدبر له مكيدة ليلصق له تهمة الفاحشة بامرأةٍ بَغِى فى مقابل رشوة من المال ، فبرأ الله موسى ، وأذن له فى الدعاء عليه فدعا عليه ، فخسفت به وبداره الأرض ، ولسنا فى حاجة إلى ذكر هذه الروايات وأمثالها مما لم يرد عن المعصوم ﷺ .

ولا حاجة بنا إلى معـــرفة الزمان الذى وقعت فيه أحداث هذه القصة ولا المكان ، ولا ما ورد عن أهل الكتاب مما زاد على ما جاء به القرآن .

ففى القرآن الكريم غنى عن ذلك كله ، وما طواه القرآن عنا فليس من الأدب أن نسأل عنه ، أو نشغل أنفسنا بروايته .

فلنستعرض القصة كما جاءت فى القرآن .

يقول الله عز وجل : ﴿ إنَّ قارونَ كان من قومِ موسى فبَغَى عليهم وآتيناه من الكنوزِ ما إنَّ مفاتحَه لَتنوءُ بالعصبةِ أُولِى القوة إذْ قالَ له قومُه لا تفرحْ إن اللهَ لا يُحبُّ الفَرِحين . وابتغِ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَك من الدنيا وأَحسنْ كما أَحْسَنَ اللهُ إليك ولا تبغِ الفسادَ فى الأرضِ إنَّ اللهَ لا يحبُّ المفسدِين . قال إنما أوتيتُه على علمٍ عندى أَو لَمْ يعلمْ أن اللهَ قد أهلكَ من قبلِه من القرونِ من هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جمْعًا ولا يُسئلُ عن ذنوبِهم المجرمون ﴾ (١) .

تُنبئ هذه الروايات أولاً عن نسب قارون ليعلم أهل البغى والضلال أن النسب لا يغنى عن صاحبه شيئًا إن جاءه بأس الله فى الدنيا وحلت به نقمته ، « فمن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه » كما قال الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح .

فقد كان قارون من قوم موسى وكان ممن سمع منه التوراة ولازمه مدة طويلة ، ولكنه لم ينتفع بعلمه ، ولم تؤثر فيه مواعظه ، فنافق قومه وحسد موسى على ما آتاه الله من فضله ، وتمنى أن يكون رسولاً مثله ، كما تمنى ذلك كثير من أثرياء مكة وكبراء الطائف ورؤساء اليهود - ظنًا من هؤلاء القوارين (٢) أن النبوة والشرف والعزة تنال بالثراء والغنى ، ﴿ وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيمٍ ﴾(٣) أى عظيم فى نسبه وجاهه وثروته ، فضرب الله لهم قارون مثلاً يستبينون به حالهم ومآلهم ويعرفون به أقدارهم ومنازلهم بين الناس ، فيعلمون من خلال هذا المثل أنهم ليسوا على شىء وأن العزة ليست لهم وإنما هى للمؤمنين ، وأن العاقبة يوم القيامة للمتقين .

لقد كانت لقارون ثروة تسع أهل الأرض جميعًا لو قسمت عليهم ، فهل أغنت

---

(١) سورة القصص آية : ٧٦ - ٧٨ . (٢) جمع قارون .
(٣) سورة الزخرف آية : ٣١ .

عنه من الله شيئًا، وهل أسعدته هذه الثروة أم كانت له كسراب يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا !! ·

ومن أين جمع الثروة ومن الذى هداه لجمعها ومن الذى مكنه فى الأرض ، وهيأ له الأسباب ليكون من أهل الطَّوْل والنعمة !

ولكن هل جاءته هذه الثروة الهائلة أيام أن كان مع فرعون يعينه ويؤازره أم جاءته تجر ذيولها بعد أن آمن بموسى عليه السلام حتى إذا نجاه الله من الغرق ارتد وكفر وبغى وتكبر ، أم ارتد بعد وفاة موسى عليه السلام ، أم هو لم يؤمن ساعة من نهار ؟

كل هذا لم يفصح القرآن عنه ·

وأغلب الظن أنه لم يؤمن أبدًا ، بل نافق وخادع ، وأعان فرعون وآزره على حرب موسى ومن آمن معه ، ومالأه على قتلهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم للخدمة ، كما كان الحال قبل مولد موسى عليه السلام ·

والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلْنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين · إلى فرعونَ وهامانَ وقارونَ فقالوا ساحرٌ كذابٌ · فلما جاءَهم بالحقِّ من عندِنا قالوا اقتلوا أبناءَ الذين آمنوا معه واستحيوا نساءَهم وما كيدُ الكافرين إلا فى ضلالٍ ﴾ [1] ·

وكان قارون وزيرًا لفرعون على بنى إسرائيل على ما قيل ، كما كان هامان وزيرًا على أهل مصر ، فجمع قارون من هذه الوظيفة أموالاً طائلة حملها معه حين خرج مع قومه إلى أرض التيه ، ونمـــا هذا المال وزاد فوضعه فى كنوز، أى فى صناديق ـ والكنز هو مجموعة من المال فى وعاء خصص له يسمى بالخزانة أو الصندوق أو التابوت ونحو ذلك ·

وقد كان لكل خزانة مفتاح يخصها ، وكان لهذه المفاتيح عصبة من الرجال الأشداء يحملونها ويقومون على حراستها ، وإنهم ليعجزون وهم الأقوياء الأشداء عن حملها ، والقيام على تنسيقها وجمعها وحراستها ، ونقلها من مكان إلى آخر ، فكيف بالكنوز نفسها !

﴿ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعُصْبة أولى القوة ﴾ ومعنى تنوء بالعصبة : أى تميلهم بثقلها ، وهم من العشرة إلى الأربعين ·

---

(١) سورة غافر آية : ٢٣ - ٢٥ ·

وهذا المال - بالغًا ما بلغ - ليس له فيه إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق به فأبقى ، ولكن أنَّى لمثله أن يتصدق وقد تخلى عن الصدق والمتصدقين ، وكفر برب العالمين !

وليس المهم هنا أن نبكى على قارون أو نتباكى عليه ، فمثله لا تبكى عليه أرض ولا سماء ، ولا يعنينا أن نتعجب من كثرة ماله أو نسأل أنفسنا كيف جمعه ومن أين اكتسبه ، فهذا ليس هو منتهى البغية ، ولكن الموعظة الكبرى والفائدة العظمى فى المبادئ الخمسة التى وردت على لسان قومه فى الحوار الذى دار بينهم وبينه ، وعاقبة التخلى عن هذه المبادئ .

المبدأ الأول : فى قوله جل شأنه : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ والفَرِح - بفتح الفاء وكسر الراء - هو شديد الفرح إلى حد الغرر والعجب والبطر والخيلاء وحب الظهور .

ولا بأس أن يفرح المؤمن لخير مسه ، ولكن البأس كل البأس أن يغتر به ، ويركن إليه وينسى مَنْ مَنَّ به عليه .

المبدأ الثانى : طلب الآخرة والعمل لها : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴾ أى اطلب الآخرة طلبًا حثيثًا ببعض ما آتاك الله لا بجميع ما آتاك الله حتى لا تحرم نفسك من طيبات الحياة .

وفى هذا المبدأ يتحقق التوازن بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، فقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس ، وليعملوا فى الأرض لتوفيرها وتحصيلها ، فتنموا الحياة وتتجدد ، وتتحقق خلافة الإنسان فى هذه الأرض ، ذلك على أن تكون وجهتهم فى هذا المتاع هى الآخرة ، فلا ينحرفون عن طريقها ، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها ، والمتاع فى هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم ، وتقبل لعطاياه وانتفاع بها ، فهو طاعة من الطاعات يجزى عليه الله بالحسنى .

والله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده كما جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ .

المبدأ الثالث : يتمثل فى قوله تعالى : ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أى ولا تترك حظك الذى قدره الله لك فى سابق علمه ، واجتهد وُسْعَكَ فى طلبه وتحصيله بواسطة الأسباب المشروعة التى تعرفها ، فالحياة حركة ، والعمل عبادة ، والسعى

على الرزق طاعة وكفارة للذنوب ، ونعم المال الصالح مع الرجل الصالح ، والمال مهما كثر فالزيادة عليه ليست مذمومة ، ولا غنى للإنسان عن بركة الله ، والغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر ، ولا يخيب من يطلب المزيد من المال ، ولكنه يخيب إذا جعله معبوده ، ونسى من خلقه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة .

وما ضر الإنسان أن يطلب المزيد والمزيد من المال مادام يؤدى حق الله فيه وينفق منه سرًا وعلانية ولم ير لنفسه فضلاً فى جمعه وتحصيله .

وأهم حق فى المال شكر المنعم به ؛ فالشكر ينميه ويزيد فيه كما هو معلوم من قوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

وأما المبدأ الرابع : فهو جماع للمبادئ السابقة وهو ما تضمنه قوله تعالى : ﴿وأحسِن كما أحسن الله إليك ﴾ فالإحسان كلمة تشمل بعمومها كل شيء حسن ، والمعنى : قابل إحسان الله إليك بالإحسان إليه فى طاعته ، والإحسان إلى خلقه بقدر الطاقة البشرية ، وكن على مستوى المسئولية فى جمع المال من وجوه الخير وصرفه فى وجوه الخير ، وكن حسن الشعور بأنْعُم الله عليك حتى تتمكن من أداء شكرها ، فعلى قدر المسئولية يكون الجزاء ، فصاحب المال ليس مالكًا له على الحقيقة ولكنه مستخلف فيه وموكل فى حفظه وإنفاقه فى حله .

وأما المبدأ الخامس : فيتمثل فى قوله تعالى : ﴿ ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ وهو مبدأ يصعب على الأغنياء أن يمتثلوه لأن البغى يصحب المال ويسير معه حيث سار ﴿ كلاَّ إنَّ الإنسانَ ليَطْغَى أن رَءاه استَغْنى ﴾ [1] ولا يستطيع أن يتخلى عن ظاهرة الإفساد فى الأرض إلا من عصمه الله بالإيمان وزوده بالعلم والحكمة .

هذا هو منهج الله فى الحياة أجراه على لسان المؤمنين من قوم موسى ، لا يحتاج منا إلى إضافة ولا إلى تحليل وتعليل أكثر مما ذكرناه .

وعلى المسلم أن يجعل هذا المنهج نصب عينيه ليستقيم أمره وتسلم له دنياه وآخرته .

ولقد كان فى قوم موسى حكماء قد نهلوا من التوراة كثيراً من المواعظ القيمة ما

---

(١) سورة العلق آية : ٦ - ٧ .

يرقق القلوب القاسية ، لكن هل رق قلب قارون واستجاب لدعاة الإيمان بالله واليوم الآخر ؟! ،هل استمع لنصح الناصحين فثاب إلى رشده ورجع إلى ربه ، وترك ما هو فيه من الغرور والكبر والبطر ؟ · كلا بل كان رده عليهم يتمثل فى كلمة تحمل مفتاح شخصيته ، وتكشف عما يُكِنُّه فى طويته : ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندى ﴾ هكذا ينطق بكلمة الكفر باستخفاف ودون مبالاة ، ويفصح عن نفس خبيثة خلت من كل أسباب الخير ودواعيها ·

يقول : إنما أوتيت هذا المال بجهدى وخبرتى الواسعة بمواطن الكسب وحيله المختلفة ، فما لكم تُمْلُون علىَّ طريقةً خاصة تحملوننى على اتباعها ، وأنا أعلم منكم بشئون الحياة ، وأدرى بما يصلح أمرى ويفسده ، والمال مالى أتصرف فيه بما أشاء وكيف أشاء ؟! ·

ولم يدر هذا الخبيث أن الله له بالمرصاد ، وأنه لن يمهله بعد هذه المقولة حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر كما أخذ من قبله من الطغاة المتكبرين ·

وقد جاء وعيده عقب مقولته مباشرة فى الآية نفسها فقال جل شأنه : ﴿ أو لم يعلم أنَّ اللهَ قد أهلكَ مِنْ قَبْلِه مِنَ القُرُونِ من هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جمعًا ولا يُسْئَلُ عن ذُنوبِهم المجرمون ﴾ ·

فإن كان ذا قوة وذا مال ، فقد أهلك الله من قبله أجيالاً كانت أشد منه قوة وأكثر مالاً ، وكان عليه أن يعلم هذا ، فهذا هو العلم المنجى · وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله من أن يسألهم عن ذنوبهم ، فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد ·

ذلك كان المشهد الأول من مشاهد القصة ، يتجلى فيه البغى والتطاول ، والإعراض عن النصح ، والتعالى على العظة ، والإصرار على الفساد ، والاغترار بالمال ، والبطر الذى يقعد بالنفس عن الشكران ·

ثم يجىء المشهد الثانى حين يخرج قارون بزينته على قومه ، فتطير لها قلوب فريق منهم ، وتتهاوى لها نفوسهم ، ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتى قارون ، ويحسون أنه أوتى حظًا عظيماً يتشهاه المحرومون · ذلك على حين يستيقظ الإيمان فى قلوب فريق آخر فيعتزون به على فتنة المال وزينة قارون ، ويذكِّرون إخوانهم المبهورين المأخوذين بهذا المظـــهر الخادع بأن ثواب الله خير لمن آمن بالله ، وتواضع لعظمته ،

وخفض جناحه للمؤمنين ، وعمل عملاً صالحًا يقربه إلى الله عز وجل وينجيه من عذابه ويدخله جنة عرضها السماء والأرض ·

قال تعالى : ﴿ فخرجَ على قومِهِ فى زينتِهِ قال الذين يريدونَ الحياةَ الدنيا يا ليت لنا مِثْلَما أُوتِىَ قارونُ إنه لذو حظ عظيمٍ · وقال الذين أوتوا العلمَ وَيْلَكُم ثوابُ اللهِ خيرٌ لمن آمنَ وعَمِلَ صالحًا ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون ﴾ (١) ·

وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوى المتهافت ، ووقفت طائفة أخرى تستعلى على هذا كله بقيمة الإيمان ، والرجاء فيما عند الله ، والاعتزاز بثواب الله ·

وكان لكل من الفريقين وجهة هو موليها ، فالذين تبهرهم زينة الدنيا وزخارف الحياة يظنون كل الظن أنها هى النعيم المنشود ، وأن السعادة كل السعادة فى المال بوصفه وسيلة لهذا النعيم وتلك السعادة ·

وهذه النظرة القصيرة المدى مبنية على جهل مركب بطبيعة الحياة الدنيا وموازين القيم ، فهم يرون أن الحظ العظيم هو فيما أوتيه قارون من زينة وأبهة ، وجاه وثراء ولم يفكروا - ولو للحظة - أن هذا ظل زائل وعارية مستردة وسراب خادع سرعان ما يزول من الأفق ويغيب عن الأنظار ·

أما المتصلون بالله فهم أدرى الناس بموازين الأمور وقيم الأشياء ، وهم أعرف الناس أيضًا بمواطن السعادة ووسائلها وأسبابها ، وهم طلاب ثواب الله فى الدنيا والآخرة ، لهذا لم يخدعهم هذا المظهر البراق الذى خرج عليهم فيه قارون مختالاً بنفسه مغترًا بماله وحشمه ، ولكنهم ازدادوا لله تواضعًا ، وازدادوا ثقة فى فضله وواسع رحمته ، وكانوا أكثر رضا بما هم فيه ، فصاروا أسعد الناس حظًا بهذه الحياة من أولئك الأغنياء المغرورين ·

ولست أرى السعادةَ جمعَ مالٍ   ولكن التقىُّ هو السعيدُ
وتقــوى اللهِ خيرُ الزادِ ذخراً   وعندَ اللهِ للأتقــى مَزِيدُ

---

(١) سورة القصص آية : ٧٩ - ٨٠ ·

والسعادة لا ترى ولكنها تحس ، فهى فى القلب لا فى تلك المظاهر البراقة ، فالسعادة متعة قد تسكن الكوخ وما فى الكوخ كسرة .

قال بعض الصالحين : نحن فى لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بسيوفهم ، إنها لذة الاتصال بالله والرضا بقضاء الله .

وهذه الحال من سكينة النفس وطمأنينة القلب لا يُلقَّاها إلا الصابرون .

وينتهى هذا المشهد الثانى ليأتى المشهد الأخير ، فيضع نهاية لهذا البغى والطغيان، وليعلم طلاب الدنيا وأحباؤها أنهم كانوا خاطئين فى تصورهم وتمنيهم وتقديرهم لظواهر الأمور وبواطنها ، فأنزل الله سبحانه الضربة القاضية بقارون فلم تبق له باقية .

﴿ فخسفْنا به وبدارِه والأرضَ فما كان له من فئةٍ يَنصرُونه من دونِ اللهِ وما كان من المنتصرِين ﴾ (١) .

هكذا فى سرعة خاطفة كان قارون تحت الأرض بعد أن كان فوقها ، يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، وهكذا غاصتْ الدار وضاع المال ، وذهبت معالم البغى والطغيان وبقيت الذكرى لمن أراد أن يتذكر .

وأصبح الذين كانوا يقولون : ياليت لنا مثل ما أوتى قارون - فى جلية من أمرهم بعد تلك الغفلة التى ألمت بهم ، يحمدون الله على أنه لم يؤتهم مثل ما أوتى قارون ، وعبروا عن سعادتهم بما هم فيه ، وأيقنوا بأنه لا فلاح مع الكفر والفجور ، ولا قيمة للمال وتوابعه بدون الإيمان والعمل الصالح .

﴿ وأصبحَ الذين تمنَّوا مكانَه بالأمسِ يقولون ويْكأنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ من عبادِه ويَقْدِرُ لولا أن مَنَّ اللهُ علينا لخسفَ بنا ويْكأنَّهُ لا يُفلِحُ الكافرون ﴾ (٢) .

لقد عرفوا أن بسط الرزق ليس عـــلامة على رضا الله عز وجل ، فهو جل شأنه يوسع على من يشاء ، ويضيق على من يشاء فى الرزق ، إنعامًا وانتقامًا ، فليس

---

(١) سورة القصص آية : ٨١ . (٢) سورة القصص آية : ٨٢ .

من أعطاه بســـــطة فى الرزق قد رضى عنه ، وليس من قتر عليه فى الرزق قد غضب عليه .

وتنطوى مشاهد القصة ليأتى بعدها بيان القصد من ذكرها فى قاعدة تعد خلاصة الخلاصة لقواعد الإيمان كلها : ﴿ تلكَ الدارُ الآخرةُ نَجْعَلُها للذين لا يريدون عُلُوًّا فى الأرضِ ولا فساداً والعاقِبةُ للمتَّقين ﴾ (١) .

إن الله يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الآخرة إلا من أحب ، ولا يحب الله إلا من تواضع لعظمته ولم يتعال على خلقه ، ولم يسعَ فى الأرض فساداً ، ولم يدعُ إلى فساد بلسان الحال أو بلسان المقال ، وجعل لنفسه وقاية من عذاب الله بلزوم طاعته والتفانى فى مرضاته ، فهؤلاء لهم من الله عقبى الدار ، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه .

* * *

---

(١) سورة القصص آية : ٨٣ .

قصة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت

فى سورة البقرة يذكر الله قصة قوم خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت وهم جمع كثير وجم غفير ، فأماتهم الله موتة رجل واحد عقابًا لهم ، وردعًا لمن يصنع صنيعهم ، ثم أحياهم من بعد موتهم رحمـــة بهم ، ليستكملوا آجالهم ، فقال جل شأنه : ﴿ ألم تَرَ إلى الذين خرجـــوا من ديارِهم وهم أُلُوفٌ حَذَرَ الموتِ فقال لهم اللهُ موتوا ثم أحيـــاهم إنَّ اللهَ لذو فضلٍ على الناسِ ولكنَّ أكثَرَ الناس لا يشكرون ﴾ (١).

وخلاصة هذه القصة وصفوة القول فيها : أن قومًا لا ندرى على وجه اليقين أين مسكنهم من الأرض ولا نعلم على وجه التحقيق نسبهم - هل كانوا من بنى إسرائيل أم من غيرهم ·

وقد طوى الله عنا ذكر هذا وذاك لعدم حاجتـــنا إليه ، فلا نشغل أنفسنا بالبحث عنه ·

وهؤلاء الناس على كثرتهم قد خرجوا من ديارهم خوفًا على أنفسهم من الموت بالطاعون أو بأيدى عدوهم ·

والأصح أنهم ما خرجوا فرارًا بأنفسهم من الطاعون لخلو ذلك الخروج حينئذ من المذمة والعبرة ؛ فللناس أن يتركوا الأرض التى حل فيها الطاعون وغيره من الأمراض الفتاكة إلى أرض أخرى خالية من الوباء ، بشرط ألا يكون فيها ناس لئلا ينقلوا إليهم العدوى ، إذ « لا ضرر ولا ضرار » كما قال الرسول ﷺ ، وبذلك تقضى كل الشرائع السماوية ·

وقد نهى الرسول ﷺ عن الخروج من الأرض التى حل فيها الطاعون والدخول فيها للوقاية من العدوى ، فإذا خرج الناس من أرض الطاعون إلى أرض فضاء ليس فيها سكان لم يكونوا عرضة للذم ، ولا يكون فى خروجهم عبرة ·

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٣ ·

والقصة إنما سيقت للاعتبار بدليل افتتاحها بقوله : ﴿ ألم تر ﴾ أى ألم تنظر بعين بصيرتك متعظًا ومعتبرًا بحال أولئك الذين خرجوا من ديارهم ؟، فإن كنت لا تعلم بحالهم فنحن نحكى لك حالهم فى أوجز أسلوب وأعذب بيان ، والخطاب فى الآية لكل من يصلح له الخطاب .

وإذا أبطلنا القول بأنهم خرجوا فرارًا بأنفسهم من الطاعون يكون القول الثانى قد فرض نفسه ، ووجب المصير إليه لما سبق بيانه ، ولورود هذه القصة بين يدى ذكر القتال ، فقد جاء بعدها قوله : ﴿ وقاتِلوا فى سبيلِ اللهِ واعلموا أن اللهَ سميعٌ عليمٌ﴾ .

ولو كانوا قد خرجوا فرارًا من الطاعون ما كان لقوله تعالى : ﴿ وهم ألوف ﴾ فائدة ؛ إذ إن ذكر العدد هنا يدل على جبن هؤلاء القوم وضعف هممهم ، وخور عزائمهم ، فقد دعاهم نبيهم « حزقيـال بن بوزى » إلى الجهاد ، فنكصوا على أعقابهم ، وكرهوا لقاء عدوهم ، فخرجوا من ديارهم تاركين ما وراءهم ، للعدو - وهم أكثر من عشرة الآف كما قال الطبرى .

وأغلب الظن أنهم من بنى إسرائيل لأنهم عرفوا بالجبن فى مواطن كثيرة ، فقد قالوا لموسى لما أمرهم بدخول بيت المقدس كما حكى القرآن عنهم : ﴿ إنَّ فيها قومًا جَبَّارين وإنَّا لن ندخلَها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون ﴾ (1) وقد سبقت هذه القصة بتمامها .

« وحزقيال بن بوزى » هذا هو ثالث أنبياء بنى إسرائيل، كان معاصرًا لأرمياء ودانيال من القرنين السابع والسادس قبل المسيح، كما فى هامش تفسير « التحرير والتنوير » للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

وقد أماتهم الله موتة رجل واحد - كما ذكرنا - كما يشعر به قوله تعالى : ﴿فقال لهم الله موتـــوا ﴾ أى حكم الله عليهم جميعًا بالمـــوت فى وقت واحد وبكلمة واحدة .

---

(1) سورة المائدة آية : ٢٢ .

وهكذا من فر من الموت فى موطن لا يجوز فيه الفرار بحال - وهو الجهاد ، فالفرار من الجهاد تهلكة وعار ، ومذلة ومسكنة .

وفى الخوف من الموت موت معجل ؛ لأنه يحطم القوى المعنوية عند الخائف ، ويعوقه عن الإقدام لحماية نفسه وحرماته ، ويمكن عدوه منه من غير قتال أو بقتال غير ذى بال .

وهذه القصة مثلٌ ضربه الله للجبناء من ضعفاء الإيمان الذين يكرهون لقاء العدو، ويؤثرون السلامة فى مَذلَّة على الحرب فى عِزَّة .

وقد حذر الله أولئك الجبناء فى آية سابقة من سورة البقرة من مغبة التخلى عن قتال العدو ، ورغبهم فى الجهاد بما يتبعه من استشهاد أو غنيمة فقال : ﴿ كُتِبَ عليكم القتالُ وهو كُرْهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تُحِبُّوا شيئًا وهو شرٌ لكم واللهُ يعلمُ وأنتم لا تعلمون ﴾ [1] .

* * *

---

(١) سورة البقرة آية : ٢١٦ .



قصـــــة طالوت

هذه قصة فيها من العبر أكثر مما فى قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، تكشف عن أحوال نفوس قد أقعدها الجبن عن القتال فى سبيل الله ؛ فمكنوا عدوهم من سفك دماء كثير منهم ، واحتلال أرضهم وديارهم وسلب أموالهم ، فلما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت رأوا أن الخلاص مما يتهددهم إنما يكون بالقتال تحت إمرة قائد قوى ، جلد متين ، له عقل راجح ، وذكاء نادر ، وحكمة سامية فى تدبير شئون الجند ، وخبرة واسعة بفنون الحرب من كر وفر ، وإقدام وإحجام ، وخداع ومكيدة ، فطلبوا من نبيهم « شمويل » أن يبعث من خيرة الرجال ملكًا يتولى شئون الملك ، ويقود الجند ، كما هو الشأن فى الملوك يقودون جنودهم بأنفسهم فى ساحة القتال .

فما كان من نبيهم إلا أن تخوف عليهم من عذاب الله إذا غدروا بالعهد وتخلفوا عن القتال إن كتب عليهم ، وهو يعرف أن أكثرهم يحرصون على الحياة ويكرهون الموت ويتهيبون العدو ، ويجبنون كل الجبن عن لقائه ، ولا سيما إذا كان العدو قويًا بكثرة عدده ؟ ، فأخبرهم نبيهم شمويل بما يجيش فى نفسه ، فاستأسدوا أمامه ، وأظهروا له من أنفسهم قوة ، وعللوا إقدامهم على القتال بأخذ الثأر ممن أخرجهم من ديارهم وسبى أبناءهم – وهو جالوت وجنوده من الكنعانيين ، الذين يضرب بهم المثل فى الشدة والعنف ، وقوة الأجسام والجرأة فى القتال والتدمير .

فلما رأى نبيهم منهم هذا العزم ، دعا الله عز وجل أن يختار لهم من بينهم ملكًا ، وهو لا يكاد يصدق أنهم يوفون بعهدهم ، ويقبلون من اختاره الله ملكًا عليهم ، فأخلاقهم السيئة معروفة مشهورة ، لا تفارقهم ولا يفارقونها ، وهى الجبن والحرص والحقد والحسد والمكابرة ، والمسارعة إلى مخالفة أنبيائهم وتكذيبهم فى إخبارهم عن الله عز وجل ، فما كاد نبيهم يخبرهم بأن الله تبارك وتعالى قد اختار لهم « طالوت » ملكًا حتى وجدهم قد ثاروا عليه ، وأظهروا تعجبهم الشديد من اختيار

الله لمثل هذا الرجل لقيادتهم وتولى أمرهم فى قتال عدوهم ، وهو ليس من أصحاب الملك - وهم أبناء يهوذا - ولكنه من أبناء بنيامين،ولم يؤت سعة من المال ، فقالوا : بأى حق يكون ملكًا علينا ، هلا اختار الله رجلاً منا - نحن أبناء يهوذا ، وتناسوا أو تجاهلوا أن الله هو الذى اصطفاه عليهم ، وهو سبحانه أعرف بحاله منهم، وأعلم بأن النصر مرهون بقيادته لقوة جسمه وسعة علمه ، وهم يعرفون قوته ولهذا لقبوه بطالوت ؛ لطول قامته ، واسمه الحقيقى « شاول » ، كما قال المؤرخون ، ولكن هذا اللقب قد اشتهر به وأصبح علمًا عليه . وهم يعرفون أيضًا أنه رجل حكيم قد آتاه الله من لدنه علمًا بتدبير شئون الملك والسياسة والحرب .

ولله أن يختار من شاء من عباده لتدبير شئون عباده ، وإنه لا رادَّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

هذا الشوط من القصة قد سجله الله فى قوله جل شأنه : ﴿ ألم ترَ إلى الملإِ من بنى إسرائيلَ من بعدِ موسى إذ قالوا لنبىٍّ لهم ابعثْ لنا ملكًا نُقاتلْ فى سبيلِ الله قال هل عَسَيْتم إن كُتِبَ عليكم القتالُ ألا تُقاتِلوا قالوا وما لنا ألا نُقاتلَ فى سبيلِ الله وقد أُخْرِجنا من ديارِنا وأبنائنا فلما كُتِبَ عليهم القتالُ تَوَلَّوا إلا قليلاً منهم واللهُ عليمٌ بالظالمين . وقال لهم نبيُّهم إنَّ اللهَ قد بعثَ لكم طالوتَ ملكًا قالوا أَنَّى يكونُ له المُلكُ علينا ونحن أحقُّ بالمُلكِ منه ولم يُؤْتَ سَعَةً من المالِ قال إنَّ اللهَ اصطفاه عليكم وزادَه بَسْطَةً فى العلمِ والجسمِ واللهُ يُؤتِى مُلكَه من يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ ﴾ (١) .

وقد طلب القوم من نبيهم آية تدلهم على أن الله قد اصطفاه عليهم ، فأيده الله بمعجزة خارقة للعادة ، وهى أن الملائكة تأتى بالتابوت الذى كانوا يقدمونه أمامهم فى المعارك الحربية ليستنصروا به على عدوهم لما فيه من بركات موسى وهارون، فقد كان فيه على ما قالوا : نعل موسى وعصاه ، وشىء من ألواح التوراة ، وشىء مما أودعه آل موسى وآل هارون من متاع .

وكان هذا الصندوق قد سلب منهم ففتّ ذلك فى عضدهم ، وأضعف من

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٦ - ٢٤٧ .

عزائمهم، وأحسوا بأن القوة قد ذهبت عنهم ، والنصر قد رحل إلى عدوهم ، ولو عقلوا لعرفوا أن هذا التابوت مجرد خزانة فيها شيء مبارك لا يحرز لهم نصرًا ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا ، ولا يعصمهم من بأس الله إن جاءهم .

﴿ وقال لهم نبيُّهم إنَّ آيةَ ملكِه أن يأتيكم التابوتُ فيه سكينةٌ من ربِّكم وبقيةٌ مما تركَ آلُ موسى وآلُ هارون تحملُه الملائكةُ إنَّ فى ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾[1] .

وهذا التابوت يسمى تابوت العهد ، وهو مذكور فى كتب اليهود ، وقد نقل صاحب تفسير المنار عنها فقرات مطولة فى صنعه وما أودع فيه .

وقد حملته الملائكة من أيدى الفلسطينيين - وهم العمالقة - إلى الأرض التى فيها شمويل أو صمويل كما يسميه بنو إسرائيل ، وقد رآه القوم بأعينهم بين السماء والأرض يهبط مستقرًا فى مكانه الذى كانوا يودعونه فيه ، فعلموا حينئذ أن نبيهم قد صدَقهم ، ومع ذلك أبطأوا عن الخروج مع طالوت حين دعاهم إلى القتال ، فلم يخرج معه إلا القليل كما كان يظن بهم نبيهم .

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم﴾ مع أن طالوت قد أذن - فيما قيل - لكل من كانت له حاجة إلى القعود فى بلده أن يتخلف ولا حرج عليه .

فقال : من أراد أن يبنى داره فليبنها ، ومن كان يريد أن يحصد زرعه فليحصده، ومن كان له أب يرعاه أو أم يكفلها أو أبناء يعولهم فلا يخرج معنا إن شاء؛ وذلك لأنه يعلم مدى ما هم فيه من حب للدنيا وزهد فى الآخرة ، وما جبلوا عليه من الجبن والميل إلى حياة الخمول والكسل ، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة أمدًا طويلاً من الزمن ، وذاقوا مرارة الأسر وحلاوة الراحة والدعة، وكلا الأمرين مر .

وخرج طالوت بمن آثر الخروج ابتغاء وجه الله أو لدنيا يصيبها ، وهو يعلم بحال هؤلاء وهؤلاء بفراسته وفطنته ، فأراد أن يمتحنهم ليتأكد له من هو المخلص الذى

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٨ .

يقاتل العدو لنصرة دين الله وطمعًا فى ثواب الله ، ومن خرج يبتغى الغنيمة والسمعة، فقال لهم : إن الله عز وجل سيختبركم بنهر تجدونه أمامكم فمن شرب منه حتى ارتوى فليس منى ، ولا هو من جندى ، ومن لم يرتو منه فهو منى ، ولكن من اكتفى بغرفة دون أن يرتوى فلا بأس عليه ؛ ليتبين له من هو جاد كل الجد فى دخول الحرب ومن هو على شفا جرف منه ، ومن لا عزم له على الحرب أصلاً ، فكانت المفأجاة الكبرى أن شرب القوم إلا قليلاً منهم .

فلما جاوزوا معه النهر ، ورأوا جالوت وجنوده قد عسكروا على مقربة منهم ، طار صواب أكثرهم ، وفقدوا توازنهم ، وملك الرعب عليهم قلوبهم وعقولهم ، فقالوا لقائدهم : إنَّا أمام عدو لا قِبَل لنا بقتاله ، ولا قدرة لنا على مواجهته ، فارجع بنا ولا تهلكنا .

وقال القليل منهم – وهم الذين لم يشربوا من النهر ـ : بل نُقْبِل على قتالهم ، معتمدين على الله تعالى ، واثقين بفضله ، مستنصرين به ، وهو القادر على نصرتنا مع قلة عَددنا وعُددنا ، وما هى إلا ساعة من نهار نلقى فيها العدو بصبر وجلد حتى يكتب الله لنا النصر بإخلاصنا الجهاد فى سبيله ، وبقوة صبرنا على عدونا .

وأجمعوا أمرهم على ذلك ، وبرزوا لجالوت وجنوده ، وهم يضرعون إلى ربهم بخالص الدعاء ، فمكنهم الله من نواصيهم ، وهزموهم بإذن الله .

وكان فى هذه المعركة الحاسمة شاب قوى جلد متين تصدى لجالوت نفسه ، ولم يخش شدة بأسه ، ولا قوة سطوته ، فبارزه بما معه من سلاح متواضع فقضى عليه بإذن الله .

وهذا الشاب القوى فى جسمه وإيمانه هو « داود » عليه السلام ، وقد آتاه الله الملك والنبوة فيما بعد ، وعلمه ما شاء أن يعلمه من علوم الدين والدنيا .

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ فلما فَصَلَ طالوتُ بالجنودِ قال إنَّ اللهَ مُبتَلِيكم بنَهَرٍ فمن شَرِبَ منه فليس منى ومن لم يَطْعَمه فإنه منى إلا من اغترفَ غُرفةً بيده فشَرِبوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزَه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقةَ لنا اليومَ

بجالوتَ وجنودِه قال الذين يظنون أنهم مُلاقوا اللهِ كم من فئة قليلة غلبت فئةً كثيرةً بإذن اللهِ واللهُ مع الصابرين . ولما بَرَزُوا لجالوتَ وجنودِه قالوا ربَّنا أَفرغْ علينا صبراً وثبِّتْ أقدامَنا وانصرْنا على القومِ الكافرين .فهزموهم بإذنِ اللهِ وقَتَلَ داودُ جالوتَ وآتاه اللهُ الملكَ والحكمةَ وعلَّمَهُ مما يشاءُ ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدتِ الأرضُ ولكنَّ اللهَ ذو فضلٍ على العالمين ﴾ (١) .

وقد زعم أهل الكتاب أن الذين خرجوا مع طالوت لقتال جالوت كان عددهم حين فصل بهم من ديارهم ثلاثة آلاف رجل ، فلما رأوا كثرة الفلسطينيين اختبأ معظم الجيش فى جبل إفرايم ، واحتموا بالمغارات والآبار وخلف الأشجار ، ولم يعبروا نهر الأردن ، وهو النهر الذى ابتلاهم الله به ، فحزن طالوت حزنًا شديدًا واستغاث بالله واستنصر به ، واستمد لجنوده القوة منه عز وجل ونظر إلى ما بقى معه من الجنود فوجدهم قليلاً لا يزيد عددهم على ستمائة مقاتل ، وحدثت مناوشات بينه وبين جالوت وجنوده فانتصر عليه فتشجع الذين جبنوا واختبأوا فى المغارات وغيرهم فخرجوا من مخابئهم وانضموا لإخوانهم وقاتلوا معهم ، فأحرزوا النصر فى مواطن كثيرة فازدادت ثقتهم بالله ، ولكنهم كانوا يخشون جالوت أن يجمع جموعه ويغير عليهم بكامل قوته فى ساعة من ليل أو فى ساعة من نهار ، فشكوا أمرهم لطالوت فوعظهم وذكرهم بالله وحثهم على الجهاد فى سبيله ووعدهم إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

وفى تلك الأيام التى لم يرد فى كتب اليهود مقدارها ولا ما وقع فيها من الحوادث ظهر « داود بن يسِّى » من آل يهوذا بن يعقوب ، فتوجه إليه صمويل فمسح رأسه وهو عند أبيه فى بيت لحم ، ووعد أباه أن ولده هذا - وهو أصغر أبنائه - سيكون ملكًا على بنى إسرائيل بعد حين .

وساق الله داود إلى شاول الملقب بطالوت بتقدير عجيب ، فنال إعجابه وحظى عنده بالحب والتقدير ، وكان داود من قبل يرعى الغنم وكان معروفًا بالشجاعة والإقدام ، ومشهوراً يرمى المقلاع - وهو سلاح يشبه النبل .

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٩ - ٢٥١ .

والتقى الجيشان فى المعركة الفاصلة ، ودعا جالوتُ إلى المبارزة فلم يستجب له أحد من جند طالوت إلا داود عليه السلام فإنه قد قال له : أنا أبارزك ، فاستصغره واستخف به ولم ير فى يده سلاحًا يصلح للمبارزة ، فرماه داود بالمقلاع وكان فيه حجر فأصاب رأسه ، فوقع مغشيًا عليه فأقبل عليه داود فى سرعة البرق الخاطف فجز رأسه وألقاه بين يدى طالوت ، فازداد له حبًا وعظُم أمره فى بنى إسرائيل جميعًا ، وطمعوا فى أن يكون ملكًا عليهم بدلاً من طالوت ولكنه أبى، فزوجه طالوت ابنته «ميكال » .

ولا تصدق ما قاله بعض المؤرخين من أن طالوت حقد على داود حين نازعه الملك ، وأرسله فى معارك جانبية مع العمالقة ليموت فى معركة منها ، فيستريح منه ويحتفظ بمملكته ، فلما عاد منتصرًا بعد خوضه هذه المعارك دبر له مكيدة لقتله ، فنصحته زوجته ميكال أن ينجو بنفسه فى مكان بعيد لا يصل إليه طالوت ، ففعل وظل هاربًا حتى ضعف شأن طالوت فى بنى إسرائيل ، فطلبه بنو إسرائيل وأعادوه إلى بلده ، واختاروه ملكًا عليهم - نعم لا تصدق هذا فإن طالوت كان رجلاً صالحًا وقائدًا حكيمًا قد اصطفاه الله ملكًا على بنى إسرائيل ؛ لعلمه وقوة جسمه وحسن تدبيره ، ومثله لا يكون حقودًا ولا حسودًا، ولكن بنى إسرائيل قوم يتقّولون على أنبيائهم وصالحيهم ، ويلمزونهم بما ينقص من قدرهم ظلمًا وعدوانًا كما فعلوا بموسى عليه السلام وكما فعلوا بداود وسليمان ، فلم ينج من ألسنتهم أحد ؛ لأنهم سفهاء كما وصفهم الله فى كتابه .

ونحن لا يعنينا ما ورد عن أهل الكتـــاب ولا ماورد عن القصـــاصين من صغار المؤرخين وكبارهم ، ويكفينا ما ورد فى كتاب الله عز وجل وما جاء عن الرسول ﷺ .

والعبرة من هذه القصة أن الأمة إذا جبنت عن لقاء العدو وحرصت على الحياة فى مذلة ومسكنة ، وتركت الجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس سامها عدوها سوء العذاب ، فقتّلوا أبناءهم ، وخربوا ديارهم ، وشتتوا شملهم ، وسلبوهم ما بخلوا به لنصرة دين الله - وهو المال الذى ملأ حبه شغاف قلوبهم ، وشغلهم جمعه عن أوجب الواجبات . ولو حرصوا على الموت لوهبت لهم الحياة .

والجهاد فى سبيل الله هو أعظم فريضة فرضها الله عز وجل لحفظ الدين ، وصيانة النفس والنسل، والعرض والمال ، وجعل الخير كل الخير فيه ، والشر كل الشر فى تركه ، ولهذا قال النبى ﷺ : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

والنصر لا يأتى من فراغ ، ولكنه يقوم على أمور أربعة ، كما يستفاد من هذه القصة والتى قبلها .

الأمر الأول : القيادة الحسنة ، فإذا كان القائد حكيمًا استطاع أن يضع الخطة التى تضمن سلامة الجيش من المباغته والمخادعة ، والمجازفة، والإقدام حيث يجب الإحجام ، والإحجام حيث يجب الإقدام .

الأمر الثانى : طاعة الجند لقائدهم وثقتهم بقدرته على تدبير شئون الحرب بالقدر الذى يكفل لهم السلامة والنصر بإذن الله .

الأمر الثالث : اعتماد القائد والجند على قدرة الله تعالى والتوجه إليه بخالص الدعاء ، فإن الله قادر على أن ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة إذا اعتصمت به واستمسكت بحبله المتين .

الأمر الرابع : هو الصبر فى مواطن القتال ، فليس هناك خُلُق أعظم من خلق الصبر فى إحراز النصر وتحقيق الآمال ، والله مع الصابرين .

* * *

قصة داود عليه السلام

وُلِدَ « داود بن يسِّى » بقرية ببيت لحم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو ألف وتسعين عامًا ، وكان فى شبابه يرعى الغنم لأبيه ٠

وقد كان بطلاً يضرب به المثل فى الشجاعة والإقدام ، وكانت له معرفة عظيمة برمى المقلاع ، فقد ذكرنا فى قصة طالوت أنه رمى جالوت بمقلاعه فقتله ، وقد آتاه الله الملك بعد موت طالوت فانتقل إلى أورشليم ، واستقر بها ملكًا على بنى إسرائيل جميعًا ، وعلمه الله كثيرًا من علوم الدين والدنيا ، فساد قومه بعلمه وحكمته ، وجمعهم تحت راية واحدة ، وجعله الله نبيًّا مرسلاً بعد أن بلغ الأربعين ، وأنزل عليه الزبور، وهو كتاب ملىء بالعظات والعبر ، ورزقه الله صوتًا حسنًا ، فكان إذا قرأ الزبور استمعت إليه الإنس والجن ، وكان إذا سبّح رجعت الجبال تسبيحه والطير كذلك ، وأخضع الله له الجبابرة ، ودان له أهل البلاد فأتمروا بأمره ، وعظموه فى أنفسهم ، وبالغوا فى إجلاله ومهابته ، وانتشر العدل والسلام فى عصره ، وعم الخير، وعاش قومه فى رخاء ورغد من العيش ٠

وقد ذكرت قصته مجملة ومفصلة فى مواضع من كتاب الله تعالى ، وذلك فى سورة البقرة ضمن قصة طالوت - كما قدمنا - وفى سورة سبأ ،وسورة ص ، وسورة الأنبياء ، وغيرها من السور ، فقال تعالى : ﴿ ولقد ءاتينا داودَ منَّا فضلاً يا جبالُ أَوِّبِى معه والطيرَ وألَنَّا له الحديدَ ٠ أنِ اعْمَلْ سابغاتٍ وقَدِّرْ فى السَّردِ واعملوا صالحًا إنِّى بما تعملون بصيرٌ ﴾ (١) .

ففى هاتين الآيتين يظهر الله فضله العظيم على داود عليه السلام ويرينا شيئًا من المعجزات التى ظهرت على يديه لإثبات نبوته ٠

والفضل الذى آتاه الله داود كان عظيمًا بكل المقاييس ، فقد أغناه عن خلقه فلم يحتج إليهم فى شىء يتعلق بأمر معاشه ، فقد علمه صناعة الدروع ، كما قال : ﴿وعلَّمناه صنعةَ لَبوسٍ لكم لتُحْصِنَكم من بأسِكم ﴾ (٢) .

فكان عليه السلام يصنع هذه الدروع للمحاربين ويجمع من وراء صناعتها أموالاً كثيرة حتى صار من أكثر قومه مالاً ٠

---

(١) سورة سبأ آية : ١٠ - ١١ ٠ (٢) سورة الأنبياء آية : ٨٠ ٠

وألان له الحديد حتى صار كالعجين فى يديه، وأمره أن يُقدِّرَ فى السَّرْد ، بمعنى أن يُحْكِم تقدير أماكن المسامير ، فيخرق للمسمار بقدر غلظه ، فيدخله فى مكانه من غير عناء فى إدخاله ، وهى معجزة خارقة للعادة أجراها الله على يديه ، ولم تكن لأحد من قبله ، ولا لأحد من بعده .

بالإضافة إلى تسبيح الجبال معه والطير ، فإنه كان إذا سبح سمع الناس الجبال تُرجِّع معه التسبيح ، وكأنها تسمع وتتكلم، ولم يكن هذا الترجيع عبارة عن صدى الصوت كما يقول بعض من يستكثر على الله أن يجرى هذه الخوارق فى الجمادات وغيرها .

فهؤلاء يُحكِّمون العقل حتى فى الأمور التى تتعلق بأفعال الله تعالى ، مع أن العقل قاصر قصورًا تامًا حتى عن إدراك نفسه .

فهل يعرف العقل ما هو : أجوهر هو أم عَرَض ؟

وهل يعرف العقل أين مستقره وأين مستودعه ؟

وبهذه المعجزات ثبتت نبوته، وبالنبوة قوى ملكه، وعظم فى بنى إسرائيل شأنه، فأحبوه وهابوه وأطاعوه ، كما قال تعالى : ﴿ وشَدَدْنا مُلكَه وآتيناه الحكمةَ وفَصْلَ الخطابِ ﴾ [1] أى قوينا ملكه بكثرة الجنود ، وقوة السلاح ، وإلقاء المهابة فى قلوب الأعداء ، وبمنحه القدرة العجيبة على سياسة الناس ، وتدبير شئون الملك كأحسن ما يكون التدبير، وقد آتاه الله الحكمة فوضع كل شيء فى موضعه ، وأقام الحجة على كل من كفر به أو سولت له نفسه بمخالفته والخروج عن أمره ، وآتاه فصاحة فى اللسان ، فكان يحسم كل قضية بالبراهين المقنعة والمواعظ المؤثرة ، فساد العدل وانتشر السلام وعم الرخاء فى ربوع البلاد كما ذكرنا ، وكان حكمه وحكم ولده سليمان هو الفترة الذهبية فى تاريخ اليهود كله ، وقد استمر ملكه أربعين سنة ، ثم جاء بعده سليمان فحكم أربعين سنة أيضًا .

• فتنة داود :

ويذكر القرآن الكريم أن داود عليه السلام قد تعرض لفتنة ، فاستغفر الله منها، وعزم عزمًا مؤكَّدًا ألا يقع فى مثلها بتوفيق الله تعالى ومشيئته، وخرَّ لربه ساجدًا

---

(١) سورة ص آية : ٢٠ .

توبة وإنابة ، فتاب الله عليه ، وغفر له ذنبه ، وشهد له بسمو المنزلة وحسن المكانة والشأن والمقام عنده عز وجل .

يقول الله عز وجل : ﴿ وهل أتاك نبؤُا الخَصْمِ إذْ تَسوَّروا المحرابَ . إذ دخلوا على داودَ فَفزِعَ منهم قالوا لا تخفْ خَصمانِ بغى بعضُنا على بعضٍ فاحكم بيننا بالحقِّ ولا تُشْطِطْ واهدنا إلى سواءِ الصراطِ . إنَّ هذا أخى له تِسعٌ وتسعون نعجةً ولىَ نعجةٌ واحدةٌ فقال أكْفِلْنِيها وعَزَّنى فى الخِطابِ . قال لقد ظَلَمَكَ بسؤالِ نعجتك إلى نِعاجِه وإنَّ كثيرًا من الخُلطاءِ ليَبغى بعضُهم على بعضٍ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هم وظنَّ داودُ أنما فتناه فاستغفرَ ربَّه وخرَّ راكعًا وأنابَ . فغفرنا له ذلك وإنَّ له عندنَا لَزُلْفَى وحُسْنَ مَئَابٍ . يا داودُ إنا جعلناك خليفةً فى الأرضِ فاحكم بينَ الناسِ بالحق ولا تَتَّبع الهوى فيُضلَّك عن سبيلِ اللهِ إن الذين يَضِلُّون عن سبيلِ اللهِ لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يومَ الحسابِ ﴾ (١) .

وقد زعم أهل الكتاب أن داود عليه السلام قد رأى امرأة جاره وهى تغتسل ، فأحبها حبًا شديدًا ، فأرسل زوجها فى معركة من المعارك الحربية ، وأوصى القائد أن يجعله فى المقدمة لعله يقتل فيتزوج امرأته ، وأكثروا اللغط والغلط فى ذلك .

وقال بعض المفسرين: إن الله عتب عليه فى ذلك ، وأرسل إليه ملكين يختصمان فى نعجة كانت لأحدهما على سبيل التمثيل ، ليعلم داود من هذه القضية الملفقة عظيم خطيئته فيتوب ويستغفر .

وهذا كلام لا دليل عليه من الكتاب ولا من السنة ، فلا ينبغى القول به ولا يجوز اعتقاده .

والحق عند المحققين أن رجلين من الرعاة اختصما فى نعجة كانت لأحدهما لا يملك سواها ، والآخر كان يملك تسعًا وتسعين نعجة ، فطلب منه نعجته الوحيدة ليضمها إلى نعاجة ، فيرعاها له بأجرة أو يشتريها منه ، وألح عليه حتى أحرجه وضيق عليه الخناق ، فلم يجد خلاصًا من هذا الإحراج إلا أن يشكوه إلى هذا الملك المتواضع الذى يفتح بابه لكل الناس ، وهو نبى مرسل يقول الحق ، ويهدى إلى سواء السبيل ، ولعله يجد عنده حكمًا عدلاً فى هذه القضية على بساطتها .

(١) سورة ص آية : ٢١ - ٢٦ .

جاء هذان الرجلان ومع كل منهما رجال من عشيرته إلى مقر الحكم ، فلم يجدوا داود عليه السلام ، فسولت لهم أنفسهم أن يتقحموا عليه محرابه .

ولو أنهم صبروا حتى يخرج إليهم لكان خيراً لهم ، ولكنهم بدوٌ رعاة غنم لهم جرأة على مثل هذه الأمور، وهى عندهم من العادات التى لو فعلوها لا يحاسبون عليها ولا يلامون .

فلما دخلوا عليه فزع منهم لأنهم دخلوا عليه من حيث لا يشعر ، ومن غير استئذان ، ومن غير الباب الذى يدخل منه من أراد الدخول ، وفى وقت لا يتوقع فيه دخول أحد وهو مستغرق فى العبادة ، وأحوالهم غير مطمئنة .

فلما رأوا من فزعه ما رأوا قالوا: لا تخف ، نحن خصمان بغى بعضنا على بعض فجئناك لتحكم بيننا بالحق حكمًا لا شطط فيه - أى لا ظلم فيه ولا قصور - ولكى تهدينا إلى الصراط السوى فى آداب المعاملة والمخالطة والمطالبة وغير ذلك مما نحن فى حاجة إلى معرفته من أمور الدين والدنيا .

وأخذ المدِّعى فى عرض القضية ، فقال : إن هذا أخى . ولم يقل إن هذا خصمى ،وهو أدب يدعو إلى العجب ؛ إذ قال هذا فى وقت الغضب .

قال : إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة لا أملك سواها ، فاستكثرها علىّ ، ونظر إلىّ باحتقار فطلبها منى ، وأنا أرجو أن أضم إليها أخرى وهو لا يريد أن يعطينى فرصة لتنمية مالى ، إنما يريد أن ينحينى عن المرعى ليخلو له وحده ، وألح على فى الطلب ، والإلحاح شىء يشق على النفس ، فجئناك لتحكم بيننا بحكم الله تعالى لعل أخى يتركنى وشأنى ، ولا يحرجنى بطلب نعجتى ليضمها إلى نعاجه .

واستمع داود عليه السلام لقول المدِّعى ، واستمع أيضًا لقول المدَّعى عليه ، ثم حكم بقوله : ﴿ لقد ظلمك ... ﴾ إلى آخره .

وقيل : إن فتنته كانت بتسرعه فى إصدار الحكم قبل أن يسمع كلام المدعى عليه، ثم أحس بخطئه هذا فتاب واستغفر .

وهذا القول يتنافى مع ما وصف الله به داود من الحكمة وفصل الخطاب ، فكيف يليق بنبى مرسل آتاه الله الحكمة ، ومنحه قدرة على القضاء بين الناس وفض

المنازعات بالحجة والبرهان أن يصدر حُكمه فى قضية دون أن يسمع كلام المدعى عليه، إن هذا لا يتصور من عامة الناس إذا حُكِّم أحدهم فى قضية ، فكيف إذا كان الحكَم هو داود عليه السلام .

وقد حكم داود بين الخصمين ، وشفع حكمه ببيان حال الناس فى المخالطة إذا فقدوا الإيمان ، فإن المؤمن ذو قلب حى يقظ يأبى عليه أن يبغى على أخيه المؤمن فى شىء من عرض الدنيا .

فلما خرج الخصمان من عنده فكر فى شأنهم وشغله أمرهم ، ورأى أنه كان مخطئًا فى عزل نفسه فى المحراب مدة تساوى المدة التى يقضيها فى ديوان القضاء ، والناس فى حاجة إليه ، والعبادة ليست فى المحاريب فحسب ، ولكنها فى العمل ، وتدبير شئون الملك ، وتعليم الناس ، وغير ذلك من الوظائف العامة التى يعود نفعها على الفرد والمجتمع .

وقدر فى نفسه أن هذين الخصمين لو أدركهما الحرس لقتلوهما ، فيكون هو السبب فى قتلهم ، وأنه لولا اعتزاله ما اضطرا إلى تسور المحراب عليه ، فكان من الأولى أن يجعل للناس وقتًا كافيًا لقضاء حوائجهم ؛ لأنه قد ولى أمرهم ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فبادر إلى الاستغفار والتوبة من ذلك الاجتهاد الذى أدى إلى هذا الخطأ فأنزله عن رتبة من له أجران إلى رتبة من له أجر واحد .

وخلاصة القول أن داود عليه السلام قد اجتهد فى تقسيم أوقاته فجعل للناس وقتًا ولأزواجه وقتًا ولعبادته وقتًا ، وجعل الأوقات الثلاثة متساوية ، وفاته أنه خليفة فى الأرض ، وأن الخلافة تتطلب وقتًا أكبر ، فسخر الله له هؤلاء الأعراب ، فتسورا عليه المحراب ، وكان من أمرهم ما يشعره بخطئه فى هذا الاجتهاد ، ففطن إلى المقصود وعاد إلى ما هو الأولى .

وخطأ الأنبياء فى الاجتهاد لا يحرم حلالاً ، ولا يحل حرامًا ، ولكنه لا يعدو أن يكون خلاف الأولى .

ولهذا خاطبه الله بقوله : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفةً فى الأرض فاحكم بين الناسِ بالحقِّ ولا تتبع الهوى فَيُضلَّك عن سبيلِ الله ﴾ .

أى أنت يا داود لست كآحاد الناس لا يشغله إلا نفسه وأهله ، ولكنك مسئول عن كل من يقيم فى مملكتك ، أو يدخل فيها من غير أهلها .

وهذه المسئولية تتطلب منك أن تفرغ أكثر الوقت لتحمل تبعاتها ·

ومن المعلوم أن هوى الأنبياء ليس فيه عدول عن الطريق السوى ، ولا انحراف عن السمو الخلقى ، ولكنه هوى فى مرضاة الله تعالى كما قال رسول الله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به »[1] ·

فهوى داود عليه السلام كان معظمه فى ملازمة المحراب ، فرده الله إلى الاعتدال فيه إلى الحد الذى يكفل مصلحته ومصالح الناس ·

فمن ولى أمرًا فشغل بغيره كان عاصيًا أو مقصرًا ، حتى ولو كان هذا الأمر الذى شغل به عبادة من العبادات ·

وعلى المؤمن أن يوفق بين مطالب الدين والدنيا ، وأن يضع نفسه حيث وضعه الله ·

• حكمه فى الحرث الذى نفشت فيه غنم القوم :

ويذكر القرآن الكريم قضية أخرى حكم فيها داود عليه السلام بالعدل وفق اجتهاده ، ولكن ولده سليمان قد رأى فى القضية رأيًا آخر هو أحسن منه ، وحكم بحكم هو أرفق من حكمه ، فأثنى الله عليهما واستحسن حكم سليمان وارتضاه، وهو الذى مَنَّ به عليه وفهمه إياه ·

يقول الله عز وجل : ﴿ وداودَ وسليمانَ إذ يَحكُمان فى الحرثِ إذْ نَفَشَتْ فيه غنمُ القومِ وكنَّا لحكمِهم شاهدين · فَفَهَّمناها سليمانَ وكلاً آتينا حكمًا وعلمًا ﴾[2]·

وخلاصة القصة كما يذكر المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام - أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فشكا صاحبُ الحرث صاحبَ الغنم وقال فى شكواه : إن غنم هذا قد انطلقت ليلاً ترعى فى حرثى فأفسدته ، فاحكم بيننا فى هذه القضية · فحكم داود عليه السلام لصاحب الحرث بالغنم تعويضًا له عما أصاب حرثه وعقوبة لصاحب الغنم الذى أهمل فى حبسها وتركها ترعى فى زروع

(١) رواه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات كما قال ابن حجر فى « فتح البارى » ج ٢٨ ص ٥٢ ، وصححه النووى فى آخر الأربعين ، وانظر تخريج الحديث ومعناه فى « جامع العلوم والحكم » لابن رجب الحنبلى ص ٤٧٩ ·

(٢) سورة الأنبياء آية : ٧٨ - ٧٩ ·

الناس ، وهذا هو العدل فى أسمى صوره ، وخرج صاحب الزرع مسروراً بالغنم التى أخذها ، وفيها ما يغنيه عن ذل السؤال ، وما يشغل فراغه ، ويشبع رغبته فى رعيها، وقد شفى غيظه من صاحبه .

وخرج صاحب الغنم مغموماً مهموماً كاسف البال لا يدرى ماذا يفعل وقد فقد ماله الذى لا يملك سواه ، وأضحى عاطلاً عن العمل وربما لا يجيد إلا الرعى ، فلقيهما سليمان عليه السلام وقد كان يعرف أمرهما قبل دخولهما على أبيه فسألهما عن الحكم الذى حكم به فأخبراه ، فقال لهما أدخلا عليه مرة أخرى ، فدخلا عليه ودخل معهما سليمان فلما مثُل بين يديه قال : يا أبت حكمك حسن ولكن عندى ما هو أحسن منه إن شاء الله تعالى ، فحكمك أقرب إلى العدل ، وحكمى الذى أعرضه عليك هو فى نظرى أقرب إلى الفضل ، وأرفق بصاحب الغنم ، فقال داود عليه السلام : اعرضه على ، فقال سليمان عليه السلام : أرى أن يأخذ صاحب الحرث الغنم فيرعاها لصاحبها وينتفع بولائدها وألبانها وأصوافها ، ويأخذ صاحب الغنم الأرض فيبذرها لصاحبها ويتولى شئونها ، فإذا صار الزرع كما كان سلمه لصاحبه وأخذ غنمه ، فارتضى داود هذا الحكم وأقره .

ومن نظر فى هذه القضية التى حكاها القرآن لا يجد ما قاله المفسرون فى هذه القضية بهذا التفصيل ، ولكنه لا يتنافى مع مفهوم الآية بوجه عام .

فالقرآن الكريم لم يكشف عن تفاصيل هذه القضية ولم يتحدث عن الحكم الذى حكم به داود فيها ، ولا عن وجهة نظر سليمان فيما حكم به أبوه ، لأن هذا لا يقدم شيئًا فى تحقيق الفائدة التى جاءت لها القصة ، وهو أن الفصل فى الخصومات بين الناس أمر خطير ، يحتاج إلى علم واسع وبصيرة نافذة ، ونفس تجردت من كل هوى ، وإلا كان الخطأ والزلل الذى من شأنه إن شاع أفسد حياة الإنسان وأغرى بعضهم ببعض ، ومن جهة أخرى فإنه مهما بلغ الإنسان من علم ومهما أوتى من نفاذ بصيرة ، ومن قدرة على التجرد من الهوى ، ومهما تحرى العدل واجتهد فى تحقيقه فإنه قد يقع له أحيانًا من المشكلات ما يخفى عليه فيها وجه الحق ويغيب عنه وجه الصواب .

ومن هنا كان على من يقوم للفصل فى الخصومات أن يكون على حذر دائمًا ، وألا يعجل بالرأى الذى يظهر له لأول نظرة ، بل يُقلِّب وجوه النظر كلها ويعرض بعضها على بعض - فما كان منها أقرب إلى الحق والعدل أخذ به ، وفى هذا يقول النبى الكريم : « إنما أنا بشرٌ وإنكم لتختصمون إلىَّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو يدعها »[1].

هذا - والله أعلم - هو المقصد الذى جاءت له هذه القصة فى هذا النظم الذى جاءت عليه ، مؤدية فى أعجز إعجاز وأبلغ إيجاز إلى المقصد المذكور ·

وفى القصة أيضًا من اللطائف والآداب ما يضيق المقام عن ذكره هنا ·

منها : أن للأنبياء أن يجتهدوا فى إصدار الأحكام إذا لم ينزل فيها وحى ، وأن اجتهادهم لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً ، ولا يؤدى إلى ظلم ، ولا يقع متنافيًا مع مبادئ الدين ومُثُله العليا ، وأنهم مأجورون فى الثواب والخطأ ، وأن خطأهم ليس من باب الخطيئة ، ولكنه من باب خلاف الأولى ·

ومنها : أن الحاكم إذا رأى حكمًا أحسن من حكمه قضى به ، وإذا رأى واحد من الناس رأيًا أحسن من رأيه أخذ به مهما كان شأن هذا الحاكم ، فالحق أحق أن يتبع ، والأمر شورى بين المسلمين ، كما هو مقرر فى جميع الشرائع السماوية ·

* * *

---

(١) رواه البخارى فى الشهادات والحيل والأحكام ، ورواه مسـلم فى الأقضية ، وغيرهما ·

قصة سليمان عليه السلام

ورث سليمانُ داود فى الملك والنبوة ، وقد اشترك مع أبيه فى كثير من مواطن القتال ومجالس القضاء ، وتولى كثيرًا من المناصب العليا فى مملكة أبيه ، وتعلم منه فنون السياسة وتدبير شئون الناس فى مملكته ، وتعرف من خلال تلك الوظائف التى شغلها على كثير من طباع الساسة والسادة ، وطبيعة كثير من الجند وقوادهم ، ودرس على أبيه علوم الشريعة وحفظ الزبور ، وآتاه الله الحكمة وزاده من لدنه علمًا ، ومكنه من فهم لغة الطير ، وسخر له الريح تجرى بأمره ، وسخر له الجن يعملون بين يديه ، وأسال له عَيْن القِطْر ، وآتاه كل ما يحتاج إليه فى مملكته، وأجرى على يديه كثيرًا من خوارق العادات .

وقد وردت أطراف من قصته فى سورة الأنبياء ، وفى سورة النمل ، وسورة سبأ ، وسورة ص ، وغيرها من السور .

وسورة النمل جمعت أكثر أطراف قصته ، ففيها يذكر الله جل شأنه أهم خصائصه ، وجماع فضائله ، ومفتاح شخصيته ، فيقول سبحانه : ﴿ ولقد آتينا داودَ وسليمانَ عِلمًا وقالا الحمدُ لله الذى فَضَّلنا على كثيرٍ من عبادِه المؤمنين . ووَرِثَ سليمانُ داودَ وقال يا أيها الناسُ عُلِّمنا مَنطِقَ الطيرِ وَأُوتينا من كلِّ شىءٍ إن هذا لهو الفضلُ المبينُ ﴾ (١) .

ففى هاتين الآيتين يخبرنا الحق جل شأنه أن الشكر هو أبرز صفات داود وسليمان .

والشكر هو الإيمان فى أسمى معانيه ، وهو اليقين الصادق فى أبهى مظاهره ، وإنك لتجد مظاهر الشكر بارزة فيما حكاه الله عن داود عليه السلام فيما مضى ، وفيما حكاه عن سليمان فى هذه السورة وغيرها - كما سيأتى بيانه - عند حديثه عن النملة التى أمرت النمل أن يدخلوا مساكنهم لوقاية أنفسهم من سليمان وجنوده وحديث العرش الذى جاء به مَنْ عنده علم الكتاب فى طرفة عين فوضعه أمامه ، وفى غير ذلك من المواطن التى أرانا الله فيها عظمة هذا النبى وفضله .

(١) سورة النمل آية : ١٥ - ١٦ .

• **قصته مع النملة :**

ويحدثنا الحقّ جل شأنه فى سورة النمل عن أول مظهر من مظاهر شكره على نعمه فيقول جل شأنه : ﴿ وحُشِرَ لسليمانَ جنودُه من الجنِّ والإنسِ والطَّيرِ فهم يُوزَعون ٠ حتى إذا أتَوْا على وادِ النملِ قالتْ نملةٌ يا أيها النملُ ادخلوا مساكِنكم لا يَحْطِمَنَّكم سليمانُ وجنودُه وهم لا يَشعرون ٠ فتبسَّمَ ضاحكًا من قولِها وقال ربِّ أَوْزِعنى أن أشكرَ نعمتَك التى أنعمتَ علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعملَ صالحًا ترضاه وأَدْخِلْنِى برحمتِك فى عبادِك الصالحين ﴾ (١) .

جُمع لسليمان جنوده لأمر من الأمور الهامة التى لم يفصح القرآن عنها ، ولعله أراد قتال عدو فى مكان ما ، وهو المتبادر إلى الذهن من كلمة جنود ٠

وقد ذكر من جنود سليمان هنا : الجن ، والإنس ، والطير ، إذ كانت هى القوة العاملة معه فى دولته ٠

فالجن كانوا مسخرين له فى عمل ما يريد منهم : ﴿ يَعمَلون له ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجَوَابِ وقُدُورٍ راسياتٍ ﴾ (٢) كما سيأتى بيانه مفصلاً ٠

والإنس : هم من تضمهم دولته من رعيته ، والطير : هى أجناس من الطيور، التى تعيش فى جو مملكته ويسخرها لخدمته ٠

وبهذا يكون له ملك ما على أرض مملكته ، وما فى جوها،وطبعىٌّ أنه ليس كل الجن قد سخروا لسليمان وإنما بعضهم ، شأنهم فى هذا شأن الناس فليس كل الناس كانوا فى سلطان سليمان ، وإنما هم الذين كانوا يعيشون فى دائرة مملكته ٠

وكذلك الطير فليس كل الطير كان مسخراً له ، وإنما هى بعض الطيور التى كانت تعيش فى هذه المملكة ٠

وقد حُشدت له هذه الحشود الهائلة ودفعت إليه ، ومَثُلت بين يديه وهم يوزعون ، بمعنى يدفعون دفعًا هنا وهناك لتسوية الصفوف وتحقيق الأمن والنظام وانطلقت المسيرة السليمانية بعد أن تكامل عددها وانتظم عقدها إلى حيث يريد سليمان عليه السلام ، حتى إذا أتوا على واد النمل ، وهو مكان يجتمع فيه بكثرة كاثرة ،

(١) سورة النمل آية : ١٧ - ١٩ ٠ (٢) سورة سبأ آية : ١٣ ٠

فيسمع سليمان نملة تخاطب جماعة النمل فتأمرهم أن يدخلوا مساكنهم لوقاية أنفسهم من خطر هذا الزحف القادم عليهم ، وكأنها ملكة عليهم يأتمرون بأمرها وينتهون بنهيها، ليعلم سليمان عليه السلام أن لله ممالك عظيمة وإن كان أهلها صغار الحجم، لا يعبأ بهم من يمر عليهم ، ولا يبالى بتحطيمهم لو شعر بهم أو لم يشعر بهم .

وإنها لنملة حكيمة لها من الحكمة مثل ما لسليمان ؛ فإنها فى كلمات قليلة العدد قصيرة المقاطع تعبر عن نحو عشرين وجهًا من وجوه البلاغة لا مجال لذكر جميعها هنا .

إنها نبهت وأمرت ، ونصحت وحذرت ، وأفردت وجمعت ، وأنذرت وأعذرت ، وعللت ، وكأنها قد جمعت الحكمة من أطرافها ، وبالله عليك من أخبرها أن هذا الجيش اللجب من الإنس والجن والطير هو جيش سليمان !

إنه الإلهام الإلهى الذى يتجلى فى أصغر المخلوقات كما يتجلى فى كبارها ، وصدق الله عز وجل حيث يقول : ﴿ وما من دابةٍ فى الأرضِ ولا طائرٍ يطيرُ بجَنَاحَيْهِ إلا أممٌ أمثالُكم ما فَرَّطنا فى الكتابِ من شيءٍ ثم إلى ربِّهم يُحشَرُون ﴾ [1] .

وحيث يقول فى سورة طه حكاية عما جاء على لسان موسى عليه السلام : ﴿قال ربُّنا الذى أعطى كلَّ شيءٍ خلْقَه ثم هدى ﴾ [2] .

ولعل الله عز وجل قد أراد من هذا الموقف العجيب أن يصغر فى عينى سليمان هذا الملك العريض الذى بين يديه ، وأن يكسر من حدة هذا السلطان المندفع كالشهاب ، لا يمسكه شيء ولا يعترض سبيله معترض ، وذلك كى لا يدخل على نفسه شيء من العجب والزهو ، فتقف له النملة هذا الموقف الذى يرى منه سليمان عجبًا عاجبًا ، فيرى سليمان من النملة ما لم ير أحد من جنده ، ويسمع منها ما لم يسمعه أحد غير النمل الذى يعيش معها : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ .

هذا هو صوت النذير الذى أنذرت به النملة جماعتها . إن الهلاك مقبل على

---

(١) سورة الأنعام آية : ٣٨ . (٢) سورة طه آية : ٥٠ .

جماعة النمل ، من هذه الحشود الحاشدة التى تسير فى ركب سليمان ، فلتأخذ الجماعة حذرها ولتدخل مساكنها ، وتنجحر فى مساربها ، وإلا فالهلاك محقق ! .

وممن هذا الهلاك ؟ من جماعة عالية ، لا تنظر إلى ما تحتها ، ولا تلتفت إلى مواطئ أقدامها ، ولا تشعر بما تصيب أو تقتل من تلك الكائنات الضعيفة .

وهل يشعر من يسكن القصر بما يعانى ساكن الكوخ ؟، وكم فى دنيا الناس من المستضعفين من تطؤهم أقدام الأقوياء ، دون أن يشعروا بهم وهم فى طريقهم إلى التمكين لسلطانهم ، والاستزادة من جاههم وقوتهم !، وكم من مجتمعات بشرية بأسرها جرفها تيار عات من تيارات الطغاة والمستبدين !، وكم من مدن عامرة دمرتها رحى الحروب التى يوقد نارها من يملكون الحطب والوقود ! وكم ! وكم ! .

إنها حكمة بالغة ودرس عظيم ، تلقيه النملة - أضأل مخلوقات الله وأقلها شأنًا- على الإنسانية فى أحسن أحوالها وأعدل أزمانها وأقوى سلطانها ! .

فأين من يتعظ ويعتبر ؟

ولكن سليمان عليه السلام قد وعى الدرس واستوعب العبرة ، فحاد بركبه عن وادى النمل ، وقد ملك العجب عليه عقله وقلبه ، وارتسمت على وجهه ابتسامة الرضا والإعجاب من قول النملة ، وعرف أنه فى موضع الاختبار ، ففزع إلى ربه يدعوه ، ويضرع إليه أن يوفقه للقيام بشكر نعمته التى أنعمها عليه وعلى والديه ،وأن يعمل عملاً صالحًا يليق بمقامه الذى وضعه الله فيه ، وأن يدخله برحمته الواسعة مع عباده الصالحين من الأنبياء والمرسلين ، وذلك بأن يوفقه للسير على نهجهم من غير إبطاء ولا تقصير ، ومِنْ شُكْر النعمة حراستُها وحِفْظُها وصيانتُها من أن تكون سلاح بغى وقهر ، ومِنْ العملَ الصالح إرسالُ هذه النعم فى وجوه الخير والإحسان .

إن للنملة سلطانًا كسلطان سليمان ، ودولة كدولته وجندًا كجنده ، ثم إنها تقوم على هذه الدولة وترعاها رعاية الأم لأبنائها ، وإنها لتضع عينيها دائمًا على مواقع الخير ترتاده لرعيتها ، وإلى مواطن الشر تدفعه عنها وتحذرها منه ، فهل تجد رعية سليمان فى ظله مثل هذه الرعاية التى تجدها جماعة النمل فى ظل هذا السلطان الحكيم ؟ وهل تنال رعيته مثل هذا العطف والحنو الذى تناله جماعة النمل من ملكتها ؟ إن مقاييس الحكمة والرشاد لا تقاس بالكم ولا تحسب بالعدد ، ومتى كانت المعانى كمًّا وعددًا ؟ .

والعجب أن بعض مشيخة المفسرين يدعون مثل هذه المعانى الدقيقة التى جاءت بها هذه القصة وأمثالها ، من حيث الوقوف على مواقع العبرة والعظة فيها ، ثم يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس معهم بالبحث عن النملة وهل هى ذكر أم أنثى ، وعن الموضع الذى كانت فيه مملكتها ، واسم الوادى الذى قامت فيه تلك المملكة .. ثم اسم النملة !! إِىْ واللهِ اسمُ النملة !! لكأنها لا تكون نملة إلا إذا حملت اسمًا لها، ولا يكون منها هذا التدبير لمملكتها إلا إذا كانت من ذوات الأسماء !! ثم ما أكثر الأسماء التى تجلب لها من كل واد من أودية الخيال .

فمن أسمائها « حَرَس » وأنها من قبيلة بنى الشَّيطان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت فى حجم الذئب ، ومن أسمائها « طاخية » و « منذرة » ...

وهكذا تكثر لها الأسماء والصفات ، حتى لتخرج عن أن تكون نملة من هذه النمال التى يعرفها الناس ، وذلك يخرج بها عن أن تكون موضعًا للعبرة والعظة كما لا يخفى !! .

وبعد ، فهذه خلاصة قصة سليمان مع النملة ، قد أرانا الله فيها طرفًا من آيات قدرته وبديع صنعته ، وعظمة شأنه مع خلقه من أعلاهم منزلة إلى أدناهم درجة ؛ لتعلم أن عظمة الخالق جل شأنه تتجلى فى أصغر المخلوقات حجمًا وأحطها شأنا فى نظر البشر ، فيصلح هذا المخلوق الضئيل - كالنملة - أن يكون عبرة لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكورًا ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِ أن يَضربَ مثلاً ما بعوضةً فما فوقَها ﴾ [1] أى فما فوقها فى الصغر كالنملة وما دونها من حشرات .

فها هو سليمان عليه السلام تعلمه نملة فنون الحراسة والتدبير ، وتدارك الخطر قبل وقوعه ، وتقدير العواقب بنظر ثاقب ورأى صائب وكأنها توحى إليه - بإذن ربها - أن مملكته هذه وإن رآها عظيمة فهناك ممالك كثيرة تدانيها أو تساويها ، أو تفوقها فى كثير من نواحى الأبهة ومناحى العظمة .

وهذا أسلوب تربوى يسوس الله به عباده الصالحين ، ليرتقوا به إلى سلم الكمال البشرى ، ولا ينزلوا عن رتبهم التى أقامهم الله فيها .

إن مظاهر الملك حين تفرض نفسها على إنسان قد تشغله عن إصلاح نفسه ، ومراقبة سيره وسيرته ، وتنسيه بداية خلقه وعاقبة أمره ، وتجعله يعدو طوره ، ويتجاوز حده فى كثير من الأحيان .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٦ .

ولكن سليمان عليه السلام لم يكن كذلك ؛ لأنه نبى مرسل معصوم عن الزلل، غير أنه فى حاجة إلى المزيد والمزيد من الترقى فى درجات القرب من خالقه وبارئه ، وفى حاجة ملحة أيضًا إلى أن يجدد نشاطه العلمى بالنظر فى عجائب هذا الكون الذى لا تنتهى عجائبه ولا تنقضى غرائبه ، ففى التأمل والنظر متعة لا تعدلها متعة ، ونزهة لا تساويها نزهة .

وقد كان العلم أسمى نعمة اعتز بها داود وسليمان عليهما السلام ؛ فالعلم إن سلم من آفات الهوى كان مفتاحًا لكل خير ومغلاقًا لكل شر .

ولا يخفى أن فى قصة سليمان والنملة من اللطائف والعبر ما ينفعنا فى ديننا ودنيانا ، فمن نظر أبصر ، ومن أبصر عرف ، ومن عرف فقد اهتدى إلى الصراط المستقيم .

• قصته مع الهدهد :

وهذه عبرة أكبر من أختها إذ يتفقد سليمان الطير ليتعرف على الحاضر منه والغائب ، فيفقد - بعد التحرى والبحث - طائرًا عجيبًا ، له فى الجند شأن عظيم ؛ فهو يتقدم الجند فى مسيرهم ليكشف لهم عن مواطن الماء - وهو الهدهد ، فيغضب سليمان لفقده غضبًا شديدًا ويتوعده بالتعذيب ، أو الذبح إن لم يأته بحجة ظاهرة مقنعة تمهد له العذر فى غيبته .

يقول الله عز وجل : ﴿ وتفَقَّدَ الطيرَ فقالَ مالىَ لا أرى الهدهدَ أم كانَ من الغائبين . لأُعذبنَّه عذابًا شديدًا أو لأذبحنَّه أو ليأتيَنِّى بسلطانٍ مُبينٍ ﴾ [1] .

إنه يسأل جنده سؤال إنكار وتعجب وتحسر ، فيقول : مالى ، لا أرى الهدهد، أى ما الذى حال بينى وبين رؤيته وأنا البصير بجندى ، الخبير بمواطنهم وأجناسهم وأعدادهم ووظائفهم ، وأنا الذى لا يغيب عن سمعى وبصرى فى الغالب واحد منهم ولا شأن من شئونهم ، ثم يدرك أنه غير موجود فيقول : أم كان من الغائبين ، أى : بل كان من الغائبين حقًا ، وكيف يغيب عن الجند من غير إذنه ، إنه لجرم كبير يجب أن يعاقب عليه بأشد أنواع العقاب ، وهو التعذيب الشديد أو الذبح .

ولما كان سليمان قاضيًا حكيمًا لم يقطع بهذا الحكم قبل أن يطالب المتهم

---

(١) سورة النمل آية : ٢٠ - ٢١ .

بالبينة ، فإن لم يأت بها كان له الحق فى توقيع العقوبة عليه ، بما يراه وما يراه وما يمليه عليه دينه وضميره ، وهذا هو العدل فى أبهى مظاهره وأسمى معانيه ، وقد أعلن سليمان هذا الحكم أمام الجند ، لكيلا يحدث أحد منهم نفسه بأن يخرج عن حشده أو يغيب عن ناظريه بلا إذنه حسمًا لنوازع الفوضى ، وحفظًا لمظاهر العز والسلطان . والحزم فى مثل هذه الأمور واجب من أعظم واجبات الملك .

وظل سليمان عليه السلام يترقب مجيء الهدهد فإذا هو مقبل من جنوب الجزيرة العربية ، فسأله سليمان عن سبب غيابه ، فمكث غير بعيد ، ليريه أنه لا يخافه ولا يخاشاه ، ولا يعنيه ما تهدده به أثناء غيابه ؛ لعلمه أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وحدثه بكل أناة وثقة عن أمر عظيم ما كان ينبغى أن يجهله ، وهو قريب منه ، ولديه من الوسائل ما يجعله محيطًا به وملمًا بأبعاده من غير جهد ولا مشقة .

وقد عبر القرآن عن هذا الحديث الذى دار بين الهدهد وسليمان تعبيرًا بليغًا يأخذ بمجامع القلوب ، ويحمل فى طياته خلاصة التوحيد وثمراته ، وآثاره وأسراره .

يقول الله عز وجل : ﴿ فمكَثَ غيرَ بعيدٍ فقال أحطتُ بما لم تُحطْ به وجئتُك من سبإٍ بنبإٍ يقينٍ . إنّى وجدتُ امرأةً تملِكهم وأُوتِيَتْ من كلِّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيمٌ . وجدتُها وقومَها يسجدون للشمسِ من دونِ الله وزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فصدَّهم عن السبيلِ فهم لا يهتدون . ألاَّ يسجدوا لله الذى يُخرِجُ الخَبْءَ فى السمواتِ والأرضِ ويَعلمُ ما تُخفون وما تُعلنون . اللهُ لا إلهَ إلا هو ربُّ العرشِ العظيمِ ﴾ (١) .

إن هذا الهدهد لا يخاف إلا الله ، ولا يهاب أحدًا سواه ، يمكث قريبًا من سليمان ؛ ليعلم سليمان أنه غير قادر عليه -- وإن كان بين يديه -- إلا إذا أقدره الله ، فالملك لله أولاً وآخرًا ، والأمر كله بيده ، والخلق جميعًا فى قبضته .

ويتكلم الهدهد ، فيقول بكل ثقة واعتزاز : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ أى أوتيت من العلم ما لم تؤته ، وعرفت شيئًا لم تعرفه ، وأنا طير صغير ، وأنت ملك عظيم سخر الله لك الجن يعملون بين يديك ، وسخر لك الريح تجرى بأمرك ، والأمر الذى أحطت به كان قريبًا منك ، ومع ذلك لم تحط به علمًا ، ولا أدرى هل كان ذلك قصورًا منك أم كان ذلك شيئًا حجبه الله عنك لحكمة يعلمها .

(١) سورة سبأ آية : ٢٢ -- ٢٦ .

قال : ﴿ وجئتك من سبأ ﴾ ، وهى قرية فى جنوب الجزيرة العربية على قرب من بلاط ملكك ، ولديك من الوسائل ما يقرب البعيد ، جئتك من سبأ بنبأ يقين ، لا أرتاب فيه · والنبأ فى اللغة هو الخبر العظيم الفائدة ·

وأخذ يقص عليه هذا النبأ وهو مصغ إليه والناس من حوله منصتون فى دهشة وإعجاب وهم لا يفهمون لغته ولا يعرفون ما يقول ·

قال : إنى وجدت امرأة تملكهم ، وتسوسهم بحكمة وفطنة ، ولها عرش عظيم كعرشك يا سليمان ، وربما يكون أعظم ·

إنه قد لقنه درسين - والنبأ العظيم لم يبدأ بعد ·

الدرس الأول : يفيد أن الله عز وجل قد قسم العلم على أجناس كثيرة من خلقه ، فمهما أوتى الإنسان من علم فإن هناك من الخلق الصغير الشأن من هو أعلم منه بأمور كثيرة ، ﴿ وفوقَ كلِّ ذى علمٍ عليمٌ ﴾ [1] فلا يفخر إنسان على إنسان ، بل ولا على حيوان بما آتاه الله من علم مهما كان علمه غزيراً · والتواضع للعلم من شيمة العلماء · والشكر على نعمة العلم من سمات الأتقياء · وطلب المزيد منه من شأن المحبين له ، والشغوفين بتحصيله ، والعاقل من يقول : ربِّ زدنى علماً ·

والدرس الثانى : أن عرش سليمان ليس هو الوحيد فى العالم ، وليس هو الرجل الذى يملك قومه ويسوسهم بل هناك امرأة ، نعم هى امرأة ، ملكة فى قومها قد أوتيت من الخبرة والحكمة شيئًا لا يستهان به ، وأوتيتْ من كل شىء تحتاج إليه كما أوتيتَ من كل شىء تحتاج إليه يا سليمان ، وهذا رد على قوله : ﴿ وأوتينا من كل شىء ﴾ ·

ولها عرش عظيم ، بحسب مقاييس العصر الذى كان يعيش فيه سليمان عليه السلام ، وتعيش فيه ملكة سبأ ·

ومقاييس العظمة كثيرة ، وهى تختلف من عصر إلى آخر كما هو معروف فى علم الاجتماع · فلا ينبغى أن يفخر سليمان بعرشه ، ولا بما أوتى من علم غزير ، وثراء واسع ، وسلطان كبير ·

ثم أخذ الهدهد بعد هذا التمهيد الخطير يقص عليه هذا النبأ الذى جاء به ،

---

(١) سورة يوسف آية : ٧٦ ·

فيقول : وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وهى مخلوق مثلهم ، وعلل ذلك بأن الشيطان قد لعب برءوسهم ، وأفسد عليهم فطرتهم وزين لهم سوء أعمالهم ، وصدهم عن السبيل المستقيم ، فهم لا يهتدون إلى الله الذى خلقهم من العدم ، وربَّاهم على موائد العز والكرم · وهم فى حاجة إليك يا سليمان ، يا من أوتيت النبوة ، وكلفت هداية الخلق بقدر وسعك وطاقتك، وكان الأولى بهؤلاء أن يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون، وهو الله الذى لا إله سواه ربى وربك ، ورب كل شىء ، وهو صاحب العرش الأكبر والملك الأعظم ·

وقد ألقى عليه الهدهد هذا النبأ العظيم بإيجاز بليغ يعجز أبلغ الحكماء عن إيراده على هذا النحو المعجز ·

صحيح أن هذا كلام الله ترجم به الحق جل شأنه عن كلام هذا الهدهد ، وليس هو كلام الهدهد نفسه ، ولكنه يجب أنِ تعلم أن ترجمة القرآن للأخبار الواردة تتميز بالمطابقة التامة مع الإيجاز المعجز بلا زيادة ولا نقصان ، ومن غير أدنى قصور فى الأداء ، ولا أدنى إفراط فى الخيال ·

وقد لقن الهدهدُ سليمانَ فى هذا النبأ الذى ألقاه على مسامعه أربعة دروس أخرى ·

الدرس الأول : أن هؤلاء القوم قد بدلوا فطرتهم وضلوا سواء السبيل ، فأين كان سليمان عليه السلام منهم ؟! وهـــل يستحق الهدهد أن يتوعده بالتعذيب أو الذبح ، وقد جاءه بنبأهم ، وهل فى اكتشافه لحال هؤلاء يحتاج لإذن منه ، وكأنه يقول : إن الله أرسلنى إليهم لأطلعك على حقيقة أمرهم فكان الأولى بك ألا تتهددنى بشىء حتى تعلم جلية أمرى وسبب غيبتى ، ولكن الغضب أحيانًا يدفع المرء لارتكاب شىء قد يندم عليه فيما بعد ، ويلوم نفسه على ارتكابه ، ومن شأن الحاكم أن يتريث فى مثل هذه الأمور ·

الدرس الثانى : أن الشيطان دائمًا ما يكون وراء كل ضلال فى المعتقد ، وفساد فى الأرض ، فهو عدو الإنسان أينما كان ، وعلى كل نبى أن يحارب الشيطان ، ويرد كيده عن نفسه وعن رعيته ، فهو ينبهه إلى واجب من أعظم واجباته كان عليه أن يقوم به من قبل أن يأتيه بهذا النبأ ·

الدرس الثالث : أن الله هو الذى يعلم الغيب ويخرج الخبء فلا الهدهد ولا سليمان ولا غيرهما بقادر على ذلك ، وما دام الأمر كذلك فليتواضع كل عبد لخالقه وليقلل من دعاويه ، وليطامن من غروره وإعجابه بنفسه ، وليخفف من اعتزازه بعلمه وملكه ، ونسبه ونشبه ، وليتجرد تمامًا من حوله وطوله ، وليعتصم بحول الله وقوته، وهذا منتهى الإيمان واليقين .

الدرس الرابع : أن الهدهد وإن كان طيرًا صغيرًا لا عقل له إلا أنه يدرك بالإلهام - كما يدرك سليمان بالفطرة والعلم والوحى - أن المعبود بحق هو الله ، وأن كل مخلوق يؤمن بالخالق ويسجد له ، ويخضع لعظمته ويسبح بحمده ، ويقدس له طوعًا وكرهًا بلسان الحال والمقال ، وأن جميع العروش تتلاشى أمام عرشه العظيم .

فأى هدهد هذا بالله عليك ؟! ولله فى خلقه شئون .

وما كاد سليمان عليه السلام يسمع قول الهدهد حتى بادر بالاتصال بأهل هذه المملكة ودعوتهم إلى الإيمان، فكتب إليهم كتابًا موجزًا بليغًا يدعوهم فيه إلى الإسلام، وأرسل الكتاب إليهم مع الهدهد الذى جاء بنبئهم ، فهو أحق بذلك من غيره ؛ لأنه أعرف بهم وبالطريق إليهم ، وقد أوتى من الحكمة ما يجعله قادرًا على إلقاء الرسالة إلى الملكة بطريقة تجذب انتباهها وتحملها على أخذها وفضها وقراءتها ، وهو أقدر على أن يعرف صدى هذه الرسالة فى نفوس القوم إذا عرضتها عليهم مليكتهم .

وفى إرساله إليهم بهذه الرسالة أيضًا دليل صدقه ؛ لأن سليمان عليه السلام أراد أن يمتحنه ؛ ليتبين صدق الخبر على وجه يفيد العلم وينفى الشك .

والتثبت فى مثل هذه الأخبار ضرورة سياسية وعسكرية حذرًا من أن تكون مكيدة من الشيطان ، فربما يكون الشيطان قد أغرى الهدهد بذلك ليدفع سليمان إلى محاربة قوم ليسوا على الحال التى وصفها ، فيصيبهم بجهالة لا مبرر لها ، وربما يكون الهدهد قد وهم فى تبين أحوال القوم ، أو قصر فى استكشاف أمرهم ، وقوله هذا خبر ، والخبر كما قال علماء اللغة : قول يحتمل الصدق والكذب لذاته ؛ فلابد من التثبت على كل حال ، يقول الله عز وجل : ﴿ قال سننظرُ أَصَدَقْتَ أم كنتَ من الكاذبين . اذهبْ بكتابى هذا فَأَلْقِهْ إليهم ثم تولَّ عنهم فانظرْ ماذا يَرْجِعون ﴾ [1] .

---

(١) سورة النمل آية : ٢٧ - ٢٨ .

إن سليمان عليه السلام يلقى الهدهد بعد أن تلقى منه هذا الدرس القاسى بشدة لا عنف فيها ، وبلين لا ضعف فيه ، فيقول : سننظر . والسلطان من شأنه أن ينظر فى كل أمر يعرض عليه ببصره وبصيرته ، فهو المسئول الأول عن رعيته ، وهو يعلم أن الهدهد صادق فيما جاء به من الأنباء ، ومن أين تعرف الطيور الكذب ! وليس بينها وبين الإنسان قرابة أو نسب ؟ .

سليمان يعلم أن الهدهد شهد بما علم ، وتحدث بما رأى ، ولكنه أراد أن يحتاط لنفسه ، ويحتاط لرعيته ، وأن يُعلِّم رعيته كيف يحتاطون فى الأخبار التى تردهم ، وكيف يتثبتون من صحتها ، ليعدوا لكل أمر عدته ويحسبوا لكل شىء حسابه .

ولكن قد يقال أليس فى قول سليمان عليه السلام للهدهد : ﴿ أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ ما يجرح كرامته أمام الجند ، ويثير حزنه وأسفه ويسىء إلى سيرته من غير ذنب اقترفه ولا شر جناه .

نعم قد يقال ذلك ، ولكن يبرر هذه المقالة أن سليمان لما جرحه الهدهد بما ألقاه عليه أمام جنده أراد أن يبادله واحدة بواحدة ، حتى لا يتجرأ عليه مرة أخرى بالتحدث معه بهذا الأسلوب الساخن ، الذى ينبعث منه شىء من العتاب واللوم وتقليل مما أوتيه من العلم والملك بجانب ما يؤتيه الله لغيره من المخلوقات .

وهذه المقالة إذا صدرت من ملك مثل سليمان تكون مقبولة منه ، بل تكون دستوراً يحتكم الملوك إليه من بعده صيانة لمهابتهم ، وتأديبًا لمن تسول له نفسه أن يتجرأ عليهم بقول فيه إحراجهم والتقليل من شأنهم أمام الرعية .

وخلاصة القول فى هذه القضية أن ما قاله سليمان للهدهد كان بمثابة رد الفعل للكلام الذى تفوه به الهدهد ، ولكل حال مقال ، ولكل فعل رد فعل كما يقولون .

ويذهب الهدهد بالكتاب ويلقيه على ملكة سبأ ، وينتهى دوره عند هذا الحد ، ويختفى من سياق القصة ليفسح المجال أمام مشهد آخر من مشاهدها .

• كتاب سليمان إلى ملكة سبأ :

وتقرأ ملكة سبأ هذا الكتاب فيعجبها أسلوبه المهذب ، وتستشف منه أن كاتبه أهل للملك والنبوة ، وأنه حكيم قد جمع مقاصده كلها فى جملة واحدة مكونة من نهى وأمر ﴿ ألا تَعْلُوا عَلَىَّ وأْتُونى مسلمِين ﴾ .

وهذا النهى قد حوى الكثير والكثير من ألوان التهديد والوعيد ، وهذا الأمر قد اشتمل على الكثير والكثير من أنواع الهداية وألوان الوعد الكريم المترتب على امتثاله عن رضا وطيب نفس .

وهذه الملكة امرأة عاقلة حكيمة، لا تستبد برأيها فى مثل هذه الأمور الهامة ، ولكنها تستشير وتستخير ثم تأخذ بالحيلة المثلى والتدبير المحكم إذا لم تجد رأيًا صائبًا يرضى الأطراف جميعًا .

فها هى تقرأ الكتاب ، وتعرف محتواه ومغزاه ومرماه فتجمع أشراف القوم وتعرض عليهم ما فى الكتاب بأسلوب مهذب ، وتعبير جميل فيه تعظيم لشأنهم ، وتربية لنفوسهم، واعتراف لهم بأنهم من ذوى المكانة السامية عندها ، وأنهم من أقرب المقربين إليها ، وأنها لا تقطع أمرًا دونهم ولا تقدم على شىء حتى تستشيرهم فيه .

﴿ قالت يا أيها الملأُ إنى أُلقىَ إلىَّ كتابٌ كريمٌ . إنه من سليمانَ وإنه بسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ . ألاَّ تَعلُوا علىَّ وأْتُونى مسلمِين . قالتْ يا أَيُّها الملأُ أَفْتونى فى أمرى ما كنتُ قاطعةً أمرًا حتى تَشْهَدون ﴾ (١) .

ولا تدرى الملكة من ألقى إليها الكتاب ، ولو عرفت أن الهدهد هو الذى ألقاه إليها لحدثت قومَها به لأنه أمر عجيب لا يتكرر إلا نادرًا ، والقوم لم يسألوها عن الذى جاء به ؛ لأنه لا يتعلق بالعلم به فائدة ، وإنما سألوها عن صاحب الكتاب ، لأنه قد هالهم حديثها عنه ووصفها له بأنه كريم ، فقالت : إنه من سليمان ، ولعلهم كانوا يعرفون سليمان ، ويعرفون قوة بأسه ، وعظمة ملكه . فسألوها عما يشتمله هذا الكتاب ، فقرأته عليهم ، وفى أوله البسملة وليس فى أوله اسمه كما يظن بعض من لا علم لهم بمجريات الحديث ، وفنون التأويل .

وقد عرف الملأ أن فى الكتاب طلبًا لا هوادة فيه ، ولا مهرب منه ، فهاجوا وماجوا ، وأكثروا من اللغط والغلط حتى ابتعدوا عن صواب القول فى هذا الأمر الجلل ، وتنحوا عن الجد والحزم فى اختيار القرار ، فهدَّأتْ الملكة من رَوْعهم ، وخففتْ من حدتهم ، وطلبت منهم أن يفتوها فى هذا الأمر ، ويشيروا عليها فيه برأى يجنبها ويلات الحرب ، وهى كما عهدوها عند حسن ظنهم بها لا تقطع أمرًا

---

(١) سورة النمل آية : ٢٩ - ٣٢ .

دونهم ، ولا تقصر فى تحقيق الأمن والسلام والرخاء فى ربوعهم ، فهى دائمًا تحضرهم فى مجلسها ، وتشهدهم على كل شأن من شئون دولتها ، وتستعين بهم على تأدية واجباتها ، وتحب لهم ما تحبه الأم لولدها .

ولكن القوم - فى نظرى - لم يكونوا أهلاً للمشورة ، ولا أصحاب رأى فى مثل هذه الأمور ، وإنما كانوا يعتزون بمكانتهم عندها ، ويغترون بقوتهم وبأسهم ، ويميلون إلى الحرب أكثر مما يميلون إلى السلام ، ولا يقدرون عواقب الأمور ، لهذا أسندوا الأمر إليها ، وهى امرأة وهم رجال ، وقد جمعتهم للمشورة - فكيف يتركون الأمر لها ولا يظهر منهم من صواب الرأى ما تسترشد به فى اتخاذ ما يجب اتخاذه فى شأن ما جاء فى هذا الكتاب الكريم ! ، إنهم لم يكونوا عند حسن ظنها بهم فقد خذلوها فى مطلبها ، وافتقدتهم فى الموقف الذى كان ينبغى أن تجدهم فيه .

إن الرأى الذى أبدوه هو الدمار بعينه كما تصورته هى ، فالحرب إذا اندلعت لا تبقى ولا تذر ، ولا سيما إذا كان العدو ملكًا كسليمان شديد البأس عظيم الخطر ، فلابد من الحيلة إذن ، والحرب خدعة ، وقد تفعل الحيلة ما لا تفعله السيوف ، والمرأة بطبعها ذات حيل ، وذات كيد عظيم ، وهى موهبة خصت بها دون الرجل فى غالب الأحوال . فانظر كيف حكى القرآن رأيهم ورأيها: ﴿ قالوا نحنُ أُولوا قوةٍ وأُولوا بأسٍ شديدٍ والأمرُ إليكِ فانظرى ماذا تأمرينَ . قالت إن الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعِزَّةَ أهلِها أذلةً وكذلك يفعلون . وإنى مُرسِلةٌ إليهم بهديةٍ فناظرةٌ بِمَ يرَجِعُ المرسَلون ﴾ [١] .

إن التهور والتسرع فى مثل هذه الأمور من شأنه أن يهلك الأخضر واليابس ، وإن استخدام القوة قبل استخدام الحيلة فى فض النزاع وحل الإشكال حماقة لا يرتكبها إلا من سفه نفسه ، وفقد عقله وحسه .

وقد رأت هذه الملكة الذكية أن تقدم لسليمان وأشراف مملكته هدية عظيمة لعلمها أن الهدية تجلب المحبة وتذهب العداوة ، وتقرب الناس بعضهم من بعض ، وتكشف عن طبيعة المُهدَى إليه ، فإن قبلها سليمان فهذا ما كانت تبغى ، ولا شك أن هذا القبول سيترتب عليه من الأمور ما تحمد عاقبته ، وإن لم يقبلها فالأمر جد لا

(١) سورة النمل آية : ٣٣ - ٣٥ .

هزل فيه ، وعندئذ يكون من الخير لها ولقومها أن تستجيب له وتدخل فى دينه إيثاراً للسلامة والعافية .

• سليمان فى مواجهة ملكة سبأ :

ولكن سليمان عليه السلام يفطن لهذه الحيلة ، ويرد الرسل بالهدية ، ويوحى إليهم بأنه قادم لحربهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولا طاقة لهم على قتالها ، وأنه عازم عزمًا مؤكدًا على إخراجهم من قريتهم أذلة صاغرين، والملكة تعرف ذلك حق المعرفة ، وقد صرحت به لقومها ، وأين هى من سليمان عليه السلام ، ومن هى التى تخوض معه حربًا غير متكافئة بكل المقاييس الحربية ، فلابد أن تستجيب لهذا الداعى إلى الإسلام ، فتدخل معه فى دينه ويدخل معها من قومها من شاء .

وعلم سليمان عليه السلام بعزمها عن طريق الوحى أو الإلهام ، فاستشار الملأ فى الإتيان بعرشها ، وقال لهم : أيكم يأتينى بعرشها فى أقرب وقت وأحسن حال ، فقام عفريت من الجن وقال : أنا آتيك به قبل أن ينفض مجلسك ، وقال رجل ممن آتاه الله علمًا من الكتاب : بل أنا آتيك به قبل أن تنظر إلى شىء ثم يرتد إليك بصرك عنه ، أى فى أقل من الثانية بالحساب الفلكى ، فأرسله [1] فأتى به ، فلما رآه مستقراً عنده ، علم أن هذا اختبار من الله تبارك وتعالى فتواضع لعظمته واستغرق فى شكره كما هو شأنه عند حدوث النعم ، تحقيقًا لأمر الله تعالى له ولأبيه من قبل ولأتباعهما من المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ اعملوا آلَ داودَ شكرًا ﴾ [2] .

ولم يكن سليمان عليه السلام يرجو من إحضار العرش إلا ليريها آية من آيات الله الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته ، لتؤمن به عن قناعة وثقة ، لا ليريها مظهراً من مظاهر قوته هو - كما يتوهم بعض من لا علم لهم بأوصاف الأنبياء .

وأراد من جهة أخرى أن يختبر ذكاءها وقدرتها على التمييز بين عرشها وعرش غيرها ، وينظر كيف يكون تصورها وحالها عندما ترى عرشها أو عرشاً كعرشها ، وماذا تقول عندما تسأل عنه ، إلى غير ذلك مما يكشف عنه هذا الاختبار .

وقد أمر سليمان عليه السلام بعض خدمه أن يُنكِّر لها عرشها ، فيغير بعض

---

(١) هذا ما ذهب إليه كثير من المفسرين ، وقالوا : إن هذا الرجل هو « آصف بن برخياء » والراجح عندى أن الذى عنده علم الكتاب هو سليمان نفسه على ما سيأتى بيانه .

(٢) سورة سبأ آية : ١٣ .

ملامحه ، فلما جاءت ونظرت إلى العرش قيل لها : أهكذا عرشك ، فقالت : كأنه هو ؛ لتمسك بالأمر من طرفيه ، فإنها لو قالت : هو ، فربما لا يكون هو ، فتكذب، وتضطر إلى التماس الأعذار ، ولو قالت : ليس هو ، تكون كاذبة أيضًا ، وتبدو وكأنها غبية ليس لها حنكة فى التمييز بين ما لها وما ليس لها .

ولما دُعيت إلى دخول الصَّرْح الذى كان يجلس فيه سليمان ، رأت كأن هذا الصرح لجة ماء فكشفت عن ساقيها ، وكشفت فى الوقت نفسه عن بدائيتها ، وضيق أفقها ، وضعف شخصيتها أمام هذا الملك العظيم والنبى المرسل ، وعبرت عن ارتباكها أمام هذه المواجهة الصعبة ، فقال لها سليمان : لا بأس عليك ، إنه صرح ممهد من قوارير مملوءة بالماء ، يخيل للناظر إليها من أول وهلة أنها لجة ، فأعلنت إسلامها مع سليمان ، وندمت على ما كان منها من عبادة غير الله تعالى .

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جاءَ سليمانَ قال أَتمدُّونَنِ بمالٍ فما آتانىَ اللهُ خيرٌ مما آتاكم بل أنتم بهدِيَّتكم تفرحون . ارجعْ إليهم فَلَنَأتينَّهم بجنودٍ لا قِبلَ لهم بها ولنخرجنَّهم منها أذلةً وهم صاغرون . قال يا أيها الملأُ أيكم يأتينى بعرشِها قبلَ أن يأتونى مسلمِين . قال عِفْرِيتٌ من الجنِّ أنا آتيك به قبلَ أن تقومَ من مقامك وإنى عليه لقوىٌ أمينٌ . قال الذى عنده علمٌ من الكتابِ أنا آتيك به قبلَ أن يرتدَّ إليك طَرْفُك فلما رآه مستقرًا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونَى أأشكرُ أم أكفرُ ومن شكرَ فإنما يشكرُ لنفسه ومن كفرَ فإنَّ ربِّى غنىٌ كريمٌ . قال نكِّروا لها عرشَها ننظرْ أتهتدى أم تكونُ من الذين لا يهتدون . فلما جاءَتْ قيلَ أهكذا عرشُك قالت كأنَّهُ هو وأُوتينا العلمَ من قبلِها وكنا مسلمِين . وصدَّها ما كانت تعبُدُ من دونِ الله إنها كانت من قومٍ كافرين . قيل لها ادخلى الصَّرْحَ فلما رأتْهُ حَسِبتْه لُجَّةً وكشفتْ عن ساقَيْها قال إنه صرحٌ مُمرَّدٌ من قواريرَ قالت ربِّ إنى ظلمتُ نفسى وأَسْلَمْتُ مع سليمانَ للهِ ربِّ العالمين ﴾ (١) .

يا لها من امرأة جمعت بين العلم والحكمة ، وحسن التدبير ، والسياسة ودماثة الخلق ، وصدق المقال ، وسلامة الفطرة .

فقد قدَّرتْ الأمور قَدْرَها ، والتمست لقومها السلامة بكل سبيل ، وساقتهم

---

(١) سورة النمل آية : ٣٦ - ٤٤ .

بالحكمة إلى الدين الحق ، وذللت ما فى طريق هدايتهم من عقبات كئود ، فقد وفدت على سليمان بعد أن أسلمت لله وجهها ومعها قومها - كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ فهذا من تمام قولها - كما قال كثير من المفسرين ،فلما قالت: ﴿ كأنه هو ﴾ أضافت إلى هذا القول قولها: ﴿ وأوتينا العلم من قبلها ﴾أى من قبل هذه المعجزة،فهى قد عرفت بفطنتها أن العرش عرشها،وأن الله هو الذى أقدر سليمان على الإتيان به معجزة له على نبوته ورسالته .

وقيل : إن الذى قال هذا هو سليمان عليه السلام ، والمعنى أنه لما رأى من فطنتها وعلمها حمد الله عز وجل ، فقال : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ أى قبل أن تكون مسلمة ، وهو بعيد كما قال أبو السعود فى تفسيره ، والراجح القول الأول .

وجاء قوله تعالى : ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ جوابًا عن سؤال مقدر ينشأ فى ذهن السامع وكأنه يقول : كيف خرجت عن فطرتها وعبدت الشمس من دون الله وهى على ما هى عليه من رجاحة العقل ، وسلامة الطبع ، وسرعة البديهة ، فقيل : إنها من قوم قد أوغلوا فى الكفر ، وقد نشأت فيهم فأشربت حب هذه العقيدة الفاسدة ، وأعماها التقليد عن عبادة الله الذى خلقها من العدم ، وأسبغ عليها وافر النعم ، ورباها على موائد العز والكرم ، وكانت فى حاجة إلى من يردها إلى الفطرة التى فطرها الله عليها ، فكانت هدايتها وهداية قومها على يد سليمان عليه السلام .

وقد أعلنت إسلامها وهى فى قومها ، ثم أعلنته وهى أمام عرشها فى بلاط سليمان ، وأعلنته وهى بين يديه ، وأعلنت أنها أسلمت مع سليمان لله رب العالمين ، فهى توحى لسليمان بأنها معه فى إسلامها ، وما دام الأمر كذلك فلتكن معه أيضًا فى ملكه قريبة منه أو مصاحبة له ، وكأنها - فى نظرى - تخطبه لنفسها بأسلوب غير مباشر ، فيه تورية وتلميح يدل على ذكاء مفرط يدعو إلى العجب والإعجاب ، فمن حقها أن تنعم بجواره ، فهى ملكة ، وهو ملك ، وهى من أنسب النساء إليه وأحقها بالزواج منه ، فهو لا يجد فى النساء أفضل منها ، وهى لا تجد فى الرجال أفضل منه، وقد استجابت له من أول وهلة ومن غير تردد وجاءت إلى بيته ، ومثلت بين يديه فلا ينبغى أن تخرج من هذا البيت بِخُفَّىْ حُنين ، وقد اسلمت معه ، فلتبق معه حتى تلقى الله عز وجل ، وزواجه منها أقل مكافأة يقدمها إليها .

هذا ما فهمتُه من قولها : ﴿ مع سليمان﴾ ، ولو لم تُرِدْ ذلك لقالت : وأسلمت لله رب العالمين . والله أعلم بمراده من كلامه، فإن يكن هذا الفهم صحيحًا فلى غنمه، وإن يكن خاطئًا فعلىَّ غرمه .

• من الذى جاء بعرشها ؟ :

الجواب عن هذا السؤال من مُلَح العلم لا من أصوله ؛ لأن معرفة الذى جاء بعرشها لا تنفع ولا تضر .

ولولا أن الإنسان قد جبل على حب الاستطلاع ما كان ينبغى له أن يسأل هذا السؤال ، وتحقيقًا لرغبة السائل نقول : ذهب كثير من المفسرين إلى أن الذى جاء بعرشها فى طرفة عين هو « آصف بن برخياء » ، وقد نقلوا هذا عن أهل الكتاب . والأصح أن الذى جاء به هو سليمان نفسه لأدلة كثيرة منها :

١ - إنه لا يعقل أن يكون فى أمة سليمان من هو أعلم بالكتاب منه ، فهو نبى مرسل مشهود له بالعلم والحكمة ، وقد علمه الله لغة الطير ، وهمس النمل ،وسخر له الريح تجرى بأمره ، وآتاه من كل شىء يحتاج إليه ، فكيف يأتى بالعرش واحد من جنده بعلم من الكتاب لا يعلمه سليمان عليه السلام .

٢ - إن سليمان عليه السلام حين قال له عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وزعم أنه قوى ، وأنه أمين - لم يقبل هذا التحدى ، فأراد أن يلقن العفريت درسًا ؛ ليكون عبرة له وللجن والإنس جميعًا ، فقال : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك بعلم علَّمنيه ربى لم يُعلِّمه أحدًا منكم يا معشر الجن والإنس، ليكون إتيان هذا العرش معجزة أخرى تضاف إلى معجزاتى الدالة على صدقى فيما أدعوكم إليه .

٣ - وقد قال الله عز وجل : ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب ﴾ أى علم من اللوح المحفوظ ، ولم يقل : قال سليمان ؛ لأن الاكتفاء بذكر الصفة ينبئ عن عظمة الموصوف وأحقيته بهذه الصفة ، واشتهاره بها إلى الحد الذى صارت عَلَمًا عليه .

٤ - والدليل على أنه هو الذى جاء بعرشها كذلك قوله تعالى حكاية عنه : ﴿فلما رآه مستقرًا عنده قال هذا من فضـــــل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ﴾ إنه نسب الفضل إلى الله وحده ، ولم يشر من قريب أو من بعيد إلى آصف بن برخياء ولا إلى غيره .

والحاصل أن سليمان قد قرأ اسمًا من أسماء الله تعالى التى علمه إياها ؛ لاجتلاب هذا العرش فإذا هو مستقر عنده ، فقال لمن حوله : هذا من فضل ربى وحده ، ولا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق جل وعلا ·

وما ذكرته من هذا التأويل هو ما ذهب إليه أبو حنيفة ، وغيره من كبار المفسرين·

• سليمان والريح :

ومن المعجزات التى أيده الله بها - وكانت من أَجَلِّ النعم عليه - تسخيرُ الريح تجرى بأمره طَيِّعةً حيث أراد ·

وقد وصف الله هذه الريح بوصفين - الأول : أنها عاصفة ، والثانى : أنها رخوة ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ ولسليمانَ الريحَ عاصفةً تجرى بأمره إلى الأرضِ التى باركنا فيها وكنَّا بكلِّ شيءٍ عالمين ﴾ [1] .

وقال جل شأنه : ﴿ فسخَّرنا له الريح تجرى بأمرِه رُخاءً حيثُ أصاب ﴾ [2] أى حيث أراد ، من قولهم : أين تصيب ، أى أين تريد ، وقد بين الله سرعتها بقوله جل شأنه : ﴿ ولسليمانَ الريحَ غُدُوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شهرٌ ﴾ [3] .

قال ابن كثير : قال الحسن - يعنى البصرى رحمه الله - كان يغدو على بساطه من دمشق وينزل باصطخر يتغذى بها ، ويذهب رائحًا من اصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع ·

ويقول محمد الطاهر بن عاشور فى تفسيره : ومعنى تسخيره الريح خلق ريح تلائم سير سفائنه للغزو أو التجارة ، فجعل الله لمراسيه فى شطوط فلسطين رياحًا موسمية تهب شهرًا مشرقة لتذهب فى ذلك الموسم سفنه ، وتهب شهرًا مغربة لترجع سفنه إلى شواطئ فلسطين ·

وتسخير الريح أهم مظهر من مظاهر ملكه، وهو مظهر فريد فى نوعه وعجيب من عجائب صنع الله تبارك وتعالى · إنها ريح يمتطيها كما يمتطى الخيل فيوجهها الوجهة التى يبتغيها وعليها جنوده من الإنس والجن والطير ، فياله من ملك قد اجتمعت فيه آيات من بدائع قدرة الله تعالى ، ليس لها مثال سابق ولا مثال لاحق ·

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٨١ · (٢) سورة ص آية : ٣٦ · (٣) سورة سبأ آية : ١٢ ·

وقد ساق الله لنا هذا الطرف الطريف من قصة سليمان ؛ لكى لا نستكثر على الله أن يصنع فى ملكه الواسع الفسيح ما يبهر العقول ، ويحير الأفهام ، ويحمل كل عبد من عباده العقلاء على تقديسه والتسبيح بحمده فى ليله ونهاره .

ومن المعلوم لدينا أن الريح ليس جسمًا تراه الأبصار ، ولكنه لطيفة من لطائف القدرة نشعر بها ولا نعلم عن تكوينها وتركيبها وتسييرها ووظائفها إلا النذر اليسير .

والعلماء يبحثون فى الهواء من حيثيات كثيرة ووجهات مختلفة ثم يقفون عاجزين عن إدراك حقيقة الأثير ما هو ، ومن أين يبدأ ، وإلى أين ينتهى ، وكيف ينتقل فى جو السماء من جهة إلى جهة ، وكيف ... وكيف ...

قال تعالى : ﴿ واختلافِ الليلِ والنهارِ وما أنزَلَ اللهُ من السماءِ من رزقٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتِها وتصريفِ الرياحِ آياتٌ لقومٍ يَعقلون ﴾ [1] .

• سليمان والخيل :

وقد قص الله علينا فى سورة «ص» ما وقع له ، وصدر منه فى أمر الخيل التى كانت تمثل أكبر قوة ضاربة فى مملكته، فقال جل شأنه : ﴿ ووهبنا لداودَ سليمانَ نعم العبدُ إنَّه أوّابٌ . إذْ عُرِضَ عليه بالعَشىِّ الصافناتُ الجيادُ . فقال إنى أحببتُ حبَّ الخيرِ عن ذِكرِ ربى حتى توارتْ بالحجابِ . رُدُّوها علىَّ فطفِقَ مسحًا بالسُّوق والأعناق﴾ [2] .

وقد ذكر كثير من المفسرين فى تفسير هذه الآيات أقوالاً يدرك العقل من أول وهلة أنها أقوال باطلة لا تليق بمقام هذا النبى الكريم ، ولا تتفق مع سياق الآيات ، ولا مع مجريات الأمور ، ومصالح المملكة السليمانية ، فقد قالوا فيما قالوا : إن سليمان عليه السلام جلس يومًا يستعرض خيلاً له ، حتى غابت الشمس دون أن يصلى العصر، فحزن لذلك وأمر بإحضار الخيل التى شغله استعراضها عن الصلاة ، فأخذ فى ضرب سوقها وأعناقها بالسيف قربة لله تعالى .

فهم يرون أن الضمير فى قوله تعالى : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ يعود إلى الشمس ، أى حتى استترت الشمس بما يحجبها عن الأبصار .

---

(١) سورة الجاثية آية : ٥ .   (٢) سورة ص آية : ٣٠ - ٣٣ .

وأن المراد بقوله تعالى : ﴿ فطفق مسحًا بالسوق والأعناق ﴾ الشروع فى ضرب سوقها وأعناقها بالسيف لأنها شغلته عن صلاة العصر .

والصحيح الذى لا معدل عنه كما يرى الرازى وابن حزم وغيرهما : أن سليمان قد طلب من جنده أن يعرضوا الخيل عليه ليرى مدى كثرتها وقوتها وقدرتها على العَدْو والثبات فعرضت عليه ، وهى كما وصفها الله صافنات جياد .

والصافنات هى التى تقف على قوائمها الثلاثة وترفع الرابعة ، فتقف على مقدم حافرها متهيئة للعدو إذا حركها راكبها ، والجياد هى : التى تجيد العَدْو وتسرع للقاء العدوّ كأنها الريح المرسلة .

فلما رآها سليمان وأعجب بكثرتها وقوتها وشكر الله عز وجل على هذه النعمة العظيمة وقال فى نفسه - أو للمقربين إليه - إنى أحببت حب الخير لذكر ربى - أى من أجل أن أكون لربى ذاكرًا - والذكر يبعث على الشكر ويبعث على التفانى فى الخضوع والطاعة ، فالحرف « عن » فى الآية للتعليل - وأنا أسميه حرف نشأة إن صح هذا التعبير - أى أحببتها حبًا ناشئًا عن ذكرى لربى ، فلولا الذكر ما أحببت الخيل ولا أعددتها ؛ لأنَّ هواى فى طاعة الله والجهاد فى سبيله .

والمراد بالخير فى الآية : الخيل . قال رسول الله ﷺ كما جاء فى صحيح البخارى : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

وظل سليمان عليه السلام يستعرض الخيل حتى توارت الخيل بالحجاب ، أى : استترت بظلمة الليل . وقيل : حتى توارت الشمس بالحجاب وهو الليل الذى سترها عن الأبصار . وأيًّما كان فإن المآل واحدٌ ، ثم طلب سليمان ردها إليه مرة أخرى فطفق - أى : أخذ - يمسح بيده الشريفة على سوقها وأعناقها إعجابًا بها وحنوًا عليها وإيماءً للجند بأنه قد وهبها لله عز وجل ووقفها على الجهاد فى سبيله .

أما قولهم : إنه ذبحها وفرّق لحمها على الفقراء والمساكين لأنها شغلته عن صلاة كان يصليها قبل غروب الشمس فهو قول ساقط لا يقبله عقل ؛ إذ كيف يقضى على هذه القوة الضاربة فيأخذها من مرابطها ليضعها فى بطون الجائعين، وما ذنب هذه الخيل ، هل هى التى أنسته صلاته ؟ وهَبْه نسى صلاته ، هل فى النسيان ذنب يوجب ذبح الخيل كلها من أجل أن يكفر الله عنه ذنبه ؟ ولم ذلك والله عز وجل يغفر لمن استغفره من غير أن يتقرب بمثل هذا القربان الذى يترتب عليه إهدار قوة لا

غنى للجيش عنها ، وهى لا تقل عن الريح شأنًا من حيث إنها تلاحق العدو ، وتتوسط جمعه، وتدخل الرعب فى قلبه، وتصنع الأعاجيب فى إحراز النصر بإذن الله عز وجل ؟! .

وكان على أولئك المفسرين الذين شغفوا بالنقل عن أهل الكتاب أن يتحروا الدقة فى هذا النقل ، وأن يكونوا على حذر منه ، وأن يعتمدوا على النص القرآنى ذاته فيأخذوا المعنى من كلماته وحروفه ، ويربطوا بين سابقه ولاحقه ، ويأخذوا فى اعتبارهم الجو الذى يسبح النص فى أجوائه ، فبذلك يصلوا إلى المعانى المرادة من كلامه بتوفيق الله وعونه ، والله هو الهادى إلى سواء السبيل .

• فتنة سليمان :

بعد حديث سليمان مع الخيل جاء حديث آخر ينبئ عن اختبار آخر وقع فيه ثم تاب منه وأناب ، واستغفر الله وسأله مُلْكًا لا ينبغى لأحد من بعده ، فاستجاب الله له وآتاه من خيرى الدنيا والآخرة ما قَرَّت به عينه وسُرَّ به قلبه ، لأنه تميز بصفة هى من أعظم صفات العبودية ، وهى الأوبة إلى ربه فى كل ما يفعل وما يذر .

﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ والأوبة هى التوبة والإنابة وإظهار كمال الافتقار إلى الله تعالى فى كل شأن وفى كل حال .

قال تعالى : ﴿ ولقد فَتَنَّا سليمانَ وألقينا على كُرْسِيِّه جسدًا ثم أنابَ . قال ربِّ اغفرْ لى وهبْ لى مُلكًا لا ينبغى لأحدٍ من بعدى إنك أنت الوهابُ ﴾ (١) .

وقد تخبط المفسرون فى تأويل هذه الفتنة ونقلوا عن أهل الكتاب وغيرهم أقوالاً لا تصح ولا تليق بمقام النبوة ، ولا تجد لها فى العقل صدى ولا قبولاً .

قال بعضهم : إن الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان عبارة عن شيطان تمثل له فى صورة إنسان ، ثم أخذ من سليمان خاتمة الذى كان يصرف به ملكه . وقعد ذلك الشيطان على كرسى سليمان، ولم يعد إلا بعد أن عثر على خاتمه .

وقال بعضهم : إن سبب فتنة سليمان عليه السلام هو سجود إحدى زوجاته لتمثال أبيها الذى قتله سليمان فى إحدى الحروب .

---

(١) سورة ص آية : ٣٤ - ٣٥ .

وقد بقيت على هذه الحال هى وجواريها أربعين ليلة ، دون أن تعلم سليمان بذلك ·

وقال بعضهم : إن سبب فتنة سـليمان أنه وُلد له ولد فخاف عليه من الشياطين ، فأمر السحاب بحفظه وتغذيته · ولكن هذا الولد وقع ميتًا على كرسى سليمان فاستغفر سليمان ربه لأنه لم يعتمد عليه فى حفظ ابنه ، إلى غير ذلك من الأقوال التى ذكروها فى كتبهم ·

والصحيح الذى يتمشى مع النص القرآنى ويليق بمقام النبوة ولا ينكره العقل السليم هو ما جاء فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله · فقال له صاحبه : قل إن شاء الله · فلم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعًا فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، جاءت بشقٍّ رجل ، والذى نفس محمد بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانًا أجمعون » ·

صحيح أن هذا الحديث ليس فيه ما يدل على أنه تأويل لمعنى هذ الآية ، والبخارى ومسلم لم يضعاه فى كتاب التفسير ، ولكنه يستأنس به على ما ذكره العدول من المفسرين من أن هذا الشق من المولود جاءت به القابلة على كرسيه ، فكانت الفتنة فيه ،وهى خيبة أمله فيما عزم عليه ولم يقل : إن شاء الله ·

ومعنى قوله فى الحديث : « لأطوفن اليلة على تسعين أى لأطوفن من بداية هذه الليلة ، وليس المعنى كما يتوهم البعض أنه يريد أن يطوف على هذا العدد من النساء فى ليلة واحدة ، لأنه الليلة الواحدة لاتسع هذا العدد كما لا يخفى ·

وسليمان عليه السلام لم يكن هواه فى الطواف على النساء متجهًا إلى إشباع الرغبة الجنسية كما هو شأن أكثر الخلق ، ولكن هواه كان دائمًا - كما قلت أكثر من مرة - فى طاعة الله ومرضاته ، فهو يريد أن ينجب فرسانًا يقاتلون فى سبيل الله فيسعد بهم كفرسان يهزمون العدو أكثر مما يسعد بهم كأبناء يشهدهم أمامه فتقر بهم عينه ، ويسر بهم قلبه ، وهكذا شأن الأنبياء جميعًا عليهم الصلاة والسلام ·

ونحن ينبغى أن يكون لنا نصيب ولو يسير من هذا الإخلاص ، وهذا التفانى

فى طاعة الله عز وجل فنجعل هوانا تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ ﴿ ولكلٍّ درجاتٌ مما عَمِلوا ﴾ [1] . ونسأل الله التوفيق .

• سليمان والجن :

يذكر الله جل شأنه فى سورة سبأ أنه قد أسال له عين القِطْر - وهو النحاس المذاب - وسخر له الجن يعملون بين يديه ما يشاء من المحاريب والتماثيل ، والجفان والقدور الراسيات وغيرها .

فقال جل وعلا : ﴿ ولسليمانَ الريحَ غُدُوُّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ وأسلْنا له عينَ القِطْرِ ومن الجنِّ من يعملُ بين يَدَيْه بإذنِ ربه ومنَ يَزِغْ منهم عن أمرنا نُذِقْه من عذابِ السعير . يعملون له ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجَوابِ وقُدُورٍ راسياتٍ اعملوا آلَ داودَ شكرًا وقليلٌ من عبادىَ الشكور ﴾ [2] .

والمحاريب : هى القصور أو الحصون ، والتماثيل : قيل إنها هى الصور المجسمة التى تكون للحيوان وغيره ، وقيل إنها المسلات والمنارات التى تهتدى بها السفن وغيرها . والجفان : القصاع الواسعة التى تشبه الجواب ، وهى الحياض الكبيرة ، والقدور : هى ما يطبخ فيها اللحم ونحوه ، وكانت لا تحرك من مكانها لثقلها واتساعها .

ويقول الله عز وجل : ﴿ فسخَّرنا له الريحَ تجرى بأمرِهِ رُخاءً حيثُ أصابَ . والشياطينَ كلَّ بنَّاءٍ وغَوَّاصٍ . وآخرين مُقَرَّنِين فى الأصفادِ . هذا عطاؤنا فامْنُنْ أو أَمسِكْ بغيرِ حسابٍ . وإنَّ له عندَنا لزُلفى وَحُسنَ مآبٍ ﴾ [3] .

فقد كان الشياطين - وهم الجن - يعملون أيضًا فى البناء ، ويغوصون فى البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان وغيرهما مما يتخذ حُلِيًّا للنساء ، أو يستعمل فى الصناعات المختلفة ، وكان هناك من الشياطين من عصوا سليمان عليه السلام فقيدهم فى الأغلال عقوبة لهم على تمردهم ، وقد منَّ الله عليه بهذا العطاء الواسع ، وهذا الملك الباهر والجاه العريض ، وأطلق له الحرية فى إعطاء من شاء ، وحرمان من

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٣٢ .

(٢) سورة سبأ آية : ١٢ - ١٣ . (٣) سورة ص آية : ٣٦ - ٤٠ .

شاء ، وهو نبى معصوم عن الظلم والمحاباة والأَثَرة ، مشهود له بالعدل والإحسان ، والبذل الواسع والعطاء العظيم ، وإنه لنبى مرسلٌ ، له عند الله قُربى وحُسْنُ مكانة ومقام .

• وفاته :

وقد كان سليمان يخلو بنفسه فى محرابه فى بيت المقدس كلما أحس بالفراغ من أعمال الرعية وشئون المملكة ، وبينما هو واقف فى بيت المقدس يرقب العمال من الجن حانت منيته ، فخرجت روحه الطاهرة من جسده الطاهر وصعدت إلى خالقها وبارئها ، وهو مستند على منسأته ، وهى عصاة غليظة كان يصحبها فى يمينه دائمًا ويتوكأ عليها ، وقد ظل ميتًا على عصاه ، والجن تعمل بين يديه بجد ونشاط غير عادى ، خوفًا منه وفَرَقًا من عقوبته ، ولم يعلموا بموته إلا حين أكلت الأَرَضةُ الطرف السفلى من منسأته وخر على الأرض .

وقد كانت الجن تزعم أن لها علمًا بالغيب فبهتوا جميعًا حين ظهر لهم أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ؛ لعلموا بموت سليمان عليه السلام ، ووفروا على أنفسهم هذا الجهد الجهيد الذى ذاقوا فيه العذاب المهين .

وفى هذا يقول الله جل شأنه : ﴿ فلما قضيْنَا عليه الموتَ ما دلَّهم على موتِه إلا دابةُ الأرض تأكلُ مِنسَأتَه فلما خرَّ تَبَيَّنَتْ الجنُّ أنْ لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لَبِثوا فى العذابِ المهينِ ﴾ (١) .

إن الجن كائنات محدودة القدرة ، واقعة فى قيد العجز عن كثير من الأمور شأنها فى هذا شأن الإنسان الذى يقدر على القليل ويعجز عن الكثير ، ولكنهم كانوا يتعالون على الإنس لقدرتهم على التخفى والمسير إلى مسافات بعيدة فى وقت قصير .

وقد عرفنا من خلال هذه القصة أن أول من أعلن أنه قادر على الإتيان بعرش ملكة سبأ كان عفريتًا من الجن ، فأراه سليمان من نفسه قوة ، فقال له : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، وقد رجحنا فيما سبق أن الذى جاء بالعرش هو سليمان .

إن القرآن الكريم يثبت أن الجن أضعفَ من الإنسان ، وأقل منه ذكاءً ، وأحط

---

(١) سورة سبأ آية : ١٤ .

منه شأنًا ، ولهذا لم يبعث الله منهم رسلاً ، ولكننا نرى الكثير من الناس يهابونهم ، ويخشون بأسهم ولا بأس لهم ، ويعتقدون أنهم قادرون على نفع الإنسان وضره وانبرى جماعة من الكهنة والعرافين يوحون إلى الناس أنهم يتصلون بالجن ويستخدمونه فى كثير من الأمور ، وهو أمر نادر جدًا ، والنادر لا حكم له ·

وبعد ·· فهذه قصة سليمان من أولها إلى آخرها كما وردت فى القرآن ، وهى قصة بلغت الغاية فى العجب والإعجاب ، حكاها الله فى كتابه لتكون عظة وعبرة لهذه الأمة التى جعلها الله شهيدة على الأمم السابقة بما معها من هذا الكتاب المبين ·

وعلى المسلم أن يلتمس أحداث هذه القصة حدثًا بعد حدث ليتفهم مقاصدها ويتعرف على مواطن العبرة فيها · وإلى قصة أخرى إن شاء الله ·

* * *

قصة العُزَير

وردت فى سورة « البقرة » قصة رجل مر على قرية خربة ، فقال متعجبًا : كيف يحيِى الله هذه القرية بعد موتها ؟! فأماته الله مائة عام فى مكان بعيد عن القرية، فلما بعثه أوحى إليه يسأله – وهو العليم بحاله – عن المدة التى لبثها نائمًا نومة الموت، فقال : لبثت يومًا أو جزءًا من اليوم · فأخبره ربه أنه لبث ميتًا مائة عام ، وأراه من خوارق العادات ما قصه علينا فى هذه السورة ·

· وجمهور المفسرين يقولون : إن هذا الرجل هو « العزير بن جروه » · ولعلهم استندوا فى هذا على أهل الكتاب ·

والقرآن – كم هو دأبه – لا يذكر من الأسماء إلا ما يتعلق بذكره فائدة فليكن من يكون ، إنه رجل صالح ، قال ما قال ، ووقع له ما وقع ·

وقال جمهور المفسرين : المراد بالقرية بيت المقدس ، مع أن الله نكَّرها ، ولم يذكر اسمها · فقد تكون بيت المقدس ، وقد تكون قرية غيرها ·

المهم أنها قرية أصابها الدمار ، وخلت من السكان ، ثم عُمِّرت بعد مائة عام فرآها الرجل الصالح عامرة بعد أن رآها خَرِبة ·

لتكون قصته هذه دليلاً على عظيم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، وإخراجهم من قبورهم فى يوم آتٍ لا ريب فيه ·

يقول الله عز وجل : ﴿ أو كالذى مرَّ على قريةٍ وهى خاويةٌ على عُرُوشِها قال أنَّى يُحيى هذه اللهُ بعد موتِها فأماتَه اللهُ مائةَ عامٍ ثم بعثَه قال كم لَبِثتَ قالَ لبثتُ يومًا أو بعضَ يومٍ قال بل لبثتَ مائةَ عامٍ فانظرْ إلى طعامك وشرابك لم يَتَسَنَّه وانظر إلى حمَارِك ولنجعلَك آيةً للناس وانظرْ إلى العظامِ كيف نُنْشِزُها ثم نَكْسُوها لحمًا فلما تبيَّنَ له قال أعلمُ أن اللهَ على كلِّ شىءٍ قديرٌ ﴾ (١) ·

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٩ ·

هذا الرجل الصالح لم يستبعد على قدرة الله إحياء هذه القرية ، كلا ، ولكنه كان يسأل نفسه سؤال المتأمل الخبير بشئون العمران ، وهو يعلم أن الله على كل شيء قدير ، وكأنه بسؤاله هذا يسبح بحمد الله ويستعظم فى نفسه عظمة الله وعدله وحكمته فى قضائه وقدره إذ سلط على أهل هذه القرية من شتَّت شملهم ، وفرَّق جمعهم ، وخرب ديارهم ، ومزقهم كل ممزق ، ثم أعاد إليها العمران بعد حين من الزمان ، والعمران كما يقول علماء الاجتماع لا يبدأ طفرة واحدة ولكنه يزداد بالتدريج شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى مستوى معين .

ويستيقظ الرجل الصالح من سباته العميق ليرى القرية آهلة بالسكان ، مليئة بالخيرات ، فيسأله ربه - قبل أن يتوجه إليها ويلتقى بأهلها - عن مدة مكثه فى سباته فيجيب بما قد علم ، فيخبره الله بما لم يكن يعلم ، وقبل أن يتكلم بأى كلمة أخرى يأمره الله عن طريق الوحى أن ينظر فى طعامه وشرابه إنه كما هو لم يتسنه ، أى لم يتغير عن حاله التى كان عليها منذ مائة عام .

وأمره أن ينظر إلى حماره وهو عظام بالية ، وقد أخذت القدرة العلية فى تركيب عظامه على النحو الذى كان عليه ، وإتمام خلقه . وهو أمر لم يره أحد من قبله حتى إبراهيم عليه السلام - فإنه لم يشاهد خلق الطير ولكنه شاهدها وهى تأتى إليه سعيًا .

ولكل نبى خصوصية تميز بها عن غيره ، والجميع فى الذروة من الكمال البشرى .

فلما رأى من الآيات ما رأى ، نطق لسان حاله ومقاله بأعظم شهادة تصدر عن أولى العلم والحكمة ، قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير .

وكان العزير يحفظ التوراة ، ولم يكن فى قريته من يحفظها ، فلما التقى بهم وأخبرهم أنه العزير أنكروه ، وقالوا : إن العزير قد مات منذ مائة عامٍ أو أكثر ، فأخذ يعرفهم بنفسه حتى عرفوه ، وقيل : إن أمه كانت على قيد الحياة وكانت لا تبصر ، فلما دخل عليها ولمسته بيديها عرفت أنه ولدها .

فالتف حوله أهل القرية وأجلوه وعظموه وتعلموا منه الكثير من العلم ، وتلقوا عنه التوراة مشافهة ، ولكن اليهود قوم عادون لا تخلص عقيدتهم من الشبهات ، فقد زعم بعضهم : أنه ابن الله ، وتكلفوا فى تعظيمه حيًّا وميتًا بما لا ينبغى أن يكون من قوم لا يقدسون إلا الله فى زعمهم .

﴿ وقالت اليهودُ عُزَيرٌ ابنُ اللهِ وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله ذلك قولُهم بأفواهِهِم يُضَاهِئُون قولَ الذين كفروا من قبلُ قاتَلَهم اللهُ أنَّى يُؤفكون ﴾ [1] .

* * *

(١) سورة التوبة آية : ٣٠ .

قصة لقمان عليه السلام

لقمان عبد صالح من عباد الله تعالى ، قص الله علينا خبره مع ابنه ، وسرد لنا طرفًا من حكمته ، لنعتبر بها ، فقصته تتمثل فى حكمته ، فما علينا إلا أن ندندن حولها ، على ضوء ما جاء فى القرآن الكريم أولاً ، ثم نذكر من حكمته طرفًا مما ذكره المؤرخون والمحدثون والفقهاء ؛ تتمة للفائدة ·

● ما قيل فى نسبه وصفته :

قد اختلف المفسرون وأصحاب السير فى « لقمان » اختلافًا تناول الزمان والمكان اللذين عاش فيهما ، كما تناول الصفة التى كان عليها ، وهل كان نبيًا أم كان حكيمًا؟ وهل هو من بنى إسرائيل ، أم من غير بنى إسرائيل ؟

والقرآن الكريم لم يصرح بأنه كان رسولاً ، ولم يذكره فيمن ذكر من أنبياء ورسل ، ولم يصله بنسب إلى إبراهيم كما وصل أنبياء بنى إسرائيل به ·

ومع هذا ، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون لقمان نبيًا ، فقد آتاه الله الحكمة ، وهى نعمة عظيمة حلى الله تعالى بها أنبياءه ، فقال تعالى فى داود عليه السلام : ﴿وقتلَ داودُ جالوتَ وآتاه اللهُ المُلكَ والحكمةَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : فى شأن الحكمة وجلال قدرها : ﴿ يُؤتِى الحكمةَ من يشاءُ ومن يُؤتَ الحكمةَ فقد أُوتِىَ خيرًا كثيرًا ﴾(٢) .

ثم إن الحكمة التى أوتيها لقمان ، حكمة ربانية ، وليست من الحكم المكتسبة ، التى يحصلها الحكماء ، والفلاسفة بالبحث والنظر ، وإنما هى فضل الله ، كالرسالة والنبوة ، اللتين لاتكتسبان بتحصيل واجتهاد ·

قال محمد الطاهر بن عاشور فى تفسيره المسمى بالتحرير والتنوير :(ذكر أهل التفسير والتاريخ أنه كان فى زمن داود عليه السلام ، وبعضهم يقول : إنه كان ابن أخت أيوب ، أو ابن خالته ، فتعين أنه عاش فى بنى إسرائيل · وذكر بعضهم أنه كان عبدًا فأعتقه سيده ، وذكر ابن كثير عن مجاهد : أن لقمان كان قاضيًا فى بنى إسرائيل فى زمان داود عليه السلام ، ولا يوجد ذكر ذلك فى كتب الإسرائيلين ·

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٥١ · (٢) سورة البقرة آية : ٢٦٩ ·

قيل كان راعيًا للغنم ، وقيل كان نجاراً، وقيل خياطًا . وفى تفسير ابن كثير عن ابن وهب أن لقمان كان عبدًا لبنى الحسحاس ، وبنو الحسحاس من العرب . . . ، قال : وكان لقمانَ معروفًا عند خاصة العرب . قال ابن إسحاق فى السيرة : قدم سويد بن الصامت أخو بنى عمرو بن عوف مكة حاجًا أو معتمرًا فتصدى له رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله ﷺ : وما الذى معك ؟، قال : مجلة لقمان ، فقال رسول الله ﷺ : اعرضها على ، فعرضها عليه ، فقال : إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله . قال ابن إسحاق : فقدم المدينة فلم يلبث أن قتلته الخزرج وكان قتله قبل يوم بعاث ، وكان رجال من قومه يقولون : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم ، وكان قومه يدعونه الكامل) أ.هـ .

وقد روى أن قريشًا سألوا رسول الله ﷺ عن لقمان عليه السلام ، فأنزل الله فى شأنه قرآنًا يتلى ، وقد كان النضر بن الحارث يشترى لهو الحديث فيذهب إلى بلاد الفرس ، فيأتى بكتب فيها قصة اسفنديار ورستم وبهرام ، وغيرها من الأساطير ، فيقول : تعالوا أقص عليكم أحسن مما يقص عليكم محمد ، فنزلت قصة لقمان ، ففاقت بجمالها وجلالها وحلاوتها ، وطلاوتها أحسن القصص فى عالم البشر .

وإنها لقصة جمعت أصول الحكمة وينابيعها الصافية وأضاءت للناس بمشاعلها الطريق إلى الله تبارك وتعالى ، ورسمت لهم خطوات السير إليه خطوة خطوة .

• حكمته ووصاياه فى القرآن :

بدأ الله هذه القصة بقوله فى سورة سميت باسمه :

﴿ ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ أن اشكرْ لله . ومن يشكرْ فإنما يشكرُ لنفسهِ ومن كفرَ فإنَّ اللهَ غنىٌ حميدٌ ﴾ (١) .

والحكمة هى : معرفة حقائق الأشياء على ما هى عليه ، وأعلاها النبوة لأنها علم بالحقائق ، مأمون من أن يكون مخالفًا لما هى عليه فى نفس الأمر ، إذ النبوة متلقاة من الله الذى لا يعزب عن علمه شىء .

وحكمة لقمان مأثورة فى أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال ، والمقربة للخفيات بأحسن الأمثال .

---

(١) سورة لقمان آية : ١٢ .

ومشكاة الحكم كلها قوله تعالى : ﴿ أن اشكر لله ﴾ . فالشكر هو الإيمان الكامل ، واليقين الصادق فى أسمى معانيه ؛ لأنه مقام ليس فوقه مقام ، فهو لسمو شأنه يتسامى إليه الأنبياء ، ويتدانى منه الحكماء .

قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضاحكًا من قولها وقال ربِّ أَوْزِعْنى أن أشكرَ نعمتَك التى أنعمتَ علىَّ وعلى والدىَّ وأنْ أَعملَ صالحًا ترضاهُ وأَدخلْنى برحمتِك فى عبادك الصالحين ﴾ [١] .

وقد جعله الله فى مقابل الكفر فقال : ﴿ فاذكُرُونى أذكرْكم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ [٢] ، وقال : ﴿ وإذ تأذَّنَ ربُّكم لئن شكرتُم لأَزِيدَنَّكم ولئن كفرتُم إنَّ عذابى لشديدٌ ﴾ [٣] .

وقول الله تبارك وتعالى : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ حكمة أخرى تبنى على الحكمة السابقة وتعد تعليلاً لها ، وثمرة من ثمراتها ، وتفيد أن الله غنى عن عباده وهم الفقراء إليه ، وأنه لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم ، وأن من عمل صالحًا وارتقى به عمله إلى مقام الشكر ، فقد عاد شكره إليه وجنى ثمراته لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ، ومع استغنائه عنهم يحمد لهم ما أسدوه لأنفسهم من طاعة ، وما كفوا عنه أنفسهم من معصية .

إن هذه الحكمة المزدوجة فى هذه الآية أساس متين لما بعدها من الحكم التى وردت على لسان لقمان عليه السلام ، وهو يعظ ابنه ، اقرأ هذه الحكم وتتبعها ببصيرتك لتستوعب منها ما ينفعك فى دينك ودنياك .

قال تعالى : ﴿ وإذ قال لقمانُ لابنه وهو يَعظُه يا بُنىَّ لا تُشرِكْ بالله إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ . ووصيْنَا الإنسانَ بوالديه حملته أمُّه وهنًا على وهْنٍ وفصالُه فى عامين أن اشكرْ لى ولوالديْك إلىَّ المصيرُ . وإن جاهداك على أن تشركَ بى ما ليس لك به علمٌ فلا تُطعْهما وصاحبْهما فى الدنيا معروفًا واتبِعْ سبيلَ من أنابَ إلىَّ ثم إلىَّ مرجعُكم فأُنبِّئكم بما كنتم تعملون . يا بُنىَّ إنها إن تكُ مثقالَ حبة من خردل فتكنْ فى صخرة أو فى السماواتِ أو فى الأرضِ يأتِ بها اللهُ إن اللهَ لطيفٌ خبيرٌ . يا بُنىَّ أقمْ الصلاةَ وأْمُرْ بالمعروفِ وانْهَ عن المنكرِ واصبِر على ما أصابَك إن ذلك من عزمِ

---

(١) سورة النمل آية : ١٩ . (٢) سورة البقرة آية : ١٥٢ .
(٣) سورة إبراهيم آية : ٧ .

الأمورِ. ولا تُصَعِّرْ خدكَ للناسِ ولا تمشِ فى الأرضِ مَرَحًا إن اللهَ لا يحبُّ كلَّ مختال فخورٍ. واقصِد فى مَشيكَ واغضضْ من صـــوتِك إنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصَوتُ الحَميرِ ﴾ (١).

وقد بدأ لقمان موعظته بارساء دعائم التوحيد فى قلب ولده ، فنهاه عن الشرك بالله ، وبين له أن الشرك ظلم عظيم للنفس يفوق كل ظلم ؛ إذ المعاصى تغفر وهو لا يغفر ، قال تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يغفرُ أن يُشركَ به ويَغْفِرُ ما دونَ ذلكَ لمن يشاءُ ومن يُشرِكْ باللهِ فقدِ افترى إثمًا عظيمًا ﴾ (٢) .

ولعل لقمان عليه السلام قد استحيا أن يأمر ولده بالإحسان إلى الوالدين أو نسى أن يوصيه بذلك ، أو كان ولده باراً به بطبعه ، فوضع الله بحكمته الوصية ببر الوالدين بين وصاياه استكمالاً لها ، وجعلها بعد الوصية الأولى مباشرة للدلالة على أن طاعة الوالدين بعد عبادته مباشرة فى المنزلة .

وقد كان الإحسان إلى الوالدين فى هذه الوصية متمثلاً فى شكرهما بعد شكر الخالق جل وعلا ؛ ليكون البر أعم ، والاعتراف بحقهما أتم .

﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير ﴾ ، وما دام المصير إلىَّ فالجزاء حَتْمٌ لازم على قدر العمل ، وعلى قدر الإخلاص فيه ، وهو وعد لمن أحسن ، ووعيد لمن أساء.

ووصاة الله للإنسان بوالديه هى أمر ، وعزيمة وتكليف ، إذ كثيرًا ما ينكر الإنسان هذا الحق الذى لوالديه عليه ، كما أن كثيراً من الناس يكفر بالله ، ويجحد إحسان الله إليه .

ولما كان الولد كثيرًا ما يغفل عن واجبه نحو أمه أكثر مما يغفل عن واجبه نحو أبيه ذكره الحق - جل شأنه - بما عانته الأم فى حمله وولادته فقال : ﴿ حملته أمه وهنًا على وهن ﴾ أى ضعفًا على ضعف ، فكلما زادت أشهر الحمل ازداد ضعفها وتعبها ، ثم لما وضعته قد عانت من خدمته وإرضاعه مدة طويلة وهى لا تكف عن بذل الجهد فى تربيته .

---

(١) سورة لقمان آية : ١٣ - ١٩ . (٢) سورة النساء آية : ٤٨ .

وقد ذكر الله أهم المراحل الصعبة فى تربيته وهى مرحلة الفصال ، فقال : ﴿وفصاله فى عامين﴾ أى فطامه فى خلال عامين .

وبين بعد ذلك كيفية برهما والإحسان إليهما والعطف عليهما حتى ولو كانا كافرين ، وأوجب عليه طاعتهما ما لم يكن فى طاعتهما معصية له تبارك وتعالى ، وأمره أن يلزم المعروف فى صحبتهما على كل حال ، وهو السبيل الذى سلكه المنيبون إلى الله فى كل زمان ، وذكره مرة أخرى بالمرجع والمصير والجزاء على العمل ؛ مبالغة فى الحث على التزام البر نحو الوالدين اللذين هما السبب فى وجوده .

ولقمان عليه السلام كان حريصًا كل الحرص على غرس مقومات الإيمان فى قلب ولده ، فأخبره أن الله لا يخفى عليه من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فهو جل شأنه يعلم مثقال الذرة أينما كانت ، ويقدر على الإتيان بها مفصولة عن سواها من الذرات المبهمات الخفيات المتماثلات ؛ لأنه لطيف يعلم ما لطف ، أى ما خفى من دقائق الأشياء .

ولما كانت الصلاة عماد الدين وركنه الركين أمره بإقامتها ، وأردف هذا الأمر بأمر آخر لا يقل شأنه عنه وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بقدر الطاقة البشرية، وهذا الواجب يأتى بعد الصلاة فى هذه الآيات للدلالة على أنه رأس الإسلام به تصان حرماته ، وبه تحفظ هيبته ، وبه تقام شريعته ، وبه يكون ، وبدونه لا يكون .

ولما كان الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر أمرًا صعبًا وطريقًا شاقًا ، أمره بالصبر على ما أصابه وأخبره أن هذه الأوامر التى أمره بها من الأمور التى عزم الله على عباده بها ، أى جعلها من الواجبات العظام ، فالعزائم هى كما يقول الفقهاء : الأمور التى يجب تنفيذها فى وقتها المحدد وبشروطها المقررة من غير إبطاء ولا إخلال .

ونحن نعلم أن الركائز التى يستعين بها المرء على تحقيق مآربه فى الدنيا ، ومطالبه فى الآخرة ، تجتمع كلها فى أمرين هما : الصبر والصلاة - كما جاء فى سورة البقرة ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاةِ إنَّ اللهَ مع الصابرين ﴾ [١] .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٥٣ .

ثم ينصح لقمان ولده بالتواضع والحلم ، وترك العجب والخيلاء ، فيقول كما حكى القرآن عنه : ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ أى لا تخاطبهم وأنت معرض عنهم تكبرًا وتعاليًا - فإن المتعالى دائمًا ما نراه يميل خده عمن يحتقره ، وربما يبالغ فى ذلك فيعطيه ظهره .

ويلازم التكبرَ المَرَحُ ، وهو الغرور والعُجْب ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ ولا تَمشِ فى الأرضِ مَرَحًا إنك لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تَبْلُغَ الجبالَ طُولاً ﴾ [1] ، وهنا يقول جل شأنه : ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ والمعنى : أنه يبغضه ويلعنه، ويطرده من رحمته ؛ لأنه قد أخذته الخيلاء فتظاهر أمام الناس بمظاهر العظمة وليس له منها شىء ، وافتخر على الناس بما لا يحق أن يفتخر به ، والإنسان العاقل المؤمن لا يختال ولا يفخر على الناس بما آتاه الله من فضله ، فهو مهما عظم شأنه إنسان قد خلقه الله من نطفة ، وأمده بما أمده من حسنات الدنيا ، وهو على وعد مع الله قريب، فغدًا أو بعد غد يترك كل شىء ويدفن فى أرض لا أنيس بها ، ويبعث يوم القيامة مرهونًا بكسبه ، مجزيًا بعمله .

وكان آخر الوصايا التى أوصى بها لقمان ولده وصيتان متلازمتان وهما : الاعتدال فى المشى والغض من الصوت ، بحيث يلزم الوسطية فى مشيه بين الناس ، والوسطية فى الحديث معهم .

والوسطية فى المشى تكون فى المشى الحسى والمعنوى ، فإن المشى يطلق ويراد به أحيانا معاملة الناس ومعاشرتهم ، كما يطلق أحيانًا على المشى بالأقدام ، والوصية تحتمل هذا وذاك .

وغض الصوت قد يكون المراد به خفضه تواضعًا وتأدبًا ، وقد يراد به ترك ما يزعج ويؤذى السامعين ، وهما متلازمان ، والعاقل هو الذى يزن صوته بميزان ، فيرفع منه ويخفض بحسب الحاجة ، بشرط ألا يكون مزعجًا .

هذه هى الوصايا اللقمانية التى وردت فى القرآن ، أما الوصايا التى أثرت عنه فكثيرة جدًا نذكر لك منها طرفًا كما وعدناك :

---

(١) سورة الإسراء آية : ٣٧ .

• وصايا لقمان فى غير القرآن :

١ - قوله لابنه : أَىْ بنى إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها أناس كثير ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى ، وحشوها الإيمان ، وشراعها التوكل على الله تعالى ، لعلك أن تنجو ، ولا أراك ناجيًا .

٢ - وقوله : من كان له فى نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزًا ، والذل فى طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية .

٣ - وقوله : ضَرْبُ الوالد لمولده كالسماد للزرع .

٤ - وقوله : يا بنى إياك والدَّين فإنه ذلٌّ النهار وهمٌّ الليل .

٥ - وقوله : يا بنى ارجُ الله عز وجل رجاءً لا يجرِّئنَّك على معصيته تعالى ، وخَف الله سبحانه خوفًا لا يؤيسك من رحمته تعالى شأنه .

٦ - وقوله : يا بنى حَمَلْتُ الجندل والحديد وكلَّ شىء ثقيل ، فلم أحمل شيئًا هو أثقل من جار السوء ، وذقت المرار فلم أذق شيئًا هو أمرُّ من الفقر .

٧ - يا بنى : لا تُرسل رسولك جاهلاً ، فإن لم تجد حكيمًا فكن رسول نفسك .

٨ - يا بنى احضر الجنائز ولا تحضر العرس ، فإن الجنائز تذكرك الآخرة ، والعرس يشهيك الدنيا .

٩ - يا بنى لا تأكل شبعًا على شبع فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله .

١٠ - يا بنى لا تكن حلواً فتبلع ، ولا تكن مرًا فتلفظ .

١١ - وقوله لابنه : لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور فى أمرك العلماء .

١٢ - وقوله : لا خير لك فى أن تتعلم ما لم تَعْلَم ولَمّا تعملْ بما قد علمت ، فإن مثل ذلك رجل احتطب حطبًا فحمل حُزمة وذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى .

١٣ - وقوله : يا بنى إذا أردت أن تؤاخى رجلاً فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره ٠

١٤ - وقوله : لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطًا ، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء ٠

١٥ - وقوله : يا بنى أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك ولا بد لك منه ٠

١٦ - يا بنى كن كمن لا يبتغى محمدة الناس ولا يكسب ذمهم ، فنفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة ٠

١٧ - وقوله : يا بنى امتنع بما يخرج من فيك فإنك ما سكتَّ سالمٌ ، وإنما ينبغى لك من القول ما ينفعك ٠

١٨ - يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله يحيى القلوب بنور العلم كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء ٠

١٩ - قيل للقمان : ما بلغ بك ما نرى - يريدون الفضل - فقال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعنينى ٠

٢٠ - وقوله لابنه : يا بنى إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون وهم إلى الآخرة سراعًا يذهبون ، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنتَ واستقبلت الآخرة ، وإن دارًا تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج عنها ٠

٢١ - وقال : ليس غنىً كصحة ، ولا نعمةً كطِيب نَفْسٍ ٠

٢٢ - يا بنى لا تجالس الفُجَّار ولا تُماشِهم ، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم ، وجالس العلماء وماشِهم عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم ٠

٢٣ - وأوصاه رجل أن يذبح شاة ويأتيه بأطيب مضغتين ، فأتاه باللسان والقلب ، ثم طلب أن يذبح أخرى وأن يلقى منها أخبث مضغتين ، فألقى اللسان والقلب ، فسأله عن ذلك فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا ، وأخبث ما فيها إذا خبثا ٠

٢٤ - دخل على داود وهو يسرد الدروع ، فأراد أن يسأله ماذا يفعل فأدركته الحكمة فسكت ، فلما أتمها داود لبسها ، وقال : نعم لَبوسُ الحرب أنت ، فقال لقمان : الصمت حكمة وقليل فاعله ·

٢٥ - قيل للقمان : أى الناس شر ؟ فقال : الذى لا يبالى أن يراه الناس محسنًا أو مسيئًا ·

٢٦ - وقوله لابنه : إن الله رضينى لك فلم يوصِّنى بك ، ولم يرضك لى فأوصاك بى (أى جعلنى سببًا لوجودك وألقى فى قلبى محبتك · ولم يجعلك كذلك) ·

٢٧ - يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة ·

٢٨ - وقوله لابنه : يا بنى إنما مَثَل المرأة الصالحة كمثل الدهن فى الرأس يلين العروق ويحسن الشعر ، ومَثَلها كمثل التاج على رأس الملك ، ومَثَلها كمثل اللؤلؤ والجوهر لا يدرى أحد ما قيمته ، ومَثَل المرأة السوء كمثل السَّيْل لا ينتهى حتى يبلغ منتهاه : إذ تكلمتْ أسمعت ، وإذا مشتْ أسرعت ، وإذا قعدت رفعت ، وإذا غضبتْ أسمعت، وكل داء يبرأ إلا داء امرأة السوء ·

هذه بعض الحكم التى نسبت إلى لقمان عليه السلام ولم ترد فى القرآن الكريم ذكرتها تتمة للفائدة ·

وهذه هى قصة لقمان ، حكاها القرآن بأسلوب رائع ، وفى سياق معجز ، يأخذ بمجامع القلوب ، والقرآن كله فى مستوى واحد من براعة التعبير ، ودقة التصوير ، وقوة التأثير ، ولكن لكل سياق فيه طعم خاص عند كل متدبر لآياته ، معجب بنظمه وأساليبه المتنوعة فى البيان ·

وهذه القصة تعد نمطًا فريدًا فى الأساليب التربوية للصغار والكبار ، ومنهجًا متكاملاً لطرق الوعظ والإرشاد ، والدعوة لمكارم الأخلاق يستطيع علماء الدين والدنيا أن يفيدوا منها فى تقويم سلوكهم من جهة ، وتقويم سلوك الآخرين من جهة أخرى ·

*　　*　　*

قصة ذى القرنين

ذو القرنين عبد صالح من عباد الله المخلصين الذين آتاهم الله العلم والحكمة - قد مكنه الله فى الأرض ، يجوب فى أقطارها شرقًا وغربًا حيث شاء الله تبارك وتعالى، وأمده بالقوة والسلطان ، وزوده بالخبرة فى الإصلاح والتعمير والتدبير والسياسة ، وأسند إليه هداية أهل الشرق والغرب من سكان الأرض .

وقد ذكر الله قصته فى سورة الكهف عقب قصة الخضر - عليهما السلام ؛ لوجوه من المناسبة ، يحسن بنا أن نذكرها أولاً قبل الشروع فى القصة .

● وجوه المناسبة بين قصة الخضر وذى القرنين :

١ - ذكر الله قصة ذى القرنين عقب قصة الخضر لبيان الفرق بين ما آتاهما من العلم والرحمة ، فالخضر آتاه الله علمًا لدُنِّيًا ، يغاير العلم الذى منحه الله للأنبياء وغيرهم من البشر ، وذو القرنين منحه الله من العلم بأسباب التعمير والتدبير والسياسة ما لم يؤته غيره من ملوك الدنيا ، فكان ذكر قصة هذا عقب قصة ذاك من باب تنويع دلائل القدرة الإلهية والحكمة الربانية .

٢ - والقارئ للقرآن الكريم إذا قرأ قصة الخضر وعرف ما خصه الله به ، ووردت عليه عقبها قصة ذى القرنين وجد بينهما وجوه اتفاق ووجوه اختلاف .

فمن وجوه الاتفاق أن كلاً منهما كان على علم وبصيرة من ربه وعلى هدى ونور ، وأن كلاً منهما كان رحيمًا حليمًا مع الناس ، وأن كلاً منهما كان له خبرة بالبناء والتعمير . فالخضر قد بنى الجدار ، وذو القرنين قد بنى السد .

وقد حكى الله عن كل منهما ثلاثة أحداث فيها ما فيها من خوارق العادات فخرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار ، هى الأحداث الثلاثة التى جرت على يد الخضر عليه السلام ، وبلوغ مغرب الشمس ، وبلوغ مشرقها ، وإقامة السد هى أحداث ثلاثة جرت على يد ذى القرنين .

٣ - ومن وجوه الاختلاف أن حوادث الخضر كانت فوق مستوى البشر ، أما الحوادث التى جرت على يد ذى القرنين فإنها كانت تجرى على مستوى العقل البشرى، حيث يأخذ الأمور بأسبابها الظاهرة التى تبدو لعين العاقل البصير العالم .

ومع هذا فإن أسباب كل منهما تلتقى عند نهايتها بما هو مطلوب ومحمود .

هذه هى وجوه المناسبة بين القصتين إجمالاً ، وسيرى القارئ فى القصة وجوهًا أخرى من التشابه بين الرجلين وقصتيهما .

وكنت أود أن أذكر قصة ذى القرنين عقب قصة الخضر ، لكنى عدلت عن هذه الفكرة ، فذكرت قصة الخضر مع قصة موسى عليه السلام ؛ لأنها بها ألصق من الناحية التاريخية ، وإن كانت بقصة ذى القرنين ألصق من الناحية البلاغية .

والقرآن الكريم كما نعلم لا يلتزم فى سرد الترتيب الزمنى كما يلتزمه القصاص، ولكنه يجرى على نحو آخر أكمل وأقوم فى إثبات الإعجاز البيانى .

• ذو القرنين من هو ؟ :

اختلف العلماء من المفسرين والمؤرخين فى شأن ذى القرنين من هو ، ومن أى الجهات هو ، وفى أى العصور كان ، وهل كان من الإنس أم من الملائكة ؟ إلى آخر ما هنالك من وجوه الاختلاف .

١ - فقال قوم : إنه من ملوك تُبَّع باليمن ، واسمه « أبو بكر بن إفريقش » ، وقد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط فمر بتونس ومراكش وغيرهما ، وبنى مدينة سميت إفريقية ، ثم سميت القارة كلها بهذا الاسم وهو اسم أبيه .

وهو الذى افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول :

قد كان ذو القرنين جدى مسلمًا ملكًا تدين له الملوك وتسجـد

بلغ المشارق والمغـــارب يبتغى أسـباب ملك من كريم مرشد

فرأى مآب الشمس عند غروبها فى عين ذى خُلُب وثأط حَرْمَد

الخلب : الطين . والثأط : الحمئة . الحرمد : الأسود .

وسمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس .

والدليل على أنه حميرى أن الأذواء [1] إنما يعرفون فى بلاد حمير دون بلاد اليونان ، وهو من الدولة الحميرية التى حكمت من سنة ١١٥ قبل الميلاد إلى سنة ٥٥٢ بعد الميلاد ، من الطبقة الثانية منها ، وملوكها يسمون التبابعة ، واحدهم تُبَّع -

---

(١) الأذواء : جمع « ذو » أى حمير كانوا يلقبون ملوكهم بذى كذا وذى كذا .

بضم التاء وتشديد الباء - أفاده أبو الريحان البيرونى المنجم فى كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » .

٢ - ويرى كثير من العلماء والمؤرخين أنه هو « إسكندر بن فيلبس » الرومى تلميذ أرسطاطاليس الفيلسوف المسمى بالمعلم الأول الذى انتشرت فلسفته فى الأمة الإسلامية ، وقد كان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة ، وكان من أهل مقدونيا ، وحارب الفرس واستولى على ملك « دارا » وتزوج ابنته ، ثم سافر إلى الهند وحارب هناك ، ثم حكم مِصر وبنى الإسكندرية ، واستدلوا على ذلك بأنه لم يعرف التاريخ أن أحداً من الملوك دوّخ العالم وسافر شرقًا وغربًا ، وملك أكثر المعمور غيره .

وقد استمات الشيخ عبد الكريم الخطيب فى ترجيح هذا القول فقال فيما قال : الإسكندر أشبه الناس بذى القرنين هذا ، وقد كان مؤمنًا بالله ، وقد فتح له الطريق إلى هذا الإيمان أستاذه أرسطو الذى كان موحداً يقول بالصانع الأول وبالعقل الأول ، وبالمحرك الأول ، وبالسبب الأول ، إلى غير ذلك من المقولات التى تجعل على الوجود قوة عاقلة يدور فى فلكها كل موجود ، وإذا كانت تصورات أرسطو لله سبحانه وتعالى يحفها الغموض فإنها تصورات فى صميمها تبلغ بمن يأخذ طريقه معها على هدى وبصيرة إلى التصور الصحيح لله سبحانه وتعالى .

وليس بالبعيد أن يكون الإسكندر قد اهتدى فى طريقه إلى الله بما لم يهتد إليه أستاذه . إلى آخر ما قال .

لكنه عاد يلقى بظلال الشك فيما ادعى ، فقال : وعلى أى فإن ذا القرنين ، سواء أكان هو الإسكندر الأكبر أو غيره من عباد الله فإنه على صفتين : أولهما : أنه ذو سلطان متمكن ، وأنه بما آتاه الله من عقل وحكمة ومن ملك وسلطان قد اجتمع له من الأسباب ما يمكن له من الحصول على مسببات لم تجتمع لدى أحد غيره .

وثانية الصفتين اللتين يتصف بهما ذو القرنين : أنه مؤمن بالله ، وأنه أقام هذا الملك الواسع العريض على الحق والعدل والإحسان [١] . أ . هـ .

٣ - وزعم قوم أنه ملك من ملوك الفرس وأنه « أفريدون بن أثفيان بن حمشيد » .

---

(١) انظر تفسيره المسمى بالتفسير القرآنى للقرآن ص ٧٠٢ .

وزعم قوم - منهم محمد الطاهر بن عاشور - أنه ملك من ملوك الصين، وقد استدل على ذلك بما لا طائل تحته [1] .

والأصح من هذه الأقوال فى نظرى هو القول الأول ، بدليل أن العرب كانوا يلقبون ملوكهم بذى كذا وذى كذا ، وأن العرب كانوا يعرفون شيئًا من أخباره عن طريق أحبار اليهود ورهبان النصارى وغيرهم من المهتمين بأنساب العرب وسير ملوكهم .

ولذلك ورد أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الروح وعن أهل الكهف وعن ذى القرنين بإغراء من اليهود فنزل قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ وقوله تعالى ﴿ ويسألونك عن ذى القرنين ﴾ .

وجاءت قصة أهل الكهف غير مصدرة بقوله : ويسألونك . لأمر بلاغى محل ذكره كتب التفسير .

أما الإسكندر المقدونى فوثنى ، والقول بأنه مؤمن من باب الظن لا من باب العلم ، وكونه هو ذا القرنين بعيد لا يؤيده دليل ، وسيأتى ما يؤيد الرأى الأول عند الحديث عن بلوغه فى السير مغرب الشمس ومشرقها ، وبلوغه بين السدين ، وعند الحديث عن بناء السد إن شاء الله تعالى .

● بلوغه مغرب الشمس :

يبتدئ الله قصة هذا العبد الصالح بقوله جل شأنه : ﴿ ويسألونَكَ عن ذى القرنَيْنِ قل سأتلواْ عليكم منه ذكرًا ﴾ [2] .

وقد سأله اليهود عن قصته امتحانًا له وتحديًا ، فأجابهم بوحى من الله تبارك وتعالى ، وقيل : إن أهل مكة سألوه عنه بإيعاز من اليهود ، فأجاب الله عنه فى القرآن بالحق الذى لا تحريف فيه ولا تبديل .

﴿ قل سأتلو عليكم منه ذكرًا ﴾ أى قرآنًا حكيمًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو ذكر للذاكرين ، وشرف للتالين له ، والعاملين به ، كما قال جل شأنُه فى شأنِه : ﴿ وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومِك وسوف تُسْألون ﴾ [3] .

---

(١) انظر تفسيره المسمى بالتحرير والتنوير ج ١٦ ص ٢٢ .

(٢) سورة الكهف آية : ٨٣ .   (٣) سورة الزخرف آية : ٤٤ .

ولولا ما فى قصة هذا الرجل العظيم من عظات وعبر وأحكام وحكم ما سجلها فى هذا الذكر الحكيم بهذا التفصيل المبين .

وتأخذ القصة طريقها بذكر ما منحه الله له من القوة والعلم والملك ، ليشعر المؤمن القارئ لهذا القرآن بادئ ذى بدء أنه أمام رجل ليس كالرجال ، وملك ليس كالملوك ، فيشتاق إلى قصته بتمامها ، فيقبل على تدبرها ، والتعرف على مواطن العبرة فيها بحب وحرص واهتمام .

وهذا ما يسمى بأسلوب التشويق القصصى ، وهو أسلوب حكيم يخضع لأحداث القصة ، وشهرتها ، ومواطن العجب فيها ، وغير ذلك من خصائصها الفنية وسماتها البلاغية ، فكل قصة فى القرآن لها مطلع يناسبها ، ومقدمة تقود المتأمل إلى موضوعها ، وتهديه إلى مضمونها ، وترشده إلى تلمُّس مواطن الجمال فيها .

فبعد الآية الأولى يجىء قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا له فى الأرضِ وآتيناه من كلِّ شىءٍ سببًا ﴾[1] والتمكين فى الأرض معناه التثبيت ، والتمليك ، والتقوية على تعميرها وإقامة العدل فيها .

فذو القرنين رجل أعطاه الله ملكًا عظيمًا ، وسياسة حكيمة ، وقدرة عجيبة على السير فى الأرض شرقًا وغربًا ، ونشر الإسلام فى ربوعها .

ومن أجل ذلك زوده الله بالعلم والمعرفة والتقوى ، وجعله خبيرًا بأسباب العمران والإصلاح الاجتماعى ، ووفر له كل ما يحتاج إليه فى ذلك .

وهذا هو المراد بقوله : ﴿ وآتيناه من كل شىء سببًا ﴾ أى خبرة توصله إلى مقصده وغايته ، فالسبب فى اللغة : هو ما يوصل الإنسان إلى هدفه ويحقق له مطلبه، كما يطلق على الطريق الموصل إلى المكان المنشود ، كما فى قوله جل شأنه فى الآية الثالثة : ﴿ فأتبع سببًا ﴾ أى سلك طريقًا من الطرق التى يعرفها متجهًا إلى الغرب حتى انتهى به السير إلى مكان خصب ، وقد غربت عليه الشمس هناك فوجد عندها قومًا لا يعرفون عن الله شيئًا ، فحكَّمه الله فيهم وأسند إليه أمر هدايتهم ، وإصلاح شأنهم ، وخيَّره فى الطريقة التى يأخذهم بها ، فإن شاء أخذهم بالشدة ، وإن شاء أخذهم باللين ، فاختار ذو القرنين العدل ، والفضل معًا ، فبرهن على أنه

---

(١) سورة الكهف آية : ٨٤ .

رجل قد أوتى الحكمة من قرونها ، وأخذ السياسة من عرينها ، فقرر أن يعذب من ظلم نفسه بالكفر والعناد ولم يقبل هدى الله الذى جاءه به ، وهو عذاب دون العذاب الأكبر ، وأن يشكر كل من آمن بالله وعمل صالحًا ويثنى عليه ، ويجعله من جنده ، ويحسن إليه فى القول والعمل ، وهو جزاء عاجل يتلوه ثواب آجل من الله تبارك وتعالى .

قال تعالى : ﴿ حتى إذا بلغَ مَغرِبَ الشمسِ وجدها تغرُبُ فى عينٍ حَمِئةٍ ووجد عندها قومًا قلنا يا ذا القرنين إما أن تُعذِّبَ وإما أنْ تتخذَ فيهم حُسْنًا . قالَ أما من ظَلَمَ فسوف نعذِّبُه ثم يُرَدُّ إلى ربِّه فيعذِّبه عذابًا نُكْرًا . وأما من آمن وعمل صالحًا فله جزاءً الحُسنَى وسنقولُ له من أمرِنا يسرًا ﴾ [1] .

والمراد بمغرب الشمس : الجهة الغربية من الأرض التى كان يسير فيها ، والعين الحمئة : هى عين هناك سوداء فى لون الحمأة - وهى الطينة السوداء - شديدة الحرارة ، فقد قرئ : ﴿ فوجدها تغرب فى عين حامية ﴾ ، والجمع بين القراءتين يقتضى ما ذكرنا ، وقد رأيت فى « لسان العرب » أن العين اسم من أسماء الأرض ، وعلى ذلك يكون المعنى : وجدها تغرب فى أرض طينية خصبة صالحة للزراعة ، ولا يمنع أن تكون هذه الأرض شديدة الحرارة .

ومعنى وجدها تغرب فى عين حمئة ، أنه لما انتهى إلى تلك الأرض غربت عليه الشمس فيها ، لا أنها غربت فى ذات العين ، وهذا كمن يقول : غربت علىَّ الشمس فى القاهرة ، أو سرت من القاهرة فوجدت الشمس غربت فى مكان كذا ، أى انتهى بى السير حين غروبها وأنا فى مكان كذا .

قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ﴾ : انتهى إلى حيث لا يمكن لأحد أن يجاوزه ، ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له أوقيانوس ، الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات التى هى مبدأ الأطوال على أحد قولى أرباب الهيئة .. وعنده شاهَدَ مغيب الشمس - فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته- ﴿ تغرب فى عين حمئة ﴾ والمراد بها البحر فى نظره ، فإن من كان فى البحر أو على ساحله يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه .أ.هـ [2] .

---

(١) سورة الكهف آية : ٨٦ - ٨٨ .　　(٢) انظر البداية ج ٢ ص ١٠٧ .

وفى قوله تعالى : ﴿ قلنا يا ذا القرنين ﴾ ما يدل على أنه نبى يوحى إليه ، وهو الراجح عندى والله أعلم .

وفى قوله جل شأنه : ﴿ وإما أن تتخذ فيهم حُسْنًا ﴾ إيحاء له باختيار أسلوب الترغيب على أسلوب الترهيب ، وذلك يفهم من خلال معنى الاتخاذ ، وهو ملازمة الشىء والمداومة عليه ، ويفهم أيضًا من قوله : ﴿ حُسْنًا ﴾ - بضم الحاء - لما فى هذا اللفظ من المبالغة فى الإحسان ؛ لأن الحُسْن فى اللغة : غاية الشىء الحَسَن .

وقد بدأ ذو القرنين بالحكم على من ظلم نفسه ؛ للدلالة على أن هذا كان حالهم ، ويدأ بجزائه هو على الظلم ؛ لأنه أهون من جزاء الله لهم فى الآخرة على ظلمهم .

وعندما بين ذو القرنين ما عزم عليه فى معاملة المؤمنين ، بدأ بذكر جزاء الله تعالى ؛ لأنه الأهم ، وثنى بذكر جزائه هو ؛ لأنه فى جنب جزاء الله عز وجل كقطرة فى بحر .

والمراد بالحسنى فى الآية : الجنة ، والمراد بالقول اليُسْر : القول اللين الذى يهدى إلى فعل الخير وترك الشر ، فيكون قولاً ذا يسر فى لفظة ومعناه ، فهو قول يتبعه عمل وجزاء .

وبهذا يكون ذو القرنين قد جمع بين العدل فى قوله وفعله ، فقدم ما حقه التقديم وأخر ما حقه التأخير .

• بلوغه مطلع الشمس :

ولما أصلح من شأن أهل المغرب اتجه إلى أهل المشرق ليفعل بهم من الخير ما شاء الله أن يفعل ، فسلك الطريق التى يعرفها بمن معه حتى انتهى إلى أقصى الشرق، وهو المكان الذى تشرق الشمس عليه قبل غيره - بحسب نظره - فوجدها تطلع على قوم كسالى خاملين لا نشاط لهم ولا عمل ، وهم عراة ليس عليهم ما يسترهم ، وليس فى بلادهم من شجر ولا بناء يقيهم وهج الشمس ، بل كانوا يعيشون فى الكهوف والمغارات ، وحالهم كحال أهل المغرب فى الكفر والإلحاد والإفساد فى الأرض .

قال تعالى : ﴿ ثم أتبعَ سبباً . حتى إذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشمسِ وجدَها تطلُعُ على قومٍ لم نجعل لهم من دونها سِتْراً . كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبْراً ﴾ [1] .

---

(١) سورة الكهف آية : ٨٩ - ٩١ .

ويظهر لى من قوله تعالى : ﴿ وقد أحطنا بما لديه خبرًا ﴾ أنه فعل بهم مثل ما فعل بأهل المغرب فأوجز الله المقال ليكون بلاغًا لأولى الألباب ، والإيجاز ضرب من الإعجاز ، وفى التشبيه دلالة أيضًا على ذلك فقوله : ﴿ كذلك وقد أحطنا ﴾ أى مثل ذلك الذى فعله بأهل المغرب فعله بأهل المشرق ، وقد أحطناكم ﴿ خبرًا ﴾ أى علمًا بما كان من أمرهم من قبل ، وقد أحطنا أيضًا بما لدى ذى القرنين من خُبر ومعرفةٍ ، فأرسلناه إليهم لهدايتهم وإصلاح أمرهم ، وكنا معه بعلمنا وتوفيقا ورعايتنا حيثما كان، فمكناه من نواصى هؤلاء كما مكناه من نواصى أولئك ، وهو الرجل الخبير بطبائع الناس على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم ، والعليم أيضًا بلغاتهم وعاداتهم ، وحاجاتهم وأساليب إخضاعهم للدين القويم ·

● **بلوغه بين السدين :**

ثم اتخذ طريقه - بعد ذلك فى أمد لا ندرى أطال أم قصر - إلى مكان فى الأرض لا هو بأقصى المغرب ولا هو بأقصى المشرق ، يقال له بين السدين ، ولا ندرى مكانه على وجه التحديد بل ولا على وجه التقريب ، فلما انتهى إليه وجد هناك قومًا بلغوا فى الجهل الغاية ، ولكنه بخبرته الواسعة ، والخارقة للعادة استطاع أن يفهم لغتهم وأن يفهمهم كلامه ، وياله من أمر عجب ؟

فشكوا إليه حال قوم يقال لهم : يأجوج ومأجوج - وهم قوم سيأتى ذكرهم قريبًا - وعرضوا عليه أن يبنى لهم سدًا بينهم وبين هؤلاء المفسدين ، وحددوا له أجرًا على بنائه ، فاعتذر عن أخذ الأجر ، وأخبرهم أنه فى غنى عنه ، وأن عطاء الله واسع ، وأن ما عنده من الخير يكفيه ، ويعينه فى تمويل البناء ، ولا يحتاج منهم إلا أن يعينوه بقوتهم الذاتية ·

فأمرهم أن يجمعوا له قطع الحديد ، وأن ينفخوا فى النار لصهره ، وأمرهم بجمع الرصاص ليصهره فيصبه على الحديد بعد أن يكون قد ساوى بين الجبلين حتى يتمكن من إحكام صبه ، فكلفهم بثلاثة أشياء هى : جمع الحديد ، ونفخ الكير ، وجمع الرصاص ، وقام هو بثلاثة أشياء : التسوية بين الجبلين ، وصهر الحديد إلى الدرجة التى يريدها ، وإفراغ الرصاص عليه ، فكان سدًا منيعًا لم يستطع يأجوج ومأجوج اقتحامه ·

وكان هذا السد آية من آيات الله ، وكان اختراقه علامة من علامات الساعة .

قال تعالى : ﴿ ثم أتبعَ سببًا . حتى إذا بَلَغَ بين السدَّين وجدَ من دونِهما قومًا لا يكادون يفقهون قولاً . قالوا يا ذا القرنين إن يأجوجَ ومأجوجَ مفسدون في الأرضِ فهل نجعلُ لك خَرْجًا على أن تجعلَ بيننا وبينَهم سَدًّا . قال ما مَكَّنِّى فيه ربِّى خيرٌ فأعينونى بقوةٍ أجعلْ بينكم وبينهم رَدْمًا . ءاتونى زُبَرَ الحديد حتى إذا ساوَى بين الصَّدَفينِ قال انفخوا حتى إذا جعله نارًا قال ءاتونى أُفْرِغْ عليه قِطرًا . فما استطَاعوا أن يَظهَرُوه وما استطاعوا له نَقْبًا . قال هذا رحمةٌ من ربِّى فإذا جاءَ وعْدُ ربِّى جعلَه دَكَّاءَ وكان وعدُ ربِّى حقًا ﴾ (١) .

والمراد بالسدين : الجبلان المحيطان بالوادى الذى فيه القوم ، والمراد بالخرج فى الآية : الأجرة ، والمراد بزبر الحديد : قطعه .

والمراد بالصدفين : الجبلان ، وتسويتهما : حك جانبيهما حتى يصيرا مستويين ليس فيهما ارتفاع ولا انخفاض ، والمراد بالقطر : الرصاص المذاب .

فلما بنى السد بين الجبلين على نحو لم يسبق إليه ، وبالضخامة التى تجعله راسخًا فى الأرض قائمًا على وجهها إلى قيام الساعة تضاءلت نفسه أمام قدرة الله تعالى التى مكنته من صنع هذا السد ، وتواضع لعظمة الله - جل شأنه - وقال : ﴿هذا رحمة من ربى﴾ أى أنه من صنع الله لا من صنعى ، وبقدرة الله لا بقدرتى ، وهو قبس من رحمة ربى على الناس جميعًا إذ جعله الله وقاية لهم من يأجوج ومأجوج إلى قيام الساعة ، فإذا اقترب مجيئها تمكن يأجوج ومأجوج من ثقب السد ومن العلو على ظهره بعد أن كانوا عاجزين كل العجز عن ذلك .

﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ﴾ أى سواه بالأرض بحيث لا يظهر فيه ارتفاع ولا انخفاض .

﴿ وكان وعد ربى حقًا ﴾ أى لا يتخلف ولا يتبدل . وهذا كقوله تعالى :

---

(١) سورة الكهف آية : ٩٢ - ٩٨ .

﴿حتى إذَا فُتِحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلُون . واقتربَ الوعدُ الحقُّ فإذا هى شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلةٍ من هذا بل كنا ظالمين﴾[1] .

ونخلص من هذه القصة : بأن الناس فى حاجة دائمة إلى من يسوسهم سياسة حكيمة ، ويقودهم قيادة رشيدة إلى سبل السلام ، ويدعوهم - على بصيرة من ربه- إلى الله دعوة مخلصة ، ويوجههم بالرفق حينًا وبالشدة حينًا إلى ما فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة .

لهذا كان يبعث الله فى كل أمة رسولاً منهم يكفكف من شهواتهم ونزواتهم وطيشهم وضلالهم ، ويردهم إلى فطرتهم التى فطرهم الله عليها .

وكان من بين هؤلاء الأنبياء « ذو القرنين » فهو نبى على الراجح من أقوال المفسرين كما أشرت من قبل ، فإن لم يكن نبيًا فهو واحد من أتباعهم قد أوتى الحكمة فعلِم وعلَّم ، وسار فى الناس سيرة حسنة سجلها الله فى أعظم الكتب السماوية لتكون ذكرى لمن تذكر ، وعبرة لمن اعتبر .

فما أحوج الناس فى هذا العصر إلى رجل قد اكتملت فيه سمات الرجولة ، وبطل قد اجتمعت فيه معالم البطولة ، وإنسان قد ارتقت نفسه إلى معانى الإنسانية فى أسمى صورها وأبهى معانيها .

* * *

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٩٦ - ٩٧ .

أخبار يأجوج ومأجوج

نذكر هنا شيئًا من أخبار يأجوج ومأجوج لورودهما فى قصة « ذى القرنين » تتمة للفائدة .

قال ابن كثير : إن يأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت فى الصحيحين : « إن الله تعالى يقول : يا آدم . فيقول: لبيك وسعديك . فيقول : ابعث بعث النار . فيقول : وما بعث النار ؟، فيقول: من كل إلفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة . فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حملٍ حملها ، فيقال : إن فيكم أمتين ، ما كانتا فى شىء إلا كثَّرتاه : يأجوج ومأجوج » .

وقد حكى النووى - رحمه الله - فى شرح مسلم عن بعض الناس : أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مَنِىٍّ خرج من آدم فاختلط بالتراب ، فخلقوا من ذلك ، فعلى ذلك يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء . وهذا القول غريب جدًا لا دليل عليه لا من عقل ولا نقل ، ولا يجوز الاعتماد على ما يحكيه أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المفتعلة .

وفى مسند الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : « ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك » ، فقال بعض العلماء : هؤلاء من نسل يافث أبى الترك ، وقالوا :إنما سموا هؤلاء تركًا لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة وإلا فهم أقرباء أولئك ، ولكن كان فى أولئك بغى وفساد وجراءة.

وقد ذكر ابن جرير ها هنا عن وهب بن منبه أثرًا طويلاً عجيبًا فى سير ذى القرنين وبنائه السد ، وكيفية ما جرى له ، وفيه طول وغرابة ونكارة فى أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم .

وروى ابن أبى حاتم أحـــاديث غريبة فى ذلك لا تصح أســـانيدها . والله أعلم [1] أ.هـ .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : جـ ٥ ص ١٩٢ ط الشعب .

وسيخرج يأجوج ومأجوج آخر الزمان فى زمن عيسى بن مريم عليه السلام فيتحصن منهم هو ومن معه بجبل الطور ، فيرغب إلى الله عز وجل ، فيرسل الله عليهم نغفًا (١) فى رقابهم فيصبحون فرسى (٢) كموت نفس واحدة ، فيهبط عيسى وأصحابه ، فلا يجدون فى الأرض بيتًا إلا قد ملأه زهمهم (٣) ونتنهم ، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل عليهم طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، هذا رواه أحمد فى مسنده عن النواس بن سمعان فى حديث طويل .

وروى أحمد فى مسنده أيضًا عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُفتح يأجوج ومأجوج ، فيخرجون كما قال الله عز وجل : ﴿ من كل حَدَبٍ ينسلون ﴾ ، فيغشونَ الناس ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يَبَسًا ، حتى إن مَنْ بعدهم ليمر بذلك النهر ، فيقول : قد كان ها هنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد فى حصن أو مدينة - قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض ، قد فرغنا منهم ، بقى أهل السماء : قال ثم يهز أحدهم حربته ، ثم يرمى بها إلى السماء ، فترجع إليه مختضبة دمًا ؛ للبلاء والفتنة - فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دودًا فى أعناقهم كنغف الجراد الذى يخرج فى أعناقه ، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشرى نفسه ، فينظر ما فعل هذا العدو ؟، قال : فيتجرد رجل منهم محتسبًا نفسه، قد أوطنها (٤) على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى ، بعضهم على بعض ، فينادى يا معشر المسلمين ، ألا أبشروا ، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويُسرحون مواشيهم ، فما يكون لها رعى إلا لحومهم فتشكر عنه كأحسن ما شكرت (٥) عن شىء من النبات أصابته قط » .

* * *

---

(١) النغف - بفتح الغين : الدود الذى يكون فى أنوف الإبل والغنم وغيرها .
(٢) فرسى : موتى .
(٣) الزهم : الجيف المنتنة . قال فى اللسان : الزهومة : ريح لحم سمين منتن .
(٤) أقنعها .   (٥) شكرت أى امتلأت .

قصة أيوب عليه السلام

كان أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب بن إبراهيم عليهم السلام - نبيًا مرسلاً كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيينَ من بعدِه وأوحينا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وعيسى وأيوبَ ويونسَ وهارونَ وسليمانَ وءَاتينا داودَ زَبورًا ﴾ (١) .

وكان عليه السلام كثير المال والولد فَسُلِبَ منه ذلك كله ، وابتلى فى جسده بأنواع البلاء فصبر صبرًا جميلاً حتى سار صبره مضرب الأمثال . وقد حكيت حول قصته حكايات شعبية لا أساس لها من الصحة ولا تمت إلى الواقع بصلة .

وقد يكون لبعض هؤلاء القصاص المعاصرين ومن سبقهم بعض العذر فى ذلك لأن كثيرًا من كتب التفسير قد مُلئت بأخبار نقلوها عن أهل الكتاب ما أنزل الله بها من سلطان ، يمجها الذوق السليم ويأباها العقل الواعى .

ونحن لا نتعرض لذكر هذه الحكايات التى أوردها المفسرون فى كتبهم ولكننا نقف عند نصوص القرآن ولا نعدوها إلى غيرها إلا بالقدر الذى يعيننا على فهمها فنقول : ذكر الله قصة هذا النبى الصبور فى سورة الأنبياء ، وسورة ص فأجمل وفصّل ، فما أجمله فى موضع فصّله فى الموضع الآخر .

فقال : ﴿ وأيوبَ إذ نادى ربَّه أَنِّى مسَّنِىَ الضُّرُّ وأنت أرحمُ الراحمين ﴾ (٢) . والضُرُ هو أشد أنواع البلاء ، وقد فسره الله بقوله فى سورة ص: ﴿ واذكرْ عبدَنا أيوبَ إذ نادى ربَّه أَنِّى مسَّنِىَ الشيطانُ بنُصْبٍ وعذابٍ ﴾ (٣) . والنصب : هو أشد التعب ، والعذاب: هو أشد الألم .

ونفهم من هذا أن أيوب قد مرض مرضًا شديدًا موجعًا لكنه غير مُنفر ؛ لأن الأنبياء منزهون عن الأمراض المنفرة وغيرها من المناظر والعادات - كما هو معلوم من

---

(١) سورة النساء آية : ١٦٣ . (٢) سورة الأنبياء آية : ٨٣ .

(٣) سورة ص آية : ٤١ .

كتب العقيدة - فكيف يقال: إنه مَرِضَ مرضًا عضالاً حتى أكل الدود من جسمه ، ونفر منه قومه وألقوه فى زبالة كانت لهم !! إن هذا لمُنكرٌ من القول وزور ·

ويقول الله : ﴿ فاستجبْنا له فكشفْنا ما به من ضرٍّ ﴾ [1] ·

ويبين فى سورة « ص » الكيفية التى كشف بها ضُره فيقول : ﴿ اركُضْ برجلِك هذا مغتسلٌ باردٌ وشرابٌ ﴾ [2] أى استجبنا له دعاءه فأمرناه أن يضرب الأرض برجله ، فضربها فانبعثت منها عين ماء ، وأشرنا عليه أن يغتسل منها ويشرب ، فلما اغتسل منها وشرب برئ من أدوائه كلها ، وصار سليمًا معافى كأن لم يكن به علة ، فكان دواؤه تحت قدميه وأقرب شىء إليه ، ولكن لكل أجل كتاب ·

وقال : ﴿ وءاتيناه أهلَه ومثلَهم معهم رحمةً من عندِنا وذكرى للعابدين ﴾ [3] ، وقال : ﴿ ووهبْنا له أهلَه ومثلَهم معهم رحمةً منا وذكرى لأُولى الألبابِ ﴾ [4] ففى كل من الآيتين إجمال وتفصيل ·

فآية « ص » تدل على أن الإتيان هبة من لدنه · وهبة الأهل ومثلهم معهم فى العدد لا يكون إلا بأن يتزوج أيوب بنساء كثيرات فينجب من الأولاد ضعف العدد الذى مات ، لا أن الله أحياهم له بعد موتهم كما يقول القصاص ، فهذا أمر لم يُنص عليه فى الآية ·

ولفظ الهبة يدل على أن الموهوب شىء لم يكن بيد الموهوب له من قبل ، فهو لفظ يستعمل فى المنح المتجددة ، كما قال جل شأنه : ﴿ يَهَبُ لمن يشاءُ إناثًا ويَهَبُ لمن يشاءُ الذكورَ ﴾ [5] ·

وهذه القصة وصفت فى سورة الأنبياء بأنها ذكرى للعابدين ، ووصفت فى سورة « ص » بأنها ذكرى لأولى الألباب ، لبيان أن العابدين هم أولو الألباب ، لأنهم عرفوا الله فعبدوه واستمروا فى عبادته وطاعته مخلصين له الدين ·

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٨٤ · (٢) سورة ص آية : ٤٢ ·
(٣) سورة الأنبياء آية : ٨٤ · (٤) سورة ص آية : ٤٣ ·
(٥) سورة الشورى آية : ٤٩ ·

وزادت سورة « ص » على ما فى سورة الأنبياء أمراً آخر له تعلق بالقصة وفيه بيان ليسر الدين الذى ارتضاه الله لعباده وفطرهم عليه ، فقد روى أن أيوب عليه السلام قد حلف ليضربن امرأته مائة سوط لخطأ وقعت فيه ، ليس لنا أن نسأل عنه ، فقال : إن شفانى الله لأضربنك مائة سوط ، فلما شفاه الله ، عَزَّ عليه أن يضربها وقد زال ما به من الغضب وأتم الله عليه النعمة ، والعفو نوع من أنواع الشكر ولاسيما إذا كان العفو فى محله ، فجعل الله له من هذا الحرج مخرجًا ، فأمره أن يأخذ حزمة من سعف النخل بها مائة سعفة فيضربها بها إبراراً بقسمه ٠

قال تعالى : ﴿ وخذْ بيدِك ضِغْثًا فاضرِبْ به ولا تَحْنَثْ إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العَبْدُ إنه أوابٌ ﴾ (١) ٠

لقد أعطى أيوب عليه السلام فشكر ، وابتلى فصبر ، فكان مثلاً لخيار الشاكرين والصابرين ٠

ويبتلى الناس بقدر إيمانهم ، فيكون البلاء تطهيراً لهم ، وتمحيصًا لقلوبهم ٠

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيْد فى بلائه » ٠

* * *

(١) سورة ص آية : ٤٤ ٠

قصة إلياس عليه السلام

إلياس نبى مرسل من بنى إسرائيل ، أرسله الله إلى أهل بعلبك، غربى دمشق، فدعاهم إلى الله عز وجل وبكَّتهم تبكيتًا شديدًا على عبادة « بَعْل » وهو صنم صنعوه بأيديهم ، ونصبوه معبودًا لهم ، يسجدون له ، ويتقربون إليه ، ويرجون نفعه، ويخافون بأسه ، وهم يعلمون أنه لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينفع ولا يضر ، ولا يغنى عنهم شيئًا ، ولكنَّ الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم وصدهم عن السبيل ، فجَمُدت عقولهم عن التفكير السليم ، وأعماهم التقليد الأعمى عن التخلص من تلك الترهات التى ورثوها عن آبائهم ، والحماقات التى أضافها كبراؤهم ورؤساؤهم .

وقد ظل إلياس بن ياسين بن منحاص بن العيذار بن هارون يدعوهم إلى الله على بصيرة من ربه حتى أجمعوا على قتله، فخرج إلى مكان لا يعلم به أحد إلا الله .

وقد ذكر الله قصته موجزة فى سورة الصافات ، فقال تعالى : ﴿ وإنَّ إلياسَ لمنَ المرسَلين . إذ قال لقومه ألاَ تتقون . أتَدْعون بَعْلاً وتَذَرون أحسنَ الخالقين . اللهَ ربَّكم وربَّ آبائكم الأوَّلين . فكذَّبوه فإنهم لَمُحضَرون . إلا عبادَ اللهِ المخلَصين . وتركنا عليه فى الأخرين . سلامٌ على إلْ ياسين . إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادِنا المؤمنين ﴾ (١) .

وقد ذكرت قصة « إلياس » فى سورة « الصافات » بعد قصة موسى وهارون عليهما السلام ؛ لما بين الدعوتين من تشابه فى الأسلوب ، وإن أردت أن تتأكد من صحة ذلك فاقرأ عن موسى عليه السلام عندما سأله فرعون عن ربه ورب أخيه : ﴿قال ربُّنا الذى أعطى كلَّ شىءٍ خلْقَه ثم هدى ﴾ (٢) أى أعطى كل خلق ما يناسبه حتى بدا على خير مثال وأحسن تقويم ، وهذا القول من موسى عليه السلام يشبه ما قاله إلياس لقومه : ﴿ أتَدْعون بعلاً وتذرون أحسنَ الخالقين ﴾ .

---

(١) سورة الصافات آية : ١٢٣ - ١٣٢ .   (٢) سورة طه آية : ٥٠ .

واقرأ فى سورة الشعراء حكاية عن موسى عليه السلام فى محاورته فرعون : ﴿ قال ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين ﴾[1] وهذا ما قاله إلياس لقومه : ﴿ اللهَ ربَّكم وربَّ آبائكم الأولين ﴾ .

وقد بدأ إلياس حديثه مع قومه بقوله - كما حكى القرآن عنه : ﴿ ألا تتقون ﴾ أى ألا تتركون ما أنتم فيه ، وتجعلون لأنفسكم وقاية من عذاب الله تعالى بإفراده بالعبادة ، وهو زجر وتخويف لهم على سبيل الإجمال ، وتحذير لهم مما هم فيه من شرك وضلال .

فهذا القول جعله مقدمة لما بعده من حجج مقنعة أدلى بها فى يسر ووضوح . ثم وبخهم مرة أخرى بأسلوب أشد عنفًا مما قبله على حسب ما اقتضاه المقام - فقال كما حكى الله عنه : ﴿ أَتَدْعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين ﴾ أى أتعبدونه من دون الله وتجأرون إليه بالدعاء .

وقد عبر بالدعاء عن العبادة لأنه أعم ، يشملها ويشمل غيرها من الضراعة والتمسكن ، والخضوع وسؤال الخير .

واعلم يا من تعنى بمعرفة دقائق الحقائق أن لفظ : ﴿ أحسن ﴾ فى قوله جل شأنه : ﴿ وتذرون أحسن الخالقين ﴾ ليس أفعل تفضيل ، وإنما هو وصف لازم لله وحده لا يشاركه فيه أحد ، إذ لا خالق إلا هو ، فلو اعتبرنا - جدلاً - أن هناك من يخلق شيئًا بقدرة أودعها الله فيه ، وسماه الناس خالقًا أو أطلقوا عليه كلمة بمعناها كمبتكر أو مخترع أو مبتدع - فإن الله هو الذى يقال له : ﴿ أحسن الخالقين ﴾ لوجود الفرق الشاسع ، والبون الواسع بين ما خلق الله بقدرته وما خلق العبد ، وهو العاجز كل العجز عن خلق ذبابة أو استنقاذ شيء سلبته منه ذبابة ، فهو جل شأنه أحسن من يقال له خالق .

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ اللهَ ربَّكم وربَّ آبائكم الأولين ﴾ أن إلياس عليه السلام قد عرض بهم وبآبائهم - بعد أن أثبت وحدة الألوهية والربوبية - بأنهم قلدوا

---

(١) سورة الشعراء آية : ٢٦ .

فى عبادة « بعل » آباءهم فكانوا ضالين لضلال آبائهم ، ولولا هذا التقليد الأعمى لآبائهم الأولين لعرفوا الله فعبدوه ، وعقلوا كلام الرسل فاتبعوهم ، ونهجوا نهجهم، ولكنهم ضربوا بهذه الدعوة عرض الحائط ، وصموا آذانهم عن سماع الحق ، وعقلوا عقولهم عن التفكير فيما جاءهم به ، وفيما حذرهم منه فحق عليهم العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ فكذبوه فإنهم لمحضرون ﴾ .

ثم استثنى الله جل جلاله من قومه من آمن به فقال سبحانه : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أى : فإنهم ناجون من العذاب ، فالاستثناء متصل بناءً على أن فريقًا من قومه قد آمن به ، فإذا لم يكن قد آمن به أحد كما ذهب إليه بعضهم فالاستثناء منقطع بمعنى « لكن » ، أى : لكن عباد الله المخلصين من غير قوم إلياس بمعزل عن العذاب ؛ لأنهم أخلصوا لله دينهم ومحضوا له قلوبهم ، وأخلصهم الله لنفسه واصطفاهم لعبادته ، وأضافهم إليه إضافة تشريف وتعظيم .

وقد ساق الله هذه القصة بهذا الإيجاز المعجز ، لنعلم أن هذا الرسول واحدٌ من أولئك المرسلين الذين كذبهم بنو إسرائيل ، فنجاهم الله من شرهم وأشرهم ، وأدخله فى زمرة المحسنين الذين يستحقون تخليد الذكر على مر العصور ، وذلك بسلام المؤمنين عليه عند ورود اسمه على ألسنتهم .

وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ وتركنا عليه فى الأخرين سلام على إل ياسين﴾ أى وتركنا عليه قول القائلين من المؤمنين من بعده سلام على إل ياسين .

وإل ياسين : هو إلياس عند العرب ، فقد جرت عادتهم أن يزيدوا وينقصوا فى الأسماء الأعجمية ، وربما زادوا فى الاسم حرفًا أو حرفين للتعظيم ، وقد نزل القرآن بلغتهم .

والمعنى : سلام على إلياس العظيم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وطور سينين﴾(١) والأصل : طور سيناء ، والزيادة للتعظيم .

وقرئ سلام على « آل ياسين » أى : سلام على اتباع إلياس العظيم ، ومعلوم أنه إذا سلم على آله من أجله فهو داخل فى السلام دخولاً أوليًا .

---

(١) سورة التين آية : ٢ .

والذى لا شك فيه أن « إلياس » عليه السلام كان معروفًا عند العرب فيما يحدثهم به اليهود عن أنبيائهم ٠

وإلياس هو المذكور فى التوراة باسم « إيليا بن متى » ، وهو من أنبياء بنى إسرائيل الذين سبقوا زكريا ويحيى عليهما السلام ٠

ولكن اليهود كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويشوهون حقائق التاريخ ، فجاء القرآن بخبر هذا النبى وخبر إخوانه من الأنبياء على أصدق حديث ، وأقوم منوال وأهدى سبيل ، مما يدل على أنهم جميعًا كانوا على دين واحد ، هو دين الفطرة التى فطرهم الله عليها ، وأن أصول الدين لا تختلف من نبى إلى آخر ، وإن اختلفوا فى الفروع الشرعية تبعًا لاختلاف عصورهم وبيئاتهم وأقدار أممهم ٠

• والخلاصة :

أن هذه القصة على إيجازها تعد خلاصة لما جاء به جميع الرسل ، فما من نبى ولا رسول إلا قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه ، وذروا ما أنتم عليه من عبادة غيره مما خلق وبرأ ؛ إذ كل ما سوى الله مخلوق ٠

وقد بينت القصة - أيضًا - سنة الله فى نصرة أنبيائه وإهلاك أعدائه ، وبينت مكانة إلياس عليه السلام عند ربه عز وجل ومكانته بين عباده المخلصين - كما أشرنا - وفيها دعوة لأهل الحق أن يتمسكوا به ، وأن يدعوا إليه مخلصين لا يخافون فى الله لومة لائم ، وليثقوا بعد ذلك فى نصر الله لهم فى الدنيا ، وحسن ثوابه فى الدار الآخرة ٠

* * *

قصة يونس عليه السلام

يونس بن متى رسول من أنبياء بنى إسرائيل ، أرسله الله إلى أهل « نينوى » بأرض الموصل ، فدعاهم إلى الله عز وجل فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به ، فغضب منهم غضبًا شديدًا ، وظن أنهم لن يؤمنوا به أبدًا فخرج من نينوى متوجهًا إلى ساحل البحر وركب سفينة ، فحملته إلى وسط البحر ومعه خلق كثير ، فإذا بالريح تهب عليهم من كل صوب وحدب ، والسفينة تتأرجح وتضطرب ، وظن أهلها أنه قد أحيط بهم ، فأرادوا أن يتخففوا منها بإلقاء واحد منهم فى البحر ، فإن سكنت الريح وهدأت سفينتهم فبها ، وإلا ألقوا رجلاً آخر وهكذا ، فطرحوا السهام على من يبدأون بإلقائه ، فخرج السهم على يونس عليه السلام فألقوه فى اليم ، فأمر الله حوتًا أن يلتقمه ، ويحفظه فى بطنه ، ولا يؤذيه ، فالتقمه الحوت ، وهو مُلامٌ من قِبَل أصحاب السفينة لأنهم كانوا يعتقدون – على ما قيل – أن السفينة إن اضطربت فى البحر ، كان اضطرابها بسبب عبد آبق من سيده ، وقيل لما طرحوا السهام وخرج السهم عليه ضنوا به ؛ لما رأوا على وجهة من السماحة والوجاهة ، فأعادوا طرح السهام ثلاثة مرات ، وفى كل مرة يخرج السهم عليه ، فألقوه بعد أن لاموه على هروبه من سيده ، ولم يعلموا أنه حر طليق .

ولبث يونس فى بطن الحوت ما شاء الله أن يلبث ، فلما علم أنه كان مخطئًا فى خروجه من نينوى ، وتركه الموطن الذى أمره الله أن يجاهد فيه – تاب وأناب ، وسبح بحمد ربه وأثنى عليه بما هو أهله .

فلما فعل ذلك أمر الله الحوت أن يلفظه على الشاطىء ، فلفظه وهو سقيم يتوجع ، فأنبت الله عليه فى الحال شجرة من « يقطين » لتقيه من وهج الشمس ولفح البرد .

ولما شعر يونس عليه السلام بالهدوء والراحة ، وأحس بسلامة الجسم ، وأنه قادر على السير توجه إلى نينوى ، فهاله ما رأى فقد رآهم بخير وعافية ، وكان الله عز وجل قد أخبره أن القوم سيهلكون بعد ثلاثة أيام – على ما قيل – فلما سأل عن السبب فى نجاتهم من هذا الهلاك المتوقع عرف أن القوم قد خرجوا عن بكرة أبيهم ،

ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، ودوابهم وأنعامهم إلى الخلاء ، وأعلنوا إيمانهم بالله ربًا وبيونس عليه السلام رسولاً خوفًا من أن ينزل بهم العذاب الذى توعدهم به يونس ، وقد تأكدوا من صدقة فى ذلك حين رأوه قد فارقهم ، وخرج من أرضهم .

هذه خلاصة القصة التى قصها علينا ربنا تبارك وتعالى فى أربعة مواضع من كتابه العزيز .

وذلك فى سورة الأنبياء ، والصافات ، والقلم ، ويونس ، فما أجمل منها فى موضع فصل فى موضع آخر ، فقال جل شأنه فى سورة الأنبياء : ﴿ وذا النونِ إذ ذَهَبَ مُغاضِبًا فظنَّ أن لن نقدرَ عليه فنادَى فى الظلماتِ أنْ لا إلهَ إلا أنتَ سبحانَك إنِّى كنتُ من الظالمين . فاستجبْنا له ونجيناه من الغمِّ وكذلك نُنجى المؤمنين ﴾ (١) .

وقال فى سورة الصافات : ﴿ وإنَّ يُونُسَ لمن المرسَلين . إذ أبقَ إلى الفُلْكِ المشحون . فساهَمَ فكان من المُدْحَضِين . فالتقمَه الحوتُ وهو مُليمٌ . فلولا أنه كان من المسبِّحين . لَلَبِث فى بطنِه إلى يوم يُبْعَثُون . فنبذناه بالعراءِ وهو سقيمٌ . وأنبتنا عليه شجرةً من يَقْطِين . وأرسلناه إلى مائةِ ألفٍ أو يَزِيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حينٍ ﴾ (٢) .

وقال فى سورة القلم : ﴿ فاصبرْ لحكمِ ربِّك ولا تكن كصاحبِ الحوتِ إذ نادى وهو مكظُومٌ . لولا أن تَدَارَكَه نعمةٌ من ربه لنُبِذَ بالعراءِ وهو مذمومٌ . فاجتباه ربُّه فجعله من الصالحين ﴾ (٣) .

وقال فى سورة يونس : ﴿ فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعَها إيمانُها إلا قومَ يُونُسَ لما آمنوا كشفْنا عنهم عذابَ الخزْىِ فى الحياةِ الدنيا ومتَّعناهم إلى حينٍ ﴾ (٤) .

ولابد لنا من نظرة فاحصة فى هذه الآيات لنرى مواطن العبرة والعظة فيها ، ولنلمح مواقع هذه الآيات بعضها من بعض على غرار ما فعلنا فى قصة إلياس عليه السلام وغيرها من القصص .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٨٧ - ٨٨ .
(٢) سورة الصافات آية : ١٣٩ - ١٤٨ .
(٣) سورة القلم آية : ٤٨ - ٥٠ .
(٤) سورة يونس آية : ٩٨ .

فقوله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ وذا النون ﴾ معناه : واذكر صاحب الحوت، فالنون هو الحوت - كما قال علماء اللغة - وذو النون هو يونس عليه السلام كما صرحت به سورة الصافات .

وقد جاء ﴿ النون ﴾ بمعنى الحوت فى سورة القلم فى قوله تعالى : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ .

وقوله : ﴿ إذ ذهب مغاضبًا ﴾ يفسره قوله : ﴿ إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ ومعنى أبق : هرب - كما يقول الراغب فى مفرداته - ولعله هرب من قومه لما رآهم قد كذبوه وأجمعوا على قتله ، فالمغاضبة كانت من الطرفين ، مما أدى إلى مفارقتهم توقيًا من آثار غضبهم .

وقد ذكرت فى كتابى « سورة الصافات دراسة تحليلية » السر فى إيثار لفظ «أبق» على لفظ « هرب » ، فقلت : لعل الله وصف خروجه بالإباق ، وهو إنما يوصف به العبد غالبًا إذا فر من وجه سيده ؛ لأنه عبد لله تعالى قد فر من قدره إلى قدره من غير أن يأذن له ، فاستحق هذا الوصف لأنه أخطأ فى الاجتهاد ، وخطؤه فى الاجتهاد لا يعدو أن يكون قد أتى بما يخالف الأولى ، فالأنبياء يجتهدون فى الأمور التى لم ينزل بها وحى ، فإن أخطأوا فى الاجتهاد لا يترتب على خطئهم تحريم حلال ولا إحلال حرام ، وبالتالى لا يكون خطؤهم من قبيل الخطيئة الموجبة للذم ، فكل خطيئة خطأ ، وليس كل خطأ خطيئة .

وقد خرج يونس باجتهاده من قرية إلى قرية أخرى لعله يجد فيها من يؤمن به ويستجيب لدعوته ، ولعله حاكى لوطًا عليه السلام فى خروجه من « سدوم » حين علم أن العذاب نازلٌ بأهلها .

لكن الفرق بين الخروجين كبير ، فلوط عليه السلام قد أمره الله بالخروج فخرج بخلاف يونس فإنه لم يؤمر بالخروج ، فلماذا خرج !

ولذلك عاقبه الله على خروجه هذا بحبسه مدة فى بطن الحوت . ولم يكن هذا عقابًا على ذنب اقترفه ولكن كان على خطأ وقع فيه ، وخطؤه من باب :حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وقوله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ وظن أن لن نقدر عليه ﴾ معناه : أن لن نضيق عليه بمحاصرته فى السفينة وسجنه فى بطن الحوت ، ورده إلى بلده مرة أخرى للقاء هؤلاء الذين أغضبهم وأغضبوه .

وسورة الصافات لم تبين هذا الظن الذى وقع فى قلبه ، كما لم تبين سورة الأنبياء أنه ركب فى الفلك المشحون وأن من فى الفلك قد طرحوا هذه السهام لإلقاء الهارب من سادته فى اليم ، ولكن بينته سورة الصافات .

وبينما لم تبين سورة الصافات ما قاله يونس عليه السلام فى تسبيحه بينته سورة الأنبياء فقال جل شأنه : ﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ .

وقد قال الله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ وبينت سورة الصافات كيفية النجاة بقوله جل شأنه : ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ أى : طرحناه بعيداً عن الماء ، وهو فى حالة يرثى لها من الإرهاق والحزن ، وأنبتنا عليه فى الحال شجرة ذات ثمار تشبه « القرع » ، وقال بعض المفسرين : هو كل ما ينبسط على الأرض ولا يقوم على ساق ، كشجر البطيخ والقثاء والحنظل .

وقد أضافت سورة الصافات شيئًا لم يأت له ذكر فى غيرها ، فقد أخبر الله عز وجل أنه أرسله إلى قوم كثيرى العدد يزيدون ولا ينقصون ، فقال جل شأنه : ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ والمعنى : بل يزيدون ، فالحرف ﴿ أو ﴾ بمعنى بل . كقوله تعالى ﴿ ثم قَسَتْ قلوبُكم من بعد ذلك فهى كالحجارةِ أو أشدُّ قسوةً﴾ [١] أى : بل أشد قسوة ، وكقوله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾[٢] أى : بل أدنى من ذلك ، وفى ذكر هذا العدد إشارة إلى عظمة هذا النبى فى منطقه وشخصيته ، وقدرته على إقناع قومه بصدق ما أرسل به إليهم .

وقد أخبر الحق جل شأنه فى هذه السورة أن القوم قد آمنوا به ، فمتعهم الله بحياة طيبة إلى منتهى أعمارهم فقال : ﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ .

---

(١) سورة البقرة آية : ٧٤ . (٢) سورة النجم آية : ٩

وليس هناك قرية آمنت عن بكرة أبيها إلا قوم يونس ، كما قال جل شأنه فى السورة التى سميت باسمه : ﴿ فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها إلا قومَ يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ .

والخلاصة والعبرة من هذه القصة أن القلوب المؤمنة حين تمر بها تزداد إيمانًا على إيمان ، ويقينًا على يقين بأن الحق أحق أن يتبع ، وتفتح أبواب الأمل للدعاة والمرشدين فى هداية الضالين والغاوين . فإذا كان قوم يونس على كثرتهم قد آمنوا به جميعًا ، ولم يتخلف منهم عن الإيمان أحد ؛ فليس ببعيد عن الله تعالى أن يهدى الكثير والكثير من هذه الأمة المحمدية .

ومن هذه القصة تعلم النبى ﷺ كيف يكون الصبر فى مواطن الشدة والبأس، وفى مواجهة أعداء الله وأعداء الإنسانية، وكيف تكون مجالدة الفارين من دعوة الحق والضالين عن الهدى ، وذلك من خلال حديثه عن إباق يونس إلى الفلك المشحون ، وذهابه مغاضبًا دون أن يصطبر على قومه ، فكان من أمره ما كان ، ولهذا نهاه الله أن يعجل على قومه كما تعجل يونس على قومه ، فيقول جل شأنه : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ أى : لا تكن مثله فى هذه الحال ، ومعنى مكظوم : محبوس أو مهموم ، وليس فى ذلك النهى تجريح ليونس عليه السلام ولا تقليل من شأنه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ .

* * *

قصة زكريا عليه السلام

وردت قصة زكريا عليه السلام فى ثلاثة مواضع من كتاب الله - تبارك وتعالى - وذلك فى سورة آل عمران ، وسورة مريم ، وسورة الأنبياء ·

وأحداث قصته تتمثل فى دعوته لقومه ، وطلبه الولد من أجل أن يكون خليفة على قومه من بعده ، وبشراه بيحيى ، وكفالته لمريم ، وقتله على يد بنى إسرائيل ·

ونتناول تحت هذا العنوان دعوته ودعاءه وبشراه وقتله · ونرجىء الكلام عن كفالته لمريم حتى تأتى قصتها ضمن قصة ولدها عيسى عليه السلام فنقول :

زكريا عليه السلام هو ابن برخيا بن مسلم بن صدوق ، يتصل نسبه بسليمان بن داود عليهم السلام ، أرسله الله إلى قومه من بنى إسرائيل فدعاهم إلى الله فلم يستجيبوا له ، ولم يؤمن به إلا القليل منهم ، وظل يدعوهم إلى الله - على بصيرة - حتى كبُرت سنّه ، ووهن عظمه ، ويبس عوده ، واشتعل رأسه شيبًا ، وكانت امرأته لا تلد ، فخشى على قومه أن يضلوا من بعده - فسأل الله عز وجل أن يهبه من فضله من يلى الأمر من بعده ويرث علمَه وعلمَ علماء بنى إسرائيل من آل يعقوب - عليه وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والتسليم - فاستجاب الله له وبشره بغلام اسمه « يحيى » لم يجعل الله له من قبل مثيلاً فى زهده وعفته ونبله وتقواه ، وهنا يتملك زكريا العجبُ من هذا الأمر الذى بشر به ، ويصاب بالدهشة ، وتملأ الفرحة قلبه ، ويسأل الله علامة يعرف بها أن امرأته قد حملت بما بشر به ، فأخبره الله عز وجل أن علامة ذلك أن يجد نفسه غير قادر على الكلام ثلاثة أيام بلياليهن من غير أن يكون فى لسانه ما يعاب به ·

فلما خرج على قومه وأراد أن يأمرهم بالصلاة كعادته لم يجد فى لسانه قدرة على مخاطبتهم ، لكنه إذا أراد أن يذكر الله بلسانه وجد نفسه قادرًا على ذلك ، فأشار إليهم بيده أن سبحوا ، أى صلوا بكرة وعشيًا · فعلم القوم أن امرأته قد حملت بيحيى ، فشاركوه فرحته وجدوا فى التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير شكرًا لله عز وجل ·

وظل زكريا عليه السلام ينتظر الغلام حتى استهل بسلامٍ ، ففرحت به طوائف المؤمنين من الرجال والنساء على السواء ·

قال تعالى فى سورة آل عمران بعد أن ذكر كفالة زكريا مريم : ﴿ هُنالك دعا زكريَّا ربَّه قال ربِّ هبْ لى من لدنْك ذريةً طيبةً إنك سميعُ الدعاء · فنادته الملائكةُ وهو قائمٌ يصلى فى المحراب أنَّ اللهَ يبشركَ بيَحيَى مُصدِّقًا بكلمةٍ من الله وسيِّدًا وحَصُورًا ونبيًّا من الصالحين · قال ربِّ أنَّى يكونُ لى غلامٌ وقد بلَغَنِىَ الكبَرُ وامرأتى عاقرٌ قال كذلك اللهُ يفعلُ ما يشاءُ · قال ربِّ اجعلْ لى آيةً قال آيتُك ألاَّ تُكلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ إلاَّ رَمزًا واذكرْ ربَّك كثيرًا وسبحْ بالعَشىِّ والإبكارِ ﴾ (١) ·

أى : فى هذا المقام الذى شهد فيه زكريا ما شهد من آيات ربه المتنزلة على مريم بالنفحات والرحمات وهى فى محرابها تتعبد ، وفى هذا الموقف الذى اشتعل فيه كيان زكريا كله بأشواق التطلعات إلى السموات العلى ، وشعوره بحلاوة القرب ولذة المعرفة - رفع أكف الضراعة إلى ربه تبارك وتعالى أن يهبه من لدنه ذرية طيبة طاهرة نقية السريرة محمودة السيرة ، وهو السميع المجيب لمن دعاه بلسان حاله ومقاله ·

وفى سورة مريم بين الله مقامه فى الضراعة ، وإلحاحه فى الدعاء ، ويكشف عن مقصده من هذا الطلب ، فقال : ﴿ كهيعص · ذِكْرُ رحمتِ ربِّك عبدَه زكريا · إذ نادَى ربَّه نداءً خَفِيًّا · قال ربِّ إنِّى وَهَنَ العَظْمُ منى واشتعل الرأسُ شَيْبًا ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًّا · وإنِّى خفتُ الموَالىَ من ورائى وكانت امرأتى عاقرًا فَهَبْ لى من لدُنْك وليًّا · يَرِثُنى ويرثُ من آلِ يعقوبَ واجعلْه ربِّ رَضِيًّا ﴾ (٢) ·

ففى هذه الآيات يشكو زكريا إلى الله ضعف جسمه ووهن عظمه ودُنوَّ أجله ، وخشيته على مواليه - وهم أتباعه وأنصار دينه - أن يضلوا من بعده ، فدعا الله أن يرزقه وليًّا يلى الأمر من بعده ، ويحمل ما حمله هو والأحبار من قبله من علمٍ ومعرفة ·

وانظر إلى خطواته التى يخطوها إلى ربه فى دعائه ·

---

(١) سورة آل عمران آية : ٣٨ - ٤١ · (٢) سورة مريم آية : ١ - ٦ ·

إنه أولاً نادى ربه نداءً خفيًا لم يعلم به أحد من قومه ، فقال: ﴿ ربِّ إنى وهنَ العظمُ منى ﴾ ولم يقل : وهن عظمى ، كأنه يقول : وهن عظمى من غير تقصير منى ولكن حدث هذا بسبب كبر سنى ·

وقال : ﴿ واشتغل الرأس شيبًا ﴾ ولم يقل : وشاب شعر رأسى ، للدلالة على أنه ما من شعرة فى رأسه بقيت على حالها ، حتى إنه يبدو للناظر من شدة البياض أن جلدة الرأس أيضًا قد اعتراها الشيبَ ، وهذا كناية عن شدة الكبر ودنو الأجل ·

وقال : ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقيًّا ﴾ أى : إنك يا مولاى قد عودتنى على التيسير وما خيبت رجائى أبدًا ·والشقى : هو الذى لا تجيب دعاءه ولا تقبل رجاءه ·

وهو اعترافٌ نصبه تمهيدًا للتقدم بهذا الدعاء على هذا النحو الذى يدل على عمق الإيمان وصدق اليقين ، إذا هو يعلم سلفًا أن الإنجاب بالنسبة إليه أمر بعيد المنال بل هو من المستحيلات ، لكنه يعلم علم اليقين أن الله قادر لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ·

وبهذا المنطق الإيمانى ، وبهذا الرجاء الواسع الفسيح فى رحمة الله التى لا تُحد بحد - رفع زكريا عليه السلام أكف الضراعة فكان الله عند حسن ظنه به ، فاستجاب له وبشره بيحيى على لسان ملائكته · كما قال : ﴿ فنادته الملائكةُ وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين ﴾ ·

أى مصدقًا بعيسى عليه السلام وهو كلمة الله التى ألقاها إلى مريم ·

﴿ وسيدًا ﴾ يسود قومه بكماله الوافر ، وخلقه الفاضل ، وسلوكه النبيل ·

﴿ وحصورًا ﴾ مصونًا لا يميل إلى النساء بطبعه ، وهو من الصالحين الذين اكتملت فيهم أوصاف الصلاح على قدر درجته فى مراتب النبيين ·

فالصلاح أمر نسبى يتفاوت بتفاوت درجات المؤمنين · فكل صالح يوصف بأوصاف تقف به عند مرتبته من الولاية أو النبوة ·

وقد وصف الله يحيى عليه السلام بأوصاف أخرى سيأتى ذكرها فى قصته ·

وقد أوجز الله دعاء زكريا عليه السلام فى سورة الأنبياء ، وأثنى عليه وعلى زوجه ثناءً حسنًا فقال : ﴿ وزكريا إذ نادَى ربَّه ربِّ لا تَذرْنى فردًا وأنت خيرُ الوارثين· فاستجبنا له ووهبْنا له يحيى وأصلحْنا له زوجَه إنهم كانوا يُسارِعون فى الخيراتِ ويدعونَنَا رَغبًا ورَهبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾ [1] ·

إنه عليه السلام كان مبتلى بالحرمان من الولد فصبر على هذا البلاء واحتسب أجره على الله تعالى ، وظل يدعو الناس إلى التوحيد الخالص ، ويطهر قلوبهم من الدنس بمواعظه البليغة ونصائحه الغالية ، ويقوّم أخلاقهم بما أوتيه من حكمة وفطنة ، وهم قوم غلاظ الطباع قساة القلوب ، يمسى الرجل منهم مؤمنًا ، ويصبح كافرًا ، يبيع دينه بدنياه ·

فلما كبرت سنه ووهن عظمه وجد نفسه وحيدًا ليس له من يعينه على هداية القوم فقال : ﴿ رب لا تذرنى فردًا ﴾ أى : لا تتركنى وحيدًا أعانىٰ ما أعانى من صدود قومى وإعراضهم عن الهدى ، وهو بهذه الدعوة يطلب من الله عز وجل - بأدب جم وإخلاص تام - أن يهبه من صلبه وليًّا يعينه على هداية قومه فى حياته ، ويخلفه فيهم بعد مماته ·

ويتجلى أدبه السامى فى قوله: ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ حيث إنه أفصح عما فى قلبه من توكل على الله يجعله لا يعتمد على أحد سواه ، فهو وإن طلب الولد لم يطلبه ليعتمد عليه ، أو ليورثه علمه من أجل أن يقوم بما كان يقوم به امتدادًا له ؛ لعلمه أن الله وحده هو الذى يتولى شئون عباده بقدرته وفق إرادته وعلمه ، وما الولد إلا سبب من الأسباب ووسيلة من الوسائل · والله جل شأنه هو مسبب الأسباب ، فإن شاء أعطى ، وإن شاء منع ، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، فإن كان ولده الذى سيهبه له - إن شاء ، ومتى شاء - سيكون وارثًا له فهو - جل شأنه - خير الوارثين · فالاعتماد كل الاعتماد عليه والثقة كل الثقة به · وهذا هو التوكل فى أسمى صوره ، وأبهى معانيه ·

(١) سورة الأنبياء آية : ٨٩ - ٩٠ ·

وفى قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ ما يكشف للموحدين عن آيات قدرته ، ودلائل حبه للمخلصين له من عباده ، وفى قوله : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رَغَبًا ورَهَبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾ ثناء على زكريا وولده يحيى وزوجه - واسمها « اليصابات » من نسل هارون عليه السلام - وهذا الثناء هو تعليل حسن لسرعة الإجابة ، فمن سارع فى الخيرات أسرع الله له فى إجابة دعواته وقضاء حوائجه .

وقد مات زكريا عليه السلام شهيدًا ، وقد ذكر المؤرخون أسبابًا كثيرة لقتله ، كلها أو معظمها لا يصح .

من أشهرها ما ذكره ابن الأثير فى « الكامل » ، فقد ذكر أن يحيى لما قتل وسمع أبوه بقتله ، فر هاربًا فدخل بستانًا عند بيت المقدس فيه أشجار ، فأرسل الملك فى طلبه - وهو الملك الذى قتل يحيى كما سيأتى - فمر زكريا بشجرة ، فنادته هلم إلى يا بنى الله، فلما أتاها انشقت فدخلها فانطبقت عليه وبقى فى وسطها ، فأتى عدو الله إبليس فأخذ هدب ردائه فأخرجه من الشجرة ليصدقوه إذا أخبرهم ، ثم لقى الطَّلَب - أى من يطلبه - فأخبرهم ، فقال لهم : ما تريدون ، فقالوا : نلتمس زكريا . فقال : إنه سحر هذه الشجرة فانشقت له فدخلها ، قالوا : لا نصدقك ، قال : فإن لى علامة تصدقوننى بها . فأراهم طرف ردائه ، فأخذوا الفئوس وقطعوا الشجرة اثنتين وشقوها بالمنشار ، فمات زكريا ، فسلط الله عليهم أخبث أهل الأرض فانتقم به منهم .

هذا ما ذكره ابن الأثير وغيره من أصحاب السير .

ودخول زكريا عليه السلام فى الشجرة لا أصل له ، ولكنه محض افتراء ، ونحن لا يعنينا كيف قتل ، ولا يعنينا من قتله ؛ لأن ذلك مما لا يضر الجهل به .

وقد كاد المؤرخون يجمعون على أنه قتل ، وهو واحد من كثير قتلته بنو إسرائيل بغيًا وعدوًا ، كما صرح بذلك القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، كقوله تعالى: ﴿ وضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّةُ والمسكنةُ وباءوا بغضبٍ من اللهِ ذلك بأنَّهم كانوا يكْفُرُون بآياتِ اللهِ ويَقتُلون النبيين بغيرِ الحقِّ ذلك بما عَصَوا وكانوا يَعتدون ﴾ [1] .

* * *

(١) سورة البقرة آية : ٦١ .

قصة يحيى عليه السلام

يحيى عليه السلام نبى مرسل ، أرسله الله إلى بنى إسرائيل فى حياة أبيه عليه السلام ، وكان حكيمًا أوتى الحكمة فى صباه ، ووهبه الله حنانًا من لدنه ، وزاده بركة وتقىً ، وجعله سيدًا على أهل زمانه ، وحصر همته فى طاعته ، وقصر هواه فى عبادته ، ولم يجعل له فى النساء رغبة مع قدرته على إتيانهن فى الحلال لو شاء ٠

وقد زوده الله بالعلم فحفظ التوراة عن ظهر قلب ، وعمل بكل ما فيها على وجه التمام ؛ لذا وصفه الله بأوصاف جمعت شُعَبَ الإيمان كلها ٠

وقد تقدمت بعض أوصافه فى قصة أبيه زكريا عليهما السلام ، وهى التى جاءت فى قوله جل شأنه : ﴿ فنادَتْه الملائكةُ وهو قائمٌ يُصلِّى فى المحرابِ أنَّ اللهَ يُبشِّرُك بيَحيَى مَصدِّقًا بكلمةٍ من اللهِ وسيِّدًا وحَصُورًا ونبيًّا من الصالحين ﴾ (١) ٠

وجاءت بقية أوصافه فى سورة مريم قال تعالى : ﴿ يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوةٍ وآتيناه الحكْمَ صبيًّا ٠ وحنانًا من لدُنَّا وزكاةً وكان تقيًّا ٠ وبَرًّا بوالديه ولم يكن جباراً عَصِيًّا ٠ وسلامٌ عليه يومَ وُلِدَ ويوم يموتُ ويومَ يُبعثُ حيًّا ﴾ (٢) ٠

والكتاب الذى أمر أن يأخذه بقوة هو التوراة ، ومعنى : ﴿ خذ الكتاب بقوة ﴾ تدبره جيدًا ، واحفظه كاملاً ، واعمل به جاهدًا ، وأمر قومك بذلك ، وقم بواجب الشكر لربك الذى وهبك هذه النعم ، ورباك على موائد العز والكرم ، وجعلك نبيًّا مرسلاً وابن نبى مرسل ، وسماك يحيى ليحيا ذِكْرُك فى النفوس المؤمنة ، ولم يسم أحدًا من قبلك بهذا الاسم ٠

والمراد بالحكم فى قوله : ﴿ وآتيناه الحكم صبيًّا ﴾ الحكمة وليست النبوة ؛ لأن سنة الله قد جرت على أن يبعث الأنبياء على سن الأربعين ٠

ويقال إنه : بعث قبل الأربعين خصوصية له عليه السلام، فقد كان عليه السلام

---

(١) سورة آل عمران آية : ٣٩ ٠ (٢) سورة مريم آية : ١٢ - ١٥ ٠

بما معه من الحكمة لا يلهو كما يلهو الصبيان ، ولا يلعب كما يلعبون ، ولكنه صحب أباه فى صغره وكبره ، وحنا عليه ، وأحسن إليه ، وكان بارًا به وبأمه برًا صار مضرب الأمثال ، ولم يكن يومًا يتظاهر بما يتظاهر به أمثاله فى الحسب والنسب ، بل كان مثال التواضع الجم ، ولم يكن يعصى لأبويه أمرًا فى ليل أو نهار ، وقد ترك الله ذكراه فى النفوس المؤمنة ، وألقى فى قلوبهم محبته بحيث يسلم عليه كل من يذكره كما يسلم على سائر الأنبياء والمرسلين .

وقد منحه الله سلامًا منه عند مولده ، وعند موته ، وعند بعثه حيًّا من قبره ، والسلام من الله رضا ، وحفاوة وتكريم ، وإجلال وتعظيم .

وقد ولد عيسى بن مريم عليه السلام فى عصره فباركه ودعا له ، ولما شب عيسى عليه السلام رافق ابن خالته يحيى وشاركه آلامه وآماله ، وشد من أزره فى تبليغ رسالته إلى بنى إسرائيل وهم قوم قساة القلوب ، غلاظ الطباع ، لا يستجيبون بسهولة إلى نصح الناصحين ، ولا يؤمنون لرسول إلا وهم مشركون .

وقد وجد منهم يحيى عليه السلام فى دعوتهم إلى الإيمان صدودًا وعنتًا وإعراضًا حتى كاد يكف عن تعليمهم وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، لولا عزمة من عزمات ربه عز وجل .

روى أحمد فى مسنده والترمذى فى سننه بسند حسن صحيح من حديث الحارث الأشعرى عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله سبحانه وتعالى أمر يحيى بن زكريا ﷺ بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها ، وأنه كاد أن يبطىء بها ، فقال له عيسى عليه السلام : إن الله تعالى أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى وأعذب ، فجمع يحيى الناس فى بيت المقدس ، فامتلأ المسجد ، وقعد على الشَّرَف [1] قال : إن الله تبارك وتعالى أمرنى بخمس كلمات أن أعملهن وآمركم أن تعملوا بهن : أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا،

(١) الشرف - بتشديد الشين وفتحها : المكان المرتفع . وفى رواية الترمذى: « وقعدوا على الشُّرَف » جمع شُرْفة .

وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو وَرِق [1] فقال له : هذه دارى وهذا عملى فاعمل وأدِّ إلىَّ ، فكان يعمل ويؤدى إلى غيره ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ! . وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى الصلاة ما لم يكن يلتفت . وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة ، معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك . وأمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو فأوثقوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفتدى منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم . وأمركم أن تذكروا الله تعالى ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعًا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى . قال النبى ﷺ : وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن : السمع والطاعة ، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة . فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه إلا أن يراجع . ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جُثا جهنم[2]، فقال رجل : يا رسول الله وإن صلى وصام ؟. قال : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ،فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله » .

هذا وقد مات يحيى عليه السلام شهيدًا فى حياة أبيه . وقد جاء فى كتب التاريخ فى سبب قتله روايات الله أعلم بصحتها .

فمن هذه الروايات ما قيل إن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج بامرأة من محارمه ، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك ، فكان فى نفسها منه شىء ، فلما تزوجها الملك استوهبته دم يحيى - أى استأذنت منه فى قتله ، فأذن لها فأرسلت إليه من قتله وهو يصلى وجاء برأسه إليها ، فهلكت من فورها .

وقيل: بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها ، فلما يئست منه تحايلت فى أن استوهبته من الملك ، فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك ، فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه فى طشت .

---

(١) الورق - بفتح الواو وكسر الراء : الفضة .

(٢) جُثا - بضم الجيم - : جمع جثوة ، وهى الجماعة المحكوم عليهم بالنار .

وذكر ابن الأثير فى « الكامل » رواية تقارب الرواية الأولى فقال : بعث الله عيسى رسولاً فنسخ بعض أحكام التوراة ، فكان مما نسخ أنه حرم نكاح بنت الأخ ، وكان لملكهم واسمه « هيرودس » بنت أخ تعجبه يريد أن يتزوجها فنهاه يحيى عنها ، وكان لها كل يوم حاجة يقضيها لها الملك ، فلما بلغ ذلك أمها قالت لها : إذا سألك الملك ما حاجتك ؟ فقولى : أن تذبح يحيى بن زكريا ، فلما دخلت عليه وسألها : ما حاجتك ؟ قالت : أن تذبح يحيى بن زكريا ، فقال : سلى غير ذلك ، قالت : ما أسألك غيره ، فلما أبت دعا بيحيى ، ودعا بطست فذبحه ، فلما رأت الرأس قالت : اليوم قرت عينى ، فصعدت السطح فسقطت منه إلى الأرض ولها كلاب ضارية تحته ، فوثبت الكلاب عليها فأكلتها وهى تنظر ، وكان آخر ما أكل منها عيناها لتعتبر .

﴿ وسلامٌ عليه يومَ وُلِدَ ويومَ يموتُ ويومَ يُبعَثُ حيًّا ﴾ .

* * *

قصة عيسى بن مريم عليه السلام

لقد كان عيسى بن مريم وأمُّه آيةً من الآيات الفريدة فى عالم الخلق والتكوين ، لم يجعل الله لها مثيلاً فى العالمين ·

آية جمعت فى طياتها آيات وعبراً ، لا يسعنا حين نستعرض أخبارها فى القرآن الكريم إلا أن نسبح بحمد الله العلى العظيم القادر الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، الحكيم ، الذى إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون · قال تعالى : ﴿ والتى أحْصَنَتْ فَرْجَهَا فنفخْنا فيها من رُوحِنا وجعلناها وابْنَها آيةً للعالَمين ﴾ (1) ·

والتى أحصنت فرجها هى مريم ابنة عمران ، ولم يذكرها الله باسمها فى هذه الآية ؛ لأنها ليست من الأنبياء ، وهذه سورة قد ذكر فيها جملة من الأنبياء وجاء ذكرها بعد ذكرهم مباشرة ، فلو ذكرها الله جل شأنه باسمها هنا لتوهم متوهم أنها منهم ، فتدبر ذلك ، واشهد بلسان حالك ومقالك بجمال القرآن فى نظمه ، ودقته فى تعبيره ·

● نسب أمه :

عيسى بن مريم نبى مرسل ، وأمه صديقة ، وأبوها « عمران » حبر من أحبار اليهود ، وإمام من أئمتهم ، وزاهد من كبار زهادهم ·

وأمها«حنة بنت فاقود بن قبيل» امرأة ورعة عابدة،تحب الله حبًا شديداً بدليل أنها لما حملت وهبت ما فى بطنها له جل شأنه، وكانت تتمنى أن يكون الحمل ذكراً ·

وعيسى عليه السلام نُسب إلى أمه لأنه خلق من غير أب ، ويرجع نسب مريم إلى سليمان بن داود عليهما السلام ، فأبوها هو عمران بن ياشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يازم بن يهفاشاط بن إيشا بن إيان بن رحبعام بن سليمان بن داود (2) ·

وكان أكثر أجدادها من الأحبار ، فهى نسلٍ طيب من نسل طيب ، قال تعالى : ﴿ إن اللهَ اصطفى آدمَ ونوحًا وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمرانَ على العالَمين ﴾ (3) ·

---

(1) سورة الأنبياء آية : 91 ·

(2) انظر البداية لابن كثير ج 2 ص 56 ·

(3) سورة آل عمران آية : 33 ·

وآل إبراهيم هم : إسحاق ويعقوب ويوسف ، وموسى وهارون ، وداود وسليمان ، وغيرهم من أنبياء بنى إسرائيل ، وإسماعيل ومحمد ﷺ .

وآل عمران : مريم وعيسى عليه السلام ، وأتباعه ، فآل الرجل فى اللغة : أتباعه وأنصاره ، وأهله : زوجه وأولاده وأقرباؤه .

وعمران فى هذه الآية هو أبو مريم عند كثير من المفسرين ، ويرى بعضهم أن عمران فى الآية هو أبو موسى وهارون .

والخطب سهل ؛ فهم ذرية بعضها من بعض فى الصلاح والتقى ، فقد توارثوا العلم والإيمان ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ، وأصلحوا ذات بينهم ، وأطاعوا الله ورسوله ، فأثنى عليهم ربهم ثناءً حسنًا ، وجعلهم ذكرى للعابدين .

• مولدها وكفالتها :

مات عمران ﷺ ، وترك زوجه حاملاً بمريم - رضى الله عنها وأرضاها - فنذرت أمها ما فى بطنها لله بحيث تجعله خادمًا لبيته المقدس .

ومرت الأيام وجاءها المخاض ، فوضعت حملها ، فإذا هو أنثى - لا ذكر ، وقد جرت العادة بأن يكون سدنة البيت وخدمه من الذكور لا من الإناث ، لكن كيف وقد نذرت لله ما فى بطنها ، فلابد إذن من الوفاء بنذرها ، وليكن ما يكون .

وقد أفصحت لربها - وهو أعلم بها وبحالها - عما يجيش فى نفسها من لوعة الحزن ، ووخزة الحياء ، وعسر المخرج ، وكأنها تسأل ربها كيف تفعل لكى توفى بنذرها - هل تذهب بها إلى المعبد وتتركها هناك تحت بصر خدامه وسدنته ، أم تبقيها فى بيتها ، وتقوم بشىء آخر من العبادات والعمل الصالح يقوم مقام ما نذرته لربها ؟

فألهمها الله عز وجل أن ترضعها حتى تستغنى عن ثديها ، فتذهب بها إلى بيت المقدس ليكفلها واحد من أحبار بنى إسرائيل ، وسمتها مريم ودعت لها بالبركة وحصنتها بالله من الشيطان الرجيم ، فتولاها الله بعنايته ، وتقبلها قبولاً حسنًا ، ورباها تربية كريمة فى أكرم البيوت وأطهرها، وأسند إلى زكريا عليه السلام كفالتها ، فبرها

وأحسن إليها وأعانته في تربيتها زوجُه،وهى خالتها ، قال تعالى: ﴿ إذ قالت امرأتُ عمرانَ ربِّ إنِّى نَذَرتُ لك ما بطنى مُحرَّرًا فَتَقَبلْ منى إنَّك أنتَ السميعُ العليمُ. فلمَّا وضعتْها قالتْ ربِّ إنِّى وضعتُها أُنثى واللهُ أعلمُ بما وَضَعَتْ وليس الذكرُ كالأنثى وإنى سميتُها مريمَ وإنِّى أُعيذُها بك وذريتَّها من الشيطانِ الرجيمِ. فتقبَّلَها ربُّها بقَبولٍ حَسَنٍ وأنبَتَهَا نباتًا حسنًا وكَفَّلَها زكريا كلما دخلَ عليها زكريا المحرابَ وَجَدَ عندَها رِزقًا قالَ يا مريمُ أنَّى لكِ هذا قالتْ هو من عندِ اللهِ إن اللهَ يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حسابٍ ﴾ (١) .

قيل كان زكريا كلما دخل عليها المحراب - وهو مكان العبادة - وجد عندها فاكهة الشتاء فى زمن الصيف ، وفاكهة الصيف فى زمن الشتاء .

والآية لم تصرح بذلك ، ووجود الرزق فى ذاته وهى فى محرابها - الذى لا يدخله أحد سوى زكريا عليه السلام- كرامةٌ لها .

وقد كانت لكفالة زكريا عليه السلام لمريم رضي الله عنها قصة أشار الله إليها فى قوله : ﴿ ذلك من أنباءِ الغيبِ نُوحِيهِ إليكَ وما كنتَ لديهم إذ يُلقُون أقلامَهم أيُّهُم يكفلُ مريمَ وما كنتَ لديهم إذ يَختَصِمُون﴾(٢) .

قيل : إن أمها لما جاءت بها إلى المعبد اختصم الأحبار على كفالتها رغبة فى الأجر من الله تعالى ، وقال كل منهم : أنا أولى بها فهى بنت إمامنا وصاحب قرباننا، فقال زكريا عليه السلام : ادفعوها إلىَّ فإن خالتها زوجى ، فقالوا : لا ندفعها إليك فنحن أولى بها منك ، فاقترعوا على كفالتها بأقلام كانوا يكتبون بها التوراة فالقوا أقلامهم فى نهر الأردن ،وقالوا: أينا يثبت قلمه فى جرية الماء فهو كافلها. فثبت قلم زكريا فى جرية الماء ، ولم يقذف به التيار كما قذف بأقلامهم ، فكفلها .

وقيل : إنهم أبوا عليه فى أول مرة فكرروا القرعة ثلاث مرات ، وفى كل مرة يكون زكريا هو الغالب بإذن الله .

---

(١) سورة آل عمران آية : ٣٥ - ٣٧ . (٢) سورة آل عمران آية : ٤٤ .

وما كان ينبغى أن ينافسوا زكريا عليه السلام فى كفالتها لأنه نبيهم ، ولأن زوجه خالتها ، والخالة بمنزلة الأم ، ولكن القوم قوم خَصِمون (كثيرو الجدل والخصومة) .

• بشراها بعيسى وحملها به :

ونشأت مريم البتول فى كفالة زكريا عليه السلام ، وهى فى محرابها تتعبد لا تخرج منه إلا لقضاء حاجتها الضرورية أو إذا حاضت .

فخرجت فى يوم لقضاء حاجتها شرقى بيت المقدس فأرسل الله إليها جبريل فى صورة بشر مرفوع القامة مستوى الأعضاء ، فحسبته رجلاً يريدها بسوء فاستعاذت بالرحمن منه ، والتمست من ذاك المتمثل أمامها أن يفارقها إن كان تقيًّا يخاف الله ويخشى عذابه ، فأخبرها أنه رسول ربها جاء يبشرها بغلام زكى فتعجبت من ذلك أيما تعجب ؟ ، وقالت : كيف يكون لى غلام ، ولم يمسسنى زوج ، ولم أكن من البغايا، ولن أكون أبدًا ؟! .

قال لها الروح الأمين : هذا ما قضى الله به ، وهو أمر عليه هين ، وإنه سبحانه سيجعله آية للناس يرون فيه عجائب صنعه ، ودلائل قدرته ، وأمر الله نافد ، وقضاؤه محتوم ، فنفخ جبريل فى فرجها من جهة صدرها ؛ فحملت به فى الحال .

فلما رأت الحمل احتجبت عن قومها ، واتخذت لها بيتًا بعيدًا عنهم هو بيت لحم على ما قال أكثر المؤرخين والمفسرين .

فلما آن موعد ولادتها وجاءها المخاض ألجأها الطلق إلى جذع نخلة كانت هناك، فأمسكت بها حتى وضعت حملها فتمنت يومها أن تكون فى عداد الأموات ينساها الناس فلا يذكرونها أبدًا .

وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ واذكرْ فى الكتاب مريمَ إذ انتَبَذَتْ من أهلِها مكانًا شرقيًّا ۔ فاتخذتْ من دونِهم حِجابًا فأرسلْنا إليها رُوحَنا فتَمَثَّلَ لها بشرًا سويًّا ۔ قالتْ إنِّى أعوذُ بالرحمن منك إن كنتَ تقيًّا ۔ قال إنما أنا رسولُ ربِّك لأَهَبَ لكِ غلامًا زكيًّا ۔ قالت أنَّى يكونُ لى غلامٌ ولم يَمسسْنى بشرٌ ولم أكُ بَغيًّا ۔ قال كذلك قال

ربُّك هو عليَّ هينٌ ولنجعلَه آيةً للناس ورحمةً منا وكانَ أمرًا مقضيًّا . فحملَتْه فانتبذتْ به مكانًا قصيًّا . فأَجَاءَها المخاضُ إلى جذعِ النخلةِ قالتْ يا ليتنى مِتُّ قبلَ هذا وكنتُ نَسيًا منسيًّا ﴾ [1] .

ومعنى فأجاءها : ألجأها إلى جذع النخلة لتمسك به من شدة الطلق .

واختلف العلماء فى مدة حملها ، فقال بعضهم حملته ووضعته فى ساعة واستدلوا على ذلك بحرف العطف وهو (الفاء) فى قوله تعالى : ﴿ فحملته فانتبذت به مكانًا قصيا فأجاءها المخاض ﴾ .

وقال بعضهم : بل حملته تسعة أشهر كما تحمل النساء ، وقالوا : إن الترتيب فى الآية نسبى ، كقوله تعالى : ﴿ فخلقنا العلقةَ مُضغَةً فخلقنا المضغةَ عظامًا فكسَوْنا العظامَ لحمًا ﴾ [2] ولا يخفى أن هذه الأطوار أخذت مدة بعد مدة .

وكقوله تعالى : ﴿ ألم ترَ أنَّ اللهَ أنزلَ من السماءِ ماءً فتُصبحُ الأرضُ مُخضرَّةً إنَّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ ﴾ [3] ، ومن المعلوم أن الأرض لا تخضر عقب نزول الماء مباشرة .

وقد ذكروا روايات عن بعض أصحاب النبى ﷺ منها ما نقله ابن كثير فى «البداية » عن أبى القاسم عن مالك، قال: بلغنى أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما جميعًا معًا ، فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم : إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك - أى ينحنى إليه تحية له ، وليست تعنى بالسجود السجود المعروف فى الصلاة . . .

قال ابن كثير - والعهدة عليه - :ذكر غير واحد من السلف منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لها رجل من عباد بنى إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار ، وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجبًا

---

(١) سورة مريم آية : ١٦ - ٢٣ . (٢) سورة المؤمنون آية : ١٤ .

(٣) سورة الحج آية : ٦٣ .

شديدًا ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها ، وهو مع ذلك يراها حُبلى وليس لها زوج ، فعرَّض لها ذات يوم فى الكلام، فقال : يا مريم هل يكون زرع من غير بذر ؟، قالت : نعم فمَنْ خلق الزرع الأول ؟، ثم قال : فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر ، قالت : نعم ، فمَنْ خلق الشجر الأول ؟!، ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ ، قالت : نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، قال لها : فأخبرينى خبرك ، فقالت : إن الله بشرنى بكلمة منه ٠٠ تعنى - رضي الله عنها - أن الله بشرها بغلام له أوصاف سامية ٠وقد ورد ذكرها فى سورة آل عمران ٠

قال تعالى : ﴿ إذ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إنَّ اللهَ يبشِّـرُكِ بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ وَجيهًا فى الدنيا والآخرةِ ومن المقرِبين ٠ ويُكَلِّم الناسَ فى المهدِ وكهلاً ومن الصالحين ﴾ [1] .

• مواساتها قبل الرجوع إلى قومها :

ونعود إلى مريم بعد أن وضعت حملها فنراها حزينة واجمة ، لا تدرى كيف تواجه قومها بهذا الوليد ، وهى من هى فى الصلاح والتقى والنزاهة والعفة ، فإذا بالمَلَك يناديها من تحتها - أى من جهة قريبة منها - قائلا لها : لا تحزنى ما دام الله معك ، ولا تخشى على نفسك من القيل والقال ، واجمعى أمرك وارعى ولدك ، واعلمى أن الله قد مَنَّ عليك بالماء والطعام ، فالنهر أمامك ، وضمى إليك النخلة بواسطة جذعها تساقط عليك رطبًا طازجًا ، فكلى واشربى ، واهنئى واهدئى ، واطمئنى واثبتى ، فإن الله سيدافع عنك بحجة لا يتطرق إليها الشك ، وببرهان لا يقبل الجدل ٠

وأوصاها ألا تتكلم إذا سألها سائل أو سبَّها جاهل ، وتعتذر لهذا وذاك بأنها نذرت لله صومًا فلا تكلم أحدًا من الإنس مدة صومـها ، فامتثلت أمر ربها ، وهدأ بالُها ، ومكثت حتى استجمعت قواها ، ثم عزمت على الرحيل من بيت لحم إلى ديار قومها ، وياللها من رحلة فيها مواجهة لم تشهد امرأة سواها مثلها ٠

---

(١) سورة آل عمران آية : ٤٥ - ٤٦ ٠

إنها مواجهة لا تستطيع أن تتحمل وطأتها لولا تلك الدفعة التى كانت من جبريل عليه السلام، ولولاه ما رحلت إلى قومها أبدًا ، وجبريل إنما يتنزل بأمر الله عز وجل ، فالأمر أمره والقوة جميعًا له ، والعبد إنما يستمد القوة منه لا من غيره بواسطة الأسباب أو بغير واسطة ، يقول الله جل شأنه : ﴿ فناداها من تحتها ألاَّ تَحزنى قد جعلَ ربك تحتَكِ سَرِيًّا . وهُزِّى إليكِ بجذعِ النخلةَ تُساقطْ عليكِ رُطبًا جنيًّا . فكُلى واشربى وقَرِّى عينًا فإمَّا تَرَينَّ من البشرِ أحدًا فقولى إنِّى نذرتُ للرحمنِ صومًا فلن أُكلِّمَ اليومَ إنسيًّا ﴾ (١) .

والذى ناداها قيل : هو جبريل كما ذكرنا ، ومعنى من تحتها أى : من مكان قريب منها كم أشرنا ، أو من مكان أسفل منها ، ويقال لكل قريب منك هو تحتك ، أى : هو فى مُكْنتك أن تملكه أو تصل إليه بسهولة ، ويقال: فلان تحته سيارة ، أى يملكها ويتمكن من الانتفاع بها .

وقيل : الذى ناداها هو ولدها ، لتعلم أنه لو أشارت إليه عند قومها فسألوه لأجاب بلسان فصيح أنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيًّا فيطمئن قلبها ، وتوقن بحماية الله لها وتبرئته إياها ، ومعنى : ﴿ هُزِّى إليك بجذع النخلة ﴾ أميليها إليك بواسطة الجذع تساقط عليك رطبًا جنيًّا ، أى : رطبًا طازجًا طيب الأُكُل .

وفى هذا الأمر ما يوحى بضرورة العمل من أجل الحصول على القوت ، وهو أمر لا ينافى التوكل بل يلازمه ويدل عليه ، فالتوكل هو الاعتماد على الله تعالى والثقة به مع مباشرة الأسباب ، بخلاف التواكل ، فإنه ادّعاء للتوكل من غير دليل .

• مواجهة قومها :

فأتت به تحمله بين يديها ، فلما رأوها سلقوها بألسنة حداد ، وقالوا ما وسعهم أن يقولوا ، وسخروا منها ، وتندروا بها ، وأفرغوا جهدهم فى قذفها وسبها ، وهى صامته لا تتكلم ، فلما اجتمعوا عليها ، ولم يبقَ منهم فى القرية رجلٌ ولا امرأة إلا

---

(١) سورة مريم آية : ٢٤ - ٢٦ .

خرج ، ليُسْهِم بنصيبه فى توبيخها وإحراجها ، أشارت إليه إشارة فهموا منها أنها تقول لهم : سلوه مَنْ هو ، وما حاله ، ومن أين أتى · فازدادوا تماديًا فى السخرية والاستهزاء ، وقالوا : عجبًا لك ! لم لا تتكلمين أنت ؟ أتريدين أن نكلم صبيًّا فى المهد لا يفهم سؤالاً ولا يجرى جوابًا ، ولا يقدر إلا على البكاء والعويل !

فإذا بالصبى يتكلم بكلام فصيح يعلن فيه عن نفسه ، وعما خلقه الله من أجله، وعن حاله مع ربه وحاله مع والدته ، فمنهم من عرف الحق وأدرك حقيقة المعجزة وآمن بالذى خلق فسوى ، فاعتذر لمريم ﵍ وتاب وأناب ، ومنهم من ظل فى نفسه شىء من الشك والشبهة ·

وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ فأَتَتْ به قومَها تحمِلُه قالوا يا مريمُ لقد جئتِ شيئًا فَرِيًّا · يا أختَ هارونَ ما كانَ أبوكِ امرأَ سَوْءٍ وما كانتْ أمُّكِ بَغيًّا · فأشارَتْ إليه قالوا كيفَ نكلِّمُ مَن كانَ فى المهدِ صبيًّا · قال إنِّى عبدُ اللهِ ءاتانىَ الكتابَ وجعلَنى نبيًّا· وجعلنى مباركًا أينَ ما كنتُ وأوصانى بالصلاةِ والزكاةِ ما دمتُ حياًّ· وبَرًّا بوالدتى ولم يجعلْنى جبارًا شقيًّا · والسلامُ علىَّ يومَ وُلِدتُ ويومَ أموتُ ويومَ أُبعثُ حيًّا ﴾[1].

ها هو عيسى بن مريم قد تكلم فى المهد صبيًّا ، وعرف نفسه لقومه فقال : ﴿إنى عبد الله ﴾، ولم يقل : إنى ابن الله ، ولا أنا وأمى آلهان من دون الله ، ولا أنا أقنوم من أقانيم ثلاثة هى الأب والابن وروح القدس ·

وقال : ﴿ آتانى الكتاب ﴾ وهو الإنجيل مع أنه لا يزال فى المهد ؛ ليؤكد أمرًا سيقع لا محالة ؛ لأنه مقدر فى علم الله ، وما قدر فى علم الله أن يكون فلابد أن يكون ·

وقوله : ﴿ وجعلنى نبيًّا ﴾ أى لم يجعلنى إلهًا ، ولكن نبأنى بأمر أمرنى بتبليغه، وذلك مقدر فى علمه واقع لا محالة ·

---

(١) سورة مريم آية : ٢٧ - ٣٣ ·

وقوله : ﴿ وجعلنى مباركًا أينما كنتُ ﴾ يشعر قومه بأنه سيكون رسول خير وسلام لهم ، يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيى الموتى بإذن الله ، وينبأهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، ويتبعه الخير حيث كان ·

وقوله : ﴿ وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا ﴾ يشعر قومه بأنه على الملة السمحة سيجدد لهم دينهم ، ويعيد إليهم كل ما فيه صلة بالله ، ونفع للناس ·

ولا يخفى ما فى هذا القول من حث لهم على تأدية هاتين الفريضتين العظيمتين؛ إذ الصلاة عماد الدين وركنه الركين ، والزكاة برهان على صحة الإيمان ، وصدقِ اليقين ، وفيها من التكافل الاجتماعى ما فيها ·

وقوله : ﴿ وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيًّا ﴾ يشير إلى أن بر الوالدين يأتى فى المرتبة الثانية بعد عبادة الله عز وجل، ويفيد أنه أصل عظيم من أصول الدين، وأن عقوق الوالدين لا يصدر إلا من جبار شقى خاسر، وحاشاه أن يكون كذلك ؛ لأنه عبد الله ، ومن كان عبدًا لله كان مثالاً للخلق الفاضل والسلوك النبيل ·

وقوله : ﴿ والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا ﴾ معناه : أنه سيكون فى كنف الله تعالى دائمًا من مولده إلى آخر الدهر وإلى الأبد ، فهو عند ربه مرضىٌّ السيرة ، محمودُ السريرة ، ليس للشيطان عليه سبيل ، وأنه بشر يولد ، ويموت ، ويبعث كسائر البشر وليس إلهًا يعبد ·

وقد ذكر ابن كثير عن إسحاق بن بشر قال : أنبأنا عثمان بن ساج وغيره عن موسى بن وردان عن أبى نضرة عن أبى سعيد وعن مكحول عن أبى هريرة ﷺ قال: « إن عيسى بن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذى تكلم به وهو طفل مَجَّد الله تمجيدًا لم تسمع الآذان بمثله ، لم يَدَعْ شمسًا ولا قمرًا ولا جبلاً ولا نهرًا ولا عينًا إلا ذكره فى تمجيده ·

فقال : « اللهم أنت القريب فى علوك ، المتعالى فى دُنُوِّك ، الرفيع على كل شىء من خلقك · · · » إلى آخر ما ذكره ابن كثير فى البداية ·

● نشأة عيسى وبعثته :

ونشأ عيسى بن مريم فى قومه نشأة زكية سوية ، ينعم بصديقه ورفيق صباه يحيى بن زكريا ، ويحيا فى كنف أمه الطاهرة البتول ، وبنو إسرائيل يحسدونه على ما آتاه الله من فضله من غزارة العلم ، وذكاء العقل ، وقوة الجسم ، وسداد الرأى ، ورباطة الجأش ، وشدة التمسك بالدين فلم يسلم من آذاهم فى شبابه ، ولا فى كهولته . فقد قالوا فيه وفى أمه منكراً من القول وزوراً ، واحتملوا فى حقهما بهتانًا وإثمًا مبينًا .

قال تعالى : ﴿ فَبِما نقضِهِم ميثاقَهم وكفرِهم بآياتِ اللهِ وقتلِهمُ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ وقولِهم قلوبُنا غُلْفٌ بل طَبَعَ اللهُ عليها بكفرِهم فلا يؤمنون إلا قليلاً . وبكفرِهم وقولِهم على مريمَ بهتانًا عظيمًا ﴾ [1] .

وبنو إسرائيل هم بنو إسرائيل ، خلائقهم فى الخليقة معروفة ، لا يراهم الناس إلا فى الشر ، لا يرقبون فى نبىٍ ولا فى ولى من أولياء الله إلاًّ [2] ولا ذمة .

ولكن الله عز وجل قد عصم منهم عيسى بن مريم عليه السلام كما عصم كثيراً من الأنبياء ممن سبقوه فعاش عيشة النبلاء فى ورع الزاهدين ، وزهد المتقين ، وتقوى المقربين، لا يضره كيد الخائنين ، ولا تدبير الماكرين ، ولما بلغ الأربعين [3] أرسله الله إلى بنى إسرائيل بالبينات ، وأنزل عليه كتابًا مصدقًا لما بين يديه من التوراة ، ومجدداً للرسالة الكبرى رسالة موسى عليه السلام ، ومصححًا لما وقع فى التوراة والزبور من تحريف وتبديل .

فواجهه بنو إسرائيل بالكفر والعناد ، كما هو شأنهم مع جميع الأنبياء ، قال تعالى : ﴿ وإذ قالَ عيسى ابنُ مريمَ يا بَنِى إسرائيلَ إنِّىَ رسولُ اللهِ إليكم مُصدِّقًا لما بينَ يدىَّ من التوراةِ ومُبَشِّرًا برسولٍ يأتى من بعدى اسمُه أحمدُ فلما جاءهم بالبيناتِ قالوا هذا سِحرٌ مبينٌ ﴾ [4] .

---

(١) سورة النساء آية : ١٥٥ - ١٥٦ .　　(٢) أى : قرابة ولا عهداً .

(٣) قيل بعث على الثلاثين من عمره ،ورفع بعد خمس سنين .

(٤) سورة الصف آية : ٦ .

وقد طالبوه بمعجزة تدل على صدقة ، فأيده الله بمعجزات كثيرة لا بمعجزة واحدة، فجعله الله يبرئ الأكمه [1] والأبرص بإذنه ، ويحيى الموتى بإذنه ، ويخبرهم بما يأكلونه وما يدخرونه فى بيوتهم ، وغير ذلك مما يحملهم على الإيمان به ، ولكن القوم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، قال تعالى ﴿ ويُعلِّمه الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ . ورسولاً إلى بنى إسرائيلَ أنِّى قد جئتكم بآية من ربِّكم أنِّى أخلُقُ لكم من الطينِ كهيئةِ الطيرِ فأنفخُ فيه فيكونُ طيرًا بإذنِ الله وأُبرئُ الأكمهَ والأبرَصَ وأُحيى الموتى بإذنِ الله وأُنَبِّئُكُم بما تأكلون وما تدخِرون فى بيُوتكم إنَّ فى ذلك لآيةً لكم إنْ كنتم مؤمنين . ومُصَدِّقًا لما بينَ يَدَىَّ من التوراةِ ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذى حُرِّمَ عليكم وجئتُكم بآيةٍ من ربِّكم فاتقوا اللهَ وأطِيعُونِ . إنَّ اللهَ ربِّى وربُّكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيمٌ ﴾ [2] .

ولما لم يجد منهم عيسى بن مريم إلا صدودًا وإعراضًا عن دعوته ، جمع أمره، وأخذ حذره ، ونادى فى أتباعه بنصرته ، والوقوف بجانبه لمواجهة كيد أولئك الماكرين، فانبرى جماعة من حوارييه ، وهم أصحابه المقربون إليه لنجدته ، والدفاع عنه وعن دعوته، فقاموا فى الناس هُداةً مرشدين بأسلوب الترغيب تارة وبأسلوب الترهيب تارة أخرى ، وبمناوشة من ناوشهم بقدر طاقتهم ، فكان الناس بين مؤمن وكافر ، فأيد الله المؤمن بالنصر المبين ، وخذل عدوهم ، ورد كيدهم فى نحورهم .

قال تعالى : ﴿ فلما أحسَّ عيسى منهُمُ الكفرَ قال من أنصارِى إلى الله قالَ الحواريون نحن أنصارُ اللهِ آمنَّا باللهِ واشهَدْ بأنَّا مسلمون . ربَّنا آمنَّا بما أنزَلتَ واتَّبعنا الرسولَ فاكتُبْنا مع الشاهدين . ومكَرُوا ومكَرَ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين ﴾ [3] .

وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصارَ اللهِ كما قال عيسى ابنُ مريمَ للحواريين من أنصارى إلى اللهِ قال الحواريون نحن أنصارُ اللهِ فآمنتْ طائفةٌ من بنى إسرائيلَ وكَفَرَتْ طائفةٌ فأيَّدْنا الذين آمنوا على عَدُوِّهم فأصبحوا ظاهِرين ﴾ [4].

---

(١) الأكمه هو الذى ولد أعمى .   (٢) سورة آل عمران آية : ٤٨ - ٥١ .
(٣) سورة آل عمران آية ٥٢ - ٥٤ . (٤) سورة الصف آية : ١٤ .

ولم يكن عيسى بن مريم عليه السلام أول من طلب النصرة لإظهار الدعوة إلى الله ، وهداية الناس إليه ، بل كان هذا ديدن الرسل أخذًا بالأسباب ، والأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل ؛ بل هو ركن من أركانه أو شرط من شروط صحته ·

وكان عيسى عليه السلام جادًا كل الجد فى نشر دعوته فى كل مكان يستطيع الوصول إليه ، وتبليغ رسالته للقريب والبعيد من بنى إسرائيل ، وقد خشى اليهود على أنفسهم من انتشار هذه الدعوة ؛ لأنها تتعارض مع أهوائهم وشهواتهم ، ونُظُمِهم الدينية التى وضعوها لابتزاز أموال الناس واستعبادهم ، والسيطرة عليهم ؛ ليأتمروا بأمرهم ، وينتهوا بنهيهم باسم الدين ·

• تآمر اليهود عليه :

وقد جاء عيسى عليه السلام - كما أشرنا من قبل - مصححًا لما حرفوه ، ومجددًا لما طمسوه من الكتب السماوية ، وكاشفًا عن تزييفهم للحقائق الكونية ، والقواعد الشرعية والأمور الغيبية التى نبأتهم بها الرسل ، مبطلاً لمزاعمهم وأمانيهم التى أكلوا بها أموال الناس بالباطل أزمانًا طويلة ، فضاقوا به ذرعًا واجتمعوا فى بيت المقدس ليروا فيه رأيهم الأخير ، فأجمعوا بعد أخذ ورد على قتله ، فاحتالوا لذلك فأوغروا صدر الوالى عليه ، وهذا الوالى (١) كان من قبل الروم ، فأرسل من جنده من يأتيه به فلم يعرفوا مكانه ، فدلهم عليه منافق من منافقى اليهود يقال له: « يهوذا الاسخريوطى » فأمروه أن يسير أمامهم وأن يدخل المكان الذى هو فيه ، ففعل فدخلوا وراءه ، فوجدوا أتباع عيسى يجلسون حوله، ولما رأى التلاميذ ما كاد يحيق بهم وبصاحبهم ولَّوا فرارًا ، لا يلوى أحد على أحد ، وتركوا صاحبهم يلقى مصيره، ولم يكن الله عز وجل ليترك نبيه عليه السلام فى مكانه تناله أيدى المجرمين فرفعه إليه حيًا أو ميتًا ، فوقعت أعينهم على يهوذا الاسخريوطى هذا لأنه لم يفر لعدم خوفه منهم إذ هو دليلهم ، فألقى الله فى قلوبهم أنه هو المطلوب فأخذوه وأوثقوه بالحبال ، واحتملوه إلى الوالى ·

---

(١) قيل : هو هيردوس والى قيصر واسمه طيباريوس ، كما ذكر ابن الأثير فى الكامل·

وقيل: إنه كان يشبهه ، أو أن الله ألقى شبهه فى الحال على وجهه ، فوقع فى الحفرة التى حفرها، قال تعالى : ﴿ ولا يَحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلا بأهلِه ﴾ [١] .

فلما أتوا به للوالى قتلوه وصلبوه ، وفرح المجرمون بجرمهم ، وظنوا أنهم قد تخلصوا من دعوته إلى الأبد ، ولكن الحق باق لا يزول .

وتفاخر اليهود بقتله وصلبه ، فكذَّبهم اللهُ ، وأخزاهم فى الدنيا والآخرة ، ولعنهم لعنًا كبيراً .

قال تعالى : ﴿ فبِما نقضِهم ميثاقَهم وكفرِهم بآياتِ اللهِ وقتلِهمُ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ. وقولِهم قلوبُنا غُلْفٌ بل طَبَعَ اللهُ عليها بكفرِهم فلا يؤمنون إلا قليلاً . وبكفرِهم وقولِهم على مريمَ بُهتانًا عظيمًا . وقولِهم إنَّا قَتَلْنا المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ رسولَ اللهِ وما قَتَلُوه وما صَلَبُوه ولكنْ شُبِّهَ لهم وإنَّ الذين اختَلَفُوا فيه لَفِى شكٍّ منه ما لهم به من علمٍ إلا اتِّباعَ الظنِّ وما قتلوه يقينًا . بل رفعَه اللهُ إليه وكان اللهُ عزيزًا حكيمًا﴾[٢] .

ويوم القيامة يجمع الله الرسل ليسألهم عن أقوالهم ويسأل عيسى بن مريم على وجه الخصوص هل قال للناس : اتخذونى وأمى آلهين من دون الله، ويسبق هذا السؤال تذكير له بنعمه عليه ومعجزاته التى أيده بها .

يقول الله عز وجل : ﴿ يومَ يَجمَعُ اللهُ الرسلَ فيقولُ ماذا أُجِبتُم قالوا لا عِلمَ لنا إنَّك أنتَ علاَّمُ الغيوبِ . إذ قال اللهُ يا عيسى ابنَ مريمَ اذكرْ نعمتى عليكَ وعلى والدتكَ إذ أيَّدتُّك بروحِ القُدسِ تُكلِّمُ الناسَ فى المهدِ وكَهْلاً وإذ علَّمتُك الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ وإذ تَخلُقُ من الطينِ كهيئةِ الطيرِ بإذنى فتَنفخُ فيها فتكونُ طيرًا بإذنى وتُبرئُ الأكمهَ والأبرصَ بإذنى وإذ تُخرجُ الموتى بإذنى وإذ كَفَفْتُ بنى إسرائيلَ عنكَ إذ جئتَهُم بالبيناتِ فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلا سحرٌ مبينٌ . وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أنْ آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنَّا واشهدْ بأنَّنا مسلمون ﴾ [٣] .

---

(١) سورة فاطر آية : ٤٣ .

(٢) سورة النساء آية : ١٥٥ - ١٥٨ . (٣) سورة المائدة آية : ١٠٩ - ١١١ .

وفى تذكير عيسى ابن مريم بهذه النعم وتلك المعجزات تسفيه لبنى إسرائيل السابقين منهم واللاحقين إذ كفروا بتلك المعجزات الناطقة التى لا ينكرها إلا مكابر ومعاند ، ولا يمارى فيها إلا غوى ضال ، أحمق جهول .

فقد كان كلام عيسى فى المهد ، وخلقه من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا ، وإبراؤه الأكمة والأبرص، وإحياؤه الموتى ، وبعثهم من القبور - كان هذا- بل بعض هذا - جديرًا بأن يبعث الطمأنينة والإيمان فى قلب أى إنسان له مسكة من عقل أو أثارة من إدراك . حيث يرى وليدًا يخرج من رحم أمه ليومه ينطق بلسان مبين ومنطق مستقيم ، وهو مع هذا لا يملك من أمر نفسه شيئًا إذ هو مازال فى صورة الوليد ليومه فى كل شىء إلا هذا اللسان الذى نطق به! .. فمن أنطقه ؟ ومن أعطاه تلك الكلمات البينـات ؟ ومن منح لسانه هذه القدرة على النطق بها فصيحة مبينة ؟ أليس ذلك برهانًا مبينًا على أن ما نطق به هذا الوليد هو إشارة إلى أنه آية من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته ، تشهد بأنه رسول من الله رب العالمين ، وإذا لم يكن فى هذا النطق آية متحدية يشهدها بنو إسرائيل ، أفلم يكن إحياؤه الموتى وإبراؤه الأكمه والأبرص ، وخلقه من الطين طيرًا - أفلم يكن فى هذه الآيات المتظاهرة ما يقيم لبنى إسرائيل طريقًا إلى الإيمان بهذا الإنسان الذى أجرى الله على يديه تلك المعجزات وإلى أنه رسول الله يحمل إليهم كلمات الله وآياته؟ . وبأى شىء يؤمن الناس إذا لم يؤمنوا بتلك الشموس الطالعة لا يحجبها سحاب أو ضباب، وبأى داعٍ يدعوهم الله سبحانه إليه إن لم يكن فى هذا الداعى مقنعًا لهم ، وهاديًا يهديهم إلى الله !! .

إنه ليس بعد هذا إلا أن يروا الله جهرة ! وقد سأل ذلك بنو إسرائيل من قبل فقالوا لموسى عليه السلام كما حكى القرآن عنهم : ﴿ لن نُؤمنَ لك حتى نرى اللهَ جهرةً ﴾ ألا ما أشد غباء القوم ، وما أقسى قلوبهم ، وما أنكد حظهم من البصيرة والإبصار : ﴿ ومن يردِ اللهُ فتنتَه فلن تَملكَ له من اللهِ شيئًا ﴾ [1] .

إن الله عز وجل قد أيد عيسى عليه السلام بروح منه ، وهدى به طائفة ناصروه وأيدوه وأخلصوا له ، وهم الحواريون .

---

(١) سورة المائدة آية : ٤١ .

وقيل : كانوا اثنى عشر رجلاً وهم [1] : سمعان بطرس ، وأخوه اندراوس ، ويوحنا بن زبدى ، وأخوه يعقوب - وهؤلاء كلهم صيادو سمك - ومتى العشار ، وتوما ، وفيليبس ، وبرثولماوس ، ويعقوب بن حلفى ، ولباوس ، وسمعان القانونى ويهوذا الأسخريوطى .

وقيل : إن الأخير قد نافق ودل بنى إسرائيل وجند الوالى « هيردوس » على مكانه ليقتلوه ، كما أشرنا من قبل .

وقد سمى أصحاب عيسى بالحواريين لأنهم أخلصوا له المودة ، وأصل الحوارى فى اللغة : الأبيض النقى اللون .

وقد كان للحواريين مع عيسى عليه السلام مواقف تشهد لهم بعمق الإيمان وصدق اليقين وحسن التوكل ، والإجمال فى الطلب .

وإن كان هناك من المؤرخين وأصحاب السير من يشكك فى إيمانهم على النحو الذى وصفنا - فيذكر أنهم قد فروا من حوله عندما رأوا جند الوالى يقتحمون عليهم مخبأهم وأسلموه إليهم بفرارهم هذا ، وتركوه يلقى حتفه بمفرده .

ويذكرون أنهم طلبوا منه مائدة من السماء لتكون لهم آية على صدقه فى دعوته، وهو الأمر الذى يدل - فى زعمهم - على ترددهم فى الإيمان .

وقصة المائدة سيأتى ذكرها قريبًا ، حيث نفند فيها هذا الزعم ونبطله بالأدلة القاطعة من وجهة نظرنا .

أما فرارهم يوم الكريهة - يوم أن فاجأهم العدو فى مكمنهم - فقد كان منشأه انفعالٌ سيطر عليهم لم يترك لهم مجالاً للتروى والتريث ، وهو الخوف من الموت ، فالحرص على الحياة أمر جبلّى مفطور عليه كل كائن حى ولا سيما الإنسان .

وإن لم يفروا من وجه أولئك القتلة لكانوا مقصرين فى حق أنفسهم ؛ لأن الموت لاحق بهم لا محالة إن هم ثبتوا فى مواقعهم .

وليس لهم سلاح يدافعون به عن أنفسهم ، بل إن الفرار حينئذ يكون واجبًا عليهم ليحملوا تبعة الدعوة إن قتل نبيهم ، ولنبيهم رب يحميه، ولعله عليه السلام قد أشار عليهم بذلك . والله أعلم .

---

(1) انظر تفسير « التحرير والتنوير » للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ج ٣ ص ٢٥٦ .

• خبر المائدة التى طلبها الحواريون :

فى سورة المائدة أخبرنا الله عز وجل أن الحواريين قد طلبوا من عيسى عليه السلام أن يدعو ربه عز وجل أن ينزل عليهم مائدة من السماء ، يأكلون منها وتطمئن قلوبهم بأن الله يحبهم ويرضى عنهم ، ويزدادوا إيمانًا مع إيمانهم بهذه الآية الخارقة للعادة وليستميلوا بها قلوب قومهم ، فدعا عيسى عليه السلام ربه فاستجاب له ، وأنزل على الحواريين ومَنْ وراءهم مائدة مليئة بأشهى الطعام وأطيبه ، وقد رأوها تنزل من السماء رأى العين ، وأكلوا منها كما قال أكثر المؤرخين .

قال تعالى : ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابنَ مريمَ هل يستطيعُ ربُّك أن يُنزِّلَ علينا مائدةً من السماءِ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريدُ أن نأكلَ منها وتطمئنَّ قلوبُنا ونعلمَ أنْ قد صدقتَنا ونكونَ عليها من الشاهدين . قال عيسى ابنُ مريمَ اللهم ربَّنا أَنزِلْ علينا مائدةً من السماءِ تكونُ لنا عِيدًا لأوَّلِنا وآخرِنا وآيةً منك وارزقنا وأنت خيرُ الرازقين . قال الله إنى مُنَزِّلُها عليكم فمن يكفُرْ بعدُ منكم فإنِّى أُعذِّبُه عذابًا لا أعذِّبُه أحدًا من العالمين ﴾ [1] .

وقد اختلف المفسرون فى مائدة بنى إسرائيل اختلافًا شديدًا ، هل كانوا مؤمنين حقًا ، أم كانوا من الإيمان على شفا جرف ، كما هو الشأن فى بنى إسرائيل بوجه عام؟

فمنهم من قال بأنهم لم يكونوا على درجة مرضية من الإيمان ، وإلا لما طلبوا منه مائدة تنزل عليهم من السماء تكون آية على صدقه فى دعوته ، ليشهدوا له بالنبوة والرسالة وعلو المنزلة عند الله عز وجل .

والأصح الذى لا أشك فى صحته أنهم كانوا على أسمى درجة من درجات الإيمان بالله ورسوله ، وعلى أصدق ما يكون اليقين بقدرة الله تعالى على إنزال ما طلبوه على أحسن ما يكون الإنزال ، فقولهم - كما حكى الله عنهم : ﴿ هل يستطيع

---

(١) سورة المائدة آية : ١١٢ - ١١٥ .

ربك ﴾ ليس للتحدى كما يفهم بعض المفسرين ، وليس هذا القول منهم مبنيًّا على شك فى قدرة الله تعالى ، فالاستفهام فى الآية معناه الاستفسار عن رضا الله عز وجل بإنزال هذه المائدة لو طلبها لهم عيسى عليه السلام ، وهل هم محل لتكريم الله تعالى لهم ، والمعنى : هل يرضى ربك ويقبل أن ينزل علينا مائدة من السماء . وهو طلب غريب لم تجر العادة بوقوعه، وهم إنما طلبوه استطرادًا للمعجزات التى وقعت له وهى أعظم بكثير مما طلبوه ، فماذا لو طلبوا هذا الطلب الغريب هل يقبله الله ، وهل يجيبهم إليه ؟

إنهم لا يشكون فى قدرة الله كما ذكرنا ، ولكنهم يشكون فى أن يستجاب لهم فيما طلبوا ، ومن هنا أخذ هذا الطلب صورة الاستدعاء بالقدرة والاستطاعة ، لا بالإضافة إلى مَنْ طُلب إليه ولكن بالنسبة لَمَنْ طُلب له .

كمن يقول لمن هو أعلى منه منزلة : هل تستطيع أن تعطينى هذا الكتاب الذى معك ؟. إنه لا شك مستطيع ، إذْ لا شىء يمسكه عن ذلك ، ولكن الأمر متروك لتقديره هو ، وهل يرى هذا الشخص مستحقًّا لهذه المكرمة أو غير مستحق لها .

وليس فى قول الحواريين : ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ إنكار لربوبية الله لهم ، ولكنه استصغار لشأنهم وإخفاء لذاتهم ، وهم يطلبون هذا الطلب الذى لا يصح أن يكون طالبه من الله إلا إنسانًا له عنده من المنزلة مثل ما لعيسى عليه السلام ، فهو ربه الذى أفاض عليه هذه المكرمات ، وهو ربه الذى يطلبُ منه هذه المكرمة .

وفى قول عيسى عليه السلام للحواريين : ﴿ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ تأديب لهم ، ودعوة إلى ما هو أولى بالمؤمنين أن يكونوه مع الله ، كما يقول السيد المسيح فى بعض تعاليمه :« لا تجرب الرب إلهك » .. فذلك هو الكمال كله ، والإيمان كله .

ولكن للمؤمنين أنسٌ بالله وطمعٌ كبير فى سحائب رحمته ووافر نعمه ، وذلك هو الذى حملهم على هذا الدلال فى طلب ما لا يطلب الناس عادة ، ولا يطمعون فيه، ولهم فى ذلك أسوة بإبراهيم عليه السلام ، فقد طلب من الله عز وجل أن يريه كيف يحيى الموتى فأجابه مولاه إلى ما طلب .

ولهم فى موسى عليه السلام أيضًا أسوة حسنة فقد طلب أكثر من هذا ، فقال : ﴿ ربِّ أَرِنى أنظرُ إليك ﴾ وموسى يعلم يقينًا أن الله سبحانه وتعالى ليس فى الإمكان أن يُرى ، فكان جواب الحق جل وعلا : ﴿ قال لن ترانى ولكن انظرْ إلى الجبلِ فإن استقرَّ مكانَه فسوف ترانى فلما تجلَّى ربُّه للجبلِ جعله دكًّا وخرَّ موسى صَعِقًا فلما أفاقَ قال سبحانَك تبتُ إليك وأنا أولُ المؤمنين ﴾ [1] .

فمثل هذا الطلب من الحواريين ، لا يدل بحال على ضعف إيمانهم ، أو شك فى الله ، ولكنه طلب المزيد من الإيمان والرضوان من الله ، ولهذا كان جوابهم ما حكى القرآن عنهم : ﴿ نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ﴾ .

فهم يريدون المائدة لأمور ، منها :

أولا : أن يأكلوا منها - فهى فى هذا لا تختلف كثيراً عن المنّ والسَّلْوَى الذى أطعمه الله سبحانه وتعالى آباءهم حين نجّاهم من فرعون على يد موسى ، فلما كفروا بهذه النعم لعنهم الله ، وضرب عليهم الذلة والمسكنة .

وثانيًا : أن تطمئن قلوبهم إلى رحمة الله بهم وألطافه عليهم باستجابة طلبهم ، وفى هذا ما يفتح لهم إلى الله طريقًا يروْن منه إشارات السماء بحواسهم بعد أن أدركوها بعقولهم ، وهذا ما يبعث فى قلوبهم الطمأنينة التى تثبت الإيمان ، فلا يهتز لعارض يعرض له من ريبة أو شك .

وثالثًا : أن يزداد علمهم بصدق عيسى عليه السلام ، وبصدق هذه الآيات التى تجرى على يديه ، فلا يطوف بأنفسهم منها طائف من الشك والوسوسة ، التى كان يثيرها اليهود حولها .

ورابعًا : أن تكون هذه المائدة المنزَّلة من السماء شهادة بين أيديهم فى دعوتهم الناس إلى الإيمان إذ كانوا ممن طعموا منها ، ومثل هذا الطعام السماوى لابد أن يترك

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٤٣ .

آثاراً فيمن طعم منه ، وربما كانت آثاره مادية ومعنوية معًا يراها الناس ظاهرة عليهم ، فيكون منها شهادة للحواريين أنهم ممن لبسوا تلك النعمة الإلهية ، وفى مثل هذا ما يجعل القلوب مطمئنة إليهم وإلى ما يدعون إليه .

ونخلص من هذا إلى أن الحواريين لم يطلبوا هذه المائدة للتحدى ولا لضعف فى إيمانهم ، ولكنهم طلبوها ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ، ويقينًا على يقينهم ، ولينعموا بنعمة سماوية تكون لهم ولقومهم آية تضاف إلى تلك الآيات التى أيد الله بها نبيه من تقديره فى الطين على هيئة طير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله ، وإبرائه الأكمه والأبرص ، وإحيائه الموتى بإذن الله .

وكيف يكون الحواريون أصحاب شك وريبة فى أمر المسيح عليه السلام وقد شهد الله لهم أنهم أنصاره فى قوله جل شأنه : ﴿ فلما أحسَّ عيسى منهم الكفرَ قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنــــصارُ الله ءامنا بالله واشــهدْ بأنَّا مسلمون ﴾[1] ، وفى قوله : ﴿ وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن ءامنوا بى وبرسولى قالوا ءامنا واشْهَدْ بأنَّنا مسلمون ﴾ [2] ، وفى قوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا كونوا أنصارَ الله كما قال عيسى ابنُ مريمَ للحواريين من أنصارى إلى اللهِ قال الحواريون نحن أنصارُ الله ﴾ [3] .

وهذا خبر من الله لم يتبعه بتكذيبهم ، مما يدل على أنهم كذلك ؛ فكل خبر ورد فى القرآن لم يكذبه الله فهو يقره حسب ما ذكره جل شأنه .

وهناك أمر آخر فى شأن تلك المائدة أثار اختلافًا بين المفسرين ، حتى لقد رأى بعضهم أن المائدة لم تنزل ، وأن الحواريين حين سمعوا قول الله تعالى : ﴿ إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين ﴾ قالوا : لا حاجة لنا بها فلم تنزل عليهم !! .

وهذا قول مردود ورأى فاسد ، وذلك لأمرين :

أولهما : أن عيسى عليه السلام ، دعا ربه وضرع إليه أن ينزل هذه المائدة ، كما طلبها الحواريون ولم يكتف بهذا ، بل لقد جعل لطلبها من ثمرات طيبة تجىء معه ،

---

(١) سورة آل عمران آية : ٥٢ . (٢) سورة المائدة آية : ١١١ .

(٣) سورة الصف آية : ١٤ .

كما يقول الله سبحانه وتعالى على لسانه : ﴿ قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ .

أفبعد هذا لا يستجيب الله لعيسى بن مريم ، ولا يحقق له ما دعا به إليه . إن عيسى يقول : ﴿ اللهم ربنا أنزل علينا ﴾ ولم يقل عليهم ، ويقول : ﴿ تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ﴾ ولم يقل : تكون لهم عيداً لأولهم وآخرهم ، وقال : ﴿وارزقنا﴾ ولم يقل : وارزقهم .

فهى عيد وبهجة ومسرة للمسيح عليه السلام ، ولمن يطعم من تلك المائدة من أتباعه . ثم هى آية من آيات الله وشاهد من شواهد قدرته وجلاله ، وهى رزق كريم طيب ، وليست لعنة ولا عقوبة .

وثانيهما : أن الله سبحانه وتعالى استجاب لعيسى ، فقال سبحانه : ﴿ قال الله إنى منزلها عليكم ﴾ ، فالقائل ليس أىَّ قائل ، بل هو الله سبحانه .. ﴿ قال الله﴾.

وأنه سبحانه قد حكم هذا الحكم القاطع المؤكد : ﴿ إنى منزلها عليكم ﴾ ، وذلك التوكيد يرفع أى احتمال للشك عند أقل المؤمنين إيماناً بالله بأن المائدة لم تنزل ، فكيف يقع لعقل عاقل أن كلمة الله لا تنفذ وأن قضاءه لا يمضى .

وقوله تعالى : ﴿ فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ إنما هو حراسة لهذه النعمة العظيمة من أن يعبث بها العابثون أو يلحد بها الملحدون ، إنها شمس طالعة فى وجه صبح مشرق فمن عمى عنها ، ولم يهتد بها - فهو فى حرب سافرة مع الله ، لا جزاء له إلا أن يلقى أشد العذاب !

وليس فى هذا تهديد للحواريين ، ولا وعيد لما سيكون منهم من كفر بهذه الآية، ومكر بها ، بل هو استبعاد لأن يقع شىء من هذا منهم ، وإن جاز أن يقع من غيرهم ، وإنه لو جاز أن يكفر أحد من الحواريين بهذه الآية فإنه سيلقى هذا العذاب، فكيف يكون العذاب لمن كفر من غيرهم ؟. وهذا أسلوب من أساليب القرآن فى مخاطبة من يستبعد منهم فعل منكر ، ليكون ذلك تخويفاً لغيرهم وزجراً لهم عن إتيان هذا الإثم .

يقول تعالى مخاطباً نبيه الكريم : ﴿ لئن أشركتَ لَيَحْبَطَنَّ عملُك ﴾ [1] .

---

(١) سورة الزمر آية : ٦٥ .

ويقول سبحانه وتعالى مشيرًا إليه ﷺ : ﴿ ولو تَقَوَّل علينا بعضَ الأقاويلِ . لأخذْنا منه باليمينِ . ثم لَقَطعْنا منه الوَتِينَ . فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾ (١) .

والنبى الكريم أبعد من أن يطوف به طائف من الشرك ، وأبعد من أن يتقول على الله قولاً ، إن ذلك أمرٌ مستحيلٌ بالنسبة لذاته الكريمة ، ولكن المقام مقام تحريم الشرك والتشنيع عليه ، فناسب أن يبرز فى تلك الصورة المفزعة التى تحبط كل عمل، ولو كان نبيًا كريمًا من أنبياء الله ، ورسولاً مجتبى من رسله .. فكيف غير النبى وغير الرسول ! وكذلك الأمر فى التقوُّل على الله والافتراء عليه .

وفى قوله تعالى على لسان السيد المسيح عليه السلام : ﴿ تكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا ﴾ أى : ينال منها ويسعد بها كل من اتبعه وآمن به واجتمع إليه ، لا الحواريون وحدهم - الذين كان منهم هذا الطلب ابتداءً - فهى رحمة منزلة من السماء ، ونعمة محمولة على جناح الرحمة ، ينال منها كل من صدَّق بصاحب هذه الدعوة ، واتبع سبيله من أقرب المقربين إليه إلى من هم أبعد منهم صلة به .

● تبرؤه يوم القيامة ممن اتخذه وأمه إلهين من دون الله :

ذكرت - فيما سبق - أن الله عز وجل يجمع الرسل يوم القيامة فيسأل كل رسول عما لقى من أمته ، ومنهم عيسى بن مريم - إلا أن الله عز وجل سيُذكِّره بنعمته أولاً ليقيم الحجة على بنى إسرائيل . ثم يسأله عن المقولة التى تفوّه بها بنو إسرائيل بعد موته - وهى قولهم : عيسى ابن الله ، وأمه زوج لله ، ونحو ذلك - سؤال تقرير وإقرار مبالغة فى توبيخ من اتخذه وأمه معبودين من دونه .

فيقول الله عز وجل : ﴿ وإذ قال اللهُ يا عيسى ابنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للناسِ اتخذُونى وأُمِّىَ إلهينِ من دونِ الله قال سبحانَك ما يكونُ لى أن أقولَ ما ليس لى بحقٍّ إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه تعلمُ ما فى نفسى ولا أعلمُ ما فى نفسِك إنك أنت علامُ الغيوبِ . ما قلتُ لهم إلا ما أمرتَنى به أن اعبدوا اللهَ ربِّى وربَّكم وكنتُ عليهم شهيدًا ما دمتُ فيهم فلما تَوَفَّيتَنى كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم وأنتَ على كلِّ شىءٍ شهيدٌ . إنْ تعذِّبْهم فإنهم عبادُك وإن تغفرْ لهم فإنك أنتَ العزيزُ الحكيمُ . قال اللهُ هذا يومُ ينفعُ الصادقين صدقُهم لهم جناتٌ تجرى من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها أبدًا رضِىَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه ذلك الفوزُ العظيمُ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الحاقة آية : ٤٤ - ٤٧ .   (٢) سورة المائدة آية : ١١٦ - ١١٩ .

يسأله الله جل شأنه - وهو العليم الخبير- هذا السؤال : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾ وهو - كما أشرنا - سؤال تقرير معلومٌ جوابُه لكنه لابد منه فى عدالة الحكم ومشروعية الجزاء . فيجيب عيسى بن مريم عن هذا السؤال بالبراهين القاطعة على نفى هذه المقولة ، مصدِّرًا إجابته بكلمة فيها خلاصة التوحيد الخالص ، والتنزيه التام عما لا يليق بذاته فيقول : ﴿ سبحانك ﴾ أى : تنزهت تنزيهًا تامًا ، وتعاليت علواً كبيراً عن كل كلمة فيها شرك ، وعن كل عقيدة فيها زيغ وانحراف عن توحيدك .

وهذه الكلمة كافية فى الجواب ، لكن المقام يقتضى الإطناب فيه للمبالغة فى توبيخ القوم ، وإحراجهم ، وإلزامهم الحجة الدامغة التى بمقتضاها يستحقون العذاب وسوء المصير .

فقال عيسى بن مريم بعد هذه الكلمة مقولة فيها من وجوه النفى ما لا يتسع المقام لذكره . وفحواها أنه قد تبرأ من هذه المقولة بحجة أنه ليس من حقه البتة أن يقول قولاً لا يحق له أن يتفوه به وهو نبى مرسل من قِبَله - جل شأنه - يدعو إلى إفراده بالعبودية والطاعة : ﴿ ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ﴾ .

ثم يدلى بحجة أخرى أقوى منها فيقول - كما حكى القرآن عنه : ﴿ إن كنت قلتُه فقد علمتَه ﴾ أى : إن كنت قلته على سبيل الفرض فإنه لا يخفى عليك فأنت - جل شأنك وعز جاهك - ﴿ تعلم ما فى نفسى ﴾ ما لا أعلمه أنا منها ، ولا أعلم شيئًا عن كنه ذاتك وأسرار صفاتك إلا بقدر ما علمتنى .

فهو عليه السلام ينفى بكل ما وسعه من أدوات النفى أن يكون قد قال للناس هذا القول أو أضمره فى نفسه .

ثم ذكر خلاصة ما قاله لقومه فيقول - كما حكى القرآن عنه- : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ﴾ أى : كنت عند أمرك فيهم فأبلغتهم ما أمرتنى بتبليغه بصدق وأمانة . وكان فى هذا القول عند حدود الأدب إذ لم يقل : « ما أمرتهم إلا بما أمرتنى به » ولكن قال : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به ﴾ ، فالأمر أمره هو - جـــل شأنه - وقد راعى أيضًا ما ورد فى السؤال الذى وجهه الله إليه : ﴿أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾ .

ولقد كان عيسى عليه السلام نعم الشاهد على قومه ، الواقف عند حدوده فى الإدلاء بالشهادة والإتيان بها على وجهها عندما قال : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾ .

ولما أتم شهادته على هذا النحو البليغ ، وقف من قومه موقف المحايد ، وأسلم الأمر فيهم لخالقه ومولاه ، فلم يدفعه الغضب عليهم أن يطلب لهم المزيد والمزيد من العذاب ، ولم يشفع لهم بالعفو والمغفرة ؛ لأنه لم يرَ أنهم أهل لها ، فقال ما حكاه القرآن عنه : ﴿ إن تعذبْهم فإنهم عبادك وإن تغفرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وروى أن أعرابيًا سمع قارئًا يقرأ هذه الآية فأخطأ فى آخرها ؛ فبدلاً من أن يقول : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ قال : « إنك أنت الغفور الرحيم » فقال الأعرابى : هذا والله كلام ما هكذا أنزله الله ؛ لأن آخره يَنْقُضُ أوله . فأعاد القارئ قراءة الآية على وجهها ، فقال الأعرابى : نعم هذا كلام الله ، عَزَّ فحكم ، فإن شاء عفا وغفر .

وبعد هذا الحوار المهيب يُصْدِر الله حكمه بأن هذا اليوم هو يوم الصادقين فى توحيدهم ليس لغيرهم فيه نصيب ؛ فهم أصحاب الجنة ، وهم محل الرضا وأهل المغفرة ، وأصحاب الفوز العظيم دون غيرهم : ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ .

هذا وقد قال بعض العلماء : إن هذا الحوار كان بعد أن رفعه الله إليه فى الدنيا لا فى الآخرة . والأصح أنه فى الآخرة وإن جاء بصيغة الماضى ؛ لأن التعبير بصيغة الماضى عن المستقبل يفيد تحقق الوقوع كما هو معلوم من كتب اللغة ، والدليل على أن هذا الحوار سيكون يوم القيامة قوله تعالى فى نهايته : ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ ، وقوله تعالى فى آية سابقة : ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ وعيسى عليه السلام قد قال مثل ما قالوا فى الجواب عن السؤال : ﴿ تعلم ما فى نفسى ولا أعلم فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ﴾ .

وقوله جل شأنه : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس ﴾ معطوف على قوله : ﴿ إذ قال يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك ﴾ وهى الآية التى تلت قوله : ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ فكيف يدعى بعض المفسرين

- كالطبرى - أن الصواب قول من قال : إن هذا الحوار وقع حين رفعه الله إليه فى الدنيا ! . والله أعلم بالصواب .

• نزول عيسى آخر الزمان :

وردت أحاديث كثيرة تفيد أن عيسى عليه السلام ، سينزل آخر الزمان يحكم بشريعة محمد ﷺ مدة أربعين سنة ، وينشر العدل والسلام بين الناس ، ويضع الجزية ، ويقتل الخنزير ، ويكثر المال فى عهده حتى لا يجد من يأخذه ، ويؤمن به أهل الكتاب جميعًا ، ويقتل المسيح الدجال ، وتحدث فى أيامه عجائب كثيرة .

من هذه الأحاديث ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة خيرًا من الدنيا وما فيها » . ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم : ﴿ وإنْ مِّنْ أهلِ الكتابِ إلا لَيُؤمِنَنَّ به قَبْلَ موتِه ويومَ القيامةِ يكونُ عليهم شهيدًا﴾[1] .

وروى أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « الأنبياء إخوة لعَلات [2] أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإنى أولى الناس بعيسى بن مريم ؛ لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ، وإنه نازلٌ ، فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربوع [3] إلى الحُمْرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران [4] كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، ويُهلك اللهُ فى زمانه المللَ كلها إلا الإسلام ، ويُهلك اللهُ فى زمانه المسيحَ الدجال ، ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم ، فيمكث أربعين سنة، ثم يُتوفَّى ويصلى عليه المسلمون » .

وروى مسلم فى صحيحه حديثًا طويلاً فى كتاب الفتن عن المسيح الدجال ، وعن نزول المسيح عيسى بن مريم ، لا بأس أن نذكره بطوله لعظيم فائدته .

---

(١) سورة النساء آية : ١٥٩ . (٢) أبناء العلات : هم الإخوة لأب .
(٣) وسط بينهما . (٤) ممصران : أى مصبوغان بحمرة خفيفة .

عن النواس بن سمعان قال : ذكر الرسول ﷺ الدجال ذات غداة فخفَّض فيه ورفَّع [١] حتى ظنناه فى طائفة النخل [٢] فلما رحنا إليه ، عرف ذلك فينا ، فقال: « ما شأنكم ، قلنا : يا رسول الله ذكرت لنا الدجال غداة فخفَّضت فيه ورفَّعت حتى ظنناه فى طائفة النخل · فقال : غير الدجال أخوفنى عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ [٣] حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم ، إنه شابٌ قطط [٤] عينه طافئة [٥] كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فيلقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلة [٦] بين الشام والعراق ، فعاث يمينًا وعاث شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا · قلنا : يا رسول الله وما لبثه فى الأرض ؟ قال : أربعون يومًا ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم · قلنا : يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ ، قال : لا، اقدروا له قدره · قلنا : يا رسول الله وما إسراعه فى الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتى على القوم فيدعوهم ؛ فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم [٧] أطول ما كانت ذرًا ، وأسبغه ضروعًا وأمده خواصر ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ؛ فينصرف عنهم فيصبحون مُمْحِلين [٨] ليس بأيديهم شىء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجى كنوزك · فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل[٩] ثم يدعو رجلاً ممتلئًا شباباً ، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض[١٠] ثم يدعوه فيقبل عليه ويتهلل وجهه يضحك ·

---

(١) أى :خفض صوته حينًا ورفعه حينًا ، أو المعنى أنه حقره ورفع من ذكر جرائمه ليحذره الناس ·

(٢) أى : حتى كأننا نراه واحداً بين صفوف النخيل ·

(٣) أى : كل امرئٍ حينئذٍ يجادل عن نفسه ويحميها من شره ·

(٤) أى : جعد الشعر · (٥) أى مرتفعة عن سطح وجهه كأنها حبة عنبة ·

(٦) أى : وسطهما أو قبالتهما · وروى « حلة » وهو موضع ملىء بالصخور ·

(٧) أى : الماشية التى تسرح إلى المرعى ·

(٨) أى : مجدبين · (٩) جمع يعسوب ، وهو ذكر النحل ·

(١٠) أى : أنه يجعل بين الجزلتين مقدار مسافة رمية ·

فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين [١] واضعًا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل [٢] لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ، ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طرفه [٣] فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ [٤] فيقتله ، ثم يأتى عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى إنى قد أخرجت عبادًا لى لا يدان [٥] لأحد بقتالهم فحرِّزْ عبادى إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ، ويُحصر نبىُّ الله عيسى وأصحابُه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب [٦] نبىُّ الله عيسى وأصحابُه، فيرسل الله عليهم النَغَف [٧] فى رقابهم فيصبحون فَرْسى [٨] كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهم [٩] ونتنهم ، فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت [١٠] فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرًا لا تكنُّ [١١] منه بيت مدرٍ ولا وبرٍ [١٢] فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة [١٣] ثم يقال للأرض : أنبتى ثمرتك ، وردِّى

---

(١) أى : فى ثوبين مصبوغين بالزعفران ونحوه .

(٢) أى : لا يمكن ولا يقع . (٣) أى : بقدر مد بصره .

(٤) بضم اللام وتشديد الدال : قرية قريبة من بيت المقدس .

(٥) أى : لا قدرة ولا طاقة . (٦) أى : يدعو ويضرع .

(٧) بفتحتين : دود يكون فى أنوف الإبل والغنم وغيرها .

(٨) أى : هلكى ، جمع فريس ، كقتيل وقتلى .

(٩) الزهم : الجيف المنتنة . قال فى اللسان : الزهومة : ريح لحم سمين منتن .

(١٠) البخت : هى الأبل الخرسانية ، وهو لفظ أعجمى معرب .

(١١) من كننت الشىء إذا سترته وصنته .

(١٢) المدر : الطين اليابس ، والوبر : جلد الإبل ونحوه . يقصد أهل القرى والبوادى.

(١٣) أى : المرآة .

بركتك ، فيؤمئذ تأكل العصابة من الرُّمَّانة ويستظلون بقحفها [1] ، ويبارك فى الرِّسْل[2] حتى أن اللقحةً [3] من الإبل لتكفى الفِآم [4] من الناس ، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس · فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتفيض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة » ·

وبعد فهذه قصة عيسى بن مريم عليه السلام قد أوجزنا القول فيها ، ولو أردنا الإطالة ما وسعتنا مجلدات ، ولكن فيما قلناه كفاية ·

نسأل الله أن ينفعنا بالقرآن العظيم ، وأن يجعله ربيع قلوبنا ، وشفاء صدورنا ، إنه سميع قريب مجيب ·

* * *

(١) أى : بقشرها · (٢) بتشديد وكسر وسكون : أى اللبن ·
(٣) اللحقة : الناقة القريبة العهد بالنتاج · (٤) الفآم : الجماعة ·

قصة القرية التى كانت حاضرة البحر

أهل هذه القرية كانوا ظالمين لأنفسهم ، وكانوا مبعث خزى وعار على ذريتهم من بعدهم ، ومصدر نقمة على من عايشهم وصنع صنيعهم ·

إنهم قوم قد احتالوا على شرع الله ، فأباحوا بالحيلة لأنفسهم ما حرمه الله عليهم ابتلاءً لهم ، فنكل الله بهم فى الدنيا شر تنكيل ، وجعلهم قردة خاسئين ·

وهذه القرية التى كانوا فيها يقال لها « إيلة » على ساحل بحيرة طبرية أو على ساحل البحر الأحمر ما بين مدين والطور ·

وقد جاءت قصتهم فى سورة الأعراف بالتفصيل ، وهى مكية ، لتكون بيانًا لما أجملته سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ ولقد علِمتُم الذين اعتدَوا منكم فى السَّبْتِ فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين · فجعلناها نكالاً لِمَا بين يَدَيْها وما خلفَها وموعظةً للمتقين ﴾ [1] .

وما جاء فى سورة النساء فى قوله : ﴿ ورَفَعْنا فوقَهمُ الطُّورَ بميثاقِهم وقلنا لهم ادخلوا البابَ سُجَّدًا وقلنا لا تَعدُوا فى السبتِ وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا ﴾ [2] .

وسورة البقرة والنساء مدنيتان أشارنا إلى هذه القصة لأن المقام فيهما كان يقتضى هذا الإجمال؛ لأنه مقام تذكير لبنى إسرائيل بنعم الله عليهم ، والمقام فى سورة الأعراف مقام محاجة لليهود فى المدينة على النحو الذى سنذكره بعد سطور ، وقد استغرقت هذه القصة خمس آيات من هذه السورة ، كل آية منها تحمل من المعانى والمقاصد ما لا يستطيع المفسر - مهما أوتى من عقل راجح وعلم غزير - أن يلم بأطرافها ومحتوياتها من العظات والعبر ·

يقول الله عز وجل : ﴿ وَسْئَلْهم عن القريةِ التى كانت حاضرةَ البحرِ إذ يَعْدُون فى السبتِ إذ تأتِيهم حِيتانُهم يوم سبتِهم شُرَّعاً ويوم لا يَسْبتُون لا تأتِيهِم كذلك نَبلُوهم

---

(١) سورة البقرة آية : ٦٥ - ٦٦ · (٢) سورة النساء آية : ١٥٤ ·

بما كانوا يفسُقون . وإذْ قالتْ أُمَّةٌ منهم لِمَ تَعظُون قومًا اللهُ مهلكُهم أو معذِّبُهم عذابًا شديدًا قالوا معذرةً إلى ربِّكم ولعلهم يتَّقُون . فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به أنجينا الذين يَنْهَوْن عن السوءِ وأخذنا الذين ظَلَموا بعذابٍ بَئِيسٍ بما كانوا يفسُقون . فلما عَتَوْا عمَّا نُهوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين . وإذ تأذَّنَ ربُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عليهم إلى يومِ القيامةِ من يَسُومُهُم سُوءَ العَذَابِ إنَّ ربَّكَ لسريعُ العقابِ وإنَّه لغفورٌ رحيمٌ ﴾ [1] .

وقد بدأت القصة بقوله تعالى : ﴿ وسئلهم ﴾ أى : واسأل اليهود عن هذه القرية . فكيف يسألهم وهو بمكة ؟ هل كان اليهود يأتون إلى مكة ويجادلونه فى الدين الذى جاء به من ربه ؟ أم كان التجار من قريش هم السفراء بينه وبينهم ؟

هذا وذاك محتمل ، والثانى أرجح من الأول ، فإن اليهود كانوا يسألون رجال قريش إذا التقوا بهم عن النبى الذى بعث فيهم ، فيخبرونهم عن أقواله وأفعاله وأحواله ونعوته ، فيقولون لهم : إن رجعتم إليه فسألوه عن الروح وعن ذى القرنين وعن أهل الكهف ، وأسألوه متى يشبه الولد أباه ومتى يشبه أمه ، وأسألوه عن كذا وعن كذا .. فإذا سألوه عن شىء أجابهم بما يوحى إليه ربه عز وجل ، فمنهم من يؤمن ومنهم من يكفر .

ولقد كانت الدعوة الإسلامية فى مكة تشير إلى أهل الكتاب بوجه عام وإلى اليهود بوجه خاص إشارات تنبىء أن لهذه الدعوة شأنًا معهم وأن عليهم أن يهيئوا أنفسهم لها إلى أن يأتى بها الداعى إلى عقر دارهم ، فيتحدث إليهم ويتحدثون إليه فى حوار بَنَّاء يتبين به الحق من الباطل .

وفى حديث القرآن عن اليهود وهم بمعزل عن مكة نذير لأهلها إن هم جَرَوْا على سُنة هؤلاء القوم مع رسل الله فآذووا نبيهم كما آذووه ، واحتالوا على شرع الله كما احتال آباء اليهود من أصحاب القرية التى كان أهلها يشتغلون بصيد السمك ، فكانوا يأتون إلى البحر فى أيام الأسبوع سوى يوم السبت فيطرحون شباكهم فلا يخرج فيها من السمك شىء ، فإذا جاء يوم السبت خرجت الحيتان من البحر على وجه الماء

---

(١) سورة النساء آية : ١٦٣ - ١٦٧ .

﴿ شرعًا ﴾ ظاهرة يرونها رأى العين ، وفى ذلك ابتلاء لهم أيما ابتلاء ، وما ابتلاهم الله بهذا إلا لفسقهم وخروجهم عن أحكام التوراة .

والقوم لم يصبروا على هذا الابتلاء طويلاً بل احتالوا على صيد السمك بحيلة حسبوا أنهم لا يخالفون بها شرع الله تعالى - هكذا سول الشيطان لهم - فأخذوا ينصبون شباكهم يوم الجمعة بالليل ليقع فيها السمك نهار السبت حتى إذا كان آخر النهار ومضى يوم السبت أخرجوا شباكهم وقد امتلأت صيدًا .

وأخذ علماؤهم - وكانوا قلة - يعظونهم ويذكرونهم بالله ويخوفونهم عذابه فى الدنيا والآخرة ، ويضربون لهم الأمثال بما وقع للأمم الفاسقة من قبلهم ، ولكنهم قد صموا آذانهم عن سماع هذه المواعظ وتمادوا فى غيهم ، فلام بعض المؤمنين هؤلاء العلماء على استمرارهم فى الوعظ والتذكير ، فاعتذر إليهم العلماء بأن هذا الوعظ والتذكير من واجباتهم التى أوجبها الله عليهم ، فلابد أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر إلى أن يلقوا ربهم .

﴿ قالوا معذرة إلى ربكم ﴾ أى : نفعل هذا معهم حتى نعتذر إليه - جل شأنه- إذا وقفنا بين يديه بأننا ما قصرنا فى تحذيرهم من مغبة ما وقعوا فيه ، وإنذارهم بما يترتب على اعتدائهم فى يوم السبت من النقم والويلات ، وربما يكون هناك أمل فى هدايتهم .

وهذا الموقف من العلماء كان موقفًا جادًا مشرفًا لأنهم فعلوا ما فعلوا لأمرين :

الأول : أن يكون فعلهم هذا حجة عند الله عز وجل ، والأمر الثانى : الطمع فى صرف القوم عن تلك الحيلة التى أملاها عليهم الشيطان فأنساهم بها ذكر الله وأوقعهم فيما لا تحمد عقباه ، فلما أبى القوم إلا كفورًا ، ونسوا ما ذكروا به أو تناسوه ؛ نجى الله من لم يصنع مثل صنيعهم، وأخذهم الله بعذاب غاية فى البؤس والشدة ، ولكن مع هذا قد استمروا فى العتو والتكبر ومخالفة أمر الله تعالى . فمسخهم الله قردة ﴿ خاسئين ﴾ أى : مبعدين عن رحمته كل الإبعاد ، ولقد كان المسخ حقيقة هلكوا بعده بأيام ، وروى عن مجاهد أنه كان مسخًا معنويًا بأن جعل

طباعهم كطبائع القردة ، والأصح أن المسخ على الحقيقة كما يرى جمهور المفسرين .

وبمقتضى هذا الجرم الذى ارتكبه أهل هذه القرية ، والجرائم الأخرى التى ارتكبها آباؤهم وأبناؤهم أعلن ربنا عز وجل إعلانًا لا لبس فيه ولا غموض أنه جل شأنه سيبعث عليهم فى كل زمان من يسومونهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ، لأنهم قوم لا يحبون الخير ولا يعرفون الطريق إليه ، ولا يؤمنون بالله إيمانا خالصًا من الشرك أبدًا ، فإيمانهم ملىء بالشبهات والشهوات ، وقلوبهم زائغة عن الحق لا تهتدى إليه أبدًا مهما جاءهم به الرسل من بينات .

نسأل الله السلامة والعافية من دينهم وديدنهم .

* * *

قصة أصحاب الكهف

أصحاب الكهف فتية أشداء فى أجسامهم ، أقوياء فى إيمانهم ، حكماء فى أقوالهم وأفعالهم ، عظماء فى عزائمهم وهممهم ، أتقياء فى ظواهرهم وبواطنهم جمعهم الإيمان وصهرهم فى بوتقته ، فكانوا كرجل واحد يشعر كل منهم بشعور أخيه ، ويشاركه آلامه وآماله ، ويعيش معه بقلبه وقالبه ، زادهم الله هدى على هدى ، وآتاهم تقواهم ، وثبت قلوبهم على كلمة التوحيد ، وهم فى وسط قوم يعبدون الأصنام ، ويجأرون إليها بالدعاء ويقدمون إليها القرابين ، ولهم ملك ظالم ينكل بكل من خالف عقيدته الباطلة يقال له « دقيانوس » .

وظل هؤلاء الفتية يعبدون الله عز وجل على دين عيسى عليه السلام دون أن يعلم بهم هذا الملك ولا أحد من حاشيته أمدًا من الزمان ، ثم انكشف أمرهم ، فتوعدهم الملك بالرجم حتى الموت إن لم يدينوا بدينه ويعبدوا آلهته ، فكانوا بين أمرين أحلاهما مر ، فهم إما أن يدينوا بدين الملك ، أو يقتلوا فى سبيل عقيدتهم شر قتلة ، فتشاوروا فيما بينهم فأشار عليهم واحد منهم باعتزال القوم ، والفرار إلى كهف يأويهم بحيث لا يعلم أحد مكانهم ، فاتفقوا على ذلك ، وخرجوا يطلبون من الله تبارك وتعالى أن يتغمدهم برحمته ، ويهيئ لهم من أمرهم رشدًا فى الدين والدنيا .

وقد كانوا من كبار القوم ، وقيل كانوا رعاة بدليل استصحابهم الكلب فى إيوائهم إلى الكهف ، واصطحاب الكلب من شأن الرعاة غالبًا .

لقد خرجوا يبتغون النجاة إلى جبل بعيد يلتمسون فيه كهفًا لعلهم كانوا يعرفونه من قبل بدليل قوله تعالى : ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ باعتبار أن (ال) للعهد لا للجنس ، وهو كذلك فيما يبدو لنا .

فلما جاءوا إليه ألقى الله عليهم النوم فناموا ثلاثمائة سنة وتسعًا بالحساب العربى ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، ثم بعثهم الله ، فأرسلوا واحدًا منهم إلى المدينة ؛ ليأتيهم بطعام حلال بما معه من دراهم ، وأوصوه أن يتخفى ولا يخبر أحدًا بمكانهم خوفًا من أن يفتنوا فى دينهم ، فلما أتى المدينة وجد الحال غير الحال -

وجد كل شيء في المدينة قد تغير حتى بدا وكأنه في مدينة غير التي كان يعيش فيها من قبل، وسأل عن أهله وعن أصحابه وعن أناس كان يعرفهم فلم يجد منهم أحدًا ، ورأى كثيرًا من أهل المدينة على مثال فاضل من الزهد والصلاح والتقى ، يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا ، فلما أبصرهم وأبصروه ، وحدثهم وحدثوه عرفوا من حديثه أنه هو ومن معه من الفتيان قد فروا بدينهم من وجه الطاغية « دقيانوس » منذ أكثر من ثلاثمائة سنة ، فحفظهم الله بقدرته بنومة ناموها في الكهف إلى أن تبدل الحال غير الحال وذهب الله بأولئك الذين كانوا يعبدون الأوثان ، وجاء بقوم سلكوا طريق الهدى على دين عيسى عليه السلام ، وأنهم آية من آيات الله الباهرة التي تدعو إلى العجب العجاب .

فاصطحبوه إلى ملكهم « نيذوسيس » فأكبره غاية الإكبار ، وأَجَلَّه غاية الإجلال، وقام معه إلى الغار ليرى بقية إخوانه فيحتفي بهم ويكرمهم ويلتمس البركة عندهم ، فاستبقه الفتى ليستأذن إخوانه في ذلك ، فلما انتهى إليهم وأخبرهم الخبر خافوا على أنفسهم من الغرور ، وخافوا أيضًا أن يفتن بهم الناس فيُطْروهم كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ، فسألوا الله أن يقبض أرواحهم إليه، فاستجاب لهم ، فجاء القوم فوجدوهم في الكهف موتى فتشاوروا في أمرهم، فقال فريق منهم :نبني عليهم بنيانًا ، أي : ضريحًا يزار . وقال الأكثرون : نبني على كهفهم مسجدًا نعبد الله فيه.

فبنوا المسجد وكتبوا عليه رقيمًا ذكروا فيه أسماءهم ، فعرفوا بأصحاب الكهف والرقيم .

وقد اختلف الناس في عددهم والأمد الذي لبثوه في كهفهم ، فبين الله ذلك بيانًا شافيًا في ثماني عشرة آية من سورة الكهف .

وذكر الله في هذه الآيات أهم الجوانب المشرقة في قصتهم دون أن يذكر الزمان الذي عاشوا فيه ، والمدينة التي كانوا يقيمون بها ، والكهف الذي لبثوا فيه ؛ لأن هذه الأمور لا يتعلق بذكرها فائدة .

ونحن بعون الله - تبارك وتعالى - سنستعرض هذه الآيات التي تحدثت عن قصتهم ، ونذكر بإيجاز ما تضمنته من العظات والعبر .

---

(١) سورة الكهف آية : ٩ - ١٢ .

• مطلع القصة :

أجمل الله القصة فى أربع آيات ، أشارت كل آية منها إلى جانب من جوانبها أو مشهد من مشاهدها ، قال تعالى : ﴿ أم حَسِبْتَ أنَّ أصحابَ الكهفِ والرَّقيمِ كانوا من آياتنا عَجَبًا · إذ أوَى الفِتْيَةُ إلى الكهفِ فقالوا ربَّنا آتنا من لدنك رحمةً وهيِّيء لنا من أمرنا رَشَدًا · فضربْنا على آذانهم فى الكهفِ سنينَ عَدَدًا · ثم بعثْناهم لنعلَمَ أىُّ الحزبَيْنَ أحصَى لِمَا لَبِثوا أمدًا ﴾ (١) .

فالآية الأولى ترينا أن قصة أصحاب الكهف كانت آية من الآيات التى تثير العجب فى نفوس المؤمنين وعلى رأسهم محمد ﷺ ، فقد سمع بهذه القصة من أفواه بعض المشركين الذين التقوا بأحبار اليهود ورهبان النصارى ، فأعجب بها أيما أعجاب على رغم ما صحبها من جهالات ، وما اعتراها من تشويه ·

فقال الله له : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبًا ﴾ أى : بل ظننت أن أمرهم كان هو العجب الذى ليس بعده عجب ، وأنت تعلم أن أمر الله فى خلقه كله عجب · إن أمر أصحاب الكهف فى جانب آيات الله قطرة فى بحر أو ذرة فى صخر ، وهذا تمهيد للقصة كلها فى إجمالها وتفصيلها ·

والآية الثانية تخبرنا أنهم فتية فى ريعان الشباب وفى مقتبل العمر عرفوا الله فآمنوا به ، وخصوه بالعبادة وأخلصوا له الطاعة ، فاعتزلوا قومهم وكانوا من عباد الأوثان ، وآووا إلى كهف فى جبل بعيد بحيث لا يعلم بهم أحد وهم يضرعون إلى الله بدعوة جامعة لخيرى الدنيا والآخرة ·

والآية الثالثة : تشير إلى مشهد عجيب خاشع يملأ القلوب مهابة وخشية حيث أخبرنا الحق جل شأنه أنه ضرب على آذانهم فى الكهف سنين عددًا ، بمعنى أنه جل شأنه جعلهم فى حكم الموتى وليسوا بموتى على الحقيقة ، إذ حجب عن آذانهم الأصوات التى تكون سببًا فى إيقاظهم من سباتهم العميق ، فآذانهم سليمة لكنها معطلة عن السمع إلى حين ، ولم يكونوا « كالعزير » الذى أماته الله مائة عام ؛ فقد صرح الله بإماتته بخلاف هؤلاء الفتية فإنه جل شأنه قد أثقل نومهم وأخبرنا أنه كان يقلبهم وهم فى كهفهم ذات اليمين وذات الشمال ، ويحجب عنهم وهج الشمس لتظل أجسامهم محتفظة بأسباب الحياة ·

---

(١) سورة الكهف آية : ٩ - ١٢ ·

والآية الرابعة : توجز لنا المشهد الأخير من هذه القصة ، وهو بعثهم بعد نومهم الطويل ، ليعلم من كان يجادل فى أمرهم أن الحق ما أتى به القرآن ، لا ما جاء به أحبار اليهود ورهبان النصارى .

فقد اختلف أحبار اليهود ورهبان النصارى فى أمرهم اختلافًا كثيرًا ، فليعلموا الآن من القرآن - الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - أن الحق هو الذى جاء به ونَصَّ عليه .

والحزبان اللذان وقع بينهما الجدل فى شأن أصحاب الكهف هم أحبار اليهود ورهبان النصارى ، فقد اختلفوا فى عددهم ومدة لبثهم فى الكهف وغير ذلك ، لهذا جاءت الآية الخامسة تقطع الطريق على جميع المجادلين فى شأنهم ﴿ نحن نَقُصُّ عليك نبأهم بالحقِّ إنهم فتيةٌ آمَنوا بربِّهم وزدْنَاهم هُدًى ﴾ [1] .

وهذه الآية تمهيد لتفصيل القصة فى مشاهدها الأربعة .

• المشهد الأول :

لقد أفادت الآية الخامسة أن هؤلاء الفتية قد عرفوا الله بعقولهم السليمة ، فرجعوا إليه بفطرتهم ، وآمنوا به بقلوبهم وألسنتهم ، فزادهم الله هدى وآتاهم تقواهم .

وجاءت الآية السادسة والسابعة والثامنة تبسط ما قاله أولئك الفتية فى شأن الله عز وجل بألسنتهم ، ترجمة عما يجيش فى قلوبهم ، وتعرض حجتهم على قومهم ، وتبين ما استقر عليه عزمهم فى الاحتفاظ بسلامة معتقدهم ، ووقاية أنفسهم من أذى قومهم ، بعد أن علموا أنهم يدبرون لقتلهم أو ردِّهم عن دينهم .

قال تعالى : ﴿ وربطْنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السموات والأرضِ لن ندعُوَاْ من دونه إلهًا لقد قلنا إذًا شَطَطًا . هؤلاء قومُنا اتَّخذُوا من دونه آلهةً لولا يأتون عليهم بسلطانٍ بيِّنٍ فمن أظلمُ ممن افترى على اللهِ كَذِبًا . وإذا اعتزلتُموهم وما

---

(١) سورة الكهف آية : ١٣ .

يعبُدُون إلا اللهَ فَأْوُوا إلى الكهفِ يَنشرْ لكم ربُّكم من رحمتِهِ ويُهَيِّءُ لكم من أمركم مِرْفَقًا ﴾ (١) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ : ألهمناها الصبر وثبتناها حين قاموا عند ملكهم الجبار « دقيانوس » فجهروا بعقيدتهم ولم يخشوا بأسه ، فقالوا : ربنا رب السموات والأرض لن نعبد غيره ولن ندين لأحد سواه ، ولو قلنا غير ذلك لظلمنا أنفسنا وافترينا على الله كذبًا . فأنذرهم الملك مدة يراجعون فيها أنفسهم فتشاوروا فيما بينهم وقالوا : هؤلاء قومنا قد سلكوا فى الكفر مسالك شتى ، وعبدوا أوثانًا لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تبصر ، هلا جاءوا على تأليهها بسلطان بين ، - أى : بحجة ظاهرة - فليس هناك فى الوجود أظلم ممن اختلق على الله الأقاويل ، وظن أن العبادة لا تصل إليه إلا بالوسائط .

فقرروا بعد أخذ ورد أن يعتزلوا القوم وما يعبدون من دون الله ، فقال قائل منهم : وإذ اعتزلتموهم فى المعتقد فاعتزلوهم بأجسامكم فأووا إلى الكهف الذى تعرفونه - أو الذى من شأنه أن يأوى إليه الغرباء - ينشر لكم ربكم من سحائب رحمته ما تطيب به حياتكم بعيدًا عن الكفر وأهله ، ويهيئ لكم من أمركم ما ينفعكم ويرفق بكم .

وهو كلام لا يصدر إلا من حكيم ، والفتية كلهم حكماء في اختيار العزلة على البقاء وسط قوم قد تصيبهم قارعة أو تحل قريبًا من دارهم ، والبلاء إذا نزل عَمَّ .

وقد وضع الله لمسة حانية وشهادة قيمة لهؤلاء الفتية بين قول من أشار إليهم بالعزلة ، وهى فيما يشير إليها قوله جل شأنه : ﴿ وما يعبدون إلا الله ﴾ أى : قالوا ما قالوا ، وفعلوا ما فعلوا وتوحيد الله ديدنهم ، فهم فى ذكر دائم لا يغفلون عن الله ولا يعتمدون على أحد سواه ، وللقرآن الكريم لمسات مشرقة ، ولطائف كامنة فى الجمل المعترضة يبصرها أولو البصائر والنُّهى .

• المشهد الثانى :

ويأتى المشهد الثانى وهم فى الكهف نائمون ، والشمس لها معهم شأن عجيب وحالهم وهم رقود وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد منظر مخيف مرعب ، ويد القدرة

(١) سورة الكهف آية : ١٤ - ١٦ .

تقلب أجسامهم ذات اليمن وذات الشمال ، يقول الله عز وجل فى تصوير هذا المشهد المهيب : ﴿ وترى الشمسَ إذا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عن كهفِهِم ذاتَ اليمينِ وإذا غَرَبَتْ تَقرِضُهُم ذات الشمالِ وهم فى فَجوةٍ منه ذلك من آياتِ الله من يَهد اللهُ فهو المُهتدِ ومن يُضلِلْ فلن تجدَ له وليًّا مرشدًا · وتحسبُهُم أيقاظًا وهم رُقُودٌ ونُقَلِّبُهُم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ وكلبُهم باسطٌ ذراعَيه بالوَصيدِ لو اطَّلَعتَ عليهم لوَلَّيتَ منهم فِرارًا ولَمُلِئتَ منهم رُعْبًا ﴾ (١) .

والمخاطب بقوله : ﴿ وترى الشمس ﴾ هو الرسول ﷺ بالأصالة ، ولكل من له نظر ثاقب من أمته بالتبعية ·

ومعنى : ﴿ تزاور ﴾ بتخفيف الزاى أو تشديدها – كما فى قراءة سبعية – : تميل ، ومعنى : ﴿ تقرضهم ﴾ تنصرف عنهم ، فلا يؤذيهم وهجها فى أول النهار ولا فى آخره ·

وإسناد الميل والانصراف إلى الشمس صورة من صور البلاغة لها جلالها فى إحياء هذا المشهد فى النفوس المؤمنة ، فها هى الشمس تطلع على الكهف فتميل عنه ذات اليمين ، وتغرب فتنصرف عنه ذات الشمال ، كأن لها إرادة فى ذلك مع أنها مسخرة من الله عز وجل مأمورة بذلك ، لتكون آية من آيات الله فى ضمير كل مؤمن، وليعلم أولياء الله وأصفياؤه أن الله لن يتخلى عنهم أبدًا وأنه جل شأنه يتصرف فى هذا الكون كيف يشاء ، فالشمس آية من آيات الله يميلها عن الكهف فى الصباح وفى المساء ، دون أو يتغير مجراها أو يختل سيرها ، أو ينشئ عن ميلها وانحرافها هذا ما يضر بالإنسان أو الحيوان ·

وبعض المفسرين يخضعون هذه الظاهرة إلى جغرافية الكهف من حيث مقابلته للشمس ، بمعنى أنه فى وضع إذا طلعت عليه الشمس مالت عنه جهة اليمين ، وإذا غربت حادت عنه جهة الشمال وهم فى فجوة منه لا يلحقهم شعاعها ، قالوا هذا وغفلوا عن قوله جل شأنه : ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ فأى آية إن كان الكهف فى وضع طبيعى لا يسمح بدخول الشمس عليهم لا فى أول النهار ولا فى آخره !

---

(١) سورة الكهف آية : ١٧ – ١٨ ·

ولكن لا يهتدى لآيات الله ويتعظ بها إلا من أراد الله له الهدى ، ومن يضلله فلن تجد له من يتولاه بعنايته ويرشده إلى ما فيه سعادته ·

ثم يمضى السياق فى تكملة هذا المشهد العجيب بعد أن خاطب اللهُ رسولهَ وكلَّ من له تأمل ونظر خطابًا يوجهه فيه إلى صنعه تعالى فى الشمس مع الكهف - أخذ يوجهه إلى صنعه مع أصحاب الكهف ، فقال جل شأنه : ﴿ وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود ﴾ بمعنى أن عيونهم مفتوحة ، إذا رآهم الرائى ظنهم أيقاظًا هاجعين على ظهورهم فى استرخاء تام من أجل أخذ قسط من الراحة ، والحال أنهم رقود ، نعم هم رقود وليسوا أمواتًا ، وإلا ما كانت عيونهم مفتوحة ·

وكيف يكونون أمواتًا والله يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، لتظل أجسامهم محتفظة بحيويتها وكامل قوتها العصبية ·

ولأول مرة يذكر الله عز وجل أنهم خرجوا ومعهم كلب يتبعهم ، وها هو باسط ذراعيه بباب الكهف قريبًا من فنائه - كما هو الشأن فى الكلاب - ولا ندرى هل نام الكلب نومة طويلة بمقدار الوقت الذى ناموه ثم بعث معهم ، أم ظل على هيئته حتى مات ، لقد طوى الله عنا ذلك لأن أمره لا يعنينا فى هذا المشهد ، ولكنه يعنينا أمره فى الرد على من اختلف فى عددهم - كما سنعرف فيما بعد ·

وقد ختم الله هذا المشهد المهيب بتصوير للحالة التى كانوا عليها فقال جل شأنه : ﴿ لو اطلعت عليهم لوليتَ منهم فرارًا لملئت منهم رُعبًا ﴾ إنه منظر لا يستطيع المرء أن يقف أمامه هنيهة حتى يجد ساقيه منطلقة تسابق الريح فزعًا ورعبًا ، وذلك من تدبير الله عز وجل كى لا يعبث بهم عابث ، ولا يخبر عن مكانهم أحد ، ولا يفكر فى الرجوع إليهم من رآهم مرة أخرى أبدًا ·

• المشهد الثالث :

ويبدأ المشهد الثالث حيث ينتهى المشهد الثانى ، وبين المشهدين عدد كبير من السنين ، فترى فى هذا المشهد من العجب ما لا يقل عما رأيته فى المشهد الثانى ·

قال تعالى : ﴿ وكذلك بعثْنَاهم ليَتَساءَلُوا بينهم قال قائلٌ منهم كم لَبِثْتُم قالوا لَبِثْنا يومًا أو بعضَ يومٍ قالوا ربُّكم أعلمُ بما لَبِثْتُم فابعثُوا أحدكم بورَقِكم هذه إلى المدينة فلينظرْ أيُّها أزكى طعامًا فليأتكم برزقٍ منه وليَتَلَطَّفْ ولا يُشْعِرَنَّ بكم أحدًا إنهم إن يظْهَرُوا عليكم يَرجُمُوكم أو يُعيدُوكم فى مِلَّتِهم ولن تُفلحوا إذًا أبدًا ﴾ [1] .

فهذا المشهد آية أخرى تشبه الآية التى قبلها ، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وكذلك ﴾ أى : مثلما أنمناهم وحفظنا أجسامهم من البلى والتحلل بعثناهم من نومهم ليصير حالهم بعد الاستيقاظ إلى ما كانوا عليه من قبل ، فيسأل بعضهم بعضًا عن مدة لبثهم فلا يعرف واحد منهم كم لبثوا ، ربما يكون يومًا وربما يكون بعض يوم، ولم يستمر حوارهم عن المدة التى لبثوها طويلاً ؛ لأنهم رأوا أن الحوار فى مثل هذا الأمر لا يترتب عليه حصول فائدة تذكر ، فقال بعضهم لبعض : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بما معكم من الفضة ليأتيكم بأحل طعام وأطيبه ، وليتخفّ عن القوم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولا يُشعرنَّ أحدًا منهم بمكانكم ؛ لأنهم لو عرفوا مكانكم أنزلوا بكم العذاب ، وقتلوكم رجمًا بالحجارة ، أو أعادوكم فى ملتهم كرهًا، ولن تفلحوا إذًا أبدًا فى الدنيا ولا فى الآخرة لو عدتم إلى ملتهم .

وهكذا نشهد الفتية يتناجون فيما بينهم وهم على مثل ما كانوا عليه من الإيمان بالله وحسن التوكل عليه والثقة بفضله ، يسأل بعضهم بعضًا : كم لبثتم ؟ ثم يتركون الجدل فى ذلك كما هو شأن المؤمنين فى الإعراض عن اللغو - وهو القول الذى لا ينفع ولا يضر - وهم لا يدرون أن الأعوام قد مرت ، وأن عجلة الزمان قد دارت ، وأن أجيالاً قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التى يعرفونها قد تغيرت معالمها ، وأن المتسلطين الذين يخشونهم على عقيدتهم قد دالت دولتهم، وأن قصة الفتية الذين فروا بدينهم فى عهد الملك الظالم قد تناقلها الخلف عن السلف ، وأن الأقاويل حولهم متعارضة حول عقيدتهم ، وحول الفترة التى مضت منذ اختفائهم .

---

(١) سورة الكهف آية : ١٩ - ٢٠ .

• **المشهد الرابع :**

وهنا يطوى خبرهم وهم فى الكهف ينتظرون صاحبهم الذى أرسلوه إلى المدينة ليأتيهم بأزكى طعام – ليبدأ مشهد آخر يتبين لنا فيه موقف أهل المدينة منهم حين علموا بهم ، وتنازعهم فى أمرهم بعد موتهم ، واختلاف من بعدهم فى عددهم وإحقاق الحق فى ذلك العدد ، ونهىُ النبى ﷺ عن مجادلة اليهود فى شأنهم ، وعتابه على قوله لمن جاء يسأله عنهم : غدًا أخبركم · دون أن يقول إن شاء الله ·

قال تعالى : ﴿ وكذلك أعْثَرْنا عليهم ليعلَمُوا أنَّ وعدَ الله حقٌّ وأن الساعةَ لا ريبَ فيها إذ يتنازَعُون بينهم أمرَهم فقالوا ابنوا عليهم بُنيَانًا ربُّهم أعلمُ بهم قال الذين غَلَبُوا على أمرِهم لنَتَخِذَنَّ عليهم مَسجِدًا · سيقولون ثلاثةٌ رابعُهم كلبُهم ويقولون خمسةٌ سادسهمُ كلبُهم رجمًا بالغيب ويقولون سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم قل ربِّى أعلمُ بِعِدَّتِهم ما يَعلَمُهم إلا قليلٌ فلا تُمَارِ فيهم إلا مِراءً ظاهرًا ولا تَستَفْتِ فيهم منهم أحدًا · ولا تَقُولَنَّ لشىءٍ إنى فاعلٌ ذلك غدًا · إلا أن يشاءَ اللهُ واذكُرْ ربَّك إذا نَسيتَ وقل عسى أن يَهدِيَنِ ربِّى لأقربَ من هذا رَشَدًا · ولَبِثُوا فى كهفِهِم ثلاثَ مِائَة سنينَ وازدادُوا تِسعًا · قل اللهُ أعلمُ بما لَبِثُوا له غيبُ السمواتِ والأرضِ أَبصِرْ به وأَسْمِعْ مالهم من دونِه من ولِىٍّ ولا يُشرِكُ فى حُكمِهِ أحدًا ﴾ [1] .

وهذا المشهد يتضمن من القواعد الإيمانية والصور الباهرة التى تدل على أن الأمر كله لله ، والتوفيق كله لمن آمن به واتبع هداه ، والحق كل الحق هو ما جاء به الرسول ﷺ ·

لقد كان بعثهم بعد رقدتهم الطويلة عبرةً فى دلالتها على البعث ، منتزعةً من الواقع المُحَسّ بالمشاهدة ، ليعلم من كان أهلاً للعلم أن وعد الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فى إتيانها ·

---

(١) سورة الكهف آية : ٢١ – ٢٦ ·

وفى تنازع القوم على تكريم هؤلاء الفتية بعد موتهم ما يفيد أن تكريم الصالحين لا يكون ببناء الأضرحة على قبورهم ، ولا يكون باتخاذ المساجد ، ولكن يكون باقتفاء آثارهم والاقتداء بهم ، بدليل أن الله عز وجل سمى تشاورهم فى الأمر تنازعًا ، والتنازع لا يأتى بخير ، وبين لنا فى تضاعيف هذه الآية أن هناك غالبًا ومغلوبًا ، وأن الذين أشاروا باتخاذ المسجد هم أصحاب القوة والسلطان ، كما يشعر به قوله تعالى : ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم ﴾ ولو أنصفوا ما تنازعوا فيما بينهم ، وما أشار المغلوبون ببناء البنيان فوق قبورهم ، ولا فرض الغالبون رأيهم بالقوة فى اتخاذ المسجد .

وربما يكون هذا جائزًا فى شريعتهم ، لكن هذا يأباه قوله ﷺ : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » (١) .

وقد كشف الله عز وجل عن عدد هؤلاء الفتية على وجه تطمئن النفس إليه وبأسلوب واضح مشرق لا خفاء فيه ، حيث أخبر جل شأنه عن أقوالهم المتضاربة فضرب على القولين الأولين بقوله : ﴿ رجمًا بالغيب ﴾ أى : قولاً مُلقىً على مسامع الناس بلا علم تهجمًا على الغيب الذى اختص الله بعلمه ، وذكر سبحانه القول الثالث من غير تعليق ، ومعنى ذلك أنه يقره ، وكل خبر فى القرآن ليس فيه ما ينفيه فهو سبحانه يقره - كما ذكر الشاطبى فى الموافقات - ثم إن فى عطف الكلب على عدد الفتية « بالواو » يدل على أدب قرآنى كان ينبغى على العادِّين أن يسلكوه فى عدهم لهؤلاء الفتية ، بحيث يفصلون بينهم وبين كلبهم بحرف يدل على المغايرة كالواو ، لكنهم لم يفعلوا ، بل درجوا الكلب مع الفتية من غير عطف وجعلوه واحدًا منهم مكملاً لعددهم ، وما هكذا يكون التعبير لو كانوا يعلمون ، والعبرة فى أمرهم حاصلة بالقليل وبالكثير لذلك يوجه القرآن الرسول ﷺ إلى ترك الجدل فى هذه القضية ، وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين فى شأنهم تمشيًا مع منهج

---

(١) رواه البخارى فى كتاب « الجنائز » ومسلم فى كتاب « المساجد » .

الإسلام فى صيانة الطاقة العقلية أن تبدد فى غير ما يفيد ، وفى ألاَّ يَقْفُوَ المسلم ما ليس له به علم وثيق ·

وهذا الحادث الذى طواه الزمن هو من الغيب الموكول إلى علم الله ، فليُتْرَكْ إلى علم الله ·

وبمناسبة النهى عن الجدل فى غيب الماضى يرد النهى عن الحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه ، فالإنسان لا يدرى ما يكون فى المستقبل حتى يقطع برأى فيه ، لذلك نهى الله نبيه ﷺ أن يقول لمن سأله عن أصحاب الكهف : سأخبركم عنهم غدًا · دون أن يقول إن شاء الله ، فإن غدًا بظهر الغيب ، وسُجف الغيب مُسْبَلٌ يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة ·

﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدًا · إلا أن يشاء الله واذكر ربَّك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقربَ من هذا رَشَدًا ﴾ ·

والمعنى : لا تقولن لأى شىء تريد أن تفعله أو تخبر عنه : إنى فاعل ذلك غدًا أو بعد غد أو بعد كذا وكذا من الأيام أو الشهور أو السنين ، إلا أن تقول : إن شاء الله ، فإن نسيت فلا جناح عليك ، واذكر ربك إذا ذكرت أنك لم تقل إن شاء الله ، وقل بقلبك ولسانك : عسى أن يهدينى ربى إلى ما هو أقرب رشدًا ، وأعظم أثرًا ، وأبلغ عبرة من أصحاب الكهف ، وكم لله فى خلقه من شئون وشئون غاية فى العجب ·

ثم أخبرنا الله عز وجل عن مدة لبثهم فى الكهف ، وهو أمر يُظَنُّ بادىَ الرأى أنه غير مهم ، وأنه يكفى أن نعلم أنهم لبثوا مدة طويلة - وليكن ثلاثمائة سنة ، ولكن لماذا حدد الله هذا المدة بدقة بالغة فقال : ﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا ﴾ ، لماذا ازدادوا تسعًا ؟ ·

أقول : ليعلم أهل الكتاب أن محمدًا ﷺ يتلقى الوحى من ربه حقًا وصدقًا، فمن أين علم أن أصحاب الكهف قد لبثوا مدة لا تختلف عن المدة التى

ذكرت فى كتبهم وفق حسابهم ، فلما ذكرها سبحانه فى القرآن - والقرآن عربى - أضاف الفرق بين الحسابين ، وهو السنوات التسع .

ولا شك عندى أن هذه معجزة علمية خص الله بها هذا النبى الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ولم يدرس علم الحساب ولا الفلك ، من أين جاء له أن كل ثلثمائة سنة تزداد تسع سنين ؟ ، وبعبارة أخرى : من أين عرف أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية ، وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يومًا ؟ . من أين علم بذلك ؟ ولذا عبر الله بلفظ ﴿ وازدادوا ﴾ ليفصل بين الزيادة فى القمرية عنه فى الشمسية .

وبعد . فهذا هو فصل الخطاب فى قصة أصحاب الكهف يقرره عالِم غيب السموات والأرض . ما أبصره ، وما أسمعه ! سبحانه لا جدال بعد هذا ولا مراء .

ويختم الله هذه القصة ببيان مقاصدها وغاياتها ويكشف عن مواطن العبرة فيها بقوله جل شأنه : ﴿ له غيبُ السماواتِ والأرضِ أَبصِرْ به وأَسمِعْ ما لهم من دونه من وليٍّ ولا يُشركُ فى حكمِه أحدًا ﴾ .

*   *   *

قصة المؤمن وصاحب الجنتين

فى سورة الكهف قصة رجلين ، أحدهما كافر بالله قد آتاه الله مالاً ففرح به وطغى واستكبر ؛ فكان عاقبة أمره خسراً ، والآخر مؤمن بالله ، زاهد فى الدنيا ، راغب فى الآخرة ، قد جمع الله له شمله وجعل غناه فى قلبه ، بذل ما فى وسعه فى دعوة صاحبه إلى الإيمان فأبى عليه واستعصى ، فحذَّره مغَّبة كفره ، وعاقبة أمره، ثم انصرف عنه وتركه يواجه مصيره بنفسه .

وقد جاءت قصتهما فى ثلاث عشرة آية من هذه السورة ، وذلك من الآية الثانية والثلاثين إلى الآية الرابعة والأربعين .

قال تعالى : ﴿ واضرِبْ لهم مثلاً رجلينِ جعلْنا لأحدِهما جنتينِ من أعنابٍ وحفَفْناهما بنخلٍ وجعلْنا بينَهما زرعًا . كلتا الجنتين آتَتْ أكُلَها ولم تَظلِمْ منه شيئًا وفَجَّرْنا خلالهما نهرًا . وكان له ثمرٌ فقال لصاحبِه وهو يُحاوِرُه أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُّ نَفَرًا . ودخلَ جنَّتَه وهو ظالمٌ لنفسه قال ما أظنُّ أنْ تَبِيدَ هذه أبدًا . وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ولئن رُدِدتُ إلى ربِّى لأَجِدَنَّ خيرًا منها مُنقَلَبًا . قال له صاحبُه وهو يُحاوِرُه أكفرْتَ بالذى خَلَقَك من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سوَّاك رجلاً . لكنَّا هو اللهُ ربِّى ولا أشركُ بربِّى أحدًا . ولولا إذ دخلتَ جنتَك قلتَ ما شاءَ اللهُ لا قوةَ إلا باللهِ إن تَرَنِ أنا أقلَّ منك مالاً وولدًا . فعسى ربِّى أن يُؤتِيَنِ خيرًا من جنتِك ويُرسِلَ عليها حُسبَانًا من السماءِ فتُصبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أو يُصبِحُ ماؤها غَوْرًا فلن تستطيعَ له طَلَبًا . وأُحِيطَ بثمرِه فأصبحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْه على ما أنفقَ فيها وهى خاويةٌ على عُرُوشِها ويقول ياليتنى لم أُشرِكْ بربِّى أحدًا . ولم تــكن له فِئَةٌ يَنصُرُونَه من دونِ اللهِ وما كان مُنتَصِرًا . هنالِكَ الولايةُ للهِ الحقِّ هو خيرٌ ثوابًا وخيرٌ عُقْبًا ﴾ (١) .

---

(١) سورة الكهف آية : ٣٢ - ٤٤ .

وهذا المثل الذى ضربه الله فى هذه الآيات درس من دروس العقيدة والسلوك الإنسانى بصورتيه : المعتدلة والمنحرفة ، وتقرير دقيق للقيم العامة فى ظل العقيدة الإسلامية الخالصة .

فهذان الرجلان - كما يتضح لنا من خلال الآيات - أحدهما : يعتز بماله وجاهه وكثرة أعوانه ، ويعتز بقوته وسلطانه ، وينكر البعث والنشور ، ويكفر بالذى خلقه من العدم ، ورباه على موائد الجود والكرم ، وقد أمهله ليتذكر أو يخشى فتمادى فى ضلاله وكبريائه ، وغروره وسخريته ، واستهزائه بالفقراء من المؤمنين .

والآخر : معتز بالله تعالى متمسك بعقيدته يطمع فى رحمة ربه وثوابه ، ويسارع فى مرضاته ، ويؤدى ما عليه من واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيعظ هذا الكافر موعظة بليغة ، ويُذكِّره بمبدأ خلقه ، ويوبخه على كفره بخالقه ، ويحذره عاقبة أمره فى الدنيا والآخرة ، ويحاوره محاورة هادئة هادفة ، ولا يجادله ليغلبه بالحجة أو بغير حجة .

والمثل مضروب لأهل مكة بوجه خاص ، ولمن هو على شاكلتهم بوجه عام ، فقد كان أهل مكة يفتخرون على المؤمنين بكثرة أموالهم وأولادهم ، ويَدَّعون أنهم لا يعذبون فى الآخرة - إن كان هناك فى نظرهم آخرة - ويزعمون أن الله لم يعطهم المال والولد إلا لأنه يحبهم ، فلو رجعوا إليه لزادهم من النعيم فوق ما كان لهم فى الدنيا ،قال تعالى : ﴿ وقالوا نحن أكثرُ أموالاً وأولادًا وما نحن بمُعَذَّبين ﴾ [(١)] .

وكانوا يحتقرون الضعفاء والفقراء من المؤمنين ، ويستكبرون أن يجلسوا معهم، وقد طلبوا من النبى ﷺ أن يجعل لهم يومًا ولهؤلاء الفقراء يومًا ، لكن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع هؤلاء المخلصين له فى سرهم وعلانيتهم .

قال تعالى : ﴿ واصبرْ نفسَك مع الذين يَدْعُونَ ربَّهم بالغداةِ والعَشِيِّ يريدُون وجهَهُ ولا تَعْدُ عيناك عنهم تُرِيدُ زينةَ الحياةِ الدنيا ولا تُطِعْ من أغفلْنا قلبَهُ عن ذِكرِنا واتَّبَعَ هواه وكان أمرُهُ فُرُطًا ﴾ [(٢)] .

---

(١) سورة سبأ آية : ٣٥ . (٢) سورة الكهف آية : ٢٨ .

والرجلان اللذان تعرضهما الآيات يقف كل منهما فى الجانب الذى اختاره وحرص عليه واعتز به ، والقرآن لم يحدد اسميهما ولا مكانهما ولا زمانهما ؛ لأنه لا يتعلق بذكر ذلك فائدة .

قد وهب الله أحدهما جنتين من أعناب ، محفوفتين بسياج من النخيل تتوسطهما الزروع والثمار ، ويتفجر من خلالهما نهر يجرى بينهما فى منظر بهيج ، وحيوية دافقة تسحر العيون وتأخذ بالألباب ، وهاتان الجنتان أُكُلُها يأتى فى حينه كاملاً غير منقوص ، يبهر صاحبه ويفرحه ، ويجعله يزهو به على غيره استدراجًا من الله له وفتنة ؛ لأنه سعى إلى الضلال ولم يسع إلى الهدى ، مع أن له صاحبًا كان يدعوه إلى الهدى ليلاً ونهارًا ، فلم يزده دعاؤه إلا فرارًا واستكباراً .

إن صاحبه كان يرى بنور بصيرته أن هذا الذى يغتر به إن هو إلا عَرَضٌ زائل ، وعارية مُسْتَرَدَّة .

لعل هذا الرجل الكافر أراد أن يغرى المؤمن أكثر من مرة بالمال والثمر ليكون واحدًا من أعوانه وأنصاره ، فدخل به جنته وأراه ما فيها من ثمر ، فلما هَوَّن له المؤمن من شأن الدنيا وذكَّره بالآخـــرة ، قال له وهو ظالم لنفســـه بالكفر والإعراض ، وقَصْر الهمة على جمع حطام الدنيا - : ما أظن أن تهلك هذه الجنة أبدًا ما دمتُ أتولاها برعايتى ، وأحيطها بعنايتى ، وما أظن الساعة قائمة فى يوم من الأيام ، وما أظن أننى راجع إلى ربى للحساب أبدًا ولئن رددت إلى ربى - جدلاً - فإنى سأجد خيرًا من جنتىَّ هاتين ، وسيكون منقلبى أفضل منقلب .

هذا موقف من مواقف الفتنة يواجه به صاحبه المؤمن ؛ ليفتنه بزهرة ما معه من الحياة الدنيا ، فيعيده إلى الكفر بعد أن فر منه ، أو يدخله فيه إن كان قد نشأ مؤمنًا .

ومنطقه هذا منطق من لا يعرف السنن الكونية ، ولا يدرك عواقب الأمور ، ولا يعلم شيئًا من أخبار الماضين ، ولا يفهم من العدالة الإلهية شيئًا ، وهى ظاهرة فى كل شىء ، فهل رأى هذا الأحمق الجهـــول فيما يدور فى دنيـــاه هذه شيئًا لا يبيد أبدًا ؟ .

وهكذا يذهب الضلال بأهله إلى تلك المذاهب الممعنة فى السفه والجهالة ، فيرون حقائق مقلوبة على وجوهها ، وهم فى هذا الموضع المنكوس الذى أقاموا فيه رءوسهم مقام أرجلهم ٠

وهنا يأخذ الموقف بين الرجلين وضعًا آخر ، فيتكلم المؤمن ويستمع الكافر ٠

﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ﴾ والاستفهام فى الآية للإنكار والتهكم ، والتوبيخ والتعجب والاستغراب ٠

إنه بهذا الاستفهام يرده إلى عقله الذى ذهب عنه ولم يعد إليه وهو فى ظل هذا المال الزائل ، والنعيم الخادع ٠ ثم يحقر من شأنه - مرة أخرى - حيث يذكره بالمادة التى خلق منها ، إنه خلق من تراب ثم من نطفة ، فمهما ارتفع شأنه ، وعز جاهه فهو سُلالة من طين ، وقَذْفةٌ من ماء مهين ، ولم يكن رجلاً سويًا إلا بقدرة الله تعالى، ولو شاء لأهلكه فى لمحة بصر ٠

والتعبير بالماضى فى قوله : ﴿ أكفرت ﴾ بدلاً من صيغة الحاضر « اتكفر » إشارة إلى أن هذا المنكر الذى هو فيه ليس أمرًا مستحدثًا عنده ، بل هو داء قديم سكن فى كيانه ، واستقر بين مسرى الدم من عروقه لا يغيره شيء ، ولو كان ذلك مما يمكن أن يتغير لكان له فى هذا الموقف الذى وقفه من جنتيه ، ورأى فيهما ما رأى من آيات الله وآلائه ما يخفق له قلبه وترق له مشاعره ٠

وفى هذه الصورة التى رسمها المؤمن لصاحبه ، وأراه فيها وجوده كله ، منذ كان ترابًا ، ثم كان نطفة ثم علقة ، فجنينًا ، فوليدًا ، فطفلاً ، فرجلاً مكتمل الرجولة كما هو الآن يختال تيهًا وعجبًا - فى هذه الصورة ينظر المؤمن إلى صاحبه فيكره أن يكون على سمت هذه الصورة التى شوهها الكفر ومسخها الضلال ، وفى سرعة خاطفة ينتزع نفسه من جنب صاحبه ، ويعزل شخصه عنه ، ثم - وبسرعة خاطفة أيضًا - يرسم لنفسه صورة ارتضاها واطمأن إليها ٠٠ فيقول : ﴿ لكنَّا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدًا ﴾ ٠

ويعود المؤمن على الكافر بالنصح والإرشاد بعد أن كشف له عن موقفه ، وأعلن ثباته على إيمانه ، فيقول له - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ .

فلو أنصف الكافر نفسه لآمن بربه وسبح بحمده وأسند إليه أمره كله ، واعتمد على حوله وقوته عز وجل ، وقد يكون المؤمن فى قلة وفاقة ، والكافر فى عِزَّة ومَنَعة بالمال والرجال ، فيغير الله الحال ، وتدور الدائرة على من بغى وتكبر ، يسلبه الله أعز ما لديه ، ويحرمه أحوج ما يكون إليه . هكذا يفعل الله بكل متكبر جبار ، إنه قادر على أن يعوض المؤمن فى الآخرة أضعاف أضعاف ما فقده فى الدنيا : ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالاً وولدًا فعسى ربى أن يؤتين خيرًا من جنتك ﴾ أى : فى الآخرة لا فى الدنيا ، لأن المؤمن لا يطلب فى الدنيا مالاً ولا جاهًا ولا سلطانًا لعلمه أنها دار فانية ، وأن ما فيها زائل وأنه فتنة تعوقه عن العمل للآخرة .

وهكذا تنتفض عزة الإيمان فى النفس المؤمنة ، فلا تبالى بالمالِ والنَّفَرِ ، ولا تدارى الغنى والبطر ، ولا تتلعثم فى الحق ، ولا تجاهل فيه الأصحاب .

ومن هنا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال ، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة ، وأن فضل الله عظيم ، وهو يطمع فى فضل الله ، وأن نقمة الله جبارة ، وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين .

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار ، ومن هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار ، فلقد وقع ما توقعه الرجل المؤمن .

﴿ وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدًا ﴾ .

وهو مشهد شاخص كامل ، الثمر كله مُدمَّر ، أُخذ من كل جانب، لم يسلم منه شيء ، والجنة خاوية على عروشها محطمة مهشمة ، وصاحبها يقلب كفيه أسفًا وحزنًا على ماله الضائع ، وجهده الذاهب، وهو نادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته !! .

إن فى ذلك لعبرة لأولى العلم والنهى ، إن القيم الباقية هى ما كان أساسها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فإن لم يكن هناك إيمان لم تكن هناك قيم ، ولم تكن هناك حياة .

والله وحده هو المتفرد بالولاية والقدرة ، فلا قـوة إلا قوته ، ولا نصر إلا نصره ، وثوابه خير الثواب ، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ما يتبقى : ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابًا وخير عُقْبًا ﴾ .

* * *

قصة أصحاب الجنة

ضرب الله لأهل مكة من المشركين ومن كان على شاكلتهم مثلاً بأصحاب الجنة؛ ليعتبروا بهم ، وليقيسوا حالهم بحالهم ، وليعلموا سنة الله فى عباده فيعودوا إلى أنفسهم باللائمة فيما جبلوا عليه من بخل على الفقراء والمساكين ، ومنع للخير فى مواطن تقتضى البذل والعطاء ؛ فقد كان الكثير من أهل مكة من أصحاب الثراء والنعمة بسبب التجارة وغيرها ومع ذلك كانوا لا يكرمون اليتيم ، ولا يحضون على طعام المسكين ، ولا يجعلون فى أموالهم حقًا معلومًا للسائل والمحروم ، بل كانوا يحتقرون الفقراء ، ويسخرون منهم ويستهزئون بهم حيثما وجدوهم ، وكانوا يستنكفون أن يجلسوا مع النبى ﷺ وفى مجلسه واحد منهم ، وقد طلبوا منه مرارًا أن يجعل لهم يومًا وللفقراء يومًا ، ولقد هَمَّ النبى ﷺ بذلك ، فأمره الله أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ابتغاء وجهه ، وقص عليه قصة المؤمن وصاحب الجنتين ، وذلك فى سورة الكهف كما قدمنا .

وهذه القصة التى نحن بصدد الحديث عنها تشبه تلك القصة وتتفق معها فى كثير من المقاصد والغايات ، مع فروق دقيقة يستطيع القارئ بنفسه أن يستخلصها إذا ما وازن بينهما .

وهذه القصة كانت معروفة لديهم فيما يبدو ؛ لأنها وقعت فى شبه الجزيرة العربية ، وأغلب الظن أنها كانت باليمن بقرية يقال لها : « ضروان » بالقرب من صنعاء ، فقد كان لرجل فيها جنة عظيمة غرسها بنفسه ، وجعلها بينه وبين الفقراء يأخذ لنفسه ما يكفيه ، ويعطيهم سائرها ، وكان هذا الرجل من أهل الكتاب ، كما قال ابن عباس ، وربما كان يهوديًا لأن أهل اليمن قد دانوا باليهودية بعد أن دخلت بلقيس فى دين سليمان عليه السلام ، وكانت زكاة الثمار من شريعة التوراة كما فى الإصحاح السادس والعشرين من سفر اللاويين .

وقال بعض المفسرين : كان أصحاب هذه الجنة بعد عيسى بقليل ، أى قبل انتشار النضرانية فى اليمن ؛ لأنها ما دخلت اليمن إلا بعد دخول الأحباش إلى اليمن فى قصة « القُلَّيس » - وهى الكنيسة التى بَنيت فى عهد أبرهة الأشرم ليحج إليها العرب وغيرهم بدلاً من الكعبة - وكان لهذا الرجل ثلاثة أولاد ، فلما توفى ورث أولاده هذه الجنة العظيمة وزادهم الله بسطة فى الرزق ، ولكنهم بخلوا بما آتاهم الله من فضله ، ومنعوا الفقراء والمساكين حظهم من هذه الجنة .

وقيل : كان منهم فتى عاقل صالح دعاهم إلى البذل والعطاء ، فلم يستمعوا لنصحه ، واتفق الفتيَان على حرمان الفقراء والمساكين ، وأقسما على ذلك وحملا أخاهما قسراً على أن يرضى بما عزما عليه ، وأن يقسم معهم على ذلك ، فأقسم وهو كاره ، وبينما هم نائمون طاف على الجنة طائف من ربهم فأحرقها ، فلما أصبحوا نادى بعضهم بعضًا ، فلما اجتمعوا انطلقوا إلى جنتهم ليقطعوا ثمارها ، وتواصوا ألا يدخلنها اليوم عليهم مسكين ، فلما انتهوا إليها حسبوا أنهم قد ضلوا الطريق ؛ لأنهم لم يجدوا فيها شجرة قائمة على أصولها ، ولكنهم ما لبثوا أن تداركوا أمرهم ، واعترفوا بخطئهم وخطيئتهم ، وعاتبهم أخوهم على عدم اكتراثهم بقوله عندما عزموا على منع الفقراء حقهم ، فندموا على ما وقع منهم واعتذروا ، فقبل الله عذرهم ، وسألوا الله أن يبدلهم خيراً منها ، فبدلهم خيراً منها على ما قيل .

هذه هى خلاصة قصتهم قد جلاها الله عز وجل فى سورة القلم فى آيات بينات، فى ثناياها كثير من العظات والعبر واللطائف التى تمس شغاف القلوب ، وتملك نواصى العقول .

قال تعالى : ﴿ إنَّا بَلَوْنَاهم كما بَلَوْنَا أصحابَ الجنةِ إذ أقسَموا ليَصرِمُنَّها مُصبحين . ولا يَسْتَثْنُون . فطافَ عليها طائفٌ من ربِّك وهم نائمون . فأصبَحَتْ كالصَّرِيم . فَتَنَادَوا مُصبحِين . أن اغْدُوا على حَرثِكم إن كنتم صارِمين . فانطَلَقُوا وهم يَتَخَافَتُون . أن لا يَدخُلَنَّها اليومَ عليكم مسكينٌ . وغدَوْا على حَرْدٍ قادرين .

فلما رأَوْها قالوا إنَّا لضالُّون · بل نحنُ مَحرُومُون · قال أوسطُهم أَلَمْ أقلْ لكم لولا تُسَبِّحُون · قالوا سبحانَ ربِّنا إنا كنا ظالمين · فأقْبَلَ بعضُهم على بعض يتلاوَمون · قالوا يا ويلَنا إنا كنا طاغين · عسى ربُّنا أن يُبْدِلَنَا خيرًا منها إنَّا إلى ربِّنا راغِبون · كذلكَ العذابُ ولَعَذَابُ الآخرةِ أكبرُ لو كانوا يَعلَمُون ﴾ (١) ·

ومن عظمة القرآن الكريم أنه لم يذكر إلا ما يتعلق بذكره فائدة ، فها هو يحكى هذه القصة ، دون أن يذكر لنا أسماء أصحاب الجنة ولا الزمان ولا المكان الذى وقعت فيه أحداثها ، ولم يخبرنا أنهم كانوا إخوة أو شركاء ، فذِكْرُ هذه الأمور ، وما يماثلها يَخْرُج بالقصة عن مضمونها ومقاصدها ، ويشغل المتأمل عن مواطن العبرة فيها بما يزدحم عليه من ألوان وظلال ، وحركات وصور يخلو ذكرها من فائدة ، بل تكون فى الغالب قيودًا يشد بها الحديث إلى زمان بذاته ، أو مكان بعينه ، أو أشخاص بسماتهم - إنها أغلال تُجمِّد الحدث ، وتُفقده الحياة والحركة عبر الأزمان والأماكن ، بخلاف ما لو أطلق من هذه القيود ، حيث يراه الناس فى كل مكان ، وزمان ، ويشهدونه فى كل مجتمع صغير أو كبير ·

وابتلاء أصحاب الجنة هؤلاء - الذين ابتلى الله سبحانه مشركى قريش كما ابتلاهم - هو فيما كان منهم من تدبير سيئ ، ومكر بنعم الله عليهم ، فكان أن انتزع الله سبحانه هذه النعمة من بين أيديهم ، وقتلهم بالسلاح الذى كانوا يحاربونه به ·

ويحكى القرآن أن هؤلاء النفر قد أقسموا لَيَصْرِمُنَّ جنتهم فى أول النهار قبل أن يستيقظ الناس من نومهم ، ولا يستثنون منها شيئًا للفقراء والمساكين ، فهذا ما أقسموا عليه كما جاء به القرآن على لسانهم ·

وأكثر المفسرين يفسرون قوله تعالى : ﴿ ولا يستثنون ﴾ بأنهم لم يقولوا : إن شاء الله · وما قالوه غير مقبول من وجوه :

الأول : أن تأويلهم هذا مخالف للنظم ؛ إذ لو كان كما قالوا لقال جل شأنه :

(١) سورة القلم آية : ١٧ ـ ٣٣ ·

ولم يستثنوا ؛ لأن الله عبر عن القسم بالفعل الماضى ، والحرف (لم) يقلب الفعل المضارع إلى الماضى ، فيتحد النظم ، فلابد أن يكون قوله تعالى : ﴿ ولا يستثنون ﴾ من كلامهم ، أى ليصرمنهـا مصبحين ولا يسـتثنون من ثمرها شيئًا يتعلق نظر الفقراء به .

والثانى : من جهة المعنى ، وذلك لو كان الاستثناء بمعنى المشيئة ؛ لكان فى ذلك إفساد للمعنى ، وخروج به عن الغاية المرادة من الاستثناء فى هذا المقام ؛ إذ إنهم لو قالوا : إن شاء الله ؛ لكان ما عزموا عليه متحققًا ، ولكنه لم يتحقق ، وهل كان عملهم هذا مبرورًا حتى يقولوا فيه إن شاء الله ؟ ، ولو ذكروا الله تعالى حين أقسموا ، ما أقسموا إلا على خير ، وهل القسم على أمر منكر كهذا الأمر الذى أقسموا عليه يُطلب له تزكيةٌ بالمشيئة حتى يكون فى ذلك ضمان لتحققه ؟! .

إن الاستثناء بالمشيئة لا يكون إلا فى الأمور المحمودة طلبًا للتوفيق والتحقيق ، أما فى الأمور المذمومة فلا .

وقوله تعالى : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ فيه بيان لمعاجلتهم بالعقاب عقب قولهم مباشرة ، كما تدل عليه (الفاء) الدالة على الترتيب والتعقيب والجزاء .

والتعبير بالطائف يشعر بأنه دمار شامل طاف بكل شجرة من أشجار هذه الجنة ، وبكل ثمرة من ثمارها حتى جعلها كالصريم ، أى كالليل المظلم الذى يقطع بظلامه السُّبُل على المارة . والطائف : من يطوف ليلاً فلا يكاد يرى .

أى أن هذا الطائف قد سبق القوم إلى ما كانوا يريدون ، فإذا هو قد جنى كل ثمرها ، وكأنه بهذا قد تولى الأمر عنهم ، وأراد أن يريحهم من هذا العناء الذى يكابدونه فى حصاد ثمرها ، وأنه قد فعل هذا دون أن يراه فقير أو مسكين، أليس هذا هو الذى أرادوه ! لقد تحقق لهم على أكمل وجه !! ولكن أين ذهب الثمر ؟ إنهم لو وجدوه مقطوفًا حاضرًا بين أيديهم لعدُّوا ذلك من فضل الله عليهم ، وإحسانه إليهم . فأين هو الثمر ؟

وتنتقل الآيات بعد هذا لبيان حالهم وهم مقبلون على جَنْىِ ثمارهم : ﴿ فتنادوا

مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ أى فنادى بعضهم بعضًا ، وكان كل منهم حريصًا على إيقاظ صاحبه ، وكأنى بهم لم تكتحل أعينهم بنوم ، فقال بعضهم لبعض : اغدوا على حرثكم ﴿ إن كنتم صارمين ﴾ أى : عازمين على قطع ثماركم ، فهو تحريض على التبكير ، وسرعة المبادرة .

فانطلقوا وهم يتهامسون لئلا يسمع كلامهم أحد فيتبعهم،يقول بعضهم لبعض : لا يأذن أحد منكم بدخول مسكين أيًا كان ، حتى ولو كان من أقرب المقربين .

﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ والحرد : هو القصد والمنع ، والعزم والغضب أيضًا ، فهى كلمة جامعة لكل ما كانوا عليه عند انطلاقهم إلى جنتهم ، أى ومضوا مبكرين على تحقيق قصدهم ، ومنع الفقراء من أن ينالوا شيئًا من ثمارهم ، وأكدوا العزم على ذلك والغضب والحقد يملأ قلوبهم ، وقد أرادوا شيئًا وأراد الله غيره ، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

وانتهى أصحاب الجنة إلى مكان جنتهم فوجدوه يبابًا حالك السواد ، فقالوا فى نفس واحد : ﴿ إنا لضالون ﴾ أى : إنا لمخطئون فى ارتياد هذا المكان ، فليس هو المكان الذى فيه جنتنا ؛ وذلك لشدة المفاجأة وهول الصدمة ، ولكن ما لبثوا أن رجعوا إلى صوابهم وأدركوا عاقبة بغيهم ، فقالوا بلسان الحال والمقال : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ .

والجزاء من جنس العمل ، لقد أرادوا أن يحرموا الفقراء والمساكين من رزق الله تعالى ، ويمنعوهم حقًا قدره الله لهم ؛ فحرمهم الله من هذه الجنة ، وربما يتبع هذا الحرمانَ آخَرُ وآخرُ ؛ فيصيروا بعد زمن يسير من أولئك الفقراء الذين أقسموا أن يصرموا جنتهم دون أن يمكنوا أحدًا منهم من دخولها كفرانًا بالنعم، وتجاوزًا لحدود قدرتهم فى المنع والعطاء ، وخروجًا عن حد الأدب مع الله تبارك وتعالى ، وجهلاً منهم بأن المال مال الله عز وجل وأنهم خلفاء الله فى هذا المال ، وأن الشكر يزيد النعم والكفر يزيلها . كما أشارت إلى ذلك الكتب السماوية .

فهم إذن قد حرموا هذه النعمة التى كانت فى أيديهم ، وحرموا نعمة أخرى لا يشعرون بقيمتها ، وهى نعمة قضاء الحوائج · وإن من عباد الله عباداً جعلهم الله فى قضاء حوائج الناس ، فإن هم لم يفعلوا نقلها الله إلى غيرهم ·

وجلس الأصحاب يتعاتبون - وحق لهم أن يتعاتبوا - فقال أوسطهم - أى أعقلهم وأقربهم إلى الصواب -: ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ أى : ألم أقل لكم هلا تذكرون الله فى هذه النعمة ، وتشكرونه عليها ،وتقومون بتأدية حق عباده منها ·

والتسبيح له معنى واسع يشمل ما قد ذكرناه وزيادة ، وهذا القول من الفتى العاقل إيجاز لكلام كثير قاله لهم لا يخرج عن هذا المعنى · والإيجاز ضرب من الإعجاز البيانى للقرآن الكريم ·

وهنا رجعت إليهم عقولهم فثابوا إلى رشدهم وسبحوا بحمد ربهم واعترفوا بظلمهم ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ كل يقول لصاحبه : أنت السبب فيما حدث ، ثم هدأوا قليلاً ودعوا على أنفسهم بالويل ؛ لأنهم كانوا متجاوزين حدودهم فيما عزموا عليه ،ثم تابوا وأنابوا وطمعوا فى رحمة الله ؛ فسألوه أن يبدلهم خيراً منها ، ورغبوا فى طاعته ، والعود إلى ساحة كرمه وواسع فضله ، ومن تاب تاب الله عليه ، وبدَّل خوفَه أمنًا وعُسرَه يُسْرًا ·

لقد كانت هذه القصة مثلاً ضربه الله لكل من كفر بأنعم الله ولم يُؤدِّ شكرها - إنه سيكون حاله فى الدنيا كحال هؤلاء الذين عقدوا العزم على منع الفقراء والمساكين من رِفْدهم ، وهو نوع من العذاب العاجل ينزل من الله مقدمة للعذاب الآجل وهو أكبر وأفظع ·

﴿ كذلك العذابُ ولعذابُ الأخرةِ أكبرُ لو كانوا يعلمون ﴾ ·

* * *



قصـــــة ســــبأ

قال علماء النسب - منهم محمد بن إسحاق صاحب السير والمغازى - : سبأ اسم رجل من عظماء اليمن واسمه « عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان » وكان أول من سبى [١] من العرب ؛ فسمى سبأ لذلك ، وكان يقال له الرائش [٢] لأنه كان يعطى الناس الأموال من متاعه .

قال السهيلى : ويقال إنه أول من تتوج ، وذكر بعضهم أنه كان مسلمًا ، وكان له شعر بشَّر فيه ببعثة رسول الله ﷺ .

فمن ذلك قوله [٣] :

سَيَمْلك بعدنا مُلكـــًا عظيمًا ... نبىٌ لا يُرِّخصُ فى الحرامِ
ويملك بعده منهم ملوكٌ ... يدينونَ العبادَ بغير ذَامِ
ويملك بعدهم منا ملوكٌ ... يصير المُلْكُ فينا باقتسامِ
ويملكُ بعد قحطانٍ نبىٌ ... تقىٌّ جبينه خيرُ الأنامِ
يسمى أحمد ياليتَ أنى ... أُعَمَّرُ بعد مبعثه بعامِ
فأعضدُهُ وأحبُوه بنصرى ... بكل مُدَجَّج وبكل رَامِ
متى يظهرْ فكونوا ناصريه ... ومَنْ يلقاه يُبْلغْه سَلامِى

وروى الإمام أحمد بسند فيه ابن لهيعة عن عبد الله بن دعلة قال : سمعت عبد الله بن العباس يقول : إن رجلاً سأل النبى ﷺ عن سبأ ، ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال : بل هو رجل ولد عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة .

---

(١) السبىُ : هو أخذ النساء والأطفال غنيمة من العدو .

(٢) الرائش : هو الذى يدفع الديات والمغارم عن أصحابها ويسد عنهم ديونهم ، ويقضى حوائجهم . مأخوذ من الرشا وهو الحبل الذى يمد فى البئر بالدلو لاستخراج الماء ، شبه به من يصل الناس بعطائه ويمدهم بماله .

(٣) انظر الأبيات فى البداية لابن كثير ج ٢ ص ١٥٨ .

فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير ، وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان .

وسبأ هذا يجمع هذه القبائل كلها ، وقد كان فيهم التبابعة بأرض اليمن ، وكان لملوكهم تيجان يلبسونها وقت الحكم كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك ، وكانت العرب تسمى كل من مَلَك اليمن مع الشحر وحضر موت « تُبَّعًا » كما يسمون من مَلَك الشام مع الجزيرة « قيصر » ، ومن مَلَك الفرس « كسرى » ، ومن ملك مصر « فرعون » ، ومن ملك الحبشة « النجاشى »،ومن ملك الهند « بطليموس » ، وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس ، وقد قدمنا قصتها مع سليمان عليه السلام .

هذا خلاصة ما ذكره ابن كثير فى البداية [1] .

وقد أطلق اسم سبأ على الأرض التى كان يسكنها أبناؤه وأحفاده باليمن ، كما حكى القرآن الكريم فى قصة سليمان على لسان الهدهد ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ [2] .

وقد كانت بلاد سبأ كثيرة الخيرات ، يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ، مليئة بالحدائق الغَنَّاء ، والبساتين الخضراء ، ذات هواء معتدل ونسيم عليل ، تخلو أرضها من الحشرات الضارة والأمراض المعدية ، وكان المطر فيها لا ينقطع صيفًا ولا شتاء ، فبنى أهلها سدًا منيعًا بين جبلين يحجز الماء خلفه لوقت الحاجة عرف بسد مأرب ؛ لأنه بنى فيها ، وكان بناءً شامخًا يدل على حضارة راقية ، وتقدُّم هائل فى بناء السدود ، ولقد كان ذو القرنين واحدًا منهم على الراجح من أقوال المؤرخين ، فلا عجب أن يكونوا قد ورثوا منه ، أو تعلموا على يديه - كيفية بناء السدود على النحو الذى يقى البلاد خطر السيول من جهة ، ويخزن المياه خلفه للانتفاع بها فى وقت الحاجة إليها من جهة أخرى .

وقد كانت بلقيس تتميز بملك واسع وعرش عظيم كما سبق بيانه فى قصة

---

(١) انظر ج ٢ ص ١٠٨ وما بعدها .   (٢) سورة النمل آية : ٢٢ .

سليمان عليه السلام ، ولكن القوم كانوا من الضالين يعبدون الأوثان تارة ، ويعبدون الشمس تارة أخرى ·

ولقد جاءتهم الرسل فكذبوهم ، وأعرضوا عن دعوتهم ، وصدوا عن السبيل، وكفروا بأنعم الله ، فبدَّل الله يسرهم عسراً ، وأمنهم خوفًا ، وأذاقهم لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، ومزقهم شر مُمزَّق ، فتفرقوا فى البلاد بددًا فما استقر لهم بعد ذلك حال ، ولا طاب لهم مقام ، قال تعالى : ﴿ لقد كان لسبأٍ فى مسكنِهم آيةٌ جنتانِ عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا من رزقِ ربِّكم واشكروا له بَلْدَةٌ طيبةٌ وربٌ غفورٌ · فأعْرَضوا فأرسَلْنا عليهم سيلَ العَرِمِ وبَدَّلْناهم بجنتَيهم جنتَينِ ذَوَاتَى أُكْلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشىءٍ من سِدْرٍ قليلٍ · ذلك جَزَيْنَاهم بما كَفَرُوا وهل نُجَازى إلا الكفورَ · وجعلنا بينَهم وبينَ القرى التى باركْنا فيها قرىً ظاهرةً وقَدَّرْنا فيها السَّيرَ سِيرُوا فيها ليالىَ وأيامًا آمنين · فقالوا ربَّنا بَاعِدْ بين أسفارنا وظَلَمُوا أنفسَهم فجعلناهم أحاديثَ ومَزَّقْنَاهم كلَّ مُمَزَّقٍ إن فى ذلك لآياتٍ لكلِّ صبَّارٍ شكورٍ ﴾ [1] ·

إن الله عز وجل قد وصف ما كان فيه قوم سبأ من نعيم وافر بأنه آية ، أى شىء خارق للعادة يسترعى النظر ، ويحمل القوم على شكر المنعم عز وجل ·

ووصف هذه الآية الرائعة بأنها جنتان عن يمين وشمال ، أى تحيطان بالبلاد من كل صوب وحدب ، فذكر اليمين والشمال مثل يضرب فى الغالب للإحاطة والشمول·

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ أوَ لَم يَرَوْا إلى مَا خَلَقَ اللهُ من شىءٍ يَتَفَيَّؤُا ظلالُه عن اليمينِ والشمائلِ سُجَّدًا لله وهم داخِرُون ﴾ [2] · ومثل قوله سبحانه : ﴿ عن اليَمينِ وعن الشِّمالِ عِزِينَ ﴾ [3] فالمراد بهذا كله الإحاطة من كل جانب ·

---

(١) سورة سبأ آية : ١٥ – ١٩ · (٢) سورة النحل آية : ٤٨ ·
(٣) سورة المعارج آية : ٣٧ ·

وهذه الإحاطة يقصد منها كثرة الثمار ووفرة الظلال ، حيث يملأون أيديهم من رزق الله متى شاءوا ، ويتناولونه من قريب متى أرادوا ، إن أرادوا بيمينهم وجدوه ، وإن أرادوه بشمالهم وجدوه ، دون أن يجهدوا أنفسهم فى التحول يمينًا أو شمالاً ؛ فقد أقبلت عليهم الدنيا بحذافيرها ، فما عليهم إلا أن يأكلوا من رزق ربهم ، ولهذا قال الله عز وجل : ﴿ كلوا من رزق ربكم ﴾ دون أن يقول جل شأنه : قلنا لهم كلوا، وهذا معناه أن الأمر بالأكل يغنى فيه لسان الحال عن المقال ، وكأن الله قال لهم: ما عليكم إلا أن تأكلوا فلا عناء ، ولا نصب ، ولا حساب ، ولا حرج ، إن شكرتم وآمنتم واتبعتم الرسل .

وفى قوله تعالى : ﴿ بلدة طيبة ورب غفور ﴾ ما يشعر بتمام النعمة وشمولها ؛ فالناس ليسوا فى حاجة إلى شىء وراء هاتين النعمتين ، فالبلدة طيبة فى كل شىء فى هوائها ومائها ، وخلوها من كل ما يعكر صفو جوها وينغص على سكانها حياتهم ، والرب غفور يعفو ويصفح ، ويزيد مَنْ شكَر منْ فضله العظيم ورحمته الواسعة .

فإذا كان المتفضل يغفر ويعفو ويصفح ، ويقبل توبة التائبين ، شعر العبد بحلاوة هذه النعم ، ووجد فيها متعة عظيمة بقدر ما يحمل فى قلبه من إيمان بوحدانية المتفضل جل شأنه .

لكن القوم قد سَفِهوا أنفسهم ، واغتروا بما لديهم ، وطغوا واستكبروا فى الأرض بغير الحق ؛ فأخذهم الله بذنوبهم ؛ فأرسل عليهم سيل العرم - والعرم هو الماء المنهمر - أى أرسل عليهم سيلاً غاية فى الشدة ، فهدم سدَّهم ، وخرب ديارهم، وأتى على ثمارهم ، فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، وهلك كثير منهم .

ومن نجا عاش معيشة ضنكًا وسط جنتين ذواتى أكُلٍ مُرٍّ من شجر الأراك وشجر الأثل ، وهو شجر ليس فيه من الثمر ما يسمن أو يغنى من جوع ، وفقدت بلدتهم عطور الزهور والياسمين ، ولم يبق فيها من الطيب إلا شىء من سدر قليل ، وجوده كعدمه .

وهذا جزاء من كفر بأنعم الله تبارك وتعالى ، وتلك سنة الله فى خلقه ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ .

﴿ وهل نجازى إلا الكفور ﴾ أى : وما نعاقب إلا من أعرض عن ذكرنا واتبع هواه ، وأسرف ولم يؤمن بآيات ربه .

ومن عظيم نعم الله على هؤلاء القوم أن جعل قراهم متواصلة من اليمن إلى الشام كل قرية ترى من الأخرى ، يسير الراكب أو الماشى فى أرض عامرة لا يخاف على نفسه من شىء .

والأمن والرخاء أصلان من أصول النعم ، وهما يتبعان الإيمان ، فإن لم يكن هناك إيمان فلا أمن ولا رخاء .

وقد كفر القوم بنعمة الأمن كما كفروا بنعمة الرخاء ، بل اعتبروا تقارب القرى نوعًا من البلاء ، فقالوا : ﴿ ربَّنا باعدْ بين أسفارنا ﴾ أى : اجعل بين القرية والقرية مسافة طويلة تجرى فيها خيولنا ، ونشعر بحيوية المسير ، وندرب أنفسنا على السباق وسرعة الانطلاق ، وغير ذلك مما يجده الأبطال فى أنفسهم من نشوة النصر والفخر فى قطع المسافات الطويلة فى سرعة خارقة .

وفى قراءة أخرى : ﴿ فقالوا ربُّنَا بَاعَدَ بين أسفارنا ﴾ أى : ربنا جعل قرانا متباعدة ونحن نريدها أقرب من ذلك .

والجمع بين القراءتين سهل ميسور فمرة يقولون هذا ومرة يقولون ذاك ، وهذا من شأن الكافر ، لا يشكر على شىء ، ولا يحمد الله فى شىء ، ولا يثبت على حال ، ولا على مقال ، فمبلغ همه اللجاج والعناد .

فلما كفروا بنعمة الأمن شتت الله شملهم وفرق جمعهم ، ومزقهم كل ممزق وجعلهم أحاديث يتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل .

وقد ختمت هذه القصة بقوله جل شأنه : ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أى إن فى ذكر ما أسبغ الله عليهم من نعم ، وما حَلَّ بهم بعد زوالها من النقم - عظات بالغاتٍ لكل من كان الصبر والشكر دأبه وديدنه .

وذلك لأن البلاء كما يكون فى الشر يكون فى الخير، قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجعون ﴾ [1] .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٣٥ .

والمؤمن فى الخير والشر تراه دائمًا ما يقرن الصبر بالشكر ؛ لأن النعم لها جانبان - جانب يستدعى الصبر لأنها تدعـــو أحيانًا إلى الغفلة والغرور ، واتباع الهوى ، والتقصير فى العبادة ، والانصراف عن أهم الواجبات التى ينبغى مراعاتها مع ذوى القربى واليتامى والمساكين وغيرهم من أصحاب الحقوق ؛ لعدم شعور المنعَّمين غالبًا بما هم فيه من فقر ونَصَب ومسكنة .

لا يدرِكُ طَعْمَ الفقرِ مَنْ كان فى غِنى ومُصحَّحُ الأعضـــاءِ ليسَ كمُبتلَى

وهذا الصبر الذى يستدعيه هذا الجانب نوعان - نوع يسمى بالصبر على الطاعات ، ونوع يسمى بالصبر عن المعاصى .

والجانب الآخر للنعم يستدعى الشكر ، وهو القيام بحق الله تعالى وحق الناس فى هذه النعم لاستدامتها وازديادها .

وللشر أيضًا جانبان - جانب يراه الناس شرًا ، وهو فى الحقيقة طُهْرةٌ للعبد ، وتذكير بما خلق من أجله ، وحافز له على الصبر الذى هو مبدأ الشكر ، والشكر منتهى الرضا .

والجانب الآخر شر محض ، وهو ما يسمى بالانتقام ، وانتقام الله ليس له دافع ، ولا يكون إلا لمن ظلم نفسه بالكفر والمعاصى .

وفى الانتقام عبرة لمن يخشى ، وهل يخشى الله إلا العلماء ؟! والعلماء هم العارفون بالله المعتصمون بحبله ، المنقادون إليه فى السر والعلانية .

وخشية الله عز وجل هى منتهى المقامات قال تعالى : ﴿ إن الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ أولئك هم خيرُ البَرِيَّةِ . جزاؤهم عند ربِّهم جناتُ عَدْنٍ تجرى من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها أبدًا رضِىَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه ذلك لمن خَشِىَ ربَّه ﴾ (١) .

* * *

(١) سورة البينة آية : ٧ - ٨ .

قصة أصحاب الأخدود

في تاريخ الإنسانية مواقف مخزية لقوم قست قلوبهم ، فكانت أشد من الحجارة قسوة وصلابة ، خرجت بهم عن حد البشرية إلى درجة الطيور الجارحة والوحوش المفترسة ، بل كانت أضل منها سبيلاً ، وأشد منها ضراوة ·

من هذه المواقف موقف أصحاب الأخدود من المؤمنين بالله واليوم الآخر ؛ فقد تفننوا في تعذيبهم بشتى الوسائل ليردوهم عن دينهم ، حتى انتهى الأمر بهم إلى إحراقهم بالنار في أخدود حفروه لهم ، وألقوهم فيه مكبلين واحدًا بعد الآخر أمام أبنائهم وآبائهم ، وهم قد جلسوا حول النار يمتعون أنفسهم بالنظر إليهم ، ويشفون غليلهم ، وهم يصطرخون فيها مستغيثين بالله إذ لا مغيث سواه ، شعارهم لا إله إلا الله ، وعزاؤهم أنهم شهداء الله ·

فقد صبروا على النار ابتغاء وجه ربهم ، وضحوا بأنفسهم في سبيل عقيدتهم ، واستخفوا بكل ما وجدوه في طريق الإيمان من عقبات كئود ، وكانت الدنيا كلها في نظرهم ساعة فجعلوها طاعة ، وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، واستعذبوا العذاب الدنيوي لما سيكون في انتظارهم من الثواب الأخروي ، وألقوا على أهليهم الذين كانوا يصيحون ويستغيثون - في أسف بالغ وحزن أليم - نظرة وداع حانية ، وحملقوا في تلك الوجوه الكالحة التي تصافَّتْ حول الأخدود ، وفي هذه النظرة سهام قاتلة تنطلق من عيون طالما بكت من خشية الله تعالى ·

نظرة قتلهم الله بها شر قتلة ، وأخزاهم بها في الدنيا والآخرة ، وأنزل في قلوب المؤمنين السكينة ، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ويقينًا مع يقينهم ، وهوَّن عليهم سكرات الموت حتى لقد قيل : إن روح المؤمن منهم كانت تخرج من جسده قبل أن يلقى في النار ، لكيلا يذوق العذاب ، وليس هذا على الله ببعيد ·

لقد سجل الله هذه القصة في آيات من سورة البروج مسبوقة بقسم جمع الله فيه عالم المخلوقات ، علوية وسفلية ، وغائبة وحاضرة ، منظورة وناظرة ، واستحضر

الله سبحانه وتعالى الوجود كله ليشهد هذا الجرم الغليظ وليسمع حكمه - سبحانه - على المجرمين الذين اقترفوه .

﴿ والسماءِ ذاتِ البُرُوجِ . واليومِ الموعودِ . وشاهدٍ ومَشهُودٍ . قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ . النارِ ذاتِ الوَقودِ . إذ هم عليها قُعُودٌ . وهم على ما يَفعَلُون بالمؤمنينَ شهُودٌ . وما نَقَمُوا منهم إلا أن يُؤمِنُوا باللهِ العزيزِ الحميدِ . الذى له مُلكُ السمواتِ والأرضِ واللهُ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ . إن الذين فَتَنُوا المؤمنينَ والمؤمناتِ ثم لم يَتُوبوا فلهم عذابُ جَهَنَّمَ ولهم عذابُ الحريقِ . إن الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لهم جناتٌ تَجرِى من تحتِها الأنهارُ ذلك الفوزُ الكبيرُ ﴾ (١) .

لقد كان لأصحاب الأخدود مع المؤمنين موقف غاية فى النكر والسفالة والإجرام الشنيع - كما أشرنا .

لكن من هم أصحاب الأخدود الذين تحدثت عنهم هذه الآيات ؟ وأين كانوا ؟ وفى أى زمان وجدوا ؟ وبأى دين كانوا يدينون ؟

اختلف المؤرخون فى هذا كله . وأشهر الروايات ما رواه مسلم والترمذى والنسائى وأحمد وغيرهم من أصحاب السنن والمسانيد .

وإليك هذه الرواية من كتاب الزهد من صحيح مسلم عن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إنى قد كبرت فابعث إلى غلامًا أعلمه السحر . فبعث إليه غلامًا يعلمه ، فكان فى طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه ؛ فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكى ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر ، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ، فأخذ حجرًا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب

---

(١) سورة البروج آية : ١ - ١١ .

أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أى بنى أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل علىّ . وكان الغلام يبرئ الأكمه ، والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتنى ، فقال : إنى لا أشفى أحدًا إنما يشفى الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : مَنْ رَدَّ عليك بصرك ؟ ، قال : ربى . قال : ولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام . فجىء بالغلام ؛ فقال له الملك : أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل . فقال : إنى لا أشفى أحدًا إنما يشفى الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجىء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جىء بجليس الملك فقيل : له ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جىء بالغلام، فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل . فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ ، قال : كفانيهم الله ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به فاحملوه فى قرقور [1] فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا، به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله ، فقال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به ، قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبنى على جذع ، ثم خذ سهمًا من كنانتى ، ثم ضع السهم فى كبد القوس ، ثم قل : باسم رب الغلام ، ثم ارمنى ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى . فجمع الناس فى صعيد واحد ، وصلبه

---

(١) مركب صغير .

على جذع ثم أخذ سهمًا من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم فى صدغه ، فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات . فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ! قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس . فأمر بالأخدود فى أفواه السكك فُخَّدتْ ، وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها ، أو قيل له اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امراة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أمه اصبرى فإنك على الحق » .

وليس فى هذا الحديث تصريح بأن النبى ﷺ ساق هذه القصة تفسيرًا لهذه الآيات ، ولكن « الترمذى » ساق حديثها فى تفسير سورة البروج .

وعن مقاتل : كان الذين اتخذوا الأخاديد فى ثلاث من البلاد بنجران وبالشام وبفارس - أما الذى بالشام « فانطانيوس » الرومى ، وأما الذى بفارس فهو «بختنصر» . وأما الذى بنجران « فيوسف ذو نواس » .

وذكر المؤرخون - كابن اسحاق وغيره - أن أصحاب الأخدود الذين عناهم الله فى سورة البروج كانوا أهل شرك من نجران ، وكان لهم ملك يقال له « ذو نواس » له كاهن أو ساحر ، وكان لهذا الكاهن أو الساحر تلميذ يقال له « عبد الله بن الثامر » وكان يجد فى طريقه إذا مشى على الكاهن صومعة فيها راهب كان يعبد الله على دين عيسى عليه السلام ويقرأ الإنجيل اسمه « فيميون » ، وكان منعزلاً عن الناس مختفيًا فى صومعته ، وظهرت لعبد الله فى قومه كرامات ، وكان كلما ظهرت له كرامة دعا من ظهرت لهم إلى أن يتبعوا النصرانية ، فكثر المتنصرون فى نجران ، وبلغ ذلك الملك « ذا نواس » وكان يهوديًا ، فقتل الملك الغلام ، وقتل الراهب وأمر بأخاديد وجمع فيها حطب كثير وأشعلت ، وعرض أهل نجران عليها ، فمن رجع عن التوحيد تركه ، ومن ثبت على الدين الحق قذفه فى النار ، فكان أصحاب الأخدود ممن عُذِّب من أهل دين المسيحية فى بلاد العرب .

وقصص الأخاديد كثيرة فى التاريخ ، والتعذيب بالحرق طريقة قديمة ومنها نار إبراهيم عليه السلام .

والأصح أن أصحاب الأخدود الذين عناهم القرآن فى سورة البروج هم الذين ورد ذكرهم فى الحديث الذى أخرجه « مسلم » وغيره من أصحاب السنن - كما ذكرنا- وهذا لا يمنع أن يكون هناك من حذا حذوهم ، أو سن لهم هذا العمل الإجرامى المقيت .

والقصة مثل رائع من أمثلة البطولات النادرة فى تاريخ الإنسانية الغابر ؛ إذ واجه المؤمنون أعتى قوى البغى والطغيان بإيمان راسخ كالجبال ، لا تزعزعه العواصف العاتية .

مثل من الأمثلة التى ينبغى أن يحتذيها كل مؤمن يريد أن يكون ممن قال الله فيهم : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا من يَرتَدَّ منكم عن دينِهِ فسوف يأتِى اللهُ بقومٍ يُحبُّهم ويُحبُّونَه أذِلَّةٍ على المؤمنين أعِزَّةٍ على الكافرين يجاهِدون فى سبيلِ اللهِ ولا يَخَافون لَوْمَةَ لائمٍ ذلك فضلُ اللهِ يُؤتِيه من يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ ﴾ (١) .

* * *

(١) سورة المائدة آية : ٥٤ .

قصة أصحاب القرية والمرسلين إليها

كشف الله لنبيه ﷺ فى سورة يس عن طبيعة المشركين المتأبية على الإيمان وبين له حالهم ومآلهم ، ثم بيّن حال المؤمنين الذى يخشون ربهم بالغيب ، ثم أمره أن يضرب لواقع الفريقين مثلاً يبين به طبيعة كل منهما ، بصورة تاريخية قصصية مؤثرة ، تملأ القلب الواعى عِظَة وعبرة ؛ فقال جل شأنه :

﴿ واضربْ لهم مثلاً أصحابَ القريةِ إذ جاءها المُرسَلُون . إذ أرسَلْنا إليهم اثنينِ فكذَّبُوهما فَعَزَّزْنا بثالثٍ فقالُوا إنا إليكم مرسَلُون . قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مِثْلُنا وما أنزلَ الرحمنُ من شىءٍ إن أنتم إلا تكْذِبُون . قالوا ربُّنا يَعلَمُ إنَّا إليكم لمُرسَلُون . وما علينا إلا البلاغُ المبينُ . قالوا إنا تَطَيَّرْنا بكم لئن لم تَنتَهُوا لنرجُمَنَّكم ولَيَمَسَّنَّكم منا عذابٌ أليمٌ . قالوا طائرُكم معكم أئِن ذُكِّرتم بل أنتم قومٌ مسرِفونَ . وجاءَ من أقصى المدينةِ رجلٌ يَسعَى قال يا قومِ اتَّبِعُوا المُرسَلين . اتَّبِعُوا من لا يسألُكم أجرًا وهم مهتَدُون . ومالِىَ لا أعبدُ الذى فَطَرَنى وإليه تُرجَعُون . أأتَّخِذُ من دونه آلهةً إنْ يُرِدْنِ الرحمنُ بضُرٍ لا تُغنِ عنى شفاعتُهم شيئًا ولا يُنقِذُون . إنى إذًا لفى ضلالٍ مبينٍ . إنى آمنتُ بربِّكم فاسمعون . قيلَ ادخُلِ الجنةَ قال يا لَيْتَ قومِى يَعلَمُون . بما غَفَرَ لى ربِّى وجعلَنِى من المُكرَمِين . وما أنزَلْنا على قومِه من بعدِه من جُندٍ من السماءِ وما كُنَّا مُنزِلين . إنْ كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم خامِدون . يا حَسْرَةً على العباد ما يأتِيهِم من رسولٍ إلا كانوا به يَستهزئون ﴾ (١) .

وقد اختلف المؤرخون والمفسرون فى القرية التى كذبت المرسلين . فقيل : إنها إنطاكية ، وضعف ابن كثير هذا الرأى .

واختلفوا - أيضًا - فى الرسل، فقيل : إنهم كانوا من الحواريين أرسلهم

---

(١) سورة يس آية : ١٣ - ٣٠ .

المسيح عليه السلام ، لأهل هذه القرية ، وضعف ابن كثير هذا القول أيضًا . فقال فى تفسيره لهذه الآيات :« إن أهل إنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة : القدس ، إنطاكية، الأسكندرية ، رومية - كما ذكر غير واحد ممن ذكر تواريخهم - أو نقول : إنطاكية إن كان لفظها محفوظًا فى هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة؛ فإن هذه المشهورة لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك .

وأما الرسل ، فظاهر القصة يدل على أنهم كانوا رسل الله عز وجل لا من جهة المسيح؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ . ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قال لهم أهل القرية : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ » . أ.هـ .

ونحن لا يهمنا تعيين هذه القرية ؛ لأنه لو كان فى ذكر اسم القرية فائدة لذكره الله عز وجل ، وقد قلنا أكثر من مرة : إن القرآن الكريم يطوى عنا ما لا يفيدنا ذكره ولا تنفعنا معرفته .

فالمثل مضروب لأهل مكة على أنهم يشبهون فى تكذيبهم الرسول ﷺ أهل القرية التى أرسل الله إليها رسولين من قبله مباشرة ، أو أرسلهما عيسى بن مريم من قبله بإذنه - جل شأنه - فكذبوهما ، فأمدهما الله بثالث يعززهما فى دعوتهما إلى الله . فما زادهم ذلك إلا نفوراً وتشاءموا منهم وقالوا لهم : ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾، فما كان من الرسل إلا أن حمَّلوهم مسئولية كفرهم وإعراضهم ، وأطلعوهم على حقيقة أمرهم وسوء مصيرهم ، وجاءهم رجل منهم من أقصى المدينة يسعى إليهم بالهدى ، ودعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الله مع من دعى إليه فقتلوه ، فأدخله الجنة شهيداً ، فتمنى هذا الرجل أن يعلم قومه بمغفرة الله له وإكرامه مثواه، رحمة بهم وإشفاقًا عليهم ، ثم قتلوا الرسل على ما قيل ، فأهلكهم الله بالصيحة فكانوا حصيداً خامدين .

والقصة - كما هو ظاهر فى الآيات - تشتمل على كثير من اللطائف البلاغية

والإشارات العقلية التى يجد فيها المؤمن ما يجعله أشد تمسكًا بدينه وتعلقًا بربه ، وشغفًا بتلاوة كتابه وتطلعًا إلى فهم معانيه ومراميه ، ويجد فيها ما يحمله على الاستمرار فى الدعوة إلى الله عز وجل والدفاع عن دينه ، والتفانى فى مرضاته غير مبال بما يلقاه فى سبيل ذلك من عنت وتكذيب ، وصدود وإعراض ، وأذى يفقد فيه النفس والنفيس .

والمؤمن الحق يتعلم من هذه الآيات كثيرًا من الدروس الإيمانية والخلقية والاجتماعية ، ويتعلم طرق المحاجة والمجادلة بالتى هى أحسن من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل وهداية الخلق إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض .

* * *

قـــوم تبَّع

قوم تُبَّع : قبائل من قوم سبأ - وهم حمير - كانوا يسكنون اليمن وحضرموت .

وتُبَّع : لقب لمن يملك جميع بلاد اليمن - حمير ، وسبأ ، وحضرموت - فلا يطلق على الملك لقب تبع إلا إذا ملك هذه المواطن الثلاثة . قيل : سموه تبعًا باسم الظل ؛ لأنه يتبع الشمس [1] كما يتبع الظل الشمس . وقيل : سمى تبعًا لأن الملوك تتبعه وتخضع له .

والمراد بتُبَّع المذكور فى القرآن هو : المسمى « أسعد » والمكنى « أبا كرب » ، كان قد عظم سلطانه ، وغزا بلاد العــرب ، ودخل مكة ويثرب وبلغ العراق ، ويقال : إنه الذى بنى مدينة الحيرة فى العراق ، وكانت دولة تبع فى سنة ألف قبل البعثة المحمدية ، وقيل كانت فى حدود السبعمائة قبل بعثة النبى ﷺ ، وقد أهلك الله قوم تبع لما كذبوا الرسل ، وجعلهم لمن خلفهم آية ، وقد كانوا من قوم سبأ - كما ذكرنا - وقد ذكرهم الله فى سورة « الدخان » فقال : ﴿ أهم خيرٌ أم قومُ تُبَّعٍ والذين من قبلِهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرِمين ﴾ [2] .

وذكرهم فى سورة « ق » فقال عز من قائل : ﴿ كذَّبتْ قبلَهم قومُ نوحٍ وأصحابُ الرَّسِّ وثمودُ . وعادٌ وفرعونُ وإخوانُ لوطٍ . وأصحابُ الأيكةِ وقومُ تُبَّعٍ كلٌّ كَذَّبَ الرسلَ فحقَّ وَعِيدِ ﴾ [3] .

وتعليق الإهلاك بقوم تبع دونه يقتضى أن تبعًا نجا من هذا الإهلاك ، وأن الإهلاك سلط على قومه ، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : « ألا ترى أن الله ذمَّ قومه ولم يَذُمَّه ! » .

---

(١) أى كان يعبدها ، وكثير منهم كانوا يعبدون الشمس من دون الله ، كما دل عليه قوله تعالى فى سورة النمل : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله . . . » الآية .

(٢) سورة الدخان آية : ٣٧ . (٣) سورة ق آية : ١٢ - ١٤ .

والمروى عن النبى ﷺ فى مسند أحمد وغيره أنه قال : « لا تسبوا تبعًا فإنه كان قد أسلم » ، وفى رواية : « كان مؤمنًا » ، وفسره بعض العلماء بأنه كان على دين إبراهيم عليه السلام وأنه اهتدى إلى ذلك بصحبة حبرين من أحبار اليهود لقيهما بيثرب حين غزاها ، وذلك يقتضى نجاته من الإهلاك ، ولعل الله أهلك قومه بعد موته أو فى مغيبه .

ويذكر ابن إسحاق فى سيرته أنه لما هلك « ربيعة بن نصر » رجع مُلْكُ اليمن كله إلى حسان بن تبان أسعد [1] أبى كرب - وتبان أسعد هو تبع الآخر بن كلى كرب بن زيد ، وزيد هو تبع الأول بن عمرو ذى الأذعار .

وتبان أسعد أبو كرب الذى قدم المدينة ، وساق الحبرين من يهود المدينة إلى اليمن ، وعمَّر البيت الحرام وكساه .

وذكروا أنه لما ذكر له الحَبْران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجر نبى آخر الزمان اسمه أحمد ، قال : فى ذلك شعرًا واستودعه عند أهل المدينة ، وكانوا يتوارثونه خلفًا عن سلف . وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذى نزل رسول الله ﷺ فى داره . وهو :

شهـدت على أحـمد أنه ... رسـولٌ من الله بارِئ النَّسَمْ
فلو مُدَّ عمرى إلى عمـره ... لكـنت وزيرًا له وابنَ عمْ
وجاهدت بالسيـف أعداءه ... وفرَّجتُ عن صدره كُلَّ غَمْ

وذكر ابن أبى الدنيا أنه حفر قبر بصنعاء فى الإسلام فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين ، وعند رؤسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب « هذا قبر حبى ولميس- وروى : حبى وتماضر - ابنتى تبع ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئًا وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما » .

* * *

(١) تبان أسعد : اسمان جعلا اسمًا واحدًا كمعدى كرب ، وتبان من التبانة وهى الذكاء والفطنة .

أصحاب الرس

اختلف المفسرون فى تعيين أصحاب الرس ، واتفقوا على أن الرس بئر عظيمة ، أو حفير كبير ، فقيل هم أصحاب الأخدود ، وقيل : إنهم من بلاد اليمامة فى مكان يسمى « فلجأ » ، وقيل هم قوم من بقايا ثمود - وهو الراجح ؛ لأن الله ذكرهم مع ثمود فى سورة « الفرقان » ، وسورة « ق » ، فقال - جل شأنه - فى سورة « الفرقان » : ﴿ وعاداً وثموداً وأصحابَ الرَّسِّ وقُرُونًا بين ذلك كثيرًا . وكُلاً ضَرَبْنا له الأمثالَ وكُلاً تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ (١) .

وقال فى سورة « ق » : ﴿ كذَّبتْ قبلَهم قومُ نوحٍ وأصحابُ الرَّسِّ وثمودُ ﴾(٢) .

ويرجح أنهم قوم من بقايا ثمود - أيضًا - أن الله عز وجل لم يذكر قصتهم إلا عَرَضًا ، ولو كانوا قومًا آخرين ممن كذب الرسل ، وكان فى ذكر قصتهم موعظة أكثر مما ذكر لحدثنا بها .

فهم كقوم تبع الذين كانوا من قبائل سبأ فأغنى عن ذكرهم تفصيلاً ما ذكره الله عن سبأ ، والله أعلم .

* * *

---

(١) سورة الفرقان آية : ٣٨ - ٣٩ . (٢) سورة ق آية : ١٢ .

نبأ من أخلد إلى الأرض واتبع هواه

قال الله جل وعلا : ﴿ واتلُ عليهم نبأ الذى ءَاتيناه ءَاياتنا فانسَلَخَ منها فأَتْبَعَه الشيطانُ فكان من الغاوِينَ . ولو شِئْنَا لرفعْناه بها ولكنَّه أخلَدَ إلى الأرضِ واتَّبَعَ هواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلبِ إن تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلك مَثَلُ القومِ الذين كَذَّبوا بآياتِنا فاقْصُصِ القَصَصَ لعلَّهم يَتَفَكَّرُون . ساءَ مَثَلاً القومُ الذين كَذَّبوا بآياتِنا وأَنفُسَهم كانوا يَظلِمون ﴾ (١) .

هذا نبأ عظيم أمر اللهُ نبيَّه الكريم - عليه الصلاة والسلام - أن يتلوه على قومه من أهل مكة وعلى غيرهم ممن لقيهم فى مكة أو فى غيرها ؛ للعظة والاعتبار فى الأوقات التى تناسب ذكر هذا النبأ وتستدعيه الحال ويقتضيه المقام .

وهو نبأ من أسمعه الله آياته ، وأفهمه معانيها وعلَّمه مقاصدها ومراميها ، فانسلخ منها كما تنسلخ الحية من جلدها ، وأخلد إلى الأرض ، أى ركن إلى المادة التى خلق منها ، ومال مع الهوى حيث مال ، وأهمل غذاء الروح الذى حملته إليه هذه الآيات الربانية ، فكان من الغاوين الذين انصرفوا عن آخرتهم تمامًا إلى الدنيا ، فأعملوا جهدهم فى طلبها وجمع حطامها ، فكان حاله كحال الكلب فى أخس حالاته، وهى اللهث الدائم الذى لا ينقطع فى حال الخوف ولا فى حال الأمن .

ولكن من هو هذا الرجل الذى أمر النبى أن يتلو نبأه على أهل مكة وغيرهم على سبيل العظة والاعتبار .

هل هو « بلعام بن باعورة » ، أم هو « أمية بن أبى الصلت » ، أم هو « أبو عامر بن صيفى » ، أم هو رجل مجهول أبهمه القرآن لأنه لا يتعلق بذكر اسمه فائدة، أم ضُربت هذه الآيات مثلاً لمن سمع آيات الله تتلى عليه فنسيها وترك العمل بها ، فَضَلَّ وغوى واتَّبع الهوى وغرته الحياة الدنيا ؟! .

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٧٥ - ١٧٧ .

وقد نقل الطبرى وابن كثير والسيوطى وغيرهم من المفسرين والمؤرخين عن أهل الكتاب وغيرهم من القصاصين آثارًا نسبوها إلى بعض الصحابة والتابعين لم يصح منها شىء .

فقد روى عبد الرازق بسنده عن مسروق عن ابن مسعود ﷺ أنه « بلعم ابن أبر» .

وعن قتادة عن ابن عباس أنه « صيفى بن الراهب »، وعن العونى عن ابن عباس أيضًا أنه رجل من أهل اليمن يقال له « بلعم » آتاه الله آياته فتركها .

وقال مالك بن دينار : هو رجل كان من علماء بنى إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة يقدمونه فى الشدائد ، بعثه نبى الله موسى إلى ملك مدين يدعوه إلى الله ، فأعطاه رشوة فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام ، وقال عبد الله بن عمرو : هو « أمية بن أبى الصلت » .

وحيث إن الله عز وجل قد أبهم ذكر اسم هذا الرجل ، واكتفى بوصفه فلابد - فى نظرى - أن يكون هذا الرجل معروفًا عند قريش وثقيف وغيرهما من القبائل التى تقيم بالقرب من مكة والطائف والمدينة ، وهذا ما يرجح أنه « أمية بن أبى الصلت » ، فقد كان يعرف الكثير من أسفار التوراة والإنجيل ويعرف الكثير عن ملة إبراهيم عليه السلام ، وقد عرف من هذه الكتب السماوية أن نبيًّا سيبعث آخر الزمان، فطمع أن يكون هو ، ورفض عبادة الأصنام ، وحرم الخمر ، ونظم شعرًا يشيد فيه بالحنيفية السمحة ، ويروى أنه كانت له إلهامات ومكاشفات ، فلما بعث محمد ﷺ ، وبلغته دعوته ومعجزاته ، واستمع إلى ما أنزل إليه من القرآن أعرض عنه وركب رأسه ، واتخذ الشيطان رائده واتبع هواه ، فناصر المشركين وامتدحهم ، قَبَّحه الله وأخزاه .

وقد صحح ابن كثير وغيره نسبة هذا القول إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقال القرطبى فى تفسيره : هو الأشهر .

ويحتمل أن يكون هذا الرجل هو أبو عامر « النعمان بن صيفى » الخزرجى

الراهب ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ولبس المسوح التى يلبسها الرهبان ، وزعم أنه على الحنيفية السمحة ، فلما قدم النبى ﷺ المدينة دخل عليه ، فقال : يا محمد ما الذى جئت به ؟، قال : « جئت بالحنيفية دين إبراهيم » ، قال : فإنى عليها ، قال النبى : « لست عليها لأنك ادخلت فيها ما ليس منها » ، فكفر ، وخرج إلى مكة يحرض المشركين على قتال النبى ﷺ ، وقد قاتل معهم فى غزوة حنين ، فلما انهزمت هوازن يئس من محاربة دين الإسلام ، فخرج إلى الشام ومات هناك .

ويحتمل أن يكون المراد بمن وصف فى هذه الآيات « الوليد بن المغيرة » فقد أسمعه النبى ﷺ أوائل سورة فصلت فاهتز من وقع القرآن عليه ، فلما انتهى النبى ﷺ إلى قوله جلا وعلا : ﴿ فإن أعرَضوا فقلْ أنذرتُكم صاعقةً مِثلَ صاعقةَ عادٍ وثمودَ ﴾ [1] ، قال : أَمْسكْ ، خوفًا من أن تنزل عليه صاعقة ، وذهب إلى بيته والإيمان منه على شفا جرف ، فعاب عليه أبناؤه تغير حاله وانكساف باله وإعراضه عنهم بوجهه وقلبه ، فأخبرهم بما سمع وقال فيما قال : لقد سمعت اليوم من محمد كلامًا ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا هو من قول البشر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق [2] وإنه يعلو ولا يُعلى عليه ، ثم ما لبث أن أغراه شيطان العرب أبو جهل فقام معه إلى الصفـا وأعلن أنه ما آمن بمحمد ولا اتبعه ولا صدقه فى شىء ، وقال فى القرآن قولاً شنيعًا بعد أن أظهر الكآبة والعبوس ، إمعانًا فى التكذيب ، ومبالغة فى إظهار عداوته للقرآن ومن أُنزِل عليه القرآن .

وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ ذرنِى ومن خلقتُ وحيدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ سأُصلِيه سَقَرَ .وما أدراكَ ما سَقَرُ . لا تُبقِى ولا تَذَرُ . لَوَّاحةٌ للبشرِ . عليها تسعةَ عَشَرَ ﴾ [3] .

أليس هذا الرجل هو الأولى بهذا الوصف الذى حملته آيات الأعراف .

وهذا القول لم أجده إلا فى التفسير القرآنى للقرآن للشيخ عبد الكريم الخطيب .

---

(١) سورة فصلت آية : ١٣ . (٢) مثمر كثير النفع .
(٣) سورة المدثر آية : ١١ - ٣٠ .

وقد مال الشيخ رشيد رضا إلى القول بأن هذه الآيات مثلٌ ضربه الله للعظة والاعتبار بحال رجلٍ صفته ما ذُكر ، فقال رحمه الله فى تفسيره : « هذا مثل ضربه الله تعالى للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله ﷺ ، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالمًا بها حافظًا لقواعدها وأحكامها ، قادرًا على بيانها والجدل بها ، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم ، بل كان عمله مخالفًا تمام المخالفة لعلمه ، فسلب هذه الآيات؛ لأن العلم الذى لا يُعمل به لا يلبث أن يزول ، فأشبه الحيَّةَ التى تنسلخ من جلدها ، وتخرج منه وتتركه على الأرض ، أو كان فى التباين بين علمه وعمله كالمنسلخ من العلم التارك له كالثوب الخَلِق يلقيه صاحبه ، والثعبان يتجرد من جلده حتى لا تبقى له به صلة على حد قول الشاعر :

خُلقــوا ، وما خُلقوا لمكْـرمةٍ   فكأنّهم خُلقوا وما خُلقوا !

رُزقوا ، وما رُزقوا سَمَاحَ يدٍ   فكأنهــم رُزقوا وما رُزقوا !

فحاصل معنى المثل : أن المكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله مع إيضاحها بالحجج والدلائل كالعالم الذى حُرم ثمرة الانتفاع من علمه ؛ لأن كلاً منهما لم ينظر فى الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص » .

والأصح - والله أعلم - أن هذه الآيات ليست مثلاً مضروبًا لكل من كانت هذه حاله كما ذكر صاحب المنار وغيره ، ولكنها آيات تحكى قصة وقعت لرجل ما ، فى زمان ما ، فى مكان ما . بدليل أن الله عز وجل قال فى أواخر هذه الآيات : ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ .

وقد سمى الله خبره فى أولها نبأ . والنبأ : هو الخبر العظيم الفائدة ، وقد رأينا كثيراً من قصص القرآن قد سماه الله نبأ .

كقوله تعالى : ﴿ واتل عليه نبأ ابنى آدم بالحق ﴾ ، وقوله : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح ﴾ وقوله : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ ، وقوله عن أصحاب الكهف : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ ، وقوله بعد قصة زكريا ويحيى ومريم : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ وكذلك فى آخر قصة يوسف .

وحيث اعتبرنا ما فى هذه الآيات التى ندندن حولها قصة ، ولم نعرف على وجه التحديد من صاحبها جاز لنا أن نطلقها على هؤلاء الأربعة - الذين سبق ذكرهم - ومن هو على شاكلتهم ممن أحيط به النبى ﷺ خُبْرًا ٠

ولعل هذا هو السر فى إبهام صاحب هذه القصة ، فالإبهام يدل على أنها لم تقع لواحد بعينه ، ولكنها وقعت لأناس تشابهت قلوبهم فى الغى والضلال ، أَطْلَعَ الله نبيه على جَلَيَّة أمرهم ، وسوء صنيعهم ، وأمره أن يقص على أهل مكة وغيرهم شيئًا من أخبارهم للعظة والاعتبار ٠

* * *

أصحاب الفيل

امتنَّ الله على نبيه ، محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - بما فعله بأصحاب الفيل ، صيانة للبيت الحرام الذى جعله الله قبلة له ولأبيه إبراهيم عليه السلام ، وإرهاصًا لنبوته فقال جل شأنه : ﴿ أَلَم تَرَ كيفَ فَعَلَ ربُّك بأصحابِ الفيلِ · أَلَم يجعلْ كيدَهم فى تَضليلٍ · وأرسلَ عليهم طَيْرًا أَبَابيلَ · تَرميهِم بحِجَارةٍ من سِجِّيلٍ · فجعلَهم كَعَصْفٍ مأكولٍ ﴾ ·

ولقد كان هلاك أصحاب الفيل نعمة من نعم الله الكبرى على قريش ؛ فقد صان الله بيته الحرام من شرهم وأبادهم عن آخرهم ، فأكْبَرَ العربُ قريشًا ، وعظُم شأنهم عند كبيرهم وصغيرهم ، ولقى أهل مكة من قاصيهم ودانيهم ترحيبًا وإكرامًا وتقديرًا فى أى مكان حلوا فيه ·

وكان حادث الفيل فى العام الذى ولد فيه محمد ﷺ فقد كان هلاكهم - كما يقول « محمد الطاهر بن عاشور » فى تفسيره - فى شهر المحرم الموافق لشهر فبراير سنة ٥٧٠ بعد الميلاد ، وبعد هذا الحادث بخمسين يومًا وُلد النبى ﷺ على أصح الأخبار ·

ولقد كانت هذه الحادثة التى سجلها القرآن فى هذه السورة تذكيرًا لقريش بهذا النبى العظيم الذى أخبرهم أهل الكتاب بزمن مولده وزمن بعثته ، وحدثوهم عن نعوته وأخلاقه ومنهجه فى دعوته إلى الله ، فأرَّخُوا لمولده بعام الفيل ولم يعرفوا أنه النبى المنتظر ؛ وذلك لأن الرسول ﷺ قد ولد يتيمًا فكلفه جده عبد المطلب سيد قريش ، فارتبطت ولادته بحادثة الفيل ؛ لأنه ابن سيدهم أولاً ، ولأن جده كان له فضل كبير فى حمايتهم من بطش أبرهة الأشرم وجيشه ؛ إذ أمرهم أن يتحصنوا منه فى شعاب الجبال ، ويتركوا مكة يحرسها الله عز وجل ويحمى بيته بقدرته - كما سيأتى بيانه ·

فكان مولد النبى ﷺ هلالَ بِشْر ، ومَطْلَعَ خير على أهل مكة بوجه خاص وعلى العالم كله بوجه عام .

وقد أوجز « ابن كثير » قصتهم فى تفسيره ، فذكر أن « ذا نواس » لما قتل أصحاب الأخدود - وكانوا نصارى - لم يفلت منهم إلا « دوس ذو ثعلبان » ، فاستغاث بقيصر ملك الروم - وكان نصرانيًا أيضًا - فكتب له إلى النجاشى ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين ، أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم، فى جيش كثيف فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار واستلبوا الملك من حمير ، وهلك ذو نواس غريقًا فى البحر ، واستقل الحبشة بمُلْك اليمن وعليهم هذان الأميران- أرياط وأبرهه - فاختلفا فى أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا ، ولكن أبرز إلىَّ وأبرز إليك فأينا قتل صاحبه استقلَّ بعده بالملك ، فأجابه إلى ذلك ، فتبارزا ، وخلف كل واحد منهما قناه، فحمل أرياط على أبرهه فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل «عَتَوْدة » مولى أبرهة على أرياط فقتله ، ورجع أبرهة جريحًا فداوى جرحه فبرأ واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن ، فكتب إليه النجاشى يلومه على ذلك ويتوعده ، ويحلف ليطأن بلاده ويجزنَّ ناصيته ، فأرسل إليه أبرهه يترفق له ويصانعه وبعث مع رسوله بهدايا وتحف ، وبجراب من تراب اليمن ، وجَزَّ ناصيته فأرسلها معه، ويقول فى كتابه : ليطأن الملك على هذا الجراب فيبر قسمه ، وهذه ناصيتى قد بعثت بها إليك ، فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ورضى عنه وأقره على عمله ، وأرسل أبرهة يقول للنجاشى : إنى سأبنى لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلُها . فشرْع فى بناء كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء ، عالية الفناء ، مزخرفة الأرجاء : سمتها العرب «القُلَّيس » لارتفاعها ؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك فى مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا . حتى قصدها بعضهم ، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً فأحدث فيها [1] وكَرَّ راجعًا ، فلما رأى السَّدَنَةُ ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم

---

(١) تبرز وتبول .

أبرهة ، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضبًا لبيتهم الذي ضاهيت هذا به ، فأقسم أبرهه ليصيرنَّ إلى مكة وليخربنَّ بيتها حجرًا حجرًا .

فتأهب أبرهة لذلك ، وصار فى جيش كثيف عرمرم ؛ لئلا يصده أحد عنه واستصحب معه فيلاً عظيمًا كبير الجثة لم ير مثله ، يقال له : محمود - وكان قد بعثه إليه النجاشى ملك الحبشة لذلك - وقيل : كان معه ثمانية أفيال ، وقيل : اثنا عشر فيلاً ، وقيل غير ذلك .

فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جدًا ، ورأوا أن حقًا عليهم المحاجبة دون البيت ورد من أراده بكيد ، فخرج إليه رجل من أشراف اليمن وملوكهم يقال له: « ذو نفر » ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهه وجهاده عن بيت الله وما يريده من هدمه وخرابه ، فأجابوه ، وقاتلوا أبرهة فهزمهم وأُسر « ذو نفر » فاستصحبه معه ، ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض « خثعم » عرض له «نفيل بن حبيب الخثعمى » فى قومه فقاتلوه فهزمهم أبرهة ، وأسر « نفيل بن حبيب» فأراد قتله ثم عفا عنه واستصحبه معه ليدله فى بلاد الحجاز ، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم « اللات » فأكرمهم وبعثوا معه « أبو رُغالِ » دليلاً .

فلما انتهى أبرهة إلى « المغمس » - وهو قريب من مكة - نزل به ، وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه ، وكان فى السرح مائتا بعير لعبد المطلب ، وبعث أبرهة « حناطة الحميرى » إلى مكة وأمره أن يأتيه بأشرف قريش ، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت .

فجاء « حناطة » فدلَّ على عبد المطلب بن هاشم وبلَّغه عن أبرهة ما قال ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، ومالنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخلى بينه وبينه فو الله ما عندنا دفع عنه ، فقال له حناطة : فاذهب معى إليه . فذهب معه ، فلما رآه أبرهة أجلَّه- وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر - ونزل أبرهة من سريره وجلس

معه على البساط، وقال لترجمانه : قل له حاجتك ؟، فقال للترجمان : إن حاجتى أن يرد علىَّ الملك مائتى بعير أصابها لى . فقال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتك ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك ؟، فقال عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربًا سيمنعه ، قال : ما كان ليمتنع منى ، قال : أنت وذاك .

ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة ، والتحصن فى رؤس الجبال تخوفًا عليهم من مَعَرَّة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحَلْقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهم إن المـــــرء يمـ ـنع رَحْله فامنع حِلالك [١]

لا يَغلبنَّ صليبُهـــــم ومِحالهم غـدوا مِحالك [٢]

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله وعبأ جيشه ، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل « نفيل بن حبيب » حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه ، وقال : « ابرك محمودًا ، أو ارجع راشدًا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام » . ثم أرسل أذنه فبرك الفيل ، وخرج « نفيل بن حبيب » يشتد حتى أصعد فى الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا فى رأسه بالطبرزين [٣] وأدخلوا محاجن لهم فى مراقه فبزغوه [٤] بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك ، وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف [٥] والبلسان مع كل طائر

---

(١) الحلال - بكسر الحاء - القوم المقيمون المتجاورون ، يريد بهم سكان الحرم .

(٢) المحال - بكسر الميم : القوة والشدة . والغدو : هو الغد ، فحذفت لامه - وهى الواو - ولم يستعمل تامًا إلا فى الشعر . أفاده ابن الأثير . وزاد الواقدى بيتًا آخر هو :

إن كنت تاركهم وقبـ ـلتنا فأمرٌ ما بدالك

(٣) الطبرزين : آلة معقفة من حديد . (٤) مراقه : أسفل بطنه ، بزغوه : أدموه .

(٥) الخطاطيف جمع خُطَّاف - كرُمَّان -. وهو طائر أسود ، وهو الذى تدعوه العامة عصفور الجنة ، والبلسان كذلك .

منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق ، ويسألون عن « نفيل » ليدلهم على الطريق - و« نفيل » على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز، ينظرون ما أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة والعذاب - فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون على كل منهل ، وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط جسده أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه كما يزعمون .

وقد صنع الله بجيش أبرهة ما صنع وحمى بيته الحرام بقدرته - وهو الغالب على أمره - فكان ذلك من أجل النعم على قريش وسائر ، العرب - كما ذكرنا .

* * *



محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع : ٢٥٨٤ / ٩٨
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977-295-033



هذا الكتاب

القصص القرآني أسلوب حكيم معجز وهو مرآة تعكس لأهل كل عصر ما وقع فى العصور الخالية من صراع بين الخير والشر، وهو منهج تربوي يقوم على أسس عقدية وأخلاقية وقد دار الكتاب حول القصة فى القرآن وفيه يكشف المؤلف عن مواطن العبر والعظات فيها بما يفيد القارئ فى الدنيا والآخرة.

وحرص المؤلف على أن يكون الأسلوب العرضي سهلاً جزلاً رائقاً، من غير تكلف ولا تقعر معتمداً على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ضارباً صفحاً عن الإسرائيليات وأقوال القصاصين التي ليس لها سند صحيح.

ونرجو من الله العلي القدير أن ينفعنا بهذا الكتاب

والله الموفق

الناشر

